جمهورية مصر العربية
وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة (٧٦٧)

SADAT ASSASSINATION!

A DETAILED ACCOUNT OF THE EVENTS LEADING TO THE TRAGIC ASSASSINATION OF EGYPTIAN PRESIDENT ANWAR SADAT INCLUDING HISTORIC PHOTOGRAPHS

FLIGHT INTO EGYPT

EXPLORES THE PROFOUND MEANING OF THE HISTORIC EGYPTIAN-ISRAELI PEACE ACCORD



AMOS ELON

A Leading Israeli Journalist

منى ناصف

رحلة إلى مصر

بقلم: عاموس إيلون

جمهورية مصر العربية
وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة (٧٦٢)

رحلة إلى مصر

تأليف : عاموس إيلون

تم تأليف كتاب « رحلة الى مصر » أصلا فى عام ١٩٨٠ لدراسة التأثير العميق لاتفاق السلام المصرى ـ الاسرائيلى التاريخى . والآن ، ونظرا لطبيعة الاحداث فى العالم ، اضاف مؤلف الكتاب الى النص الاصلى تفسيره الدقيق لعملية اغتيال السادات ، مع ملحق يتضمن صورا مثيرة .

الناشــــرون

إهـــــــداء

إلى داناى

شكر وتقدير

ان مؤلف هذا الكتاب مدين بالشكر للبروفسور شيمون شامير Shimon Shamir الأستاذ بمعهد شيلوح Shiloah للدراسات الافريقية الآسيوية بجامعة تل ابيب ، وذلك لما أسدى اليه من نصيحة لا تقدر ، ولما قدمه له من تراجم لبعض النصوص المصرية التى استشهد بها فى هذا الكتاب .

وانه مدين ايضا بالامتنان للناشر فيبرآند فيبر ليمتد — Faber and Faber Ltd. وشركة هاركوت بريس جوفانوفيتش Har Court Brace Jovanovich ، اللذين أتاحا له فرصة اعادة طبع بعض السطور من « أغنية الحب » لجى الفريد بروفروك — The love Song of J. Alferd Prufrok من مجموعة قصائد تى. أس. اليوت T. S. Eliot التى صدرت ما بين عامى ١٩٠٩ — ١٩٦٢ .

« وقد تختلف هذه الحكايات عن التاريخ اختلافا كثيرا ، فالانسان يقرأ فى التاريخ عادة ان الملك الفلانى ارسل القائد الفلانى الى هذه الحرب أو تلك ، وانه فى مثل هذا اليوم أو ذاك شنوا حربا أو ابرموا صلحا ، وأن هذا هزم ذاك ، أو ذاك هزم هذا ، ثم مضى الى مكان آخر . لكنى انما أدون ما هو جدير بالتسجيل » .

أبو الفضل البيهقى

مؤرخ

(٩٩٥ — ١٠٧٧) ميلادية

من كتاب « طريق البيهقى »

نبذة عن المؤلف

كان آموس الون Amos Elon ـ وهـو يعتبر من اشهر الـكتاب الاسرائيليين ـ جنديا فى حرب ١٩٤٨ ـ ومنذ ذلك الحين يقوم ـ بوصفه محررا لعمود خـاص فى صحيفـة « هآرتس Haaretz » اليومية الاسرائيلية الليبرالية ـ بتغطية الأحداث الهامة فى الحيـاة الاسرائيلية ، وكان يعمـل مراسلا للشئون الخارجية فى كل من واشنطن وباريس وبون وتضم مؤلفاته هيرتزل Herzl (ترجمة حياته)، بين الأعداء:حوارحار بين اسرائيلى وعربية Between Enemies; Acompassionate Dialogue Between an Israeli and an Arab. Journey Through a Haunted land : the New Germany

بالاشتراك مع سناء حسن Sana Hassan، رحلة الى أرض الأشباح : المانيا الجديدة، والكتاب الأكثر رواجا وهو: المؤسسون والأبناء Founders and Sons وقد نشرت مؤسسة دبل داى Double day روايته الأولى وهى بعنوان : الجدول الزمنى Time Table هذا ويعيش مستر الون فى القدس مع زوجته الأمريكية .

اكتوبر ١٩٨١

فى السادس من اكتوبر سنة ١٩٨١ ، تصادف اننى كنت اجلس فى مكتبى فى القدس اطلع على مقتطفات ادبية مختارة جديدة من القصص المصرية القصيرة التى قام ساسون سوميخ Sasson Somekh بترجمتها ، والتى كان قد ارسلها الى لتوه . واثناء ذلك دخل الى مكتبى أحد الزملاء وقال لى ، مترددا بعض الشىء ، ان الرئيس السادات قد تم اغتياله فى القاهرة بعد ان اطلق عليه النار احد جنوده خلال احد الاستعراضات العسكرية فى القاهرة .

وقال لى : « اتصدق ما حدث ؟ يبدو ان بعض الأشخاص الذين كانوا يستقلون احدى الدبابات فى الاستعراض قد صوبوا بنادقهم نحوه واطلقوا النيران نحو المنصة » .

ولوهلة ، اعتقدت ان هذه الحكاية ضرب من ضروب المزاح المفزع الذى يمكن ان يتردد فى المكاتب . ثم أدركت انها لا يمكن أن تكون مزاحا . وتجمعنا حول احد الراديوهات الترانزستور نستمع الى الأنباء .

هل هذه هى بداية النهاية للسلام ؟ الطلقة الأولى للحرب القادمة ؟ وكانت الأنباء مشوشة ومروعة . وقيل ان السادات قد تم نقله بوساطة طائرة هليوكوبتر الى مستشفى قريب ، غير انه لم يصدر أى بيان عن كونه قد مات أو كونه مازال على قيد الحياة . وكان من المؤكد أنه أصيب اصابة خطيرة ، ربما اصابة قاتلة . وكان راديو القاهرة يذيع السلام الوطنى ، فى الوقت الذى كان فيه راديو القدس يقوم باعادة اذاعة كل اشاعة مسعورة وتكهن يردده السياسيون والمعلقون فى جميع انحاء العالم . وقيل ان الليبيين او السوفييت أو الفلسطينيين او العراقيين كانوا وراء محاولة اغتيال السادات . وقد كان الجيش هو الدعامة الأساسية لقوته . هل تمرد الجيش ضده ؟ واعلن المذيع فى راديو عمان ، فى محطة الاذاعة الأردنية التى تسيطر عليها الحكومة ، اعلن بلهجة رزينة ، « هذه هى نهاية اتفاقيات كامب ديفيد »، وعندئذ قال ، فى لهجة أكثر حماسا : « ان السفير الاسرائيلى فى القاهرة يقوم بحزم حقائبه ويستعد للعودة الى بلاده » .

وقال راديو دمشق ، « لقد مات الخائن » . وحتى الساعة الخامسة بعد الظهر ، لم تصدر اى نشرة عن المستشفى . وكان راديو القاهرة يذيع الاغانى الوطنية . وقيل ان بعض الشخصيات المصرية الكبيرة الأخرى قد

لقيت حتفها وجرح آخرون . ولم يدرك احد بعد ، هل هذا الهجوم جزء من انقلاب مدبر .

وفى الساعة السادسة مساء صدر البيان الذى جاء فيه : ان السادات قد مات . ووقفنا صامتين . وتوجهت الى منزلى بمفردى واخترقت الشوارع المظلمة بسرعة . فليس هناك غسق فى هذه المدينة ، اذ يأتى الليل فجأة بعد النهار .. وكانت الحديقة العامة فى الوادى المليء بالاشجار المجاورة لمنزلى مهجورة تماما ، ولكن لسبب ما ، كان نصب الحرب على الجانب الآخر من الوادى كان مضاء بأنوار ساطعة ومن خلال نافذة مفتوحة فى أحد المنازل القريبة سمعت أنباء أخرى يذيعها الراديو . فقد كان المذيع ينقل تصريحات العقيد الليبى معمر القذافى وياسر عرفات رئيس منظمة تحرير فلسطين وهما يهنئان القاتل .. ونقل عن عرفات قوله « اننى اشد على يده » .

فى الشرق الأوسط ــ صانعو السلام ملعونون . لقد سألت كل شخص قابلته فى مصر ، هل السلام متوقف على رجل واحد أم لا ؟ غير ان الغالبية ردت على مؤكدة نفس الاجابة : كلا . وأكد لى البعض انه بكسر دائرة العنف غير النهائية ، وبتحقيق سلام رسمى مع اسرائيل بعد ثلاثين عاما من الحروب ، كان السادات يسير خلف الشعب المصرى ، ولا يقوده الى أى مدى كان الفارق مهما ؟ ذلك ما كنت أطرحه بصوت عال من منطلق حقيقة ان الصحافة فى مصر ، وفى ظل الحكم الاستبدادى للسادات ، كانت مكبلة ، وان الرأى العام كان مسألة لا تلقى اى اهتمام وكان يقال لى ان الدكتاتور نفسه لا يستطيع ان يحكم وحده .

وقد أكد لى كل فرد قابلته تقريبا أن مصر قد سئمت الحرب ، وانها فى شوق لأن تجد نفسها مرة أخرى ، وتعيد اكتشاف شخصيتها الحقيقية ، التى كانت قد تلاشت فى غيابات القومية العربية أيام عبد الناصر .. انها تواقة الى ان تنصرف الى نشاطاتها الفعلية ، المشاكل الداخلية ــ الفقر ، والجهل ، والجوع ، والمرض ، الخرافات ، والتخلف المنتشر فى الريف،وزيادة السكان ، والفساد ، والافتقار الى الكفاءة فى الصناعة ، وسوء الادارة، ومع ذلك فان مأساة رئاسة السادات هى فشل سياسته الداخلية . فانه لم يبدأ على الاطلاق فى الاجابة على العديد من التوقعات الحقيقية لحياة أفضل يمكن تحقيقها بين المصريين نتيجة لاقرار سلام مفاجىء مع اسرائيل . ربما كانت المشاكل الداخلية ضخمة الى حد كبير . من المؤكد أنها كانت ساحقة .

لقد جعلنى ادرك مدى هذه المشاكل الكاسحة ، وبصورة مثيرة ، صديق مصرى اسمه الدكتور محمد محفوظ ، قبل وفاة السادات ببضعة شهور قليلة . فقد كان الدكتور محفوظ ــ وهو أحد كبار الأطباء المصريين ووزير صحة سابق ــ يزور القدس مع بعض أعضاء البرلمان المصرى . وفى عصر يوم من الأيام كنا نجلس معا فى واحد من المطاعم يقع فى أعلى بناية ويطل على حائط المدينة القديمة ، ويوجد ناحية الجنوب بعض الأحيــاء السكنية الجديدة المنتشرة على التلال فى اتجاه بيت لحم . أخذ محفوظ يحملق فى هذا المنظر الجميل وسألنى كم عدد السكان الذين يقطنون تلك المنطقة ، فأجبته

قائلا : ان عددهم يصل تقريبا الى ١٠٠,٠٠٠ نسمة وربما ١٢٠,٠٠٠ نسمة. فاوما برأسه وهو حزين وقال ، « دعنا نقارن هذا المنظر بنظير له فى القاهرة ــ على سبيل المثال برج الأهرام . هناك تستطيع ان تنظر على منطقة بنفس الحجم ولكنها مكتظة بسكان يصل عددهم الى ثمانية ملايين نسمة ، أكثر من عدد سكان شعب اسرائيل بأكمله ، أكثر من الفلسطينيين كلهم ، اينما كانوا . وكان توفيق الحكيم قد ذكر انه بالأموال التى انفقتها مصر على الحرب على مدار السنين ، كان يمكن اعادة بناء كل قرية مصرية أو نصف القاهرة . وكنت أفكر باعجاب شديد فيما قاله توفيق الحكيم وأنا فى الطريق الى منزلى ذلك المساء . فقد كنت قد تلقيت منــه منذ أيام قليلة ما يفيد بأنه قد قرأ كتابى هذا « ولم تخل القراءة من متعة » . وأعرب عن رغبته فى ان تتم ترجمته الى العربية على الفور ، بالرغم من انه لم يكن يأمل كثيرا فى ان يتحقق ذلك . فقد حصل على نسخة منه بينما كان فى زيارة لباريس . وقال ان هذا الكتاب غير موجود فى مصر . وكنت أفكر فيه وفى غيره من المصريين الذين قابلتهم منذ ذلك الحين ، بعضهم فى اسرائيل والبعض الآخر فى زيارة أخرى لمصر تمت بها مؤخرا .

وذكر لى أحد كبار السياسيين وواحد من أقرب المساعدين للسادات عندما كنت اودعه ، « أولا وقبل كل شىء لا تقلق . طالما ان السادات موجود، كل شىء سيكون على ما يرام . ولهذا ينبغى علينا جميعا ان نحاول تقديم المساعدة له ــ اسرائيل ، أيضا ، ينبغى عليها أن تحاول أن تقدم المزيد من المساعدات له » .

« كيــف ؟ » .

بأن تمتنع عن اثارة اى استفزازات لا داعى لها ، مثل اقامة مستوطنات فى الأراضى المحتلة أو قيامها بشن هجمات جوية جزافا ، على لبنان .

وتساءلت « واذا مات السادات ؟ » ..

قال « سيظل السلام قائما » ..

« حقيقة ؟ » ..

« نعم ، ولكنه سيكون سلاما من نوع آخر » ..

« كيف سيكون هذا الاختلاف ؟ » ..

« سيزول الوهج بزواله ، ستزول القدرة على التصور .. شعوره بالخيال ، احساسه الفريد بالتاريخ ، كل هذا سيكون قد ولى ، ولكن كما فعل السادات ، فان خليفته سوف يدرك انه لصــالح مصر ان تعيش فى سلام مع اسرائيل » .

ان هذا الكلام يثير الآن قلقى وانزعاجى . فكل فرد عاقل يرى انه من المصلحة القومية لكل من مصر واسرائيل ان يعيش فى سلام . ومع ذلك ، وخلال الصراع الاسرائيلى ــ العربى المتشابك البائس ، بالرغم من تكراره،

ومدى قدمه ، والأسى الذى لا حد له ، وعدم وجود حل واضح له ، لم يوجد زعيم عربى قبل السادات رأى « المصلحة القومية » على هذا الضوء . وإذا لم يرتكب الجنرالات والساسة أخطاء قط ، فلن يخسر أى شخص أى حرب على الاطلاق .

لقد تم اغتيال الرئيس السادات بواسطة المسلمين الأصوليين ليس فقط لأنه تصالح مع اعداء الله ، فيما يبدو ، وانما اغتيل أساسا فيما يبدو ، لأنه رفض العودة الى الاسلام بشكله الخالص . فقد رفض وقف التصنيع والتعليم الحديث ، والأخذ بأسلوب الغرب بوجه عام ، ورفض العودة بمصر الى الوراء ، الى العصور المظلمة ، مثلما فعل الخمينى وآيات الله فى ايران. فقد كان السادات ، الذى اثبت انه مسلم ورع ، يعارض بعنف كل المحاولات الخاصة باضفاء الصفة السياسية على الاسلام ، ويسخر من المتعصبين ويصفهم بأنهم عصابة من الأغبياء ، أو بالخونة الذين يخفون وجوههم الحقيقة (الشيوعية) وراء لحى ورعة . وربما كان بهذا الأسلوب الذى اتبعه مسرفا فى الثقة بنفسه . ولم يتسبب اغتياله فى وقوع انقلاب ، والتعصب الاسلامى باعتباره حركة جماهيرية حديثة — ولد فى مصر فى عام ١٩٢٨ ، ومن هناك انتشرت رسالته حتى وصلت الى جيرانه من الدول العربية الأخرى . ولقد ترك السادات لخليفته أخطر ميراث ، الا وهو التعصب الدينى .

ان للخوف عيونا كثيرة تستطيع أن ترى الأشياء الخفية . ففى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، عبر التليفزيون الاسرائيلى من جديد وبطريقة حية، عن المخاوف الساكنة فى اعماق المجتمع الاسرائيلى ، ولكنها فى ايام كهذه تبرز بقوة . لقد تم عرض مشاهد مؤثرة فى الماضى — وصول السادات الى مطار بن جوريون فى عام ١٩٧٧ ، والكلمة التى القاها فى الكنيسيت ، وتوقيع معاهدة السلام فى واشنطن ، وصوت السادات وهو يقول « لا حرب بعد اليوم ، لا حرب بعد اليوم » .

ما الذى حدث لأنور السادات ؟ لقد قابلته مرة واحدة ، ولكننى ادركت فجأة انه اقرب الى مما كنت اتصور . ان الخاسرين يثيرون مشاعرنا ، واننا لنتذكرهم لأنهم يحركون مواجعنا . ولم يصف (اسبنوزا Spinoza) السلام على انه مجرد عدم وجود حرب ، ولكنه وصفه على انه فضيلة كبرى نابعة عن الشجاعة .لقد كان السادات يتمتع بتلك الصفة الا وهى الشجاعة.

أنور السادات مع شاه ايران السابق بعد أن منحه السادات حق اللجوء السياسى والعلاج فى مصر





الرئيس السادات والزعيم الليبى معمر القذافى فى عام ١٩٧٣ ، عندما كان الرئيسان يجريان مفاوضات حول امكانية اقامة وحدة اندماجية بين مصر وليبيا



الرئيس الأمريكى جيمى كارتر وهو يشهد التوقيع التاريخى على معاهدة الســلام المصرية الاسرائيلية



لحظة سعيدة فى الحديقة الشمالية للبيت الأبيض الأمريكى بعد توقيع معاهدة السلام الخاصة بالشرق الأوسط (وكالة الصحافة الدولية المتحدة ســنة ١٩٧٩) .



مناحم بيجين رئيس وزراء اسرائيل وهو يرحب بالسادات اثناء زيارته لاسرائيل فى عـــام ١٩٧٩ (وكالة الصحافة الدولية المتحدة)



الرئيس السوفيتى ليونيد بريجنيف وهو يرحب بالقذافى فى مطار موسكو فى زيارة رســمية اخيرة قام بها الزعيم الليبى . (وكالة الصحافة الدولية المتحدة ، عام ١٩٨١)



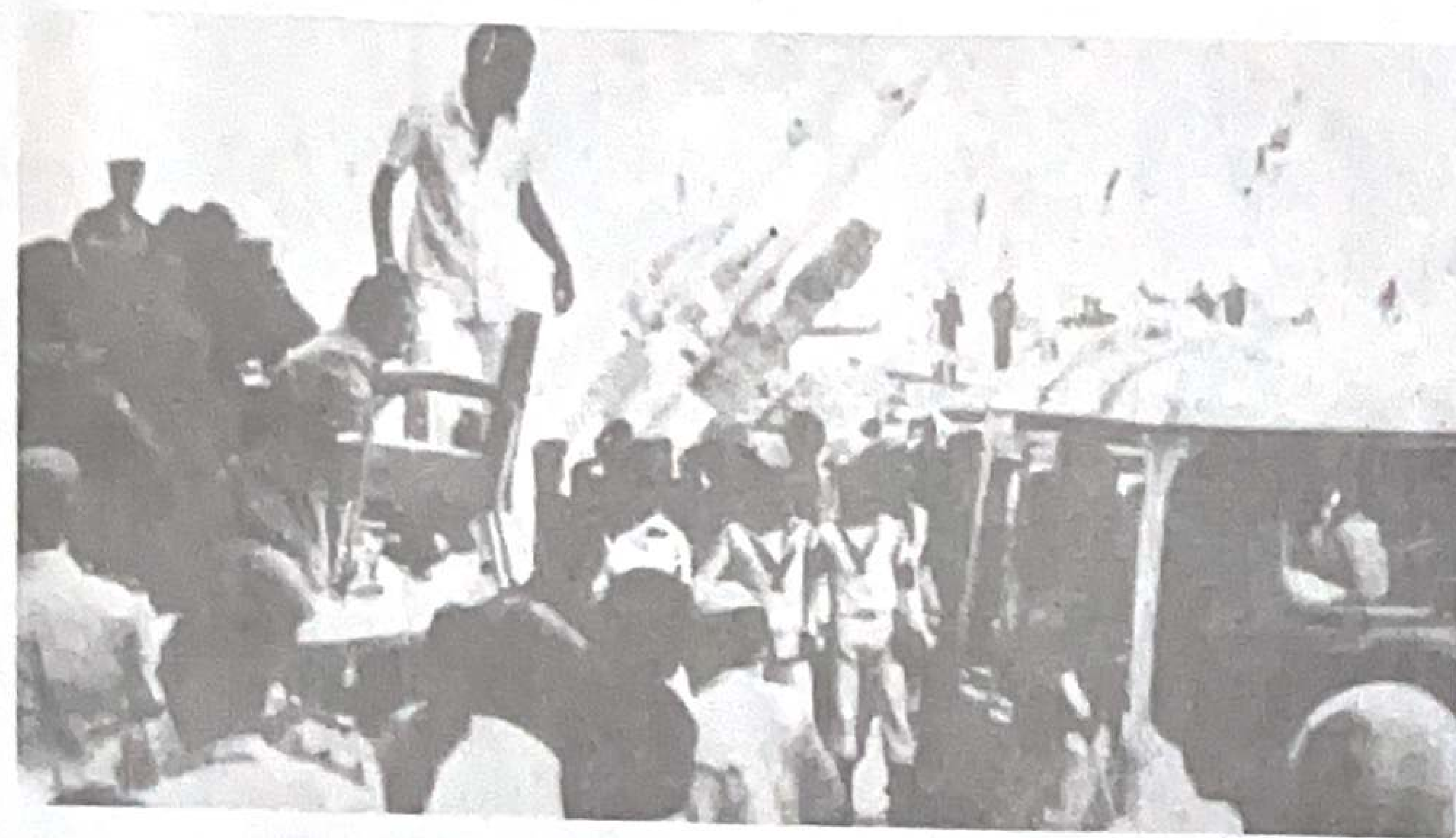
السادات والرئيس الأمريكى رونالد ريجان وهما يغادران معا البيت الأبيض بعد محادثات اخيرة تتعلق بالموقف الأمريكى ازاء منظمة التحرير الفلسطينية . (وكالة الصحافة الدولية المتحدة ، عام ١٩٨١)



٦ اكتوبر سنة ١٩٨١ رجل غير معروفة شخصيته باللباس العسكرى المصرى يطلق مدفعه الرشاش من قرب نحو منصة العرض



رجل يتفادى الهجوم على السادات بالقنابل اليدوية والمدافع الرشاشة ويشاهد عند كتفه الأيسر احد المسلمين ببندقية وهو يطلق نيرانها صوب منصة العرض التى لقى فيها السادات حتفه . (وكالة الصحافة الدولية)



مسرح الاغتيال بعد عملية اطلاق النار مباشرة ، حيث وصلت سيارات الاسعاف لنقل الجرحى ، والقوات المصرية تحاصر المنطقة . (وايد ويرلد فوتوز)

احد حرس الامن المصريين وهو يوجه رجال الاسعاف وهم يحملون النقالة الى منصة العرض بعد حادث الاعتداء على الســادات مباشرة (وايد ويرلد فوتوز)





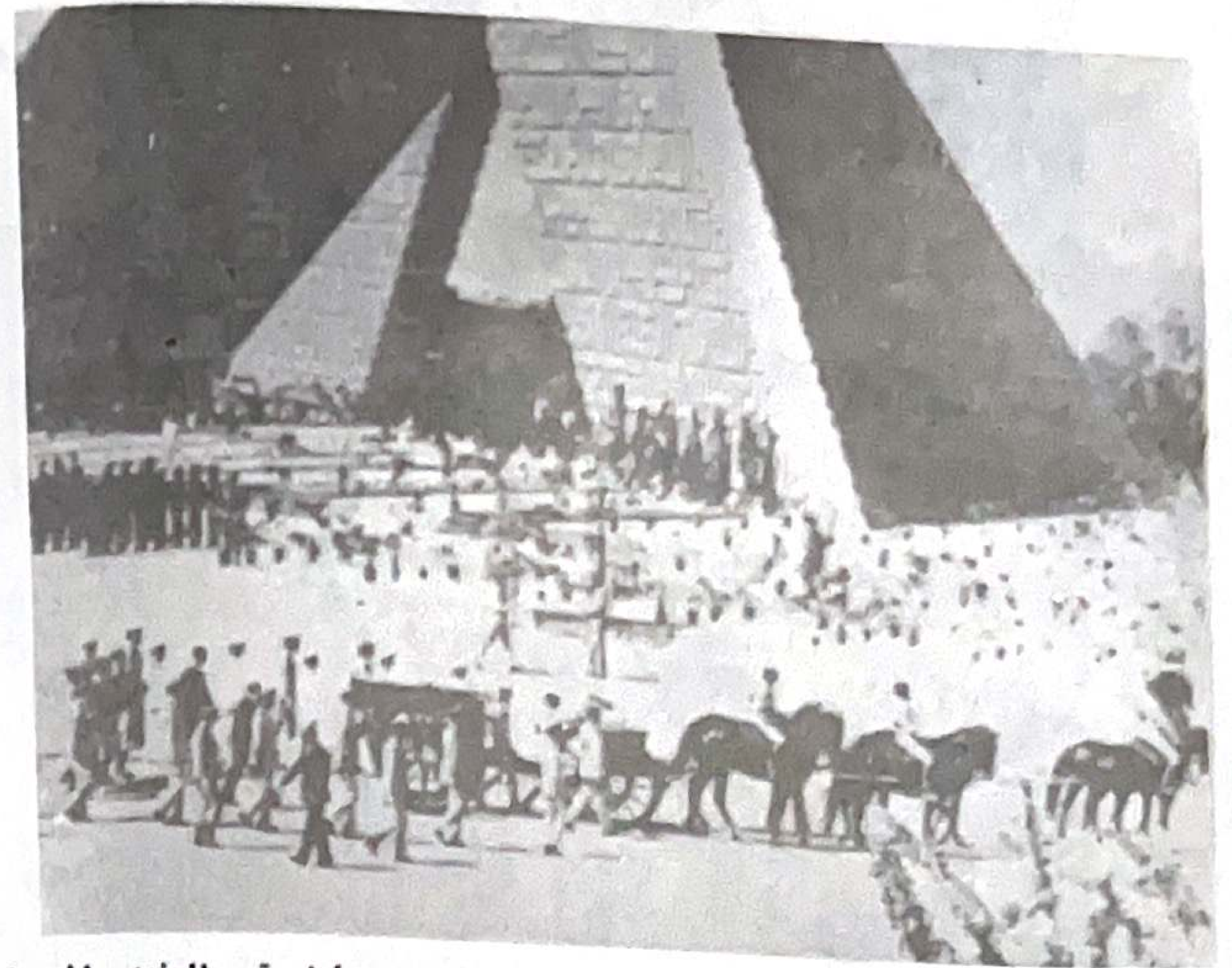
الذين يعالجون سكرات الموت والذين ماتوا على مسرح الاغتيال بعد لحظات من الهجوم على السادات الذى ترك وراءه مالا يقل عن ست ضحايا . (وايد ويرلد فوتوز)



الرؤساء الأمريكيون السابقون كارتر وفورد ونيكسون يصلون مع هنرى كيسنجر ليمثلــوا الولايات المتحدة الأمريكية فى جنازة الرئيس أنور السادات



جيهان السادات ، أرملة الرئيس السادات الذى تم اغتياله ، وقد اجتاحها الحزن وهى فى منزلها فى مصر خلال الاجتماع بممثلى الولايات المتحدة الأمريكية . الصورة التى تظهر وراءها هى لابن السادات ، جمال . (وايد ويرلد فوتوز)



موكب جنازة الرئيس أنور السادات الذى تم اغتياله ، وهو يمر أمام قبر الجندى المجهول خارج القــاهرة . (وايد ويرلد فوتوز)



نائب الرئيس المصرى (وهو الرئيس حاليا) حسنى مبارك ، وتبدو فى الصورة يده وهى مضمدة بسبب بعض الاصابات التى لحقت به خلال حادث الهجوم على الرئيس السادات . (وايد ويرلد فوتوز)



الجنود المصريون وهم يحملون الميداليات التى حصل عليها السادات وذلك أثناء موكب الجنازة عند استاد مدينة نصر



من بين الذين اشتركوا فى جنازة أنور السادات الرئيس الأمريكى السابق جيرالد فورد ، ومناحم بيجين والرئيس الفرنسى السابق فاليرى جيسكار ديستان ، والرئيس الأمريكــى السابق جيمى كارتر



حسنى مبارك وهو يعانق مناحم بيجين عند وصول بيجين الى مصر للاشتراك فى جنـــازة أنور السادات . (وكالة الاسوشيتدس برس)



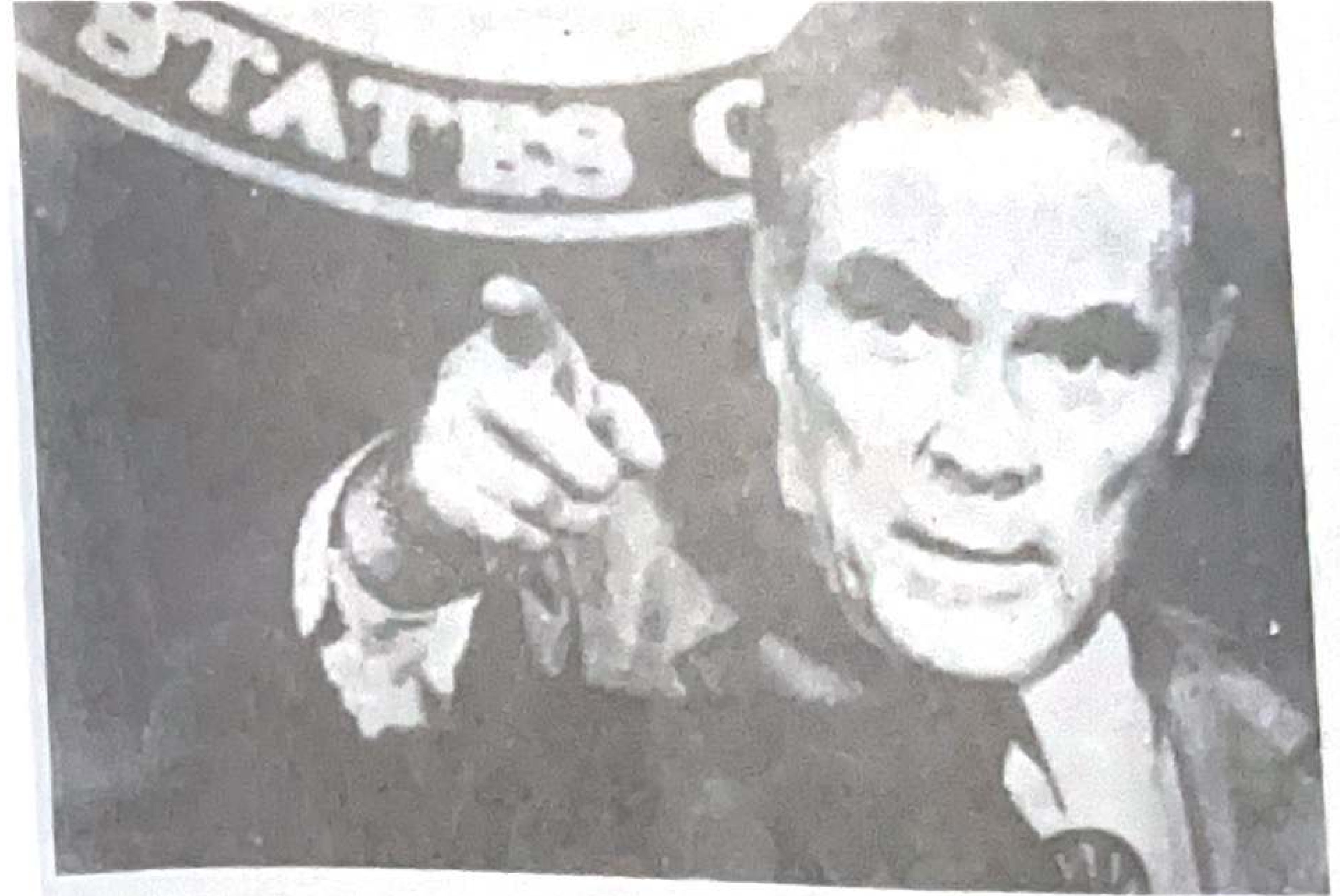
الرئيس الأمريكى رونالد ريجان والسيدة قرينته ، والكسندر هيج وزير الخارجية والســيدة قرينته أثناء الصلاة التى اقيمت فى كاتدرائية واشنطن الوطنية على روح الرئيس المصرى أنور الســادات الذى تم اغتياله . (وايد ويرلد فوتوز)



نائب رئيس الجمهورية المصرى مبارك ، وهو يتحدث الى المراسلين ويقول لهم : ان حادث اغتيال الرئيس السادات كان عملا اجراميا قام به بعض الافراد ، وليس محاولة انقلاب .
(وايد ويرلد فوتوز)



القوات العربية السورية فى استعراض فى لبنان بضاحية المسلمين ببيروت خلال مظاهرة ، احتفالا بموت السادات . (وايد ويرلد فوتوز)



وزير الخارجية الأمريكى الكسندر هيج وهو يحذر من التهديد الذى يواجه السلام العالمى بعد اغتيال الرئيس المصرى أنور السادات



رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات خلال مظاهرة مناهضة لأمريكا قامت فى بيروت ، لبنان ، عام ١٩٧٨ . (وكالة الصحافة الدولية)

جثمان الرئيس محمد أنور السادات الذى تم اغتياله وهو يوارى الى مثواه الاخير عند قبر الجندى المجهول ، بينما العالم يفكر ويتأمل فى تأثير حادث الاغتيال هذا ، على السلام فى الشرق الأوسط . (وايد ويرلد فوتوز)

مقدمة ١٩٨٠

كما هى بلاد قريبة بقدر ما هى بعيدة — فهى قريبة الى اسرائيل — حيث اعيش قـرب هولنـدا من بلجيكا ، او قـرب (نيوهامبشاير) من (مين Maine ومع ذلك كانت بالنسبة لى ، ولمدة ٣١ عاما — وهذه المدة هى كل حياتى المكتملة النضج — بمثابة الجانب الآخر للقمر — شيء مجهول ، مهدد ، ناء ، مظلم — وفجاة وفى صباح احد الايام ، وفى وضح النهار ووسط تراب وضجيج يوم عمل قيظـه خانق ، ادار القمر وجهـه الآخر . وبدا الجانب المظلم واضحا للعيان ، فقد غادرت طائرة ركاب مطار تل ابيب وهبطت بسلام فى القاهرة بعد مرور ٧٥ دقيقة .

اما كيف حدث ، وكيف استقل هذه الطائرة ، فهذه قصة اخرى . لقد حدث ذلك اساسا نتيجة لجهود شاذة قد توحى — بتفاصيلها الغريبـة — بالحقيقة الكاملة الغريبة التى باعدت بين العـرب والاسرائيليين مسـافة سنوات ضوئية ، لأطول فترة يمكن ان يتذكرها معظمنا ، كانت هناك مكالمات تليفونية عبر الاطلنطى فى كل ساعة من ساعات الليل ، الى جانب الرسائل والبرقيات والمفاوضات مع احد السـفراء المصريين الموجـودين فى احد العواصم الغربية . فقد كان رجلا ودودا وعلى اسـتعداد تام لتقـديم كل ما يستطيع من مساعدة .

ومنذ شهور عاد حاملا مثل هذا الرد : لقد طلبت من المسئولين فى القاهرة ان يسمحوا لك بالدخول . وردوا بأن الوقت غير مناسب ، ربمـا كان الاسبوع القادم اكثر ملاءمة او الاسبوع الذى يليه . ولكن لا يتم هذا على الاطلاق . ويتدخل العديد من المتحمسين والوسطاء . الا ان هذا ايضا لا يؤدى الى شيء . ففى مصر ، يبدو ان اتخاذ قرار بهذا الصدد — وهذا شيء قد يبدو بالنسبة لبعض الناس امرا بسيطا — ينبغى ان يعهد به الى اعلى السلطات فى الدولة ، ويقول البعض انه يعهد به الى رئيس الجمهـورية شخصيا ومفاوضات السلام الاسرائيلية المصرية تسير ببطء ، من الاحسن الى الأسوأ ، ثم تعود مرة اخرى الى الاحسن ، والجانبان مختلفان باستمرار حول استخدام تعبيرات رقيقة لتجنب كلمات خشنة وحول الفواصل والشولات المنقوطة ، فكلما غضب الرئيس السادات مع مناحم بيجين رئيس الوزراء ، كان الأمر يبدو كما لو كان ينزل غائلة غضبه على . واصبحت بالأحرى اشك فى مثل هذه العملية .

واخيرا ، ومنذ ليلتين سابقتين ، اتصل بى السفير تليفونيا . ربمـا كانت هذه هى المرة الأولى التى يتصل فيها سفير مصرى مباشرة بالقدس ،

باسرائيل . وقال لى ، اذا كان فى امكانى ان استقل تلك الطائرة الخاصة جدا التى تقل بعض رجال الأمن والفنيين الى القاهرة للاعداد لزيارة رئيس وزراء اسرائيل التى تستغرق يومين ، الى جانب عـدد من الصحفيين (الا انه سيطلب منهم مغادرة البلاد بعد يومين) ، وسيعد لى الترتيبات الخاصـة ببقائى هناك لفترة .

حسنا ، واخيرا اصبحت فى طريقى الى القاهرة ، وهذا هو ما يهمنى، بهذا اخذت احدث نفسى — بالرغم من الصداع الشديد ، والعيون المرهقة (اذ طلب منا ان نكون فى المطار الساعة الرابعة صباحا) ، والحنجرة المتقرحة من كثرة التدخين — ساذهب اخيرا الى القاهرة . ان العبارة نفسها صدى لما جاء فى سفر التكوين .

لم يكن معنى هذا انى لم اذهب الى هناك من قبل فقـد سافرت منذ سنوات قليلة الى بعض المناطق النائية ، ولكن بطريقة غير لائقة ، او متنكرا، سافرت برداء عسكرى ،كم كان الأمر مختلفا . كنت احدث نفسى بذلك وانا اربط حزام المقعد واستجمع قواى ذهنيا لمواجهة اى صـدمة قد يحـدثها التعرف على ما رايته من قبل ، ويحدثها اكتشاف الجـديد . واذ استرجع الأيام الماضية اجد انى كنت بليدا . ان عبارة « التعرف على ما رايته من قبل » لم تات سليمة بكل تاكيد .. فهى توحى بالتعرف على شيء كان معروفا فى الماضى وتم نسيانه — او ربما اصبح فى طى الكتمان .

وحتى مغادرتنا البلاد كانت امرا مثيرا للقلق . فلم تقلع الطائرة من تل ابيب . اذ انسحب بعض رجال المطار فجاة من هذه المهمة ، مطالبين بدفع ٣٠٪ زيادة فى رواتبهم . وعندما اقلعنا اخيرا ، بعد تاخير كبير ، كان الطريق الذى ينبغى علينا أن نسلكه طويلا وغير مباشر . فقد كان عمر معـاهدة السلام بين اسرائيل ومصر ، ثلاثة أيام فقط . ولم يكن قد تم التصـديق عليها بعد من جانب المشرعين المصريين والاسرائيليين . وسيكون التصديق عليها مجرد شكليات ، ولكننا كنا لا نزال من الناحية النظرية فى حالة حرب. وقد شرح لى ضابط الجوازات فى المطار هذا بكل دقة بينما كان يتصـفح اوراق السفر على مهل ، صفحة صفحة ، باحثا عن الختم الخاص بـ : صالح لمصر . وقد كنت فى حالة سباق للحصول على هذا الختم بعـد ظهر امس من احد البيروقراطيين المتشككين الرافضين الذى يعمل موظفا فى احدى المكاتب الحقيرة فى تل ابيب . لقد بدأ الصداع الذى يداهمنى الآن من هناك، من هذا المكتب .

فقد سألنى : « هل تعلم انه لا توجد سفارة لاسرائيل فى القاهرة ؟ » .

— نعم اعلم ..

— « هل تدرك تماما معنى هذا ؟ » ..

— بكل تاكيد ..

— « لا تاخذ الأمر بهذه البساطة » ..

— كــــلا ..

— « اذا واجهتك بعض المصاعب فلن يكون امامك اى مكان تذهب اليه ».

— نعم اعلم ذلك .. ولكننى لا اتوقع ان اقع فى اى منها ..

— « لكنك قد تقع ! » .

— لـــــماذا ؟

— « لانها ارض للعدو » ..

— الا تزال هكذا ؟

واضاف قائلا : « نعم ، من الناحية الفنية ، واذا صادفتك اى مشكلة، هناك شىء واحد ينبغى ان تفعله ..

ما هـــــو ؟

— « الجا فورا الى السفارة الأمريكية » ..

— حسنا ، هل يمكننى الحصول على هذا الختم الآن ؟

— « ولا تتباهى بجواز السفر الاسرائيلى .. اخفيه فى مكان ما » ..

— « ينبغى ان اظهره فى الفندق ، الا ينبغى ذلك ؟

— « اعتقد ذلك .. ولكن تاكد اولا ان البواب هو البواب الحقيقى الذى ستطلعه على جواز سفرك » .

— سأفعل ذلك ..هل لى ان احصل على الختم الآن ؟ ارجوك !.

— « قبل كل شىء لا تتحدث مع اى غريب ! » .

— كيف يكون ذلك ؟

— « هل تسمعنى..لا اغراب..هذا هو البند الأول..هل تفهمنى ؟ »

— سأفعل ذلك ..

وختم اخيرا (الباسبور) واخذته وغادرت المكان ..

الفصل الأول

حلقت الطائرة اولا فوق البحر الابيض المتوسط ، ثم عادت الى جنوب قبرص فى طريقها الى دلتا النيل .. فقد كنا نسلك طريقا غير مباشر حيث انه لم يكن هناك حتى ذلك الحين ممر جوى متفق عليه بين مصر واسرائيل.. اما الطريق المباشر فوق اراضى المعركة فكان سيستغرق فقط ٤٥ دقيقة .

لكنى ، ونحن نخترق الضباب فى اتجاهنا نحو الساحل الأجرد ، اخذت افكر مليا : ان تستغرق الرحلة ٧٥ دقيقة بعد ٣١ عاما شىء جميل . وامعنت النظر فى تلال الرمال والمستنقعات ، من نافذة الطائرة ، واحسست فجأة ان فمى قد جف من الانفعال وتشبثت بالمقعد والطائرة تسير بهدوء . ومن الصعب تصور مسافة اكبر من تلك التى كانت تفصل بين الاسرائيليين والمصريين حتى الآن .. وقد قال (بروست Proust) — الذى كان خبيرا بالفجوات الكبيرة التى تفصل بين البشر — قال فى مدن السهل Cities of the Plain ان المسافات ماهى الا الصلة بين المكان والزمان وتختلف باختلاف هذه العلاقة ، لكنها خارجة عن ارادة الانسان ، لا يستطيع التحكم فيها . فخلال ٣١ عاما كان العداء شاملا ، وكانت المسافة فى العلاقات الانسانية المتبادلة شاسعة وكانت غيبية تقريبا وكتب تينيسون (Tennyson) فى عام ١٨٣٣ يقول « يبدو انه قريب جدا ومع ذلك هو بعيد» جدا ، كان ذلك فى عصر اكثر هدوءا وعلى اية حال ، هو كان يشير الى احدالعشاق . ففى الادب الرومانسى ، كان العشاق دائما يناشدون الآلهة لابطال مفعول الزمان والمكان ، ولكنهم كانوا يفشلون عادة .. وفى نفس القصيدة ، كتب تينيســــون يقــول :

لم أر ، ولن أرى

فينا ، حلما بعيدا عن هنـــا

ظلام ، ظلام ، ظلام الشر يطارد المكان

الميــــلاد ، والزفــــاف

كثيرا ما يفترق الصديق عن الصديق

والآباء ينحنون فوق المزيد من المقابر

نحن نحلق الآن فوق ارتفـــاع منخفض .. وهنا الآن ، فوق خط الساحل مباشرة ، توجد مقبرة كبيرة .. ربما كان هذا المكان هو ضواحى بور سعيد . خط مموج من الأسقف الصفيح بمحاذاة طريق صحراوى . هاهى قناة السويس ، شريط ضيق اخضر راسخ فى الرمال .. ووراء هذا الشريط صحراء سيناء ، تغطيها طبقة رقيقة من الضباب .. وعدت بذاكرتى الى الوراء منذ عشرة اعوام عندما كنت ارقد فى خندق فى مكان ما هناك ، واحاول التمييز بين الصور الباهتة العاتمة عند هذا الجانب من القناة وذلك بواسطة منظار مكبر ، بينما كل ماهو حولى ، تلك المساحة الشاسعة، وقد فجرتها نيران القذائف . ومن الجو تبدو الصحراء مسطحة ، دون اى تموجات ، وتمتد الى اقصى الافق الشرقى ، لا شىء ســـوى الرمال ، او هــكذا تبدو لى . وفوق تلك الكثبان القاحلة اريقت دمـــاء جيلين من المصريين والاسرائيليين منذ عام ١٩٤٨ . وعلى البعد ، لاحظت أن هناك خطا من اشجار النخيل ، ولا شى سوى ذلك .

وفى هذه الاثناء كان المضيفون يجوبون الطائرة ذهابا وايابا يقدمون الشمبانيا . وقد رفض رجال الأمن الثلاثة الذين يجلسون على الجانب الآخر من الممر ، تناول الأكواب البلاستيك . ومنذ صعدنا الطائرة وهم يحاولون ان يبدوا طبيعيين فى سترتهم الزرقاء التى يشبه بعضها بعضا ، تقريبا . وفى المقعدين المجاورين لى ، كان يجلس احد نجوم الأخبار فى التليفزيون الانجليزى والى جانبه المصور ، وكانا يحتسيان مشروباتهما فى هدوء . وبالنسبة لهم لابد ان عملية المصالحة المصرية الاسرائيلية التى تكشفت لهم فى العام الماضى لابد ان تكون قد تحولت الآن من (دراما) الى (ميلو دراما) الى (اوبرا) العقد . واستطيع ان ادرك انهم بدأوا يضجرون فى مقاعدهم .

وفى المقاعد الخلفية ، بدا على رجال الصحافة الاسرائيليين التوتر والقلق . واخذت النكات المجوجة تتردد لفترة من الوقت . كان ينبغى ان نسلك الطريق السريع — مثل طائرات الفانتوم هاها . وتردد المزيد من النكات على نفس الوتيرة . ولم تكن تلك النكات دليلا على قلة الذوق ، بقدر ما كانت دليلا على توتر الاعصاب والخوف من المجهول . فاحد الاسرائيليين الجالسين — وانا اعرفه منذ سنوات — يعيش فى القدس فى شارع يطـــلق عليه اسم فاتحى ممر متلا Conquerors of the Mitla Pass
وممر متلا كان موقعا من مواقع المعارك الشهيرة فى عام ١٩٦٧ التى ربمـــا عانى فيها المصريون اسوا ما عانوا من خسائر خلال الحرب : اذ كانت الدبابات المتخلفة والأحذية وهياكل السيارات المحترقة رمزا لأكثر الهـــزائم المهينة التى منى بها المصريون فى التاريخ الحديث . وقد اطلقت مثل تلك الأسماء على شوارع كثيرة فى عدد كبير من المدن الاسرائيلية بعد الانتصـــار الخاطف الذى تحقق فى عام ١٩٦٧ . ان هذا التقليـــد ليس قاصرا على الاسرائيليين فقد امتلأت مدن أوروبية كثيرة بلافتات مماثلة تعبر عن الانتصار العسكرى . ولى صديق فى اثينا يســـكن فى شـــارع بازيل قاتل البلغـــار Basil the Bulgar Shyer Street وقد سألته مرة عن عنوان منزله الذى يقدمه فى كل مرة يهبط فيها مطار صوفيا ، حيث يعمل هناك كثيرا . قال لى (أوه ، انهم لا يبالون بذلك ، فقد حدث ذلك منذ اكثر من الف سنة) .

اما هنا فلا يزال الجرح : فعلى جانبهم ، ذكريات الذل القـــريب وعلى جانبنا ، الالم والشك . وفجأة شعرت بالامتنان لعنوانى بالقدس الـــذى لايلفت اليه النظر والذى سأستطيع تقديمه على التوالى ضابط الجوازات فى مطار القاهرة — اننى اقطن فى شارع ديشـــين Dishin وهو اسم احـــد الحاخامات الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر .

وسألنى احد الأشخاص : هل تعتقد ان تلك المعاهدة اكثر من قصاصة ورق ؟

— لم يحن الوقت بعد لتحكم عليها .

— اننى متأكد انها لا تعدو ان تكون قصاصة ورق .. ما الذى يجعلك متأكدا الى هذا الحد ؟

— لا تكن ساذجا .. ما الذى تعرفه عن العرب ؟

— اعترف بأننى لا اعلم الكثير عنهم .

— « انت لا تعرف شيئا عن عقليتهم (واكد على مقاطع الحـــروف وهو ينطق بالكلمة) اننى لا اثق بهم .

— اجد انه ينبغى على ان اثق فيهم .

— ان مسألة السلام ما هى الا اكاذيب يقولها طرف لطرف آخـــر الى ان تشتعل الحرب من جديد » .

وهنا قدم المضيف صينية من الشمبانيا .

— لا ، شـــكرا .

— انها مجـــانا .

— اننى افضل كوبا من المـــاء .

— لست بحاجة الى ماء . وانما انت بحاجة الى كوب من الشمبانيا .

— لا ، شـــكرا .

— الا تحب الشمبانيا ؟ ان المضيفين التابعين لشركة « العال » غالبا ما يتصفون بالغطرسة .

— حسنا — وشكرا .

— لمـــاذا لم تقل هذا من قبل ! .

وعندما نظرت من نافذة الطائرة ، لم اشاهد بعد سوى الرمال . لقد كانت الشمبانيا مثلجة وفائرة ، مما أدى الى تهشـــم الكوب البلاستيك وكانت الكثبان الرملية الرمادية اللون تشبه لون الجوالات (الخيش) القذرة وهى تغطى انقاض الأعداد الهائلة من الدبابات وناقـــلات الجنـــود المدرعة ، التى اصابها الصدأ ، وعظام الذين احترقوا داخلها . الرماد

والنفايات المعدنية للعبة السياسية . ويقال ان حوالى ٨٠٫٠٠٠ جندى مصرى واسرائيلى قد هلكوا فوق تلك الكثبان الرملية خلال الثلاثين عاما الماضية . ويقول البحث ان عددهم وصل الى ١٠٠٫٠٠٠ جندى ولا احد يعلم الرقم الصحيح . اذا استطاع الأموات ان يعودوا الى الحياة من جديد ، فهل كان هناك احتمال ان يتحقق السلام قريبا ؟

ـ « خذ قطعة من الكعك مع المشروب » .

ـ شكرا .

واخذت الطائرة تميل من جانب لآخر . واكد لنا قائد الطائرة ، عن طريق مكبرات الصوت ، باننا لسنا نتمايل سكرا ، فهو يحرك دفة الطائرة عمدا بهذه الطريقة والغرض من ذلك ، كما يقول ، هو الاحتفال بهذه المناسبة وتم تقديم المزيد من المشروبات . وكان مرح قائد الطائرة ايضا يميل الى الجانب المتشائم .

واعلن قائلا : « ان آخر مرة شاهدت فيها هذا المنظر كان من نافذة قاذفة قنابل .. نحن نقترب الآن من القاهرة ، حيث ارتفعت درجة الحرارة ونيابة عن خطوط « العال » الجوية الاسرائيلية وعن طاقم الطائرة . نتمنى ان تكونوا قد استمتعتم بهذه الرحلة .. وان نكون فى خدمتكم مرة اخرى بمجرد ان يسمحوا برحلات جوية منتظمة على هذا الخط .

لقد كنا فى ذلك الحين نعبر خطا من الخضرة الشديدة . كانت دلتا النيل كثيفة كثافة خلية نحل . ومنذ واحد وثلاثين عاما مضت باليوم تقريبا تكهن رجل السياسة المصرى الشهير عزام باشا ، بحمام دم لليهود ووعد بانه سيكون افظع من حمام دم تيمورلنك Tamerlane وقرات فى الصحيفة الاسرائيلية التى كانت معى ، ان الرئيس السادات ـ الذى طار الى القاهرة امس عائدا الى بلاده بعد الاحتفال بتوقيع معاهدة السلام فى واشنطن ـ قد اشاد بقوة الحب التى قال عنها : انها تتغلب على كل شىء وتحل كل مشكلة .. واننا بدلا من الكراهية نبذر بذور الحب .. الحب ، الحب ليس فى القاهرة سوى الحب فى تلك الأيام . وكان السادات يتحدث عن ذلك منذ شهور . وهو يقول : انه فى حالة حب مع الله ، مع البشرية ، ومع كل الأمهات الاسرائيليات . وهو يفكر فى الأمهات كما لو كن حليفاته الأصليات فى كل من اسرائيل ومصر . وقال مؤخرا : ان الحنكة السياسية هى ان يحكم الحب . وتراجعت قليلا عند هذا الكلام الذى لا ينتهى عن الحب . ولقد تم تشكيلنا بحيث نقاوم مثل تلك البلاغة ، حتى لو صدرت عن زوجاتنا . هل نحن مستخفون اكثر من اللازم ؟ لقد قال فرويد Freud المحصلة هى انه ينبغى ان نبدأ ، فنحب ، حتى لا غرض .. هكذا بكل بساطة .

ونشرت الصحيفة ايضا أن مصر الآن اصبح لها سلام وطنى جديد ، وقد تم عزفه بالأمس فى المطار تكريما لعودة السادات . وهذا هو السلام الوطنى الثالث للمصريين خلال الـ ٢٦ سنة الماضية . وكان أول

سلام وطنى هو السلام الملكى القديم الذى تم ترديده على انغام اللحن العسكرى لاوبرا عايدة التى كتبها فيردى .

وكان نص السلام الوطنى الثانى هو :

والله زمان يا سلاحى
اشتقت لك فى كفاحى
انهض وقول انا صاحى
يا حرب والله سلام

ويقول السلام الاخير :

بلادى .. بلادى
لك حبى وفؤادى
مصر يا أم البلاد
انت غايتى والمراد
وعلى كل العباد كم لنيلك من ايادى

والنغمة جديدة ايضا . وقرات انه قد تم منح محمد عبد الوهاب الذى وضع اللحن رتبة جنرال فخرية . وقررت ان اعتبر هذا بمثابة فال حسن ، متذكرا آخر انباء ملبورن Melbourne التى تفيد بأن الاستراليين قد صوتوا من اجل ان يجعلوا الأغنية القديمة « ماتيلدا ترقص الفالس » هى سلامهم الوطنى بدلا من « يارب انقذ الملكة وامنحها النصر والسعادة والمجد » .

God Save the Queen, send her victorious, happy and glorious.

وفى هذه اللحظة لاحت لنا الأهرامات فى الأفق ، وكانت تبدو مسطحة اكثر ، من خلال هذا الارتفاع ، يكسوها اللون الأصفر المغبر وسط خلفية من لون الصحراء الأصفر المغبر وبدت منطقة الجيزة ، والجزر فى نهر النيل التى تبدو غير حقيقية الى حد ما وكأنها سراب فى جزر تاهيتى وسط هذا القدر الكبير من الرمال والغبار ، وفيها حدائق مزروعة بلون المرد الأخضر ، والأشجار والنخيل ، وملاعب البولو ، والفنادق المدهونة بطلاء الجير المائى . والى أبعد من هذا ، برزت ناطحات السحاب من تحت الضباب . اما بقية المدينة فقد بدت مطموسة تحت سحابة من التلوث . وهبطت الطائرة الى ارض المطار وكفت عن الحركة . ونزلنا فى طابور من الباب الخلفى مذهولين بالضوء والحرارة ، متوترين ، تعلو وجوهنا ابتسامة مذعورة الى حد ما ، ويبدو علينا التردد . وكان من الواضح اننا دهشون : هل ما نراه حقيقة ، بعد سنوات عديدة ، أم انه مجرد هدوء رهيب ، له اضرار تفوق أضرار الأسلحة ، فترة استراحة للسلام » . اللعنة على تلك العبارات ، بهذا حدثت نفسى . ويا له من قيظ ، اللعنة على هذا القيظ .

لقد قال قائد الطائرة لتوه ان درجة الحــرارة فى الخارج وصلت الى ٣٨ درجة مئوية فى الظل . انهم يفتحون الحرارة خاصة من اجلنا ونخرج الى الطريق المسفلت المحرق ، واخذ اللهب يتسرب عن طريق نعل الحذاء وهبت عاصفة حارة كادت تخرسنى .

ولم تكن هناك اى قيود جمركية ، او اى نماذج نملؤها . وبمجــرد هبوطنا من الطائرة اركبونا بسرعة اتوبيسات سياحية كانت فى انتظارنا على ارض المطار . وكان المطار لايزال تزينه الاعلام والشعارات التى كانت فى الاستقبال الحافل للرئيس السادات عند وصوله بالأمس . وكان كل شىء يبدو انه لا يصلح ارتداؤه خلال هذه العاصفة الشديدة . وكانت صــور السادات معلقة فى كل مكان فوق حظائر الطائرات ، على الأسوار واعمــدة النور ، وعلقت صورة ضخمة ممتدة بدءا من ســقف استراحة كبار الزوار المطلية بالأبيض « بطل السلام .. جندى السلام .. مرحبا بك فى بلادك » .

وتخرج بنا السيارات فى بوابة جانبية حيث وجدنا اشخاصا قليلين . ويقال ان مليون قاهرى كانوا يحتشدون خلف تلك الأسوار بالأمس ، ينشدون « يا سادات يا سادات نحن فداؤك يا سادات » .

اما هــؤلاء القــلة من الأشخاص الظاهرين الآن — ومعظمهم على ما يبدو من عمال المطار فى اردية العمل الزرقاء او جلاليبهم فانهم يلوحون بأيديهم ويرددون « سلام » ، « شالوم » . ومع ذلك كنا نبدو لمن يتفرج علينا — فيما اعتقد — اشبه بأسرى الحرب المنقولين الى معسكر اعتقال. واخترقت بنا السيارة بسرعة فائقة اشارات المرور الحمراء . وكان يتقدمنا اثنان من موتوسيكلات البوليس التى عملت على افساح الطريق على الجانبين وهى تطلق صفاراتها العالية . اما من خلفنا فقد سارت سيارة كبيرة تحمل جنودا مسلحين . واخترقنا بسرعة شوارع (مصر الجديدة) العريضة — مدينة الشمس القديمة حيث التحق افلاطون وهيرودوت بالمدرســة مع قساوسة مصر الفرعونية — وقد اصبحت الآن ضاحية من ضواحى القاهرة .

وكانت الفيلات ذات الألوان الصارخة مصطفة على جانبى الشوارع ، والأطفال الحفاة يتمرغون فى الرمال واجتزنا ابراجا فى لون لعله الزنجبيل وتماثيل مهولة ، وقوائم البوابات وبقايا الحدائق التى ربما كانت فى وقت ما خضراء اللون واكنها تحولت الآن الى اللون الأصفر والرمادى نتيجة لاهمالها او عدم العناية بها فدفنت فى التراب . والشىء الذى اثار دهشتنا وجود القليل من الأشجار . وبالرغم من ان هذه المنطقة تعتبر مكتظة بالمبانى، فان الانطباع الذى يسيطر علينا الآن — كما كان فى المطار — هو الرمال . فالرمال الصفراء موجودة فى كل مكان ، بين المنازل ، وبمساحات شاسعة، وعلى الطوار والشوارع المتشققة ، كما لو كانت الصحراء تتسلل عائدة فى وسط الأسفلت لاصلاح ما افسده الانسان . ضوء الظهيرة الباهر وكان هناك عدد قليل من الناس يستديرون ويحدقون فينا . ومررنا على احــد الأحياء الشعبية البائسة ببيوتها الطينية والواحهــا الصفيحية مكتظة على جانبى الطريق وخلفها باللافتات الضخمة التى تحمل اعلانات عن سجائر امريكية وعن الخطوط الجوية الكويتية . وهمهم من يجلس بجوارى وهو يلهث ، انظر الى هذا الفقر المدقع . انه يذكرنى برحلة السيارة الى احشاء نيودلهى » .

ولكن بالرغم من كل مظاهر البؤس الواضحة لى ، لم استطع ان امنع نفسى عن الشعور بالسعادة لوجودى هنا اخيرا ، لاتعرف على الحياة على الجانب الآخر . الا اننى شعرت بالذنب الى حد ما وقلت « ان ارتداء الجلابية لا يعنى بالضرورة الفقر . فان لدينا ايضا فقراؤنا » .

ولكنه قال لى « ليس عندنا مثل هذا الفقر » . ولم استطع ان اناقشه فى هذا . ودخلنا فى شارع جانبى وسرنا فيه لمسافة ميل تقريبا . ولم نشاهد سوى صحراء جرداء على جانبى الطريق ، وعلى البعد شاهدنا الواجهــة المملة ، واجهة التوسع فى المساكن الشعبية . ووصلنا الى بوابة من الحديد يحرسها رجال من رجال البوليس المسلحين . وعند دخولنا تغيرت الصورة فجأة . لقد عبرنا نفقا من الأشجار الخضراء ، وحدائق شذبت بعناية وملاعب التنس ، وممرا خاصا بجياد الركوب ، وحوضا للســباحة أزرق اللون ثم احواض ورود . ومبنى ممتدا على شكل C مكونا من اربعــة طوابق ، واجهته بيضاء ذهبية اللون ذات طابع انجليزى ومناضد من الحديد المطاوع ، المدهونة باللون الأبيض تظللها الشمسيات ذات الالوان الحمراء والزرقاء (المقلمة) ولم نشاهد فردا واحــدا ســوى الجنود ، المئات من الجنود بخوذاتهم الحديدية وملابسهم الشتوية سوداء اللون ، بالرغم من الحرارة الشديدة . وكانوا جميعهم يحملون البنادق الرشاشة التى تنتهى فى آخرها بالسونكى . وكانت نصالهم تلمع فى الشمس . تعلو الطريق لافتة مكتوب عليها « مرحبا بكم فى فندق السلام » . (كاباريه) ناد رياضى . وقد سمعنا ان هذا الفندق هو اجمل واحدث فندق فى القاهرة . وكان قد تم افتتاحه بالأمس القريب ، واطلق عليه هذا الاسم المناسب فى اللحظة الأخيرة . وكان البواب هو أول شخص مدنى نشاهده منذ دخلنا ، بالرغم من انه كان متألقا فى زى رسمى احمر وأكتاف ذهبية اللون . ودخلنا احد الأروقة الفسيحة . وكانت الأرض من الرخام الايطالى الناعم اللامع . ووقفنا تحت ثريا ضخمة من الكريستال .

ويصيح الســيد / شريف أحمــد وهو يتقدم ناحيتنا لتحيتنا « مرحبا ، مرحبا بكم فى مصر ايها السادة الاعزاء . ربما لم يكن هذا هو اسمه الحقيقى ، او اسمه الكامل ، فقد علمنا فيما بعد انه احد ضباط المخــابرات المصرية . وهو رجل قصير ممتلىء ، عريض الوجــه ، يرتدى سترة زرقاء بصفين من الازرار ، ورحب بنا بالابتسامات والشد على الأيدى ، والتحيــات الطيبــة الحارة . وقال لنا : اننا لا نستطيع تحت اى ظروف ان نذهب بمفردنا الى قلب القاهرة ، الا فى ظل حرس مسلح ، وهى الخدمة التى يستطيع أن يقــدمها لنا فى اى وقت . وقال لنا : اننا النزلاء الوحيدون فى الفندق . فقد تم اخلاؤه من كل النزلاء صباح اليوم ليكون فى شرف استقبالنا ومن اجل توفير ســبل الراحة الحقيقية لنــا . واخذت افكر بكل الأسى وقلبى يغوص فى صدرى . ان هذه الرحلة ستكون رحلة عذاب ، فما المسافة بيننا ووسط المدينة ؟

— حوالى ١٠ أميال أو ماشابه ذلك » ..

— أواه ..

وكان يوجد فى الفندق تليفونات اوتوماتيكية جديدة فى كل مكان — وايضا ، اجهزة تليفزيون ملون — ولكن يبدو ان خطوط التليفون التى توصلنا بالقاهرة كانت مقطوعة فى تلك اللحظة . ويبدو من المستحيل الاتصال باى شخص فى المدينة او فى اى مكان آخر فى العالم .

— ما الذى حدث ؟ منذ متى والخطوط مقطوعة ؟

— منذ بضعة اشهر .

وكان فريق الصحفيين — الذين وصلوا معنا — على وشك الاصابة بهستيريا . وصعدت الى حجرتى لفتح حقائبى . ومن نافذة حجرتى استطعت ان اشاهد صفى الحرس المسلحين الذين يحيطون بالفندق ، من كل الجهات ، على مايبدو . وكان الواحد منهم يبعد عن الآخر بياردات قليلة ، يقفون بلا حراك تحت لهيب الحرارة . ومن خلال النافذة كانوا يبدون مثل الشموع السوداء . ولم اكن المح ظهورهم فقط وراء سترتهم (الجوخية) ووجوههم لا تنظر الى الفندق وانما هى متجهة نحو السور الذى تحيطه الاسلاك الشائكة، فكم من الأخطار المهولة تكمن هناك فى الرمال الممتدة تجاه مصر الجديدة ، حيث يقال — كما اتذكر — ان طائر (العنقاء) قد اتى ليموت فوق كومة من الخشب ذى الرائحة العطرية ، فقط ليبعث من جديد ؟ وبدأ شعور معين ينتابنى وهو الخوف من الأماكن المغلقة . وكنا نبدو كما لو كنا رهائن مشهورين تم وضعهم فى فندق فخم بواسطة فرعون كريم .

لقد كان الوجود الذى ينذر بالسوء لمثل هذا العدد من قوات الأمن نوعا من التضليل بلا شك . فبعد فترة وجيزة ، استطعت ان اتسلل من فندق السلام بقليل من الصعوبة ، رغم شعورى ببعض الخوف . لقد سلمت نفسى لاحد اصدقائى القدامى الذى كتب لصحيفة (لوماتان Le matin) الفرنسية وهو ضخم الجسم بدين ، يعرف حيلة او حيلتين ، ويتحدث العربية بطلاقة بلهجة مصرية مميزة . واتجهنا صوب البوابة بكل بساطة واشار زميلى الى وقال للحارس بلا اكتراث : « ان معه تصريحا هو الآخر . دعه يخرج » واثناء كتابتى ، واستعراضى لتلك الاحداث ، لا اصدق اننا خدعناهم بالفعل وانما اعتقد ان الحارس ربما بلغ من حرصه انه لم يرد فضح امرنا والكشف عن خبيئتنا .. ولكننى تذكرت انه فى تلك الأثناء ، استطعنا ان نسير بخطى سريعة واخترقنا الطريق المهجور ونحن نشعر بشعور خاص وهو اننا حققنا ما كنا نريده . وبعد بضع مئات الياردات ركبنا اتوبيسا متوجها الى القاهرة . وكان الأوتوبيس مزدحما تقريبا . واتجه بنا عبر الشريان الرئيسى الى منطقة وسط البلد ، تاركا خلفه شريطا طويلا من دخان عادم الديزل . ولم يكن هناك مقعد خال . ووقفنا فى الدرجة الأولى .

وبادرنا السائق بسؤاله : « من اين انتم قادمون ؟ امريكيون ؟ — ام انجليز ؟ » ورددنا عليه بلهجة عابرة « من اسرائيل » . هنا حدث ما يشبه الهرج والمرج .. اوقف السائق الاتوبيس فجأة وصاح بالعربية « كلا ، لا بد وانكم تمزحون ! وقلت له اننا لا نمزح . والتفت السائق الى الركاب وقال لهم « أسمعتم ما يقولون ؟ انهم يقولون انهم من اسرائيل ! » .

واندفع بعض الركاب الى الأمام فى الممر وهم يصيحون « مرحبا ! مرحبا ! وقال السائق : « اسرائيل شىء رائع ، مصر شىء رائع ، السلام شىء رائع » .

وفى اثناء ذلك كان هناك طابور من السيارات التى تعطلت وراءنا تطلق ابواقها وعندئذ اخرج السائق رأسه من شباك الأوتوبيس وقال ان معنا بين الركاب اناسا قادمين من اسرائيل ! اناسا حقيقيين ! وسرعان ما انتشر الخبر بين السائقين الآخرين الذين اخذوا يشرئبون باعناقهم لرؤيتنا ولا اعتقد اننى شعرت من قبل بمثل هذا القدر من الاهتمام . واخذ كل ركاب الأوتوبيس يرددون مبروك ، مبروك .. السلام شىء رائع .

وصافحنى رجل مسن — يرتدى قبعة خفيفة من الألياف المجدولة — قائلا : « هل تعرف مستر ليفى الذى كان يعيش فى الاسكندرية ؟ لقدذهب الى اسرائيل منذ عشرين عاما » .

انى آسف ، لا اعرفه . واخيرا حرك السائق عمود السرعات وبدا سيره مرة اخرى . وكنا نتجه ببطء صوب ميدان المدينة الرئيسى ، ميدان التحرير ، على ضفاف النيل . وفى بادىء الأمر لم تكن هناك حركة مرور كثيرة . ولكن عندما اتجهنا الى الوسط ، بدانا ندرك تدريجيا كبر حجم المدينة ، واذهلتنا تلك الاعداد الهائلة التى تقطنها .

وعندما وصلنا الى احدى المحطات كان هناك حشد هائل من الناس فى انتظار الأوتوبيس . وعندما تحرك الأوتوبيس فى النهاية ، تدلى من الباب الخارجى عنقود ضخم من البشر . وتسلق عدد قليل منهم السلم الخلفى ليجلسوا على شبكة الأمتعة .

الجماهير البشرية :

ان تعداد سكان القاهرة قد تزايد اربعة اضعاف ما كان عليه منذ ٣٥ عاما . وفى الساعات الأولى من المساء ، تأخذ شوارع تلك المدينة الضخمة — التى دائما ما تكون مكتظة بالسكان — فى الازدحام عن آخرها . ويصل هذا الازدحام الى درجة ان المرء يتساءل : هل هذا الحشد الكبير من الممكن ان يستوى ويعتدل مرة اخرى ؟ ويتذكر المرء (خرفيال) حيث يقول يا ابن الانسان ، انتحب من اجل جموع مصر . فلم اشاهد فى حياتى قط مثل هذا الزحام . واينما ذهبت ، وجدت نفسى وسط هذه الحشود الهائلة ، وهى تتحرك ببطء فى تناغم على طول (الطوارات) — الضيقة وشمس داكنة معلقة فى سماء معكرة بالتراب و (الهباب) وكان الطقس حارا ورطبا .

وفى النور تبدو المدينة اكثر ازدحاما واكتظاظا فقد كان يعيش هنا فى الاربعينيات ٢ ½ مليون نسمة . ووصل تعداد السكان اليوم الى عشرة ملايين نسمة تقريبا . ان حيا واحدا من احياء القاهرة يستطيع ان يستوعب شعب اسرائيل باسره .

ولكن كل هذا العدد مجرد ارقام . فقد وصل عدد سكان بعض المدن الاخرى الى اربعة اضعاف خلال فترة مشابهة من الوقت — غير ان الشيء الذى يجعل القاهرة تبدو على هذه الصورة الساحقة هذه ان البنية الاساسية للمدينة قد ازدادت فقط بصورة ضئيلة للغاية . ونتيجة هـذا واضحة فى كل مكان وهى الفوضى : فى الحالة السيئة لشبكات المجارى ، فى شبكات التليفونات المثقلة ، فى نقص الميـاه ، فى انقطاع التيار الكهربائى بصـفة دورية ، وفى المدارس الحكومية التى تعمل فترتين — واحيـانا ثـلاث فترات — يوميا . ولا تزال معدلات الأمية العالية (٧٠٪)على ماهى عليه خلال الثلاثين عـاما الماضية بالرغم من الزيادة الضخمة فى عدد المـدارس وفى عدد المـدرسين المدربين . وقد زحفت مناطق ضخمة من العشش الى المساحات الخـالية ، ويشمل ذلك المقابر والجوامع .

وفى عام ١٩٤٨ — قبل قيام اول حرب بين العرب واسرائيل — وصـل معدل الكثافة السكانية فى القاهرة الى ١١ر٧٠٤ نسـمة للـكيلو متر مربع (اى حوالى ٢٧ر٠٠٠ للميل المربع) . وفى عام ١٩٦٦ ، اى قبل حـرب الايام الستة مباشرة ارتفع هذا العدد ليصل الى ٢٠ر٥٤٩ (٥٠ر٠٠٠ بالميل المربع) ويقال ان الكثافة السكانية اليوم قد اقتربت من ٤٠ر٠٠٠ بالكيلو متر المربع (اى حوالى ١٠٠ر٠٠٠ بالميل المربع) . وفى احـدى المناطق الفقيرة بوجه خاص (باب الشعرية) ، وصل عدد السكان حاليا ١ر٣ مليون نسمة اى بنسبة ٤ اشخاص فى كل ٣ ياردة مربعة — واعتقد ان هذا العدد يوازى اعلى نسبة فى الهند .

وقد كتب انيس منصور — رئيس التحرير المصرى القوى ، الذى قيل انه من الاصدقاء المقربين للرئيس السـادات — بعد رحلة السادات المثيرة للقدس كتب ما معناه : من ضد الحرب ؟ الجنود انفسهم ! ان الحرب تنغص حياة كل فرد .. ان الحرب قد حرمتهم من البيت ، من الشارع ، من الحياة .. كل من يمسـك التليفون ولا يجد خطا ، او يفتح الصنبور ولا يجد مياها ، او يقف فى الشـارع سـاعات ينتظر الاوتوبيس الذى لا يصل ، واذا حدث ووصل الاوتوبيس فانه لا يجد مكانا فيه ولا حتى فوق السلالم ، وكل شـاب لا يجد عملا واذا وجد عملا لا يجد شقة ، واذا وجد الشقة فانه لا يستطيع دفـع ايجارها ، وبذلك لا يستطيع ان يتزوج فيفكر فى الهجرة . كل هؤلاء لا يريدون الحرب .. ولا احـد من هؤلاء فى حاجة الى فلسفة تلقى بعبء اللعنة على القدر . انهم يلعنون هؤلاء الذين اخذوا ثروات مصر وكل مصادرها وانفقوها على الأسلحة والحروب التى لا نهاية لها . انهم يلعنون هؤلاء (العرب) الذين حاربنا من اجلهم والذين يزدادون ثراء على ثراء باستمرار . كلا ، ينبغى علينا ان نوقف تدفق الذهب والدماء .

ومع ذلك لاحظت ان انيس منصـور نفسه قد كتب اخيرا فى مجلة اكتوبر — واسعة الانتشار — والتى يراس تحريرها ، كتب ما معناه : اعط الفرصـة (لليهود) وسيثبتون نوع الحيـوانات التى يمثلونها .. ما الذى يفعلونه فى جميع انحـاء العـالم ؟ تهريب المخدرات ، ادارة الكباريهات ، والاشتغال فى تجارة الرقيق الابيض . وقـد علمت ان منصور كان يكتب فى

الماضى بهذه النغمة . غير ان كل افعال اليهود الفظيعة لا تقف فى وجه السلام وعلى العكس ، ايد منصور بشدة معاهدة السلام ، وذلك فى عدد اكتوبر الذى صدر هذا الأسبوع . فقد كتب يقول: ان مصر لاتفعل مايعتبر بمثابة تطرف، فهى تنتهج نفس الخطوات التى انتهجها الرسول محمد ، فقط ،الذى عقـد الصلح ايضـا مع اعداء الاسلام . ان السلام سيحقق الرفاهية والغنى . ان الجهاد من اجل تحقيق الرخاء فى طريقه الآن ! .

وفى جميع انحاء المدينة رجال بوليس وجنود الميليشيا باعـداد مذهلة . ولم نشاهد رجل بوليس واحدا هنا وهناك ، بل مجموعات تتكون من عشرة او عشرين ، مسلحين تسليحا ثقيلا ، ودوريات من الكونستابلات فى مجموعات تضم اربعة او ستة ضباط شرطة . وفى ميدان التحرير — ذلك الميدان الكبير الذى تم بناؤه فى المـكان الذى كانت تقف فيه ثكنـات الجيش البريطانى فى وقت ما — شاهدنا ٢٠ر٠٠٠ او ٣٠ر٠٠٠ شـخص فى انتظار الأوتوبيسات التى تقلهم الى منازلهم . وقريبا من هذا المكان ، على شاطىء النيل ، وامام ابواب مبنى التليفزيون الضخم ، يقف بعض الجنود خلف جوالات من الرمال . وهناك سيل من البشر يتدفق من حولهم ، فكأنهم محاصرون فوق جزيرة فقراء فى اسمال بالية ، فلاحون يرتدون جلاليب فضفاضة ، اشـخاص من المدينة يرتدون (بدلا) جميلة بصفين من الأزرار . وهذا المشهد يذكرنى بمشهد مماثل فى طوكيو او بومباى ، وكثير من الاجانب يشبهون القاهرة بكلكتا . ولـكنى اشك ان يجد المرء فى اى من تلك المدن نفس الهدوء المخيف . وقد تحـدث بسمارك Bismarck ، فى مكان ما ، عن « التطرف الكامن فى الهدوء » . واول انطباعى لهـذا الهدوء هو الاحساس بنوع من الخوف . وادرك تماما من اين ياتى هذا الخوف وعندئذ حـدثت نفسى بانه ينبغى على الا استسلم للتعميمات . فالغربيون عادة ما يعتبرون الشرق اما بمثابة شىء غادر يصعب فهمه ، او بسيط لدرجة مؤثرة .

وهناك خاصية من الجمال والعذوبة تسود الحياة اليومية هنا لا اشاهدها فى اى مكان آخر الا نادرا . فبالرغم من تلك الجموع والكثافة المفزعة ، قليل هم الذين يزاحمون او يقاومون او يرفعون اصواتهم . وتبدو الخطوات بطيئة متروية . ان مواجهة هذه الجموع البشرية الضخمة التى تحيط بى فى كل جانب تقريبا تعطى انطباعا قويا للغاية فى بادىء الأمر . انهـا تذهلنى ولا استطيع ان انسى المشاهد التى عرضها التليفزيون فى عام ١٩٦٧ ، لنفس تلك الجموع وهى تخترق نفس هذه الشوارع بطريقة مسعورة عشية حرب الستة ايام ، تصرخ مطالبة بالدم .

ولا اعتقد اننى اجتزت تجربة من هذا النوع من قبل . وبالطبع ، شعرت بالرعشة وانا اجد نفسى فى هذا المكان المحظور من قبل . وجذور هذه الرعشة واضحة . فبعضها حسى جزئيا . اذ انه خلال الثلاثين عاما الماضية لم يكن فى استطاعة احد منا ان يحضر الى هنا ، لا بالمـال او العبارات الرقيقة ، ولا بقوة السلاح . ومع ذلك ، وبلا استثناء ، كان كل المصريين الذين قابلتهم ودودين ، كرماء ، والكثير منهم كانوا يرددون عبارة «مرحبا ، مرحبا ! » و « الحمد لله ان كل شىء قد انتهى » . ولكنهم كانوا — بخلاف هؤلاء العرب الذين يعيشون فى الأراضى المحتلة بعد حرب الأيام الستة — كانوا لا يرددون

عبارة « مرحبا » لأى اسرائيلى بدافع من الخوف والادب ، وربما بارادتهم الحرة ، او ربما لشعورهم بالتعب والارهاق .

وقد كان هناك شىء آخر اصابنى بالذهول ، لم اواجهه من قبـل على الاطلاق ، واستطيع ان اطلق عليه اسم وطأة الزمن . ويأتى هذا نتيجة الالتقاء الغريب هنا ماهو مرئى وبين ماتحمله الذاكرة . فالمـاضى شىء حسى وملموس فى القاهرة اكثر مما هو فى القدس ، حيث اعيش . ففى القدس نرى الماضى البعيد يحيا ايضا فى الحجارة ، ولكن تلك الحجارة معظمها شظايا واجزاء صغيرة من الحوائط والقواعد التى تم حفرها بعناية فائقة ، وتنظيمها، وترقيمها لكى تدخل فى روعك انها كاملة ولـكننى ادرك الآن ان الزمن اقـل تجريدية مما كنا نتصور . ان لدينا فى اسرائيل الكتاب المقدس . وهو لا يحيى فينا الاحساس بالزمن بهذا الشكل المذهل الذى تحييه حجرة الموتى المحفوظة منذ خمسة آلاف سنة ولا تزال تحتفظ بلوحاتها الملونة اللامعة على جدرانها .

ولا تزال اهرامات الجيزة سليمة لم يصبها اذى تقريبا . ونراها واضحة من الادوار العليا للكثير من المبانى فى القاهرة . ويبعد هرم سقارة الاكثر قدما وهو من اوائل الامثلة المعروفة لفن العمارة التى هى من صنع الانسـان ـ بحوالى اقل من نصف ساعة عن ميدان المدينة الرئيسى .. انه ليس مجرد الحديث المتواصل الذى يستطيع المرء ان يسمعه هنا عن التاريخ الذى يرجع الى ستة او حتى سبعة آلاف سنة ، ولكنه مجموعة الاغراض التى نتجت عن تمازج بين الملموس وبين ما تحمله الذاكرة . وبخلاف الأثر المذهل للحشود البشرية التى لا تنتهى ، نجد ان هذا التاريخ يستبد بالمرء تدريجيا ، وعندئذ لا يستطيع المرء منه فكاكا . نظرت من فوق اسطح المنازل الى الاهرامات ، ثم الى اسفل ، على النفاية الموجودة فى الشوارع ووجـدت الاتربة تتصاعد فى شكل حلزونى . وفى السماء يتعلق الهلال كمنجل ، جديدا لا يزال ، ومدببا بطريقة تشبه الخنجر .

وشاهدت لافتة ممتدة بعرض الشارع الكبير يتمثل فيها السادات وهو يرتدى زى المشير العسكرى ، ممسكا فى يده بصولجان من الذهب لا يختلف عما يمسكه الملك الصبى فى تابوته الموجود فى متحف الآثار .. ومكتوب تحت صورة السادات ما معناه : لماذا السلام ؟ حسنا ما الذى جنيناه من الحرب؟ وعلمت ان هذه العبارة هى مقطوعة من احدى الاغانى الشعبية الحالية .

والمطرب الذى ينشد هذه الاغنية هو محمد نوح ، من اشهر المطربين فى مصر .. وقد تخصص فى الموسيقى الفلكورية .. ومحمد نوح ضخم الجسم عريض المنكبين وهو فى اوائل الخمسينيات من عمره . وينسدل شعره الرمادى الى الوراء تاركا جبهة عريضة ، وعيناه سوداوان ، فى سواد راس الغراب وهو يرتدى جلبابا واسـعا مطرزا تطريزا رقيقـا . ويقال ان اسطواناته منتشرة ويباع منها عشرات الآلاف .

•

وخلال حرب يوم التـكفير ـ التى يطلقون عليها هنا حرب اكتوبر ـ زار الجنود فى خنادقهم . وسرعان ما تملأ الابتسامة الآسرة وجهه العريض زيتونى اللون ويقول : كلا ، كلا . اننى لا اغنى اغانى الحرب . اننى اغنى اغانى وطنية ، اغانى الحب . انى اغنى لهم بسبب حبى لتلك الارض الفقيرة .

ويقف نوح فى رواق احدى المسارح الفنية القديمة فى القاهرة ،حيث تجرى بروفات مسرحيته الغنائية الجديدة . واسـم المسرحية التى يؤديها هو « الحب فى الصندوق » . ويقول نوح ان القصـة عبـارة عن هجوم على المخـابرات ايام عبد الناصر ، التى اعتادت ان تقوم باختطاف الشخصيات المعارضة المصرية من اوروبا ـ وبالمناسبة تم اختطاف عميل اسرائيلى بنفس الطريقة ـ واعادتهم الى مصر بعد تخديرهم ووضعهم فى صندوق . ما معنى الحب فى الصندوق ؟ ويشرح نوح هذه العبارة بصوته المدوى الرنان قائلا : التفسير بسيط جدا ان الحب ، هو الحرية . ونحن نحاول ان نقول ان الحرية لا يمكن ان يتم تخديرها او حبسها فى صناديق .

ويقول نوح «ظللنا نغنى اغانى السلام فقط منذ عام ١٩٧٦ » لـكنى لا ادرى على اى نحو اتقبل كلامه . وهناك مثل عربى يقول : عنـدما يقع العجل ، تكثر « سكاكينه » . هل العكس صحيح ايضا ؟ اذا عادت الحياة الى العجل ، هل سيسارع الجميع الى اطعامه ؟ على كل حال ، نوح«مودرن» جدا بما لا يتناسب وذوقى .

ولكنه ـ عندئذ ـ يخبرنى بانه فقد ثلاثة من اشقائه فى ثلاثة حروب : الاول فى عـام ١٩٥٦ ، والثانى فى عـام ١٩٦٧ ، والثالث فى عـام ١٩٧٣ . اما شقيقه الرابع فهو يعمل طبالا الآن فى فرقته الموسيقية . وفى هذه الأثناء اخذنا نحتسى الشاى الاسود بالنعناع من قوارير صغيرة مستطيلة . ثم يدير امامى اسطوانة لاحدى اغنياته . وكان صوته ينبعث بنعومة ممزوجة بدمدمة خفيفـة خافتة .

واعود باحدى سيارات الأجرة الى الفندق وكانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل ، وحاولت جاهدا فى الليل الدامس ان افك طلاسم مانشيتات « اخبار » اهرام الغد ، وتساءلت كيف يتحقق السلام بين دولتين ولا احـد منهما يعرف الا القليل عن الآخر . وكانت الشوارع مضاءة بشعارات السلام وصور السادات . وكانت لا تزال مزدحمة بالناس . ان الكلمات هى جسر التفاهم الوحيد بيننا حتى الآن ، وهو جسر هش ضيق ، والمتخصصون وحدهم هم الذين يكلفون انفسهم عناء اجتيازه .

ولاحظت ان احـدى الصحف قد تناولت موضوعا فى صفحتها الأخيرة جـاء فيه ان كتاب البروفسور شيمون شـامير تحت عنوان « مصر فى ظل السادات » قد تمت ترجمته الى اللغة العربية وان دار المعارف فى القـاهرة ستقوم بنشره قريبا .

ويشغل شامير منصب استاذ فى جامعة تل أبيب . وقد تم نشر كتابه ـ وهو تحليل للتغييرات الضخمة التى حدثت فى مصر بعد ناصر ـ باللغة العبرية منذ اكثر من عام مضى ـ ويعتبر شامير واحدا من المتخصصين القلائل فى المنطقة ـ فى اسرائيل ، الـذى قام بقياس الروح السائدة فى مصر خـلال السنوات السبع الماضية بطريقة دقيقة ، وقال ان مصر خلال عهد السادات تتحرق شوقا لاقرار السلام مع اسرائيل ، ولو على الاقـل بوصفه احـد الخيارات الممكنة ، وذلك بخلاف مصر فى عهد ناصر ، التى كانت مرتبطةارتباطا

يكاد يكون كاملا بالحرب . واخذت افكر — وانا فى طريق عودتى الى الفندق فى هذه الفترة من الليل — وتبادر الى ذهنى هذا السؤال . كم منا قرا هذا الكتاب ؟ لقد قراته — انا شخصيا — منذ اسبوع فقط ، ولكننى قراته على عجــل .

وما هو الشىء الذى يستطيع المصريون ان يقراوه عنا ؟ لا شىء على الاطلاق كما فهمت — فيما عدا ما يرد فى كتيبات الدعاية . فقد عشنا منذ سنوات متباعدين بعضنا عن بعض ، او مسجونين فى عناق مميت مثـل حيتين كاسرتين . ان الطبيعة الشاذة للعلاقة بيننا جعلت اى اتصال مآله الدمار المتبادل . والصور الملونة لكل جانب على الآخر مشوهة . فخلف كل جندى اسرائيلى ، يرى المصريون جنديا فرنسيا من الفرقة الأجنبية او استعماريا انجليزيا . وخلف كل جندى مصرى ، يرى الاسرائيليون رجلا من الرايخ مصمما على ابادتهم . لقد عشنا سنوات فى عـالم الشياطين والعفاريت . فكما كان عبد الناصر يطلق على بن جوريون انه اسوا مجرم حرب فى التاريخ ، كان كثـير من الاسرائيليين يطلقون على عبد الناصر ، والسـادات من بعده « هتلر وادى النيل » .

واعلن ناصر ان وجود اسرائيل نفسـه ما هو الا ضرب من ضروب العدوان وزعم بن جوريون انه لا يسعى الا لاقرار السلام ، ولكنه فى عام ١٩٥٦ انضم الى الحملة العسكرية البريطانية الفرنسـية على مصر . ان العداء الذى يكنه المصريون تجاه الاسرائيليين لم يكن فقط عداء سياسيا . فبعد مرور السنين ، تطور هذا العداء ليصل الى درجةالايديولوجية والعقيدة. اذ اصبح الاسرائيليون — واليهود — رمزا للبغض الشديد يجب تحطيمه ، اذا اقتضت الضرورة ، فى حرب مقدسة ، كما كان الحال بالنسـبة لمملكة الصليبيين . وتطورت مدرسة الكراهية للسامية فى مصر مع مرور السنين. وقد بلغ من ضخامة ماكتبته المدرسة فى هذا الصدد اننى عنـدما شاهدت مؤخرا المجموعة المختارة من الكتب المناهضة للسامية التى نشرتها دور نشر تمتلكها الدولة فى مصر ، وجدتها قد شغلت رفا طويلا فى مكتبة احد اصدقائى فى القدس ، وهو المستشرق « بيهوشافات حركابى Yehoshafat Harkabi وقد شاهدت البروفسور (حركابى) بعد سنوات وقد اعتلى الشيب راسـه — عاكفا على تلك المهمة المؤلمة — وهى ان يجمع ويقرا ويفسر تلك البذاءة . وتتضمن مجموعة (حركابى) العديد من الطبعات المصرية ، باللغة العربية ، بروتوكولات حـكماء صـهيون Protocols of the Elders of Zion التى تم وضعها فى احدى الترجمات بأنهـا بمثابة خطـة سرية من هيرتزل Herzl فى المؤتمر الصهيونى . وفى احدى المناسبات اوصى ناصر الى احد الزوار الهنود ان يقرا هذه البروتوكولات وقال له ناصر « من الضرورى ان تقراها . سوف اعطيك نسخة » . انها تثبت بما لا يدع مجالا للشك — ان ٣٠٠ صهيونى ، كل واحد يعرف الآخر ، يحكمون مصـير القارة الاوروبية وينتخبون خلفاءهم من بين صفوفهم . وهذه الملحوظة من الممكن العثور عليها فى المجموعة الرسمية لخطب ناصر واحاديثه الصحفية (القاهرة ١٩٥٨ صفحة ٤٠٢ الترجمة الانجليزية) التى اصـدرتها احـدى دور النشر المصرية التى تمتلكها الدولة ، ونفس الشىء بالنسبة للبروتوكولات .

وهناك بعض الأمثلة التى جاءت فى مجموعة حركابى منها : « ان اله اليهود لا يقتنع باضحيات الحيوانات . ومن اجل استرضائه ينبغى ان تكون هناك قرابين بشرية . ومن هنا تاتى العادة اليهودية وهى ذبح الأطفال ومص دمائهم لخلطها بالعيش غير المخمر فى عيد الفصح » . « لقد اخبرنا المسيح من هم . وحذرنا محمد منهم . ولعنهم الله وحطم اراضيهم » .

لقد ذكر حسن صبرى الخولى — الممثل الشخصى لناصر — فى محاضرة القاها فى الجنود ، ونشرتها القيادة العليا للقوات المسلحة المصرية (القاهرة سنة ١٩٦٥) ان هدف الصهاينة الواضح هو ضـمان سيطرة اليهود على العالم باسره ، عن طريق افساد الاخلاق ، والمضـاربات المـالية ، ونشر الأخلاق الوضيعة فى كل مكان ، وهـدم صرح الدين ، واخـيرا عن طريق استغلال الجريمة كوسيلة لتحقيق هدفهم » .

اننى اتساءل ، اين الآن هذا الذى يدعى الخولى ؟ وقد سالت موسى صبرى ، رئيس تحرير الأخبار ، الذى قمت بزيارته فى ساعة مبكرة من هذا المساء فى مكتبه ، عما اذا كان يعرف اين هو . رد على قائلا انه لا يعلم. والسيد/موسى صبرى رجل ذكى ، مهذب ، رقيق الحاشية ، منحنى القامة بعض الشىء له اسلوب بسيط وكريم فى التعامل . وقد احببته على الفور . وتوجد فى مكتبه مجموعة من الكتب بثلاث لغات . وعلى مقربة من مكتبه — فوق منضدة جانبية — يحتفظ بمجموعة حديثة من جريدة « جيروساليم بوست Jerusalem Post فهو يقرؤها يوميا بانتظام ، كما ذكـر لى ، « اننى اقرؤها منذ سنوات وبسعادة بالغة » .

وقال لى الأستاذ صبرى : انه ينبغى ان يقابل بعضـنا بعضـا بروح يسودها الحب والتفاهم ودار بيننا حديث طيب للغاية . ومع ذلك اخبرنى شخص زار الأستاذ صبرى منذ اقل من عام مضى ، انه كان لا يزال يحتفظ فى مكتبه عام ١٩٧٨ ببعض صـور (الكاريكاتور) التى نشرتها الصحـف العربية والتى تبدو — فى اسلوبها وتفصيلات رسـومها — كما لو كانت مستوحاة من (الكارتون) عن اليهود فى قوات العاصفة التابعة لهيتلر .

وبينما كنا نجلس فى مكتبه نتجاذب اطراف الحديث ، لاحظت ان الصور (الكاريكاتورية) لم يعد لها اى اثر . ولم اشاهد سوى صور للسـادات وصورة لناصر فى وضعه الخاص المعتاد وذقنه القوية مرفوعة الى الامام فى عزم واصرار .

وقال صبرى ، نعم ، لقد كان هناك مواد مطبوعة مناهضـة للسامية منذ سنوات مضت . وهو شخصيا لم يقرا ايا من تلك الـكتب . ولـكنها موجودة بالفعل الا انه نصحنى الا اعلق اهمية كبيرة على هذه الكتب . وقال انها حصيلة ثانوية للحرب ، وليست سببا لها ، انها صـورة من صـور عنصرية الحرب وسالته ما الذى يعنيه بهذا الكلام .

قال لى « انها تشبه الدعاية التى كانت موجهة ضد اليابانيين فى امريكا بعد الهجوم على ميناء بيرل هاربر Pearl Harbor وهو يعتقد ان مناهضـة

السامية ليست الفطرة التى نشأت عليها مصر ، بل ان الصور والشعارات مستوردة من أوروبا ، انها شكل من اشكال المساعدات الأجنبية مثل القومية — وهنا ابتسم صبرى ابتسامة خبيثة الى حد ما وقال : انها مستوردة ايضا من الخارج .

وقلت : يا لها من فكرة لافتة للنظر ، آملا ان يحمل صوتى رنين سخرية. فمن سوء الحظ ان التفرقة الدقيقة بين التمييز العنصرى الأصلى « وعنصرية الحرب » لم يكن لها تأثير على الاحياء الذين نجوا من المذبحة النازية . وقد وافقنى السيد/صبرى على هذه النقطة دون تردد غير انه استطرد قائلا :ان الدعاية المناهضة للسامية لم تجد لها اى طريق فعلى هنا على الاطلاق ، ولا حتى فى أيام ناصر والواقع انه من الآن قد تم نسيانها .

وقال السيد / صبرى : ان مصر واسرائيل ستعيشان فى سلام . وهو متأكد من ذلك . وكان يتحدث بحرارة عن اسرائيل التى زارها مع السادات فى عام ١٩٧٧ . وسيكون هناك تبادل ثقافى واقتصادى بين الدولتين عما قريب، كما كان الحال بين اليهود والمسلمين فى العصور الوسطى .

وسيستطيع كل طرف ان يتعلم من الآخر الكثير . واذا سلك كل جانب طريقه بحكمة ، فسوف يظهر فجر عصر جديد ، عصر ذهبى . وكان يتحدث بقدر كبير من البراعة والاقناع والحرارة لدرجة اننى لم استطع ان اسأله عما حدث بالنسبة للصور الكاريكاتورية التى كان يعلقها على حائط مكتبه منذ ستة اشهر مضت .

ولكننى الآن هنا فى القاهرة — وليس فى تل ابيب — حيث التوتر والخجل، والامتنان لكرم الضيافة التى اضفوها على ، يعانقنى حيثما ذهبت ، وكنت اريد يائسا ، أن اصدق ان كل شىء قد انتهى حقا ، مدركا ايضا كل الأخطاء والسخافات التى قام بها الجانب الاسرائيلى طوال هذه السنين والتى ساعدت على اثارة العداء المصرى ليصل الى حد ان اصبح ليس بحاجة الى عامل خارجي يقويه ويغذيه واصبح يعيش بعيدا عن الواقع تقريبا . هل تحطمت هذه الدوائر الأبدية الآن ؟ لقد قرأت فى كتاب ما ان الحقيقة النهائيــة من الممكن ادراكها فقط بالبديهة ، عن طريق الارادة والعواطف . اننى اعيش فى القاهرة الآن وسط حقيقة جديدة ، او ربما هذا هو ما آمله . وشحذت بديهتى ، ودعوت الا اكون قد ضللت . وكنت اشعر ان بديهة معظم الشعب فى اسرائيل تغذيها ملابسات مختلفة . وقال موسى صبرى : ان ٩٩ ٪ من الشعب المصرى فى مصر يؤيد معاهدة السلام بشدة ، وهنــاك فقط بعض الاشخاص فى حكومة السادات لايزالون يتشككون فى كون مصر قد اتخذت الخطوة السليمة اولا . وقال صبرى : انه لايزال هناك شىء قوى داخل الحكومة فى نوايا اسرائيل وخوف من ان يخدعها بيجين .

وفى اسرائيل ، عندما غادرتها متجها الى مصر ، بدا لى عكس ذلك . فقد بدت الحكومة متأكدة من انها فعلت الاجراء الصحيح وفى الوقت المناسب. اما افراد الشعب فلايزال الشك والخوف يملآن قلوبهم ، لدرجة تشبه المرض العصبى . ان هذا الاختلاف بين مصر واسرائيل ليس من الصعب ادراكه .

فهو ناتج من التناقض بين دولة ديمقراطية برلمـانية ودولـة تسـلطية . فالديمقراطيون لا يدخلون الحرب بسهولة . وعندما يفعلون ذلك فانهم يميلون الى ان يضفوا على الصراع طابع الحتمية والقدرية . وعندما غادرت اسرائيل لم يكن هناك الحماس المفرط تجاه توقيع معاهدة السلام الذى لمسته فى كل مكان منذ وصولى الى هنا بين الجماهير المصرية . اما فى اسرائيل فقد ساد جو غريب ومرير من الشك والقلق غير المحدودين .

وعندما حانت اللحظـة التى كان الاسرائيليون يصلـون من اجلهـا وينتظرونها منذ عشرات السنين — تحقيق السلام مع اكبر واقوى دولة عربية — نجد انها لم تصل الى مستوى الآمال المعقودة عليها . فقد اخذت مفاوضات السلام تتلكأ طويلا فى أسوأ اسلوب مبتذل ممكن ، يصحبه عواصف خبيثة وازدراءات من كل جـانب وايماءات حـادة من الرفض والاحتقار . واجتازت المفاوضات كثيرا من التقلبات عندما بدا ان كل شىء قد ضـاع ، وعندما كانت الأزمة تنفرج أحيانا فلا يصدقها احد . وحتى اللحظة الأخيرة لم يكن احد منا متأكدا من اننا على وشـك عبـور (روبيكون Rubicon اننا نقوم بمجرد اصطياد السمك منه . واخيرا تم التصديق على الصفقة فى جو استعراضى مضحك لحدث من أحداث (هوليود) الكبرى .

كم كان منظرا مثيرا للدهشة عندما غادر بيجين رئيس وزراء اسرائيل مطار تل ابيب ليحضر احتفال توقيع معاهدة السلام فى واشنطن .. اننى اتذكر هذا المشهد فى التليفزيون . فقد كان مشهدا كئيبا .. بيجين وحده هو الذى كان يبتسم ابتسامة عريضة ولكن فى شىء من الضيق ، هذا ما خيل الى وقام الصف الطويل من مودعيه فى المطار بتحيته بتحفظ ومراعاة كما لو كانوا يودعـونه وهو ذاهب الى جنازة . وقـد كتب الشـاعر (ش. شـالوم Sh. Shalom مرة يقول : « اننا نبنى القدس مثل رجال يرتقون المشانق، ملخصا فى سطر مشهود واحد من المشاعر المختلفة من السخرية والحماس ، التى انتابت عددا كبيرا من الاجيال من الرواد الصهاينة .

وكانت الصحف الاسرائيلية هذا الصباح — الجمعة الموافق ٢٣ مارس — مليئة بالمخاوف والشكوك .. فقد كتب آحرون ميجيد Aharon Megged وهو أحد الروائيين الممتازين يقول:ان قلبه يرتجف اسفا لفكرة افتقاد اسرائيل لجبل سيناء ، وايضا للتخلى عن « الصحراء — وتركها منهبا للرياح والشمس والموتى » ، وهى ملحوظة مثيرة للدهشة اذا اخذنا بعين الاعتبار حقيقة أن سيناء يسكنها حوالى ٥٠٠٠٠ من البدو . وقد اعلن المصريون لتوهم عــن خططهم الخاصة باعادة استيطان ٢٠٠٠٠٠ — مصرى آخرين فى المنـاطق المستصلحة فى سيناء التى ستصبح خصبة بعد توصيل مياه النيل اليها عن طريق انابيب .

وكتب ميجيد Megged يقول « فى اى تاريخ من تواريخ الشـعوب سمعتم بمثل هذا الشىء ؟ بعد الانتصارات ، وليس بعد الهزائم ؟ وانتقـد موشى ديان — وزير الخارجية — عندما اعلن ان معاهدة السلام « شىء طيب للغاية » . وميجيد Megged شخصيا لا يرى فيها اى شىء طيبا ، كمـا انه لا يفهم كيف يستطيع الشعب ان يشرب نخب السلام ويقول : كيف يصبح اى فرد مسرورا وسعيدا وقلبه يرتجف من الأسف ؟ .

ونشر مؤلف اسرائيلى آخر مشهور ويدعى حاييم جورى Haim Gouri قصيدة مماثلة حول ضياع سيناء ، وجهها بصيغة الأمر ، كما لو كان يودع امرأة تركع عند قدميه تتوسل اليه وهو يعانقها وعيـــونه تملؤها الدموع ، للمرة الأخيرة فى حياته . « وداعا ياسيناء . ودائما ايتها الارض الشاسعة التى تمتد لتصل الى الأفق .. ودائما ذكرياتى القديمة » . وكنت مندهشا لهذه الاشارة . هل كان جورى يقصد ان ذكرياته قد ضاعت منه الآن ؟ من الواضح ان هذا صحيح . « ودائما ذكرياتى القديمة ، ذكريات الخروج من مصر وتسلم التوراة (فوق جبل سيناء) . وقد فهمت من هذا ان جورى لم يعد لديه اية نية للاحتفال بذكرى نجاة اليهود القدامى من العبودية فى مصر ، واستطرد يقول فى حزن « ان سيناء القفرة عزيزة علينا اوائل فجر هذه الامة .. اننى متأكد انه حصل على تلك الحقيقة من مكان ما ، لكنى لا اجد اى مرجع لها فى اى مكان . « وداعا ، ايتها السواحل الســاحرة ، الصامتة ، المرجانية (للبحر الاحمر) . وداعـــا . وقد أعرب جـــورى عن قلقه من ان المصريين سيظنون الآن ان تلك الأرض العجيبة والمدهشة هى « ارضـــهم بالفعل ، وليست ارضنا » .

وانما اورد مثل هذه المقالات هنا كأمثلة ليس فقط للروح الوطنيـــة المتشددة الحادة — وان كانت تمثل الأقلية — بل أيضا للبلبلة والقلق والضجر العام ، وقد نتجت كلها عن عشرات السنين من القلق والحرب . والكثير من الناس لا يستطيعون ان يصدقوا هذا النوع من المصريين — وقد جاء فى سفر الخروج ١٣ : ١٤ « ارايتم انكن لن تشاهدوهم مرة أخرى على الاطلاق . والبعض الآخر يتطلعون الى المساومات . وقد كتب آموس عوز ، وهو احد الروائيين يقـــول « ان الشخصيات الاسرائيلية التى تحب الكسب بدون ثمن ، تفضل ان تحصل على السلام بلا ثمن لقد ادى الاحتلال طوال اثنى عشر عاما الى ان يعتاد الشعب على مكاسبه المادية . فقد نسوا كيف تم فى المقام الأول . وقليل من الاسرائيليين من طالب قبل ١٩٦٧ بحق السيادة على شبه جزيرة سيناء . وعندما غزت اسرائيل الصحراء فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، أعلن موشى ديان انه « ليس لدينا اى اهداف اقليمية » . واحتفظ بالأرض رهنا يمكن التخلى عنه فى مقابل تحقيق السلام . الا ان الشهية قد انفتحت لها مؤخرا . لقد اعتاد الكثيرون ، بمرور الوقت ، اعتادوا على حالة الحرب الدائمة . لقد كان من الصعب ان نحررهم من هذا الشعور .

هذا وقد وقعت حادثة فى احدى المدارس العليا بالقدس قبل سفرى الى القاهرة بأيام قليلة ، ولفتت نظرى بكونها معبرة عما يجرى . فقد كان من المقرر ان يتم التوقيع على معاهدة السلام فى واشنطن يوم الاثنين الموافق ٢٦ مارس . وكان طلبة المرحلتين العليا فى المدرسة يعملون كمراقبين صغار للغارات الجوية . واخبرهم قائدهم — بكل حزم وجدية — انه من المحتمل ان تنشب الحرب فى اليوم التالى ، الثلاثاء . وتم أعطاؤهم اشارات كودية ،يتم اذاعتها بالراديو فى حالة الطوارىء . وقيل لهم انه عند سماع هذه الاشارات ينبغى عليهم ان يتجهوا الى مواقعهم وان يساعدوا الناس على التوجه الى المخـــابىء .

ويوم توقيع المعاهدة ، انخفضت الاسعار فى سوق الأوراق المالية فى تل ابيب انخفاضا ملحوظا وكأن الحياة كانت تحاكى احدى روايات بريخت. ويقول احد الاقوال اليهودية القديمة ان المسيح سيأتى مرتديا الاسمال البالية.

ونشرت الصحف انه فى يوم الاثنين ذاك ، ذهب أحد الرجال المسنين الى الحائط الغربى ومعه مذكرة ثبتها بين الاحجار القديمة . وجاء فى المذكرة : « اتوسل اليك يا ربى ، ان تترك الامور كما هى اكثر من ليلة واحدة » .وقد اعاد هذا الى ذاكرتى ماكتبه بريخت Brecht فى الام (شجاعة) .

القسيس : « نحن الآن بين يدى الله » .

الأم شجاعة : « اننى آمل الا تكون الأمور قد ذهبت الى هذا الحد » .

لم يستطع الكثيرون ان يخلدوا الى نوم مريح تلك الليلة ..

الفصل الثانى

زحت فى سبات عميق الليلة الماضية ، واستيقظت فى الصباح ولدى شعور بالذنب هل اواجه القلق والاثارة بقلب صلب ؟ لكننى قلت لنفسى ، ان هذا يرجع معظمه الى الارهاق الذى كنت اشعر به لا الأحلام . ان الحقائق افضل . ان مناحم بيجين رئيس وزراء اسرائيل سيصل الى القاهرة اليوم.. انها زيارة رسمية ، وهى الزيارة الأولى التى يقوم بها للقاهرة .. وعمدت صحف القاهرة الى ان تؤكد صباح اليوم الى انه هو الذى وجه الى نفسه هذه الدعوة .. وذكرت تلك الصحف انه كان من الأفضـــل ان يحضر الى القاهرة فى موعد لاحق .

لقد قطعت عشر من الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصــر كعقاب لها على توقيعها على صلح « منفرد » مع أعداء الاسلام .. الا ان بيجين اصر على الزيارة .. اذ اراد ان يعطى لنفسه صفة الشرعية .. وفى جريدة (الجمهورية) كانت هناك اشارة مقنعة الى طريقة اليهود فى اقحام انفسهم .

وذكرت انه سيتم معاملته معاملة سليمة ولكن بوصفه سائحا بدرجة رفيعة ، وليس اكثر من هذا .. ووجدت نفسى ، لأول مرة ، احيى حاسة بيجين المسرحية ، تلك الحاسة التى أجدها عادة قبيحـــة . ولكنها تبـــدو اليوم وكأنها تخدم هدفا مفيدا ، مضيفة بعض الندى الى التربة القاحلة التى تم فيها زرع بذور السلام . وربما تساعد تلك البذور على النمو .

ووصلت طائرة بيجين ، التابعة للسلاح الجوى الاسرائيلى رقم ١ ــ حيث ان الدول الصغيرة تقلد الدول الكبرى اليوم ــ وصلت القاهرة وسط عاصفة ترابية اذ بلغت درجة الحرارة ٤٢ درجة مئوية . ولم يكن الرئيس السادات او الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء ــ فى انتظاره فى المطار . بل كان حسنى مبارك ــ نائب رئيس الجمهورية واحد الطيارين السابقين ــ على راس وفد الاستقبال ــ وبدا على المسئولين فى الوفد الاسرائيلى الذى سبق بيجين ، الغضب على هذا التجاهل، وقارنوا هذا الاستقبال بالاستقبال الحافل الذى حظى به السادات فى القدس منذ ١٦ شهرا . وبدا أيضا على بيجين شخصيا ، وهو ينزل من على سلم الطـــائرة ، التوتر غير انه كان رابط الجاش .

وبيجين نحيف الجسم متوسط الطول . ولاحظت للمـــرة الأولى اثناء سيره فوق البساط القرمزى الطويل ــ فلسنوات الاحظه ــ ان خطواته تتلاءم مع كلامه . فقد كانت فى لحظة بطيئة ورقيقة ، وفى لحظة اخرى سريعة وجافة . وكان وجهه اللامع الرطب يشبه وجـــه شخص قضى ليلة طويلة مرهقة داخل كهف مظلم. فقد كان شاحبا ،رمادى اللونفى لون بذلتهالحريرية، وكان يلمع فى ضوء الشمس ، وشعره الناحل يتطـــاير مع تطـــاير الرياح الحارة ، وعدسات نظارته السميكة تقوم بتكبير ماتعكسه عيناه من تصميم شديد . وكانت الشمس بحرارتها مسلطة على راسه الخالية من الشـــعر تقريبا . وكان يقف فى حالة « انتباه » فى شكل صارم ، يشبه الى حد ما المجند فى الجيش ، وذراعاه مشدودتان باحكام تجاه خياطة « سترته » ويكادان يختفيان تقريبا داخل ثنياتها . وعندئذ عزفت الفرقة الموسيقية العســكرية المصرية النشيد الوطنـــى الاسرائيلى ، حتيكفاه **Hatikvah** ، مع بعض الأخطاء فى النوتة الموسيقية هنا وهناك . وكان التليفزيون المصرى ينقـــل صورة حية لهذا الاستقبال على الهواء .. ويعتبر هذا النشـــيد الوطنـــى الاسرائيلى حتيكفاه **Hatilvah** واحدا من الاناشيد الوطنية الحزينة ــ فكلماته تقول « اننا لم نفقد الأمل بعد » . وكانت نغمته الحزينة منقولة من لحن مولداڤا ، للموسيقار سميتانا **Spinoza** ولم تكن عيون بيجين ، فى محجريهما الواسعين ، تتحركان . كما انه ــ وهو النـــاجى من الكوارث النازية اذ ان اسرته قد ابيدت اثناء الحرب فى بولندا ــ لم يجفل وهو يواجه حرس الشرف فى مشية الأوزة ، الذين جهزوا ــ من بين كل عدة الحرب ــ بالخوذات الحديدية ذات الطابع الالمانى ــ ايام الحرب العالمية الثانية ــ وهى التى الغيت منذ زمن بعيد فى المانيا ولم يتم هناك تبادل للكلمات . فقد قيل كل شىء يمكن تصوره فعلا خلال عملية المفاوضات الطويلة .

ويتساءل احد أعضاء الوفد المرافق لبيجين ، رئيس الوزراء ، وهـــو منزعج نوعا ما ، لماذا لم تطلق المدفعية ، احدى وعشرين طلقة ؟ كلا ، فوفقا للبروتوكول المصرى لم يحن اوان ذلك بعد . وساد صمت غريب جميع ارجاء المطار ، الذى تم اغلاقه ، لعدة ساعات ، امام كافة الطائرات الأخرى . وقام رئيس الوزراء والوفد المرافق له بتحية مستقبليهم الذين ينتظمون فى صف قصير وكان آخر شخص حياه بيجين هو شيخ الأزهر ، هذا الأزهر الذى يعتبر المركز الرئيسى لتعليم أصول الدين فى العالم الاسلامى . واخبرنى المراسل الصحفى الوحيد الذى كان حاضرا (فالآخرون كانوا اما اسرائيليين او اجانب) ان شيخ الأزهر موجود هنـــا بناء على طلب خـــاص من الرئيس السادات ليكون دليلا على موافقة الاسلام على عملية السلام . وتم بعـــد ذلك تقديم المرطبات الخفيفة فى صالة كبار الزوار القريبة من المطار . ونقل القمر الصناعى نص الحديث الذى دار بين بيجين ومبارك وجاء فيه :

قال بيجين : « الجو حار » .

رد عليه مبارك نائب رئيس الجمهورية قائلا : نعم حار جدا .

ــ ان الجو فى اسرائيل اليوم ايضا شديد الحرارة .

ـ اهو حار ،

— « نعم ، فعندما يكون الجو حارا فى مصر ، يكون عادة شديد الحرارة فى اسرائيل ايضا . ولم يكن واضحا كون هذا الحديث بيانا سياسيا او بيانا بالاحوال الجوية . « جونا هو جوكم » .

« آه .. » .

فى اسرائيل نطلق عليه اسم خماسين .

« اتعنى بذلك انه يستمر ٥٠ يوما ؟ ففى اللغة العربية كلمة خماسين معناها خمسون .

« ورد عليه بيجين قائلا : كلا ، ان كلمة Cham معناها بالعبرية « حار » شديد الحرارة . موجة حارة » .

وبعد فترة صمت ، قال مبارك :

« هل كانت الرحلة طيبة ؟ » .

« نعم ، طيبة للغاية » .

وبعد فترة صمت اخرى قال مبارك :

« كم استغرقت الرحلة ؟ » .

« خمسين دقيقة » .

« آه .. »

وساد الصمت مرة اخرى . ويستطيع المرء ان يلاحظ ان التفاهم الحقيقى الوحيد كان بين رجال مخابرات البلدين . فقد كانوا يحومون فى مجموعات ، ينقلون رسائلهم الهامة عن طريق جهاز لاسلكى الى مواقع مراكز قيادة غير مرئية لكنى اتصورها مشتركة . وكان شيئا مذهلا ان يندمجوا هذا الاندماج ، بعد ان كانوا منذ اسابيع قليلة فقط على استعداد لان يشوى احدهم الآخر فى محرقة .

وقد شاهدت منضدة صغيرة مغطاة بآنيات ثقيلة مليئة بالزهور ، فوق تلك المنضدة خريطة كبيرة ملونة معلقة على الحائط . لقد شاهدت تلك الخريطة فى مكان ما آخر — يبدو انها نفس النمط — فى حجرات الاستقبال بالوزارات المصرية وفى مكاتب الصحف . وتغطى هذه الخريطة مساحة شاسعة تمتد من المغرب حتى الخليج الفارسى (الذى يطلق عليه دائما اسم الخليج العربى) الممتد من الطرف الجنوبى لليمن حتى البحر المتوسط شمالا ، حيث يطلق على اسرائيل اسم « فلسطين المحتلة » .

ولم اعد احتمل هذا المشهد ، فاينما اشاهد خريطة من تلك الخرائط فى القاهرة ، كان يصيبنى نوع من العصبية . وحتى الآن ، وبيجين ومبارك فى نفس الحجرة يتبادلان المجاملات حول الطقس . وحاولت الا اعبأ بهذا الامر ، غير ان الصورة المرئية للمعادلة الجغرافية — السياسية .. كانت

مطبوعة فى عينى . فعندما ينظر المرء الى البقعة الحمراء الصغيرة المفقودة عند طرف ما يطلق عليه بالشرق الاوسط العربى ، لا يستطيع الا ان يدرك انه اذا ما استمر هذا العداء ، فان المسألة ستكون فقط مسألة وقت قبل ان تسوى المساحة والاعداد والارقام المشكلة .

وتذكرت عندما دخلت مكتب بن جوريون فى تل ابيب منذ سنوات ، انه كان يحتفظ بخريطة مماثلة فوق مكتبه . وكان ينظر اليها كل يوم . وعندما سألته كيف يستطيع تحمل هذا ، استشهد بما قاله ديجول الذى كان يعتقد ان هناك عاملين ثابتين فى السياسة : التاريخ والجغرافيا . وقال بن جوريون « ان هذا يعطينا صورة » .

وكان فى المطار (جوزيف كرافت Joseph Kraft) احد المعلقين الصحفيين الامريكيين واخبرنى ، ونحن فى طريق عودتنا الى المدينة ، ان (مستر ام) المراسل السياسى لاحدى صحف القاهرة الكبيرة ، مقتنع تماما حتى فترة قريبة بان هناك فى الكنيست الاسرائيلى ، وفوق منصة رئيس المجلس ، خريطة للشرق الاوسط تبين « المملكة التاريخية لاسرائيل التى تمتد من الفرات حتى النيل » .

وعندما ذهب مستر ام M الى القدس مع الرئيس السادات ، لم يجد الخريطة وذهب تفكيره فى اول الامر الى انه قد تم رفعها بسبب المناسبة . واخبر كرافت مؤخرا انه اقتنع الآن واخيرا ان الخريطة لم تكن هناك فى يوم من الايام .

ويقول كرافت : ان مستر ام بطبيعته ، اكثر الرجال تشككا ولكنه ظل لاكثر من عشرين عاما على استعداد لان يعتبر هذه الاشاعة امرا مسلما به . وهكذا يفعل الكثير من الاجانب الذين يعيشون بين العرب . ان الامر يصبح حقيقة نتيجة لكثرة تكراره .

* * *

مقبرة الجندى المصرى المجهول :

هى عبارة عن صرح ضخم من الحجارة مصمم — بقدر ما — على شكل هرم . ولا يزال المصريون يبنون منازلهم من الطين ، اما بالنسبة لمدافنهم فانه يتم بناؤها من الجرانيت الذى يعيش الى الابد . والقبر يحتفى بالموت بشكل تجريدى . اننا فى اسرائيل اعتدنا — ربما اكثر من غيرنا — ان نبكى الموتى المجهولين . غير اننا نجد ايضا صعوبة كبيرة فى تحويل ما هو تجريدى الى معان .

وكانت اول زيارة رسمية يقوم بها بيجين رئيس وزراء اسرائيل الى العاصمة المصرية هى زيارة هذا النصب . وقد صحبه مضيفوه الى هذا المكان فى سيارة (ليموزين) مدرعة وهبط من السيارة وهو يبدو هادئا وناعما ، وافضل بكثير مما كان فى المطار . واخذت الطبول والآلات الموسيقية النحاسية تدق انغامها الحزينة . وكان الفرسان جاهزين ، وكان الرجال — وبالمثل خيولهم السوداء — فى ازهى حلة . ومرة اخرى عزفت الموسيقى السلامين

الوطنيين . واخذت الخيول تثير التراب بارجلها . وكان محفور على واجهة النصب الرمادية اسماء الله الحسنى التسع والتسعون التى وردت فى القرآن « العليم ، القادر ، الكامل ، الرحيم ... » وفى الوسط ، توجد كتلة من الرخام وضع عليها بيجين اكليلا من زهور القرنفل ووجهه لا ينبىء بشىء .. وكان يقف وراء بيجين رجل صامت تبدو على وجهه امارات الاكتئاب يدعى حاييم فيلر وكان بيجين قد احضره معه . لقد فقد اثنين من ابنائه اثناء الحروب ، وفى مشهد سريع يتعانق حزن الجانبين ، بشكل غير رمزى كما كان المرء — يأمل . وهرع المصورون الى تركيز عدساتهم على هذا المشهد .

وقال بيجين ، فيما بعد ، عن وضع اكليل الزهور على قبر الجندى المجهول « ان هذه هى اكثر اللحظات اثارة للعواطف والاشجان » . « ان الجندى المصرى لبى نداء الوطن وحارب ضدنا . لقد ادى واجبه . ومن اجل هذا اقدم له فروض التكريم » .

وناقشت هذه المسالة مع احد اعضاء الوفد المرافق لرئيس الوزراء . اننى اعترف ان بيجين اراد ان يكون ذا مروءة . ولكن الم يكن باستطاعته ان يقوم بهذا الواجب تجاه الموتى دون ان يستحضر صورة هذا الواجب الالهى الذى يفنى فى سبيله الجسد ؟

« اتريد ان تلغى الواجب » ؟

انما اريد ان اعيد تشكيله .

فى كل مكان ؟

بكل تأكيد .. فاننى اجد ان بطولة السادات المتصورة لا طعم لها . فقد قال مؤخرا انه خلال الحرب الاخيرة كان فخورا بان يصدر أوامره الى ابنائه ليضحوا التضحية الكبرى » . « ابناؤه هو » تصور !

« اننى لا افهم . هل تريد ان تجرد الدولة من سلطتها ؟ » .

« تقصد الوهيتها ؟

« انما قلت سلطتها » .

تقصد قوانينها المعصومة من الخطأ ؟

« اقصد الشىء الذى يجعل افراد الشعب مستعدين للقتال » .

« ما هو هذا الشىء » .

« الثقة او الغضب » .

حين تدفع اليه الدولة .

اتريد الغاء الدولة ؟

ربما اريد تحسينها .

تريد دولة لا يثق بها احدا .

لا يثق فيها اكثر مما تستحق بهذا حدثت نفسى فى صمت .

اخذت افكر فى ثمن الواجب . فقد نشرت صحف الصباح نقلا عن وزير مالية السادات قوله ان ١٠٠٫٠٠٠ جندى مصرى قد استشهدوا خلال الثلاثين عاما الماضية — تادية للواجب واضاف قائلا : ان مصر كانتتستطيع بالـ ٥٨ بليون دولار التى تكلفتها الحروب ، ان تعيد بناء كل قرية فى وادى النيل وقد اعرب توفيق الحكيم — الكاتب الروائى المصرى الكبير عن راى مماثل لهذا الراى عام ١٩٧١ . ان الأمر احتاج الى ثمانى سنوات بالاضافة الى حرب اخرى حتى توصل السياسيون الى هذه النتيجة .

اهرامات الجيزة وابو الهول . مزيد من اضرحة الموتى وربما كانت اضخم اضرحة اخترعها الانسان . صناعة ضخمة بشكل مذهل — كم عدد البشر الذين ضحوا بارواحهم فى سبيل اداء واجبهم اثناء قيامهم ببناء هذا الصرح الضخم لتكريم الموتى ؟ وقد هبط بيجين رئيس الوزراء ومضيفه الرسمى ، وزير العدل المصرى ، هبطا من السماء فى طائرة هيلكوبتر ونزلا منها وكانا يشبهان الهين من ملامح هوميروس وهما يختلطان ببشر عاديين وقد تم اخلاء المنطقة تماما من السياح ، والجمالين وسائقى البغال والحمير الذين يزحمون المنطقة عادة . وكان هناك بدلا منهم مئات من رجال الشرطة فى زيهم الرسمى الشتوى الاسود وبلغت درجة الحرارة فى ذاك الوقت ٤٥ درجة مئوية . وعندما توقفت محركات الطائرة الهليوكبتر خيم الهدوء العميق على المنطقة ، حتى بدأ المصورون يرفعون أصواتهم ويتساقطون بعضهم فوق بعض وهم يندفعون ليصوروا الزعيم الاسرائيلى و (بروفيل) وجهه مطبوع فوق (بروفيل) وجه ابى الهول . وكان وجه بيجين شاحبا وجبهته تلمع من شدة الحرارة ، وذقنه تتجه الى اعلى بعض الشىء ووجهه يتلخص فى خطوط فمه الحادة . وكان هذا — ولايزال سلاحه الرئيسى — آلة للخطابة لا تعرف التعب يصدر عنها السخرية والحذلقة الوطنية اكثر من اى آلة اخرى فى اسرائيل . ويصعد الى داخل الهرم الاكبر ثم يهبط منه .

وقد زعم فى احدى المناسبات ان اليهود هم اصحاب الاهرامات ، الذين بنوها بايديهم وهم فى ديار العبودية المصرية . وفى احدى لحظات مرحة ذهب بيجين الى حد القول اننا ينبغى ان نقدم للقاهرة فاتورة حساب بالجهد الذى تمنا به ، ولو ان ذلك جاء متأخرا .

وسأل احد المراسلين المصريين بيجين « سيادة رئيس الوزراء .. الا تزال متمسكا برايك القائل بأن اجدادك هم الذين بنوا ابا الهول ؟ » .

قال له ، كلا ، انه غير متمسك بهذا الراى ، انه آسف ، فقد غالط فى حوالى ١٥٠٠ سنة او ماشابه ذلك . ليس هناك زعم بهذا . لقد اعاد لهم

اهراماتهم ، انها هدية منه لهم لا تكلفه الكثير . وقد تقبل المراسلون المصريون — وكانوا اكثر من عشرين الآن — هذه الأنباء الطيبة بنوع من الغبطة .

شكرا سيادة رئيس الوزراء « ان رجال الصحافة فى هذه الدولة شبه الشمولية ، رجال على درجة كبيرة من الأدب . واعرب بيجين مرة اخرى عن مدى امتنانه وسعادته لوجوده هنا . ويلقى محاضرة عن الأهرامات — بصفة عامة وبصفة خاصة — هنا وفى المكسيك وفى بيرو . واضاف يقول — ويبدو انه لا يعرف ابدا متى يتوقف — « عندما كان نابليون هنا فى عام ١٧٩٨ ، قال ان ٤٠٠٠ سنة من التاريخ ترنو اليه . ومنذ ذلك الحين ، مر ١٨١ عاما على هذا الحديث . اسمحوا لى ان اقول بكل تواضع — وانا رجل بسيط — ان ٤١٨١ عاما ترنو الينا الآن .

انه هذا نوع من الرجال . فهو رجل جعجاع انانى — مثلما ينبغى ان تكون عليه صورة معظم السياسيين فيما يخيل الى . وبدون مثل هذا الوقود السام ، لن يستطيعوا مواجهة مطالب ومضايقات السياسة فى ديمقراطية شعبية . ان رجلا لديه مواهب فكرية كبيرة ، لا يجهل على الاطلاق انه عندما ذكر اسم نابليون فانه بذلك يكون قد استشهد باحد الغزاة الاجانب — ومع ذلك هو مدفوع فى نفس الوقت الى الخطابة .

ويستشعر نوعا من السعادة الحسية نتيجة استخدامه لاحباله الصوتية . انه رجل نرجسى عدوانى ، ثرثار لدرجة انه لا يقبل ان يتعلم ، وغالبا ما تعوزه اللباقة . وقد اخبرنى احد المعارف المصريين بان السادات اشار مؤخرا ، باستسلام فلسفى : وما الذى نستطيع ان نفعله ، انه افضل « بيجين » صادفناه . ولم يسبق ان تولى منصبا عاما فى اسرائيل من قبل شخص يدور حوله الجدل بهذا القدر . فهو ارهابى سابق يعيش فى مجتمع يعتبر الارهاب شيئا بغيضا : ولسنوات عديدة كان هو الشخص المنبوذ المحتقر فى السياسة الاسرائيلية وكان شخصية هامشية فى الحياة الاسرائيلية بحيث لم تتم الاشارة اليه فى الكتب التى تمت كتابتها قبل ١٩٧٥ الا بطريقة عابرة . وكان زعيم معارضة لم يحرز اى نجاح فى ثمانى جولات انتخابية اسرائيلية متتالية . وفى الجولة التاسعة — فى اعقاب الفضائح المالية التى زلزلت صفوة حزب العمل الحاكم — احرز نجاحا مذهلا ، كان مفاجأة بالنسبة لكل فرد — حتى هو نفسه — ما فى ذلك شك .

وقد اطلقت عليه جولدا مائير اسم « العضو السرى الفاشستى الغوغائى » وكتب بن جوريون يقول : انه اذا اطلق لبيجين العنان فانه « سيلحق الدمار التام باسرائيل . واقل شىء سيفعله هو انه سيجعل اسم اسرائيل شيئا بغيضا فى جميع انحاء العالم المتحضر » .

وهو شخص محافظ فيما يتعلق بمعالجته لمعظم القضايا ، ابتداء من الشئون الاقتصادية الى الشئون السياسية . ونظرا لعدم رضائه بان تظل اسرائيل محصورة فقط داخل حدودها الدولية المعترف بها ، زعم فى الماضى انها لا تشمل فحسب منطقة فلسطين باكملها ولكن ايضا منطقة ما وراء الاردن . ولو كان العهد القديم قد ذكر ان القمر جزء من وعد الله لليهود فى

العصر البرونزى ، لقام بيجين بضمه الى اسرائيل ان امكنه ذلك . وكان بيجين قد جادل فى الماضى مدافعا عن العديد من المغامرات ضد الدول العربية المجاورة . وفى اواخر الخمسينيات تم استدعاء احتياطى الجيش — بطريق الخطأ — عن طريق الراديو . وتم الغاء هذا الأمر فور اكتشاف هذا الخطأ بيد ان بيجين كان قد اعتلى منصة الكنيست يبارك عملية تقدم الجنود ، ولكنه لم يتريث ليسأل كيف يتم هذا او لماذا او حتى الى اين . وفى مذكراته اعاد صياغة كلمات ديكارت ليحدد شعاره : « انا احارب ، اذن انا موجود » . وقد اطلق موشى شاريت وزير خارجية سابق — مرة ، على عقل بيجين انه « واحد من اكثر المناطق تخلفا فى الشرق الأدنى » .

ومع ذلك ، ويا لسخرية الاقدار ، اصبح هذا الرجل ذو الميول اليمينية التى تغالى فى القومية اصبح بعد شهور قليلة فقط من اعتلائه السلطة فى عام ١٩٧٧ — هو صانع السلام ، ومستعدا لأن يقدم التنازل الذى لم تستطع حكومة حزب العمل المعتدلة ان تحمل نفسها على تقديمه . او هل كان سبب ذلك — كما صرح معارضوه فيما بعد — انه لم يكن امام بيجين امر آخر كى يعارضه ؟ وهناك مثل فرنسى — والفرنسيون مدربون على مثل تلك الأمور — يقول « ان اليمين دائما هو الذى يصنع السلام » . ان النتيجة الطبيعية ، بكل تأكيد ، هى ان اليمين ايضا — فى معظم الاحوال — هو الذى يصنع الحروب .

* * *

عن الخطابة :

ما سبب عدم وجود ما هو جدير بان يذكر — ولو من بعيد فيما يتعلق بتصريحات السادات او بيجين العلنية ؟ ان هناك فرقا بسيطا بين التعليقات المعدة وبين تلك التى يرتجلها الزعيمان فى اى لحظة محددة. ونفس الشىء ينطبق على ماحدث فى واشنطن منذ ايام قليلة خلال الاحتفال بالتوقيع على معاهدة السلام فى حديقة البيت الأبيض الأمريكى . فقد اعطت الخطب المتكلفة وزنا لشعور عام بتعاسة لم تكن الآمال معقودة عليها كانت خطبا رنانة ، وربما قابلة للقراءة ، لكنها لا تنطبع كثيرا فى الذاكرة .

ومع ذلك يراس هذان الرجلان اعرق شعبين من شعوب العالم اليوم. لقد ذهبت شالديا وسومر وكانت اوروبا عبارة عن غابات ومستنقعات يسكنها الهمجيون عندما تقابلت مصر واسرائيل لاول مرة . ومع ذلك تنفذ جعبتهما فى الظلام ؟

ان العزاء الوحيد الذى يتبادر الى الذهن هو ان البلاغة ليست سوى نص كلمات الأوبرا ، الذى له خاصية ثانوية ، كما هو الحال بالنسبة لمعظم الاوبرات العظيمة . ان الأجيال القادمة سوف تنسى الكلمات وتتذكر الموسيقى .

هل التليفزيون احد الأسباب ؟ انه لمن الحرج ان نشاهد ابا من تلك الاحداث شخصيا او نشاهدها على شاشة التليفزيون . ويصاب المرء بخيبة امل واحباط اذ يقال ان المثلين يمثلوننا ، وانهم يحملون على عاتقهم

عبء ماضينا القديم والحديث ، ومشكلاتنا وشواغلنا واهم من هذا ان المرء يفتقد عزة معينة . الخيط الذهبى لمعاهدة تيلسيت للسلام . لكن الامور لم تسر على هذا النحو فوق العوارض الخشبية فى نهر نيمان ، او فى فرساى Versailles او فى يالتا Yalta او ايفيان Evian . ان الاشرار كانوا يدبرون المؤامرات فى يالتا Yalta ، ولكن لم يحدث ان ادخل اى منهم اصبعه فى انفه امام الكاميرا .

وقبل سفر السادات الى القدس ، كان آخر مؤتمر قمة مصرى يهودى قد تم عقده منذ ٢٠١٣ عاما . ففى عام ٣٤ قبل الميلاد زارت كليوباترا حيرود الاعظم Herod the Great فىالقدس .وكان الغرض من هذه الزيارة هو الضغط على الملك اليهودى للتخلى لها عن اجزاء كبيرة من مملكته. غير ان هـذه الزيارة لم تحقق نجاحا واضـحا . وكانت نتيجتها الفورية توجيه الاتهامات القاضية والاتهامات المضادة . وزعمت كليوباترا ان حيرود قد حاول اغتيالها . وقال حيرود انها حاولت اغراءه .

ويعتقد البروفسور مايكل جرانت Michael Grant الذى كتب سيرة هذين الملكين الشرقيين — ان مزاعم كليهما ربما كانت حقيقية ، فانهما كانا يخططان لأسباب مختلفة — للتأثير على انطونيو Antony ، اعظم قوة فى ذاك الوقت . ويقول جرانت ان كليوباترا كانت تلح باستمرار على حبيبها ليقوم بفك الدولة اليهودية ويسلم لها اقاليم تلك الدولة الغنية . ولتحقيق هذا الهدف ، كان ينبغى عليها ان تستخدم كل اسلحتها التى اشتهرت بها ، اسلوب التعنيف والتوبيخ ، والدبلوماسية والجنس . ويقول جرانت:ان هذا النزوع كان يستبد بها وفى النهاية استسلم انطونيو لرغباتها واعطاها مناجم القطران الخاصة بحيرود والواقعة على البحر الميت ، ومدينة اريحا وقطاع غزة . اما بالنسبة لبقية المناطق الاخرى فقد ظل متمسكا برايه ، ولا ندرى ماذا كلفه هذا الأمر ، عاطفيا او خلاف ذلك .

مأدبة عشاء رسمية فى قصر القبة . وهو المقر الملكى السابق — مقر فخم ملىء بالزخارف الذهبية والقطيفة والثريات المصفوفة من الكريستال ، وان كان قد ابتدا يظهر عليه البلى . وقد تم بناؤه منذ اكثر من قرن من الزمان على يد خديوى صورى لمصر . وقبل وصول بيجين ببضع دقائق ، تم رفع الاعلام فوقه . واتخذ حرس الشرف من الفرسان مواضعهم منذ ساعات ، على جانبى المدخل الرئيسى . وكان رجال الأمن هم الآخرون فى الانتظار . انهم يزدادون توددا بمرور الوقت .

ويقول احد رجال المخابرات الاسرائيلية باعجاب : « انهم اكفاء . انهم يختلفون فى اساليبهم عنا . الا انهم اكفاء . وقد حاول احد الصحفيين الأمريكيين بعد ظهر هذا اليوم ، ان يجرى حوارا مع احد الفلاحين الذين يرتدون الجلباب وكان يقرا احـدى الصحف خـارج قصر القبة . ويقول انه لاحظ من وراء الصحيفة انه يحمل مدفعا رشاشا اسرائيلى الصنع .

ونظرا للحر الشديد — فهناك حجرات قليلة فى القاهرة مكيفة الهواء — فقد تم وضع المناضد الدائرية فى الحديقة الفسيحة . وكان مثقلا برائحة :

الازهـار والعطور . وكانت سيدات الصفوة السياسية والعسكرية المصرية متانقات فى ملابسهن المصنوعة من البروكار والحرير . وكان الطعام — كما يحدث غالبا فى مثل تلك المناسـبات — ليس اثبت فى الذاكرة من الخطب نفسها . وتحدث السادات باختصار شديد ولم يتعد حديثه ثلاث جمل .

واختتم حديثه بقوله « لنرفع كؤوسنا من ماء النيل الغالى ، وعندئذ رفع كاسه الملىء بمياه ايفيان الفرنسية وقال « ونشرب نخب السيد مناحم بيجين والسيدة قرينته » .

اما بيجين فقد القى كلمة اطول . وكانت هذه هى المـرة الاولى منذ وصوله القاهرة التى يقابل فيها السادات . ويبدو ان الحب القائم بينهما لم يفتر كثيرا ، ومما لا شك فيه ان كلا منهما كان لايزال متخوفا من حقيقة الآخر ، وكلاهما ربما يكون لديه الحق فى ذلك . ولم يأت بيجين بالمعجزات وهو يلقى بكلمته امام الفرعون — وقد كان هذا واضحا تماما — فالله لم يزوده باى من هذه المعجزات — ولكن السادات يقول مرة اخرى : « لن تكون هناك حروب بعد الآن ، وانما جهود لتحقيق الرخاء والسلام » . واخذ بيجين يروى كيف انه شاهد منذ ايام قليلة — من على بعد — احد الشباب المصرى يجلس على مقعد ذى عجلات . اننى لن انسى هذا المشهد . ان عندنا فى اسرائيل عددا كبيرا من الشباب الذين يجلسون على مقاعد ذات عجـلات ايضا اننى لا استطيع ان انساهم . هذا الرجل الذى قال فى احدى المرات « انا احارب ... اذن انا موجود » ، فجـاة يبدو عليه التعب الشـديد ، والوهن . ان شحوبه يكاد يكون شفافا .

وفيما بعد، تجمع الوزراء المصريون والجنرالات وضيوفهم من الاسرائيليين تحت عقود الانوار الملونة يتجاذبون اطـراف الحديث فى جو ودى بل فى جو مفعم بالحيوية والحماس . واخذوا يتبادلون حكايات عن هذه الحرب او تلك — وما اكثرهـا — ويعلقون على هذه النقطة الدقيقـة او تلك فى ملاحظات بيجين او السادات وكانت الاوركسترا تعزف وتتصاعد نغمات الموسيقى من خلف شجيرات الورد وللحظة كانت حدائق قصر القبة تحت الانوار الساطعة صـالون انا بافلوفا شيرير Anna Povlova Scherer فى قصة تولوستوى Tolstoy « الحرب والسلام » ، حيث غلف الضيوف المأساة الانسـانية بالابتسامات والكلمات الرقيقة المتحضرة ، اذ يتحدثون بفرنسية مختلطة بانجليزية « والآن يا اميرى طمنى كيف حالك ياصديقى العزيز ، حتى اهنا بالا » .

الفصل الثالث

يقع فندق شيراتون ـ حيث اقيم حاليا ـ فى قلب القاهرة فهو يواجه الجزيرة فى النيل وتحيط بالجزيرة اشجار النخيل والحدائق الخضراء .

فقد انتقلت الى هنا منذ بضعة ايام قادما من فندق السلام بجوه الذى يشبه معسكر الاعتقال والذى يقع فى احدى ضواحى المدينة البعيدة . وكان بيجين والوفد الرسمى المرافق له ، والصحفيون ورجال الامن ـ قد عادوا الى اسرائيل ويبدو اننى كنت العدو السابق الوحيد الذى تركوه فى القاهرة. وليس هذا صحيحا تماما ، اذ انه تم السماح لرجل آخر ـ وهو مراسل تليفزيونى ـ بالبقاء ايضا وهو ينزل فى فندق آخر يطل على الجانب الآخر للنيل . ومع ذلك ثمة شعور غريب يسيطر على .

وكنت استيقظ فى الصباح الباكر على صوت ابواق السيارات واطاراتها المزعجة ، ولم تستطع ابواب حجرتى المصنوعة من الزجاج ان تحجب عنى ضجيج المرور ،فحركة المرور تبدأ بعد الخامسة مباشرة . وعندئذ استيقظ من نومى وافتح الستارة السميكة واجدنى مستيقظا تماما ولا اشعر اننى متعب . اهى نعمة ان اجد نفسى ، هذا الفجر مستيقظا ؟ ويقول صديقى يورام كانيوك Yoram Kaniuk الروائى الاسرائيلى ان صغار السن وكبار السن فقط هم المتفائلون . وكلانا فى ذلك السن الغريب سن الخمسين . لقد مر على وجودى فى القاهرة حوالى اسبوع والتوتر الذى يحدثه كونى هنا، وتوتر الذهن والاعصاب ، كل هذا لا يزال شديدا فبعد اربع او خمس ساعات نوم كل ليلة ، استيقظ فزعا ويأخذ التوتر اشكالا مختلفة ايضا . فأجد نفسى واعتصر يدى كثيرا ، وسرعان ما اتحول الى مدخنة من السجاير.

وعندئذ اتجه نحو الباب الزجاجى وافتحه واخرج الى شرفة صغيرة ، ومنها اشاهد صفوفا من السيارات وازدحاما فى الشارع حتى فى هذه الساعة المبكرة . اما الكبارى الرحبة التى لا تقع على مسافة بعيدة ـ فقد ازدحمت ايضا بالسيارات وبالمترجلين فى كتل داكنة . والمشهد فوق النيل ، من هذا الطرف او ذاك مذهل للغاية ، حيث القوارب التجارية والفلوكة والاشرعة الملونة ، والمساحات الواسعة التى اعتبرها الكثيرون رائعة والتى تشبه الى حد ما الجزر فى بحار الجنوب ، حيث اشجار النخيل العالية وسلسلة جبال الفنادق ذات الالوان التى تشبه الآيس كريم ، وغيرها من العمارات السكنية الفاخرة والى اسفل الفندق وعلى يمين النيل ، يوجد قصر احد الباشوات السابقين ـ وهو الآن مقر السفير السوفيتى فى القاهرة ، ويليه

المقر الرسمى للرئيس السادات ، وهو يملك ١٢ منزلا اخرى ، فى كل المدن الرئيسية وفى كل المنتجعات الموجودة فى شمال وجنوب مصر. ومنزل السادات القائم فى القاهرة عبارة عن فيلا بيضاء مكونة من ثلاثة طوابق ، ذات نوافذ خشبية داكنة وتبدو انيقة بطريقة هادئة ، وقد كانت فى الماضى مسكنا لاحد رجال الاعمال الاثرياء ثم استولت عليه الحكومة .

وكانت شرفتى تطل على سطح منزل الرئيس السادات وقد كان لهذا المنزل سياج خاص اسفل الشرفة الكبيرة التى تقع فى مواجهة النيل ، ولكن تم ازالة هذا الحاجز لاقامة منتزه عام . ومع ذلك كان هذا المنتزه مغلقا برجال الحرس الذين يستحثون عابرى السبيل المحملقين طالبين منهم الا يتوقفوا . وفى الاتجاه الآخر يوجد مبنى الاتحاد الاشتراكى العربى الضخم ـ وهو حزب عبد الناصر ـ الذى كان الحزب السياسى الوحيد فى مصر حتى قام السادات بحله ـ وعندما « حرر » السادات الاقتصاد المصرى وسمح باعادة ظهور قطاع خاص ، تم تسليم مبنى الاتحاد الاشتراكى العربى الى شركات تمويل واستثمار المانية وامريكية ومصرية . اما نادى الجزيرة الرياضى فيقع على اليسار مباشرة .. وقد كان فى وقت ما ملعبا خاصا للبريطانيين ـ ولم يكن دخوله مسموحا به للاهالى ذوى البشرة السمراء ، باستثناء من يعملون فى البار ـ اما الآن فقد اصبح احد الاماكن الجميلة التى تتردد عليها الطبقة الاجتماعية الجديدة .

وبالقرب من النادى ، يوجد ما يطلق عليه اسم (برج الجزيرة) ، الذى يقع عند قمته مطعم دائرى وهناك يستطيع الجالس لتناول طعامه ان يشاهد الاهرامات عن يمينه وهو يتناول المشهيات ، وعن يساره وهو يتناول الجلاش والمكرونة على شكل شرائط (وتشبه المكرونة على شكل شرائط واجهة البرج المزخرفة) ويقال ان وكالة المخابرات المركزية الامريكية هى التى قامت بعملية تمويل بناء هذا البرج .وقد ذكر محمد هيكل فى كتابه الذى كتبه عن عبد الناصر ـ وثائق القاهرة ـ ان ناصر اصر ،متعمدا ، على هذا التصميم التافه كاهانة لوكالة المخابرات المركزية الامريكية التى كانت تقصد بهذه الاموال ان تكون بمثابة رشوة شخصية لناصر .

واسفل شرفتى مباشرة يتدفق ماء النيل . والى مسافة غير بعيدة نتوء يقولون لك ان النبى موسى كان يبكى عنده وهو فى الصندوق الى ان جذبت ابنة فرعون هذا الطفل الباكى الى الشاطىء ـ والمرشدون السياحيون يحفظون تلك العبارات عن ظهر قلب . ولايزال الفقراء يأتون الى نهر النيل للاستحمام هم واطفالهم ولغسل ملابسهم ، ونهر النيل عند هذه النقطة عريض ولونه رمادى . ويقول موسى صبرى ـ رئيس تحرير الاخبار ـ ان مياه النيل لها خاصية معينة فهى تغذى العقل ، وتسرى عن القلب وكل من يشربها يعود الى القاهرة ان آجلا او عاجلا . ونحن نشرب فى الفندق مياها معدنية فقط فى زجاجات كبيرة من البلاستيك تم استيرادها من ايطاليا . وكانت الزبدة التى تناولتها فى طعام الافطار فرنسية الصنع ، اما عصير الجريب فروت فقادم فى علبة من امريكا . اما الكراوسون فهو من مصر ، طازج ولذيذ الطعم .

وعلى الجانب الآخر من نهر النيل ، وخلف واجهة الفنادق البراقة ، تختفى المدينة تحت طبقة من الغبار وعادم السيارات وكأن موسى الجديد ، او هارون قد أخذ « حفنة من رماد الفرن » ونثرها صوب السماء واصبحت « غبارا دقيقا فى كل انحاء مصر .. تصيب الانسان والحيوان بالبثور والدمامل » . ولم تكن المنازل او اسطحها هى التى اراها من على بعد تلك المسافة القصيرة — بالرغم من وضوحها من خلال الهباب — انما ارى الخطوط المعتمة لكوكب آخر لشدة ما يختلف عما يحيط بالفندق الذى اقيم فيه من نضارة . وعندما يجازف المرء ويقترب ويشاهد هذا المنظر بالتفصيل ، يشعر بمشاعر مختلفة من البلبلة والذهول والسخط والياس والغضب والانزعاج . وقد وصف عدد كبير من الكتاب بالفعل تلك السمات المزعجة لهذه المساحة الشاسعة من القاهرة ، ولذا هى غير مجهولة البتة لأى زائر مطلع .

هناك فى تلك الاكواخ التعسة ، التى لا توجد بها المياه او المجارى ، وفى الخنادق المظلمة تحت الأرض وفوقها يعيش ثلاثة ملايين نسمة . ورؤية تلك الأماكن بالعين تختلف اختلافا كبيرا عن القراءة عنها فى كتب الفها آخرون. وفى اعلى النهر ، وفى اسفل جبل المقطم — حيث تتسلل اصابع الصحراء ، الطويلة الميتة ، الى منطقة آهلة بالعشش والخنادق والنفايات المكشوفة يعيش مئات الآلاف من البشر معا فى تجاويف مقبرة المماليك القديمة ، داخل وبين المقابر فى بقايا الجوامع فى اكواخ من الصفيح وخيام وثكنات .

من يستطيع ان يشبع هذا السيل من التوقعات من اجل حياة افضل هنا وهناك نتيجة هذا السلام المفاجىء ؟ وكيف ؟ ان الحماس الذى ليس له حدود ، واضح فى الكثير من المناقشات . والآن سيصبح لدينا مساكن جديدة ووظائف جديدة واجور افضل . ويصر موسى صبرى على ان المشكلة ليست بالخطورة التى تبدو بها .

ويقول ، ان مصر — عند القاعدة — مجتمع يسوده الاستقرار تماما ، انه مجتمع هرمى على مر ملايين السنين . ان المصرى رجل بسيط ، جياش القلب ، مهذب ، منضبط ، لطيف فى علاقاته بزملائه ، مخلص للحكومة . ويقول ان جنيها مصريا واحدا (١ر٤٥ دولارا) يوميا يكفى اسرة مصرية فى القرية. والحكومة تدعم الطعام بشكل هائل . ويعتبر الفول سلعة رئيسية ورخيصة نسبيا ، ويصل ثمن كيلو البطاطس الى ثمانية سنتات ، والارز ١٥ سنتا . اما رغيف العيش الصغير فيصل ثمنه الى اقل من بنس . وقد حاولت الحكومة فى احدى المرات ان تخفض من هذا الدعم — وليس امامها فى خيار سوى ان تحاول مرة اخرى فى المستقبل — الا ان المظاهرات اجتاحت شوارع القاهرة احتجاجا على هذا الاجراء . وذهب ضحية هذه المظاهرات ما يقرب من مائة من افراد الشعب فى نهاية اليوم .

ويوسف حتام — الذى قابلته منذ ايام فى حفل عشاء — طالب شاب يعد للدكتوراه واخصائى اجتماعى فى احدى ضواحى القاهرة . وقد قال لى ان قرار تحرير الاقتصاد الذى اصدره السادات لم يسفر الا عن ان الغنى اصبح اكثر غنى اما الفقير فقد ظل فقيرا كما كان من قبل ، ربما اسوأ من ذى قبل. وقال ان العلماء — مشايخ المسلمين — هم المجموعة الاجتماعية الوحيدة

التى لم تفقد ثقة الناس فيها ، والتى لا يعتبرها الناس فاسدة . وذكرت لموسى صبرى ما قاله لى حتام ، فهز راسه وقال لى : نعم ان العلماء يتمتعون بمركز ادبى كبير . وقال صبرى انه من حسن الحظ ان الحكومة تدفع لهم ، وانهم موالون للدولة . وهكذا الأمر دائما فى مصر . فرجال الدين ظلوا دائما موظفى الفرعون . وقال صبرى : انه لايمكن مقارنتهم برجال الدين فى ايران، الفوضويين فى اعماقهم والمعارضين لكل الحكومات .

ويدق جرس التليفون فى حجرتى . فادخل من الشرفة واذهب للـرد عليـه .

وجاء صوت مرح يقول : « صباح الخير ، انا العقيد نبيل من رجال الأمن فى مصر » .

ماذا تقول ؟

« اننى منتظرك تحت فى صالة الانتظار » .

هل هناك شىء على وجه الخصوص ؟

كلا ، تستطيع ان تنزل فى الوقت الذى يحلو لك .

والحقيقة اننى كنت اتوقع هذه الزيارة منذ فترة — وكنت افكر وانا اهبط فى المصعد — كيف ساتصرف . واسم العقيد بالكامل نبيل عبد السلام يوسف وهو شاب طويل القامة ، وسيم بشكل غير عادى ، يرتدى سترة انيقة من الجلد ذات طابع ايطالى . وجلسنا على احدى المناضد الصغيرة فى « الكافيتريا » . وبطريقة تعوزها اللباقة ، اطلعنى على الأخبار . فقد تم تعيينه ليرافقنى فى تجوالى ولكنه لم يقل لى انه حارسى الخاص . وقال انه سيصحبنى فى اى مكان شئت ، فى القاهرة ، فى الدلتا ، اى مكان فى مصر .

هل من الضرورى ذلك ؟

اجاب قائلا بابتسامة مرتبكة : « انى آسف ، ان هذا من اجل سلامتك وامنـك » .

ولكننى أشعر تماما بالأمن .

اعلم ذلك ولكنى اعتقد انه امر ضرورى .

لماذا ، ان كل شخص قابلته كان لطيفا معى للغاية .

وقال لى : « بالطبع ، نحن شعب صوروه على غير الحقيقة اننى لااخشى من المصريين بالرغم من أنه قد يظهر فى صفوفهم مجنون انما اخشى الليبيين والفلسطينيين فهم كثيرون ويصل عددهم فى مصر الآلاف . اننا لا نود ان يلحق بك اى ضرر . لذا ، فان .... » .

ويحاول ان يبث فى قلبى الطمانينة فيقول انه يعرف افضل المطاعم فى المدينة . ولوح بيده قائلا : ان المطعم هنا مطعم سياحى تافه .

ولاحظت وهو يلوح بيده انه يحمل مسدسا فى جراب تحت سترته .

حضر تحسين بشير ـ من وزارة الخارجية المصرية ـ لتناول طعام الغذاء وهو رجل مهذب ينتمى الى المدرسة القديمة ، جذاب ، ودبلوماسى مثقف واديب وعالم . ويستطيع بذكائه المتوقد معالجة المشاكل السياسية والادبية فى القارات الثلاث بنفس السهولة . ينتمى الى مصر وفى نفس الوقت لا يشعر انه غريب فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث التحق بالمدرسة وخدم فى منصب دبلوماسى .

وتصافحنا فى مدخل الفندق واستطاع كل منا ـ بنظرات عينيه ـ ان يكون رايه عن الآخر . واستطيع ان اقول ان اول لقاء من هذا القبيل فى القاهرة كثيرا ما يبدا بعملية جس نبض تتسم بتردد من الجانبين وانفعال ازاء المشاكل السياسية والفنية فى القارات الثلاث .

وهو رجل تبدو عليه الرقة ، قصير القامة ، فى منتصف الخمسينيات من عمره ، ملامحه ملامح صبى ، متالق يتمتع باسلوب صريح وسلمى . عيناه تلمعان بها مسحة من خجل لكنها فى نفس الوقت طبيعيتان ، تراقبان واعتقد انه يبتسم فى حزن . وادرك تماما أن تحقيق السلام مع اسرائيل كان يشغل اهتمامه منذ سنوات . وقد قرات له احاديث صحفية تحدث فيها مؤكدا ضرورة التوصل الى حل وسط تاريخى . واهتمامه بهذا الموضوع ، الى جانب صراحته ، اوقعاه فى مشاكل لاحصر لها .

وتحسين بشير هو الزوج السابق لسناء حسن ، وهى سيدة مصرية شابة اشتركت معها فى تاليف كتاب منذ سنوات قليلة (واسم الكتاب «بين الأعداء» حوار حار بين اسرائيلى وعربية «نيويورك ، راندوم هاوس، ١٩٧٤) فقد تصادف وجود السيدة / سناء حسن وانا فى امريكا خلال حرب ١٩٧٣ وبدانا فى تاليف الكتاب قبل ان يسكت صوت المدافع . وتمت كتابته فى شكل حوار ، واعتقد انه اول عمل مشترك من هذا النوع يتم بين مصرى واسرائيلى . ولم يكن الأمر يحتاج منى جراة او جسارة كى اقدم عليه ولكنه كان ضربا من ضروب الشجاعة الشخصية العظيمة من جانب سناء ـ وهى مواطنة مصرية ـ وكانت لا تزال زوجة لتحسين بشير فى ذاك الوقت . وكان بشير حينذاك يشغل منصب المتحدث الرسمى للرئيس السادات . وفى هذا الكتاب دافعت سناء عن السلام بشدة وبوضوح ـ على اساس اخلاقى وليس فقط لأسباب عملية ـ من اجل بقاء الطرفين . واعتقد انها كانت اول مثقفة عربية تعترف صراحة بحق اليهود الادبى فى اقامة دولة ذات سيادة فى جزء من فلسطين القديمة . لهذا السبب ، لاقت السيدة / سناء حسن صنوف الايذاء الفظيع والحقير من جانب الصحافة المصرية والعربية . وزاد الموقف خطورة عندما قامت شخصيا بزيارة اسرائيل بعد ذلك بفترة قصيرة ـ وكانت اول مصرية تفعل هذا منذ سنوات عديدة .

وبهذه الخلفية لا اكثر منها ، رغم انها اكثر من اى علاقة اخرى باى مصرى آخر ـ جلست انا وبشير حول مائدة بجوار نافذة فى مطعم باحد

الفنادق ومن وراء النافذة ظهر النيل يتدفق بلونه الاخضر الذى يميل الى الرمادى واطلعنا على قائمة الطعام الطويلة ، ووجدنا ان المحار الطازج يطير يوميا من باريس وتستطيع اى اسرة مصرية ان تعول نفسها لمدة اسبوعين او ثلاثة اسابيع بقيمة ست محارات فقط . بهذا حدثت نفسى ولكن ليس الوقت مناسبا الآن لحديث من هذا القبيل . وطلبنا « كبابا » .

ولم يعزز ارتباط بشير بسناء (وكانا قد انفصلا منذ ذلك الحين) من مركزه فى خدمة الحكومة . فقد شعر فى ذاك الوقت انها ذهبت الى ابعد الحدود ، وبسرعة اكثر من اللازم ، بصراحة اكثر من اللازم ، ومع ذلك كان متفهما ومتعاطفا مع نقاء هدفنا ، وكان يحترم حقها فى التصرف وفقا لمعتقداتها . وقد ادى ذلك ـ علاوة على صراحته الجريئة تجاه من هم اعلى منه ويطلق الناس على ذلك ، فى القاهرة « الصراحة الأمريكانية » ـ الى ابعاده عن منصبه الذى كان يشغله كمتحدث رسمى للرئيس السادات . وهو يشغل حاليا منصب سفير فى الجامعة العربية التى لا وجود لها ، ولا يمكن ان يتصور المرء منصبا لدبلوماسى مصرى يجلب له الذم الآن مثلما يجلب له هذا المنصب .

ومع ذلك لم الاحظ عليه اى مرارة او اسف فى نفسه . وشعرت بارتياح شديد ، اذ انى اعترف باعتبارى مشتركا فى تاليف كتاب مع سناء ـ بأنى لم استطع ان اخفى شعورى ببعض الذنب اثناء وجوده .

وقال لى : « واخيرا ، لقد تحقق السلام . ونشكر الله على ذلك . ان هذا السلام يشبه الطفل الصغير الوليد . فهو لا يزال لا يستطيع السير . ولا يزال قبيحا وهو لا يستطيع الكلام . وهو يسبب الكثير من المشاكل طوال « الوقت . ولكن مثلما تقول الأم اليهودية الطيبة ، ينبغى علينا ان نقول : « انه طفلنا الوحيد ، طفلنا نحن » .

وواصل كلامه قائلا : « ولكن اعلم تماما انه لاينبغى عليك ان تسىء تفسير الحرارة والترحيب الودى اللذين تلقاهما هنا ، لا شك . فالمصريون اناس طيبون متسامحون . وهم صبورون ، متسامحون ، دمثو الأخلاق ، دبلوماسيون ـ محبون للحياة ، ولديهم قدرة فائقة على المزاح ـ غير ان رجل الشارع لايزال يعتقد ان اقامة دولة اسرائيل ظلم فى مجال الأخلاق ، فقد جاء على حساب الشعب الفلسطينى . ومع ذلك يريد رجل الشارع السلام . وهو يريده بشدة . واذا تم التوصل الى حل كريم يتفق مع رغبة الفلسطينيين فى الحصول على حق تقرير المصير ، فان المصرى العادى مستعد ان ينسى الماضى . وسوف يعيش مع اسرائيل ومع الاسرائيليين ـ بل ربما تعاون معهم فى شتى الميادين . هذا هو الحل الوسط التاريخى الذى سبق أن ـ تحدثت عنه . ولا يمكن ان يتم بين مصر واسرائيل فقط بل ينبغى اشتراك الفلسطينيين فيه » .

وكرر عبارة « أعلم جيدا أن الكثيرين هنا قد اخبروك ـ بلا شك ـ انهم مصريون وليسوا عربا . ان هذا معناه انهم قد عقدوا السلام مع انفسهم، وليس معكم . فهم يصنفون بطاقاتهم الشخصية (هويتهم) وهذه مسألة هامة،

ولكن ليس لها صلة بما نقوله الآن . فمعاهدة السلام التى قد تم توقيعها حاليا لا تعتمد على معرفة مصر لحقيقة نفسها » . فعلى أى شىء تعتمد اذن ؟

« تعتمد على مداواة الجراح . فنحن جميعا نشعر اننا محطمون ، مظلومون ، مصابون بجنون العظمة — اننا جميعا مرضى . ومن الصعب للغاية تحقيق سلام بين شعوب مريضة » .

وقلت لنفسى ، حتى السلام اصبح كلمة عليلة ، فقد اصطدم بالارض لمدة طويلة وداسه الكثيرون . ففى اسرائيل نتحدث عن السلام كوسيلة نشعر بها ونتصرف على اساسها . وقلت لبشير ، اما المصريون فانهم يتحدثون عن السلام غالبا فى اطار القانون الدولى ، السلام لتوقف الحرب .

ويعتقد بشير ان الامر قد وصل الى هذا بسبب ماساة فلسطين التى لم يتم حلها حتى الآن . « انك تقول انكم استوليتم على الارض — لقد اخذتم قطعة من الخبز لانكم كنتم جوعى . نعم ، اننى مقتنع بهذا . ولكن ما هو الموقف بالنسبة للآخرين فالفلسطينيون جوعى ايضا » . ان بشير يعلم الكثير عنا . ويبدو أنه قد قرا كل ما استطاع قراءته عن اسرائيل والصهيونية . ان ملاحظاته تتخلل استشهاداته من آحاد هاعام ، وحاييم وايزمان، ومارتن بوبر، بالطبع ، وكالورايسكى وبقية المعتدلين الصهاينة الذين قدحوا زناد ذهنهم خلال سنوات لايجاد وسيلة للتوصل الى حل وسط — ولكن دون جدوى . فلم يجدوا على الاطلاق اى مسئول عربى او فلسطينى لديه اى استعداد لاجراء حديث معهم ، ولذلك انهى (بوبر وكالورايسكى) حياتهما بأن كان الواحد منهم يتحدث الى الآخر فى غالب الأمر . ويدرك بشير هذا ادراكا تاما . ويقول ، حقيقة لم يوجد فى الماضى على الاطلاق اى فلسطينى لديه اى استعداد للمساهمة فى التوصل الى اى حلول وسط خاصة بالفلسطينيين . ولكن الآن هناك من هو مستعد ، حتى من بين بعض المحرضين القادة فى منظمة التحرير الفلسطينية) .

ويدرك بشير ايضا ان الاسرائيليين لن يقولوا فجاة اننا الملومون ، كما انه لا يعتقد أنه ينبغى عليهم ان يفعلوا ذلك . وللسبب نفسه هم لا يتوقعون ان يعترف الفلسطينيون فجاة بالحق الادبى للاسرائيليين فى فلسطين .ويكفى فقط ان يتقبل كل طرف الطرف الآخر باحترام وكياسة . وحتى مصر لم تحقق السلام لأنها سلمت بقضية اسرائيل الادبية بل فعلت ذلك لان السادات ادرك انه لم يتم التوصل الى حل للصراع عن طريق القوة . كما انه لا الجيش الاسرائيلى — حتى ولو امتلك القنبلة الذرية — ولا الثوريون فى منظمة تحرير فلسطين ، قادرون على حل هذا الصراع . ان التعايش السلمى هو البديل الوحيد . ويقول بشير : لذلك دعنا نكف عن سرد قائمة ما هو صواب وما هو خطا .

ويقول : ينبغى علينا ان نخوض تجربة جديدة . دعنا نبدا عملية تستطيع فيها تجربة السلام المشتركة ان تهزم مشاعر الظلم الماضية . ان بشير شخص وجودى ، وليس واعظا خلقيا . وهو يعتبر ان اهتمامات الامن الاسرائيلية على الضفة الغربية حق شرعى . وانه ينبغى ان تتم الموافقة

عليها . غير ان الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة لديهم حق مماثل فى تقرير المصير . انه على الاقل حق ثابت بثبوت الحق . وينبغى الا يصبح الفلسطينيون مواطنين من الدرجة الثانية فى الدولة اليهودية . فيجب عليهم ان يحددوا مؤسساتهم ويقرروا كونهم مع او ضد الاتحاد مع الاردن ، او مع اسرائيل او مع سوريا ، او مع مصر او حتى مع الولايات المتحدة الامريكية ، وان يعيشوا فى سلام معكم . نعم من حقكم ان تتمسكوا بهذا .

غير ان الفلسطينيين لديهم حقوق معينة ينبغى عليكم الا تستمروا فى تجاهلها وفى النهاية نجد ان الفلسطينيين — كما يعتقد بشير — سوف يروضون انفسهم على وجود اسرائيل ، اذا لم تتمسك اسرائيل بالفوز بقصب السبق . وسيقول الفلسطينيون « حسنا » ان الضفة الغربية ليست فلسطين كلها ، ولكن شيئا افضل من لا شىء ويقول بشير : ان معظم الاسرائيليين سينبذون « اسرائيل الكبرى » التاريخية ، ولكن معظمهم يعلمون ان الحدود القديمة لاسرائيل كانت دائما شيئا تجريديا ، غير محدد ووعودا الهية ذات طابع شاعرى رمزى .

واقول له : ان هذا يبدو لى معقولا بشكل كبير ولكن هذا الامر يبدو كذلك بالنسبة للفلسطينيين . ويعتقد بشير ان هذا سيحدث فى النهاية ولكنه يقول : لأنهم لا يزالون الجانب المظلوم ، ينبغى على اسرائيل ان تتخذ الخطوة الاولى . ويقول : انهم اليهود الجدد الذين يصرخون مطالبين بوطن قومى .

هذا ويتمتع بشير بقدر كبير من السخرية . ولقد تسبب له ذلك فى بعض المصاعب فى حياته الماضية عندما كان احد كبار الموظفين المدنيين وتعتبر السخرية ، صفة قديمة ، معتقة ، وربما مختارة والثوريون يمقتونها، والاطفال لا يفهمونها ، وهى اكثر انتشارا بين الرجال منها بين النساء ، وربما يرجع ذلك الى انها على نحو مضاد لعملية الابداع والخلق .

النيل فى ساعة الأصيل :

اتكات على الجسر الذى يجتاز النهر من الجزيرة حتى الضفة الشرقية . وكانت الأهرامات تقع على الجانب الغربى . فقد عاش المصريون القدماء على الجانب الشرقى ودفنوا موتاهم على الجانب الغربى، فى اتجاه غروب الشمس. والأرض التى عاشوا عليها والتىماتوافيها تفصلها مياه نهر النيل تماما عن بعضهما وعندما كنت اشاهد عرض الصوت والضوء القريب من ابى الهول الليلة الماضية ، استمعت الى صوت من طراز الاذاعة البريطانية وهو يترنم بجلال فى سمعى بهذه العبارات ،بمرور الزمن ، تنهار كل انجازات البشرية وتسقط ، ولكن الروح التى ابدعت تلك الآثار تظل باقية .

واثناء هذه الفترة من النهار ينعكس ضوء احمر وردى يشوبه اللون الأخضر الساحر على مياه نهر النيل . وبالتحديق فيه كدت اتوه . يقول بشير : ان البعض يزعم ان نهر النيل يصدر عنه صوت . ماذا يريد هذا الصوت ان ينقله لنا ؟ ويقول بشير : انه التناغم والايقاع . وقد سمعت

كلاما مشابها لهذا من بعض المصريين الآخرين ، بعضهم يتكلم على سبيل الدعاية والبعض الآخر يتكلم بكل جدية . وقد حيرتنى كل تلك التعليقات المتباينة حول نهر النيل . ويقال :ان نهر النيل له « عروســـة » ويقال : ان قطرة معجزة من الميـاه تسـقط من السماء فى نهر النيل كل عـــام ، ليلة ١٧ يونيو ، يطلق عليها « ليلة النقطة » ويقول يوسف حتام ــ الأخصائى الاجتماعى ــ انه سمع احد الفلاحين وهو يقول : ان نهر النيل يؤثر على مسارات القمر والنجوم . ان كل شىء فى مصر ، بالطبع ، بدا بنهر النيل (مصر هبة ا ل ... الخ) والـكثير من المناقشـات والأحاديث عن مصر الحديثة وثقافتها تبدأ وتنتهى بالنيل .

والموقع المحدد لمصدر نهر النيل قد اثار خيال الأجيال السـابقة ، فيقال انه ينبع من حجر الحكمة نفســه . وبفضــل نهر النيل اصبحت مصر ارض الميعاد بالنسبة لكل النظريات الجغرافية السياسية ، وقد استطاعت القرون التى سبقت مدرسة كارل هاوس هوفر الألمانية ، ان تجعل منها طقوســا ويطلق المصريون على نهـر النيل ــ بحـر النيل ــ والتى اعتبر ان هذه التسمية تسمية جميلة بشكل آسر واصل تلك التسمية ربما يرجع الى هيرودوت : عندما يفيض النيل على الأرض ، تتحول مصر كلها الى نوع من البحر ، وتبقى المدن فقط طافية فوق مياهه مثل بحر ايجه . واثناء ذلك لا تسير السفن فى طريقها وهو مجرى النيل ــ بل تسير عبر السهول .

لقد اصبحت الفيضانات العظيمة ــ التى كانت تعتبر فى وقت ما شيئا مدمرا وواهبا للحياة ــ صفحة من الماضى . فقد وضع السد العــالى فى اسوان ــ الذى تم بناؤه فى عهـد عبد الناصر فى الستينيات حــدا لتلك الفيضانات . فالسد العالى يسمح باستخدام مياه النيلبطريقة منطقية ، ويولد كميات ضخمة من القوى الـكهربائية ، ويطلق عليه اسم الأهـرام الحـديثة . وانه يبدو عجيبا ان يتسمى هـذا المشروع الواهب للحيـاة باسم مقبرة .

وخلف السد العالى تقع بحيرة صناعية جديدة هى بحيرة ناصر ، التى يصل طولها الى ٣١١ميلا ، وعرضها من٦ الى ٣٧ ميلا . ويقوم حائط واحد فقط بحجز هذا المقدار الضخم من المياه . ان حـوالى ١٢ بليون طن من المياه تتربص فوق راس ٤٠ مليون نسمة . ولقد تحدث بشير عن القنابل اثناء تناول طعام الغذاء : عن قنابل (النيوترون) فى اسرائيل ، والأجهزة النووية البسيطة نسبيا التى قد تصـل الى ايدى الارهابيين والفدائيين خلال السنوات القليلة القادمة . لقد اخذت الشمس فى الزوال واصبحت تكاد تمس أسطح المنازل . ويميل قرصها الى اللون الأصفر ، كما لو كان قد تمرغ فى التراب . وقد قرات حديثا فى احدى الصحف العلمية ان احـد الأساتذة فى حيفا يتكهن بأن السد العالى فى اسوان معرض للخطر. وكتب يقول : لو انفجر السد العالى ، فان النتائج ستكون وخيمة . وان ميـاه بحيرة ناصر سوف تنقض هابطة على مصر وتحطم كل شىء فى طريقها بحيث لا يبقى شىء . وعندما تصل الى القاهرة ــ التى تقع على بعــد مئات من الأميال ــ يكون تيار المياه قد وصل ارتفاعه الى ٥٠ قدما وسيندفع بسرعة تصل الى اكثر من ١٠٠ ميل فى الساعة .

السيدة / امينة السعيد :

السيدة / امينة السعيد .. وجدتها تشـعل سيجارة من اخرى . والتدخين عــادة يشترك فيها الكثير من المصريين والاسرائيليين . ولم اشاهد هذا القدر من المدخنين من خارج اسرائيل ــ باستثناء المثقفين فى شرق اوروبا الذين يواجهون الكثير من المتاعب والمنغصات فى حياتهم ــ وتقول السيدة / امينة السعيد ، وقد التقينا بها فى مكتبها : انهـا تدخن فى اليوم ثلاث علب سجائر (ماركة روثمان الانجليزية الصنع) .

واخذنا نتندر بهذا لفترة ، وكلانا عنيد مدمن تواق للاقلاع عن التدخين، غير انه نظرا لضعفنا ونظرا لنمط حياتنا وعملنا ، فاننا لا نستطيع ان نكف عن التدخين .

والسيدة / امينة السعيد رئيسة دار الهلال ــ وهى واحدة من اكبر دور النشر فى الشرق الأوسط ، أسسها منذ تسعين عاما (اخوان زيدان) ولكنها الآن ملك المجتمع وقالت السيدة / امينة السعيد بحدة ، « ليست مؤممة » ولكن العبارة الصحيحة هى : انها ملك للمجتمع ، اننا لا نخضع لسيطرة الحـكومة .

وكانت دار الهلال ايام عبد الناصر ــ حيث كانت الدولة دولة الحزب الواحد ــ ملكا للاتحـاد الاشتراكى العربى . والآن يتم توزيع ٥٠٪ من الأرباح على العمال . اما الباقى فيتم استثماره داخل المؤسسة نفسهـا وتصدر المؤسسة ثمانى مجلات اسبوعية واسعة الانتشـار وكتبا من كل الانواع ، وتوزع تسعة ملايين نسخة سنويا . واغلبهـا كتب مدرسية ، وحوالى نصفها يتم بيعه الى دول اخرى ناطقة باللغة العربية .

والسيدة / امينة السعيد ــ شأنها فى ذلك شأن الكثير من المثقفين المصريين ــ ينتابها القلق بسبب عزلة مصر المفاجئة عن العـالم العربى نتيجة للسلام مع اسرائيل . وهى تعتقد ان بلاغة بيجين الخطابية العدوانية المبالغ فيها ، مسئولة جزئيا عن هذه العزلة . وقد ذهبت السيدة / امينة السعيد الى واشنطن مع الرئيس الســادات لحضور الاحتفـال بتوقيع معاهدة السـلام فى البيت الأبيض ــ وهى صديقة حميمة لقرينة الرئيس السادات . وتقول السيدة / امينة السعيد « لقد عدت الى بلادى بعـد زيارتى لواشنطن يملؤنى الغضب » . لـماذا افسد بيجين هذه المناسـبة العظيمة بأن اشار تلك الاشارة الحادة الى قوات مظلاته وما اطلقوا عليه اسم تحرير « القـدس » ؟ أما بالنسبة للشخصيات الاسرائيلية العـامة الاخرى فانهم لم يضايقوها او يزعجوها كثيرا . لقد قالوا نفس هذا الكلام ولكن بصورة مخففة لقد قالوا تلك العبارات ولكن دون توجيه أى اهانات . لم يكونوا مثيرين ولم يتسببوا فى احداث مشاكل بيننا وبين الدول العربية فى كل مرة يتكلمون فيها . اننا نستطيع ان نستمع اليهم بل وحتى نحترمهم ونحن مختلفون . فهم يعطوننا الأمل فى اننا لو واصلنا مفاوضاتنا ، سيكون فى استطاعتنا ان نتوصل لحل وسط .

وتساءلت متعجبا : الا تحملون البلاغة معان اكثر مما تحتملها ؟ فهذه ليست المرة الأولى التى استمعفيها لمثل هذا الكلام منذ وصولى الى القاهرة.

وتقول السيدة / امينة السعيد باصرار « البلاغة مسالة عامة » . واقول مرة اخرى : ان هذه ليست المرة الأولى التى استمع فيها الى وجهة النظر هــذه .

وتساءلت : الا تبالغون فى تقدير اهمية الشكل اكثر من المضمون ؟ « كلا ، ان الاسلوب والشكل امران هامان للغاية » .

اهم من الأفعال ؟ انكم لا تستطيعون التفريق بينهما . ليس فى هذه المرحلة ونحن نحاول تحقيق السلام دون ان نعزل انفسنا تماما عن الدول العربية .

وقد قال لى احد الدبلوماسيين الانجليز عندما قابلته فى حفلة الليلة الماضية « ان الاسلوب والشكل والايماءات هى كل شىء فى الشرق الادنى . قال هذا متحدثا من انفه وبمسحة من تنازل . فقلت ان تى . اى . لورانس كان يعتقد ان العرب يستجيبون اكثر للأفكار : فقد ذكر فى كتابه اعمدة الحكمة السبعة « ان العرب يستطيعون التأرجح حول فكرة مثلما يتأرجحون على الحبــل » .

وعندما سمع الدبلوماسى الانجليزى هذا الكلام بدا عليه الضيق ، وقال : « الأفكار ؟ هراء ! اى افكار ؟ لا توجد افكار هنا » . ان الشكل هو اهم شىء بالنسبة لهذا الجزء من العالم . يجب ان تعلم ذلك ، فقد اصبحت الآن جزءا منه » .

اينبغى ان انقل للسيدة / امينة السعيد هذه المناقشة المملة ؟ كلا ، اننى لا استطيع ذلك . واثناء ذلك كانت السيدة / امينة السعيد قد تناولت سجارة جديدة ووضعتها فى (فم) طويل من الفضة ، وهى تبدو فى شعرها القصير المصفف . ويعمل معها فى دار الهلال الفا موظف ، فى بلد ومجتمع يقول القرآن الكريم فيه « نساؤكم حرث لكم فائتوا حرثكم انى شئتم » . وهى تسترجع بسعادة التغيرات العظيمة التى طرات على وضع المراة المصرية خلال فترة حياتها . ففى الثلاثينيات كانت السيدة / امينة السعيد واحدة من خمس نساء دخلن عنوة جامعة القاهرة . وعندما بدات عملها فى الصحافة اضطرت الى ان تكتب تحت اسم مستعار لرجل .

وفى الماضى ، كان لديها اصدقاء كثيرون من بين افراد الجالية اليهودية التى كانت تعيش فى القاهرة ، والتى تشتت منذ ذلك الحين . ولم تكن البنات فى الأسر اليهودية يعاملن كأمتعة شخصية معطرة . وهى ترغب فى عودة تلك العلاقات الودية مع عودة اليهود الى القاهرة . وتقول « لم يكن ينبغى عليهم ان يهاجروا ولكن من سوء الحظ انهم فعلوا ذلك » .

وادركت بالمصادفة انه ليس من الضرورى ان تكون اسرائيليا حتى يقوم امن الدولة بتزويدك بحارس خاص . فلدى السيدة / امينة السعيد حرس خاص ، واحد فى مكتبها ، وآخر فى منزلها ، طوال الـ ٢٤ ساعة وقد كانت مع الرئيس السادات فى رحلته التى قام بها للقدس .

وتقول ان كل رئيس تحرير رافق السادات الى القدس فى مهمته لاقرار السلام لا بد له من حرس خاص . وتضيف السيدة / امينة السعيد قائلة « ان هذا ليس امرا سارا ، لكن من يدرى » فقد تم اغتيال يوسف السباعى رئيس تحرير الأهرام فى قبرص فى العام الماضى بواسطة الارهابيين الفلسطينيين . وقد اقسموا انهم سيقتلون كل فرد ذهب فى هذه الرحلة حتى الرئيس السادات نفسه .

* * *

يوســف ادريس :

يوسف ادريس .. لقد كان يوسف ادريس ، الروائى يساريا فى اوائل الخمسينيات وفى عام ١٩٥٤ اطلق على (ناصر)لقب طاغية . وتم اعتقاله وضربه وعزله فى احدى معسكرات الاعتقال فى الصحراء لمدة عامين . وفيما بعد ، عندما تمت تسوية الخلافات بين الشيوعيين وناصر واصبح الاتحاد السوفييتى الممول الرئيسى لمصر ـ تصالح ادريس مع ناصر ، ولكنه لم ينتهج هذا الاسلوب فى كتاباته على الاطلاق . وكما انه لم يكتب فى مجال الواقعية الاشتراكية فى الوقت الذى كان فيه مواليا للشيوعية ، لم ينتهج الاسلوب الوطنى فى الاشتراكية العربية الذى كان من المتوقع ان يطرقه الكتاب فى ايام ناصر ، فى مقابل ان يحصلوا على وسائل الراحة التامة . وحتى سنوات قليلة ماضية كان يمارس مهنة الطب . وعند زيارتى الأولى لادريس فى مكتبه فى الأهرام ، كان يجلس معه استاذ اديب يابانى . كان ادريس يتحدث عن الكتاب والمثقفين فى الحكومة وقال بعظمة « دعنا نجعلهم يتولون مناصب فى السلطة . لقد حان وقت هذا فى كل من مصر واسرائيل » .

غير ان الأستاذ الزائر تساءل : ولكن هل هم اشداء بما فيه الكفاية ؟ وقال ادريس بحدة « اسمعنى ، لقــد قضيت سنتين فى معسكر اعتقال ، حتى عام ١٩٥٦ . واستطيع ان اخبرك بأن اضعف من كانوا فى هذا المعسكر هم ضباط الجيش والبوليس السابقين . فقــد انهاروا تحت وطأة الضربات الأولى » .

لقــد انبهرت بادريس . فكثير من قصصه القصيرة قد تمت ترجمتها الى اللغة العبرية . وكان يغلب عليهــا الطابع (الكفكاوى) والفزع الوجودى ، الشىء الذى يجده المرء غالبا فى ادب التشيكيين والبولنديين فى الفترة ما بعد ستالين . ان الشخصيات الرئيسية فى قصصه يغرقون فى كآبة عميقة ، وتكون السماء عادة مظلمة او مليئة بالسحاب ، او تكون هناك امطار . ويتم تدبير مؤمرات كابوسية فى محطات البوليس الرثة او المقاهى ، حيث ترتكب الجرائم التى لا يفهمها احد ، ويستجيب البرىء للتهم الموجهة اليه ويجد نفسه مذنبا فى النهاية . وبعض قصصه هجوم غير مقنع جدا ضد السياسيين الذين ورطوا مصر فى حرب مدمرة . ويبدو الكثير من شخصياته الرئيسية وهم يصرخون من أجل الوصول الى نهاية للحلقة المفرغة من الحرب والفقر .

وكان احد اصدقائى قد قابل ادريس فى مؤتمر عقد فى برنستون فى عام ١٩٧٦ . قال لى صديقى هذا : انه اثناء احدى مناقشات المؤتمر انتفض ادريس واقفا وقال « ظللت استمع الى حديث جميل لايام ، حاولوا الاستجابة لما حولكم واستمتعوا بجمال هذى المروج والحدائق الغناء . انها قطعة من جنة عدن — اما نحن فقادمون من الجحيم ! جحيم الجوع ، والمرض والحرب! كيف أستطيع ان افكر مثلكم ؟

وقد كتب ادريس فى مكان آخر انه كان يأمل فى ان تكون كل مشاكل مصر بسيطة بساطة عبور قناة السويس فى عام ١٩٧٣ . انك تستطيع تحديد مشكلة العبور اما ما نعانى منه حقيقة فلا نستطيع حتى تحديده .

وهو مؤلف القصص القصيرة والمسرحيات المناهضة لناصر والمناهضة للحرب والمثيرة للجدل والمناقشة . وقد منعت الرقابة بعضها فى بادىء الأمر. ففى احدى قصصه القصيرة الممتازة واسمها « العملية » (١٩٧١) ، يصور احد الجراحين المشهورين — البروفسور أدهم (صورة لناصر) وهو يجرى « عملية جراحية » مصرية . (والكلمة نفسها باللغة العربية شأنها شأن اللغة الانجليزية — تستخدم فى الاسلوب الجراحى والعسكرى) وقام البروفسور — وهو شخص مغرور سطحى يحاول جاهدا ان يستعرض براعته — باجراء عملية لمريض دون أن يكشف عليه ويعرف ما اذا كان يحتاج الى عملية ام لا ، وكانت النتيجة ان مات المريض . واصيب الدكتور الشاب عبد الرؤوف — الذى كان يعتبر البروفسور مثله الأعلى — بخيبة أمل مريرة.

ان مظهر ادريس لافت للنظر — فشكله هو الشكل الذى يجب ان يكون عليه الكتاب ، لكنهم نادرا ما يكونون كذلك . رغم عامه الثانى والخمسين، طويل ، شعره رمادى اللون به تموجات تتدلى فوق وجهه الطويل الملىء بالتغضنات وينفذ صبره ازاء توافه الأمور ، وتستطيع أن تكتشف ذلك من خلال الخطوط الدقيقة التى تحيط بعينيه الزرقاويتين والتى تشير الى مدى الارهاق والتعب الذى يشعر به .

وكان يتحدث باعجاب عن احد الأساتذة الاسرائيليين ويدعى ساسون سوميخ فى جامعة تل ابيب ، وهو الذى قام بترجمة بعض اعمال ادريس الى اللغة العبرية ونشر دراسة عنه . ويقول ادريس : ان سوميخ ممتاز . فهو يفهم كتاباتى اكثر من اى ناقد عربى .

ربما يفهم الأعداء بعضهم بعضا اكثر من الأصدقاء ؟ ويضحك ادريس قائلا : قد يكون هذا صحيحا ويقول : ولكننى حقيقة لم انظر الى اى اسرائيلى قط على انه عدو ويقول : انه فى أوائل السبعينيات كتب قصة قصيرة تنبأ فيها باحداث شبه حلم : حرب ١٩٧٣ ، عودة الثقة والكرامة الى الشعب المصرى ، رحلة السادات المثيرة الى القدس ، والسلام ، وأيضا الغضب غير المتناهى الذى انطلق من عقاله بين الدول العربية الأخرى بسبب هذا السلام . وكان اسم القصة هو البراءة . وقد وعدت ادريس بأننى سوف اقرأها . « باللغة العربية ؟ » كلا اعترف ، كارها ، انى سأقرؤها فى الترجمة العبرية .

وصاح ادريس قائلا « ان المشكلة تكمن هنا ! ان كلا منا لا يتكلم لغة الآخر وأوما البروفسور اليابانى موافقا على هذا الكلام . وهنا ابتسم ابتسامة رقيقة تجددت فيها الخطوط المحيطة بفمه بشكل دقيق . وكانت عربيته احسن بكثير من عربيتى . ففى اسرائيل نجد ان معظم المستعربين المتخصصين فقط هم الذين يقراون الادب المصرى فى لغته الاصلية . (والبروفسور اليابانى هو ايضا احد المستعربين المتخصصين . ربما لأن اليابان تبعد عن هنا آلاف الأميال !!) .

وقال ادريس « اننا لا نقرا كتب بعضنا وهذا شىء مؤسف للغاية . وينبغى علينا ان نعوض مافات بأسرع وقت ممكن . ولا تثقوا — ولو للحظة — بتلك الصرخات (السلام السلام) التى تسمعونها فى شوارع القاهرة . فهم بنفس السهولة يستطيعون ان يصرخوا «الحرب ! الحرب» اننى اعرف ذلك فقد سبق ان سمعتهم .

وادريس ليس سعيدا بمعاهدة السلام ويتساءل : ماالذى حققته ويقول ان الذى حققته تلك المعاهدة ليس كافيا . وحتى الآن ، فان كل ما حققته هو « تهويد مصر » .

ماذا تقول ؟

اقول بكل بساطة . فبدلا من ان يكون هناك حى يهودى محاصر فى الشرق الأوسط ، اصبح لدينا الآن اثنان ، اسرائيل ومصر . ومع ذلك كان تواقا للغاية الى ان يقابل البروفسور سوميخ ولكنه لن يسافر الى اسرائيل فى القريب العاجل .

وقال ادريس « كلا ، اننى لن اذهب الى هناك قبل أن تنصفوا الشعب الفلسطينى » .

وقلت حسنا ، اننى اتفق معك فى ان الفلسطينيين يستحقون صفقة عادلة ولكن فى الوقت نفسه ، ذهب السادات الى اسرائيل ، الم يفعل ذلك؟

قال ادريس : « نعم بكل تأكيد . ان السادات لم يشاور احدا فى هذا الأمر . فهو دكتاتور . ولكننى كاتب . الا تجد أن هناك فرقا بين هذا وذاك ؟ فالكاتب يناضل من اجل اعادة انتخابه كل يوم من ايام السنة . ولا استطيع ان اذهب الى اسرائيل بهذه الطريقة . يجب ان يكون فى استطاعتى ان اصحب معى قرائى الى هناك . ولكنهم لن يذهبوا طالما انكم تتحكمون فى مليون فلسطينى ضد ارادتهم .

* * *

لقد قرأت منذ ذلك الحين القصة الوحيدة التى تحدث عنها ادريس واسمها « البراءة » . وموضوع هذه القصة — وهى كئيبة ومثيرة مثل الحلم الخرافى — عبارة عن هلوسة غريبة ، تم كتابته بصيغة المتكلم . وانه من

الخطورة بمكان استخراج معان سياسية او سيكلوجية اكثر من اللازم فى عمل فنى « سريالى » متعدد الطبقات . ومع ذلك دعانى المؤلف شخصيا الى القيام بهذا العمل ، وقال انها تعبر عن احساس غامض بتحقيق السلام . وفى كتاباته عن السياسة قبل عام ١٩٧٢ ، كان ادريس متشددا ضد اسرائيل لكنه لم يكن شريرا .

وفى هذه القصة كان الانطباع الغلاب هو عن علاقة ملتوية مع العدو تجمع بين الحب والكره ، هذا العـدو الذى كان يتمثـل فى « جنرال بعين واحدة » ، ومن الواضح انه موشى ديان .

والقصة غنية بالنماذج الأصلية التى تذكرنا بالعالم النفسى يونج فنجد الجنرال صاحب العين الواحدة يقف فى قارب ، قريب جدا من الشاطىء ، وهو يبتسم والقارب يتأرجح فى الماء بين صعود وهبوط « الاغواء الكبيرة » ويبدو الجنرال اكثر ترهـلا وبدانة واقل شرا عن صـوره التى تنشرها له الصحف . ولا يكاد الراوى يرى العصابة السوداء الموضوعة فوق احدى عينيه اذ تضيع تحت تأثير بسمة الرضا المرسومة على وجهه ولا يرى الراوى « مخالب » أو « نصل الرماح » ولا اى « خناجر غادرة » على هذا الوجه ، ولكنه يرى فقط الابتسامة . وهو لا يبدى اى اهتمام بالعصابة .

ابتسامة الجنرال ، القارب ، الدعوة .. الدعوة قائمة وهى لازالت مستمرة ، تتجدد مثل ضياء يداعب الريح . ويضحك الجنرال . وتبدو اسنانه وقد شاخت بسبب عامل السن ولكن لا توجد قواطع على الاطلاق .

ومرة اخرى الابتسامة ، القارب ، الدعوة . وعندما اقترب القارب الذى يستقله الجنرال ، قفز الراوى داخله بحماس وولع شـديدين وهـو يذكرنى بكاتولوس « اننى اكره واحب ، ربما تستعجب كيف يحدث هذا . اننى لا اعرف كيف ، ولكننى اشعر ان هذا يحدث ، وتنتابنى حالة العذاب» .

ويقول ادريس فى قصته « ان اهداب عينـه الواحدة تغمز فى ايماءة تحية . والتعبير الذى يبدو على وجه الجنرال هو تعبير رجل لا يرغب فى احراجى . ويبدو متأكدا اننى لن اصافحه . فاننى اريد فقط ان انظر اليه ، هذا هو كل ما فى الأمر » . ولماذا لا ينظر المرء ؟ ليس هناك اى « غضاضة» فى ذلك ، ان قلبى صاف صفاء الكتان الابيض المنسوج .

ولا يستطيع الراوى ان يصافح تلك اليـد ، يد الافاعى والعقارب . واشعة الشمس تنتشر . وهى تأتى من كل اتجاه ، ولكن الشعور بالشفق لايزال باقيا . ويبدو الجنرال راضيا . ويتعجب الراوى من كون الجنرال سعيدا ام غير مبال « لأننى وصلت اخيرا . ويشعر الراوى بانه كانه على الجانب الآخر من القمر » .

وهنا تتتابع سلسلة من الاحداث المضطربة ، العنيفة ، على الشاطىء اذ يبدو وجه امرأة فى الظـلام . ربما كان وجـه الجنرال . ويراه الراوى بعينيه الخلفيتين ويكتب الراوى ان هذه المرأة هى من طرازى فشعرها ناعم

ومنسول ، وشفاهها لا تدعو الى البراءة . والعينان واسعتان ، تواقتان ، متألقتان . وكنت متأكدا من ان يدى لو لمست يدها لما استطعت ان استرجعها مرة اخرى . وتحدثت المرأة . تحدثت بمنطق وحكمة وقد اعمى عقلها عينى ، وتملكت مشاعرى ، وغمرتنى بصور من الحياة .

وعقل الراوى ــ على عكس ذلك ــ هو نسيج العنكبوت مزقته ذرات الآلاف من الكلمات ويعود الجنرال الى الظهور مرة اخرى . اننى خائف من اللمس ، خائف للغاية . ان نهاية عصا الجنرال ينبعث منها اشـعاع يقهر كل شىء .. اننى ائن ..كلا ، لم المس شيئا ، اننى لم اتدنس ، اننى انظر فقط ، هذا هو كل ما فى الأمر .. فانا مازلت نقيا طاهرا مثل الكتان الأبيض المنسوج .

وامتلأ الشـاطىء بالجموع المحتشدة . وفجأة ودون اى توقع ظهر ابن الراوى شخصيا ، حافى القدمين ، يرتدى ثياب النوم ، وشعره اشعث ولمس القارب الحاجز الخشبى وعجز الراوى أمام النظرة المطلة من عينى ابنـه . ولم يستطع ان يصل الى الشاطىء . وظن فى بادىء الامر ان البندقية التى يحملها ابنه « بندقية لعبة » وكانت مصوبة الى قلب الراوى مباشرة . وكان وجه الصبى يشبه وجه القاضى ، اما عيناه فتشبهان عيون « الجلاد » وفمه ينطق بالحـكم .

وصرخ الراوى قائلا ، كلا ! اننى لم المسـها يا بنى ، اننى لم المس شيئا ، يا مجنون غير ان تلك الغمغمـة توقفت . وانطبقت الشفتان على بعضهما ، واخترقت رصاصة كتفى .. واخترقت الثانية صدرى .. اننى لا ازال اسمع هديرها . اما الرصاصـة الثالثـة فاننى لم اسـمعها على الاطـلاق .

ان التعقيدات الكامنة فى تلك القصة لا توجد ، او ندر ان وجدت فى القصة الاسرائيلية . وبدلا من ذلك يجد المرء شعورا كبيرا بالذنب تجـاه المناوئين العرب وسكان المنطقة السابقين ، المنطقة التى هى الآن اسرائيل. ان عقدة الذنب هى احدى السمات الرئيسية للأدب الاسرائيلى خلال العشرين عاما الماضية . وهى تتعارض بشـدة مع الصـورة السطحية الرسـمية الاسرائيلية ، الصورة التى تعتقد فيها اسرائيل انها اقوم اخلاقا من الآخرين. وتذكرت حنا بطل الرواية الهيمان ، رواية آموس عوز ، حبيبى ميخائيل فقد حقق حنا نوعا من السعادة الديونيزية فى احضان خليل وعزيز ، التوأمين الفلسطينيين والارهابيين القاذفين للقنابل . وكان التوأمان ، فى رواية عوز يبدوان جزء من البيئة العربية الطبيعية ورواية اى.بى يهوشوا المجازية فى مواجهة الغابة ، هى عبارة عن قصة جريمة « تخـريب » ، تدمير محموم لاحدى الغابات الوطنية التى تمت زراعتها فوق انقاض احـدى القـرى الفلسطينية بواسطة ملاحظها ، وهو مثقف معذب ودارس للحروب الصليبية اننا نجد فى رواية ادريس « البراءة » مقابلا للاضطراب الكابوسى الذى نجده عند عوز اويهوشوا .

* * *

وفى المذياع ، تصادف ان استمعت الى محطة صوت السلام ، وهى محطة يتم بثها من مكان ما فى البحر المتوسط . والبرنامج عبارة عن موسيقى جاز تتخللها الاعلانات التجارية . وصوت السلام هى : محطة اذاعية تذيع بدون ترخيص حكومى وتبث ارسالها من احدى السفن الطافية على بعد اميال قليلة وراء المياه الاقليمية الاسرائيلية . وتديرها مؤسسة على اساس عدم الربح المادى ، وتذيع خليطا من الموسيقى وشعارات السلام باللغات العبرية والانجليزية والعربية . وكان (أبى نافان) وهو صديق قديم لى — يدير السفينة بموارد قليلة لعدة سنوات ، آملا على حد قوله ، ان يولد نوعا من التفاهم والحب المتبادلين وقد بدأ نافان حياته كصانع سلام فى عام ١٩٦٦ ، وبطريقة مسرحية ، عندما رهن مقهاه ومطعمه الشعبى فى تل ابيب واشترى « شالوم ١ » ، طائرة ذات محركين طار بها الى مصر فى مهمة سلام تضم رجلا واحدا . غير ان المصريين أعادوه ، ثم قام الاسرائيليون بمحاكمته بتهمة الاقلاع بدون تصريح .

وثمة شوشرة كثيرة فى الاذاعة . الصوت ضعيف ، لا يكاد يسمع من حجرتى التى انزل بها فى الفندق وتقع فى الطابق الثانى عشر . ولكن شيئا ظريفا ان تستمتع الى صوت نافان. وقيل لى ان الارسال على طول الساحل، فى الاسكندرية وبورسعيد ، مسموع بوضوح تام تقريبا . ويقول حتام الاخصائى الاجتماعى الشاب : انه خلال فترة الصيف يسمع هو واصدقاؤه غالبا هذه المحطة . وهم يحبون الموسيقى التى تذيعها . ويقول حتام الساخر ، ان نافان قد نجح فى التفاف الشباب من المصريين والاسرائيليين حول هذه المحطة ليستمعوا الى الموسيقى (الجاز) الامريكية .

اصيب يوسف حتام بنوع من المرارة نتيجة للقاء — بالصدفة — مع بعض الطلبة الاسرائيليين غير المهذبين فى اليونان فى العام الماضى . كما انه لا يستسيغ مايقرؤه عن اسرائيل سواء فى الصحف الانجليزية او الفرنسية. وقد تحدانى ودفعنى الى الدخول معه فى مناقشة .

قال « ان الاسرائيليين متغطرسون بشكل فظيع تجاه العرب » فحتى الحمائم الاسرائيليون يوجهوننا دائما بالنسبة لما ينبغى ان نفعله ، بدلا من ان يفعلوا شيئا من جانبهم حيال الفلسطينيين .

وقلت لحتام : ان الاسرائيليين متغطرسون فعلا وانا اقر بذلك . ولكن غطرستهم غير موجهة تجاه العرب بصفة خاصة ولكن تجاه كل من هو غير اسرائيلى . فقد اعتادوا ان يكونوا خشنين غليظين ، نتيجة لتجاربهم السابقة — فالكثير منهم عاشوا فى ظل الفظائع .

وحملق حتام قائلا : « نعم ، نعم ، ان ذلك يرجع الى الحركة الارتجاعية العنيفة التى اصيبوا بها نتيجة لما فعله النازيون بهم » .

كلا ، ان المسألة ليست كذلك .

قال حتام « نعم . ان الاسرائيليين قد اكتسبوا العقلية النازية . فهم يعتمدون على استخدام القوة . فقد اعتمد هتلر ايضا على استخدام القوة دون غيرها .

قلت له كلا ، ودخلت فى جدل لا نهاية له اتسم ببعض العنف . وطلبت منه الا يعمم وان يتذكر ان الاضطهاد لم يكن فى يوم من الأيام مدرسة للتسامح فقد ساهمت العداوة المصرية ودعاية الحرب المناهضة للسامية ، فى تشكيل تلك المواقف الاسرائيلية الحالية . ولا استطيع اقتناع حتام،واتركه والهواجس تنتابنى . فعندما يتم فتح الحدود امام الوفود السياحية ، ستحدد اللقاءات الأولى صورة كل طرف فى عيون الآخر لفترة طويلة قادمة . وهناك بعض المثقفين المصريين ، من الناحية الأخرى ، لديهم صورة وردية عن اسرائيل باعتبارها الأرض التى يعيش فيها سلالة فرويد واينشتاين ، رقيقو الحاشية ، الذين يلعبون الشطرنج بعضهم مع بعض فى المقاهى الركنية . واننى اخشى ان يصدمهم الواقع .

وهناك آخرون لا يتذكرون الا رجال الاعمال اليهود الأثرياء القليلين الذين خلفوا وراءهم الكثير من النفحات ، او اليهود المهذبين القليلين الذين لعبوا دورا فى المجتمع المصرى قبل قيام الحروب ، وهم يتذكرون هذا بدلا من ان يتذكروا المجموعات الكبيرة من يهود القاهرة الفقراء الذين اضطروا الى الهرب من البلاد بعد عام ١٩٥٢ . وهم يذكرون السيدة كيتاوى التى كانت تعمل وصيفة للملكة ، والباشا اليهودى الذى كان يعمل ياورا بالبلاط الملكى، او آخر كان يشغل منصب وزير المالية . واننى اتكهن بوقوع مشاكل عندما يكتشفون اننا مجرد شعب من الطبقة الاجتماعية المتوسطة الدنيا .

ومع ذلك كان من بين دواعى سرورى وانا اتحدث مع المصريين ان احدا منهم وفيهم حتام لم يصرح لى ، حتى الآن ، بما يلى :

طالما اننا يهود ينبغى علينا ان نضرب مثلا خلقيا للعالم.ففى اوروبا لايزال المرء يستمع الى هذا الكلام طوال الوقت ، وقد استمعت الى هذا مرة من واحد من الألمان كان يشغل منصب قاض فى ظل حكم النازى .

ويفيض لى ان استمع الى مزيد من التفلسف الوجودى من دى . زد وهو شاعر . جلسنا على كراسى صغيرة فى (الفيشاوى) وهو مقهى شعبى بوهيمى محشور داخل احدى الممرات الضيقة فى سوق القاهرة القديم . وتنعكس على المرايا الضخمة الموجودة على الحوائط كل صورة من صور المارة الذاهبين والآيبين ، كما هو الحال فى الجدل الممل ، وتتعدد الانعكاسات الى ما لا نهاية واحتسينا الشاى الأسود ، وتجاذبنا اطراف الحديث . ان دى . زد متحدث متحمس .

قال دى . زد : اننا لانحملكم دائما معنويا كما انكم لا تحملوننا ذلك بل ان بيجين قال : ان مصر لم يكن لديها اى سبب يدفعها الى محاربتنا او بعبارة اخرى اننا لم نهزم فحسب ، ولم نخسر مئات الآلاف من الأرواح ونحطم اقتصادنا فحسب ، ولكننا — على حد قول بيجين — اغبياء ايضا . اننا فعلنا كل هذا بلا سبب » .

وقلت موافقا ، ان هذا ليس هو ما كان يقصده بيجين بالرغم من انها العبارات التى استخدمها بيجين . ليس هناك اى تقمص وجدانى تجاههم فى

داخل غالبيتنا . واذا كنا نفتقر الى هذا التقمص الوجدانى ، فكيف نتوقع ان تكسب تعاطف المصريين مع دافعنا الادبى ؟ كيف سنقنعهم بان اسرائيل قد تم انشاؤها لا لمجرد الحاجة الملحة لذلك ، بل لكون هذا اجراء عادلا ؟ وفهمت من دى . زد ان هناك تطورا جديدا واحدا فى موقف المصريين : لقد بدات حدة الغضب ازاء انشاء اسرائيل تتضاءل . ربما لانهم بداوا نسيان ذلك ، ربما لانها غرقت فقط وبصفة مؤقتة فى بحر من الدماء .

اذن ما هو نوع المواجهة المحتملة بين الاسرائيليين والمصريين فى هذه المرحلة ؟ يقول دى . زد ان نوع المواجهة الوحيد هو النوع الوجودى . ان السمة الوحيدة التى نشترك فيها فى هذه اللحظة ، كبشر ، هى ما اسماه (البير كامى) التضامن ضد الموت . ويقول دى . زد : اننا نوافق على ابرام معاهدة مناهضة للانتحار .

ولم يعد دى . زد ينظر الينا باعتبارنا قتلة مثل (ماكبث) ، ولكن باعتبارنا (ميرسول) ، وهو البطل الوجودى فى رواية الغريب بقلم كامى . ويقول دى.زد :اننا اقترفنا مثل (ميرسول) جريمة ، ولكن مامعنى جريمة فى عام مجرد من القيم السامية ؟ هناك فقط لا ابطال فى هذه الحكاية . يقول دى . زد: انه لا يوجد فى عالم غير اخلاقى اى ابطال . ويضيف : ولا يوجد ايضا غضب جارف .

لقد فقد دى . زد ذراعه فى احدى الحروب الاسرائيلية ـ المصرية ويقول انه يكتب حاليا بذراعه الأخرى رواية تجريدية ويقول : لن تتضمن اى عقدة . وفى اسرائيل نحب ان نجد تبريرات اخلاقية لكل مطالبنا ، ربما ينبثق ذلك عن الغطرسة التى يشكو منها حتام . لقد تعلمت من دى . زد وغيره درسا هاما فلو حاولنا فى هذه المرحلة ان نتحدث الى المصريين باسلوب اخلاقى، لخاطرنا بأن ينظر الينا على اننا منافقون اننا لازلنا نجهل غيرنا من الشعوب، ونجهل انفسنا . ولا ندرك هذه الحقيقة ـ مدى هذا الجهل ـ الا عندما نكون بين الأجانب .

***

لقد روى لى دى . زد قصة عن استحالة العفو . فقد سمع احد العلماء الحكماء عرضا ، ابتهال امراة اثناء صلاتها . كانت تقول « اتوسل اليك يا الهى لا تجعلنى أموت دون ان تعفو عن كل ذنوبى » .

والتفت العالم اليها وهو يصرخ « ايتها المراة الشريرة ، اطلبى من الله الخلود ، ولا تطلبى منه الصفح » . ويقول دى . زد ، ان هذا العالم كان يقصد ان الله لن يعفو عنها على الاطلاق .

***

الدكتورة ليلى ابو سيف :

تتذكر الدكتورة ليلى ابو سيف ـ المعروفة فى كل من مصر والخارج المخرجة المسرحية ، احدى الشخصيات البارزة التى

تنادى بحقوق المراة . انى اتذكر الشجار غير السار الذى وقع بينها وبين البوليس خلال اواخر الستينيات . فقد كانت عائدة لتوها الى مصر قادمة من الولايات المتحدة الامريكية ، ومعها مجموعة من الاسطوانات ، من بينها تسجيل لموسيقى هاندل « اسرائيل فى مصر » ولكن تم مصادرتها . وقام رجال البوليس باستجوابها بعنف وحدة وبعد عدة احتجاجات وتدخلات وتوضيحات ، صدر أمر الى احد رجال البوليس بأن يستمع الى التسجيل الكامل للاسطوانة ليتأكد من انه لا يتضمن اى كلمة واحدة من الدعاية الصهيونية .

ويبدو ان تلك المتاعب لم تنته بعد ، كما كانت تأمل ، بعد توقيع معاهدة السلام . فقد حاولت الدكتورة ابو سيف ان تعرض مسرحية فى احد المسارح الصغيرة التى لا تبعد كثيرا عن الجامع الأزهر ، الفها الكاتب المسرحى يعقوب صنوع اليهودى ـ المصرى الذى عاش فى القرن التاسع عشر ـ غير ان محاولاتها باءت بالفشل . هل يرجع سبب فشلها فى عرض المسرحية الى حساسية الحكومة المفرطة تجاه مشاعر المتعصبين الدينيين ؟

وكان صنوع الذى مات فى مطلع القرن ـ احد الوطنيين المصريين المشهورين ، ولكن نظرا الى انه كان يهوديا تم حظر عرض مسرحياته فى مصر بعد ١٩٤٨ .

وفى بادىء الأمر لم يكن امام الدكتورة ابو سيف اى مشكلة ، فان البروفات التى يجريها المسرح الذى تمتلكه الدولة تتم وفقا لجدول زمنى . غير ان احد الاشخاص احتج ، وفجأة وبين عشية وضحاها وجدت الدكتورة ابو سيف نفسها دون مسرح ، وبلا ممثلين ، وبلا ميزانية . ما الذى حدث ؟ هل لاتزال المسرحيات التى الفها صنوع محظورة فى مصر لانه ولد يهوديا ؟ او لان مسرحيته ـ التى لها روح ليبرالية القرن التاسع عشر العلمانية تسخر من العرف الاسلامى الخاص بتعدد الزوجات ؟ أم بكل بساطة ـ بسبب قرب المسرح من جامع الأزهر ؟ أم هل يرجع ذلك الى ان دور الدكتورة ابو سيف مثار جدل ، بوصفها واحدة من المنادين المتشددين بحقوق المراة ؟ ولكنها هى شخصيا لاتزال تجهل السبب الحقيقى . وتقول الدكتورة ابو سيف ، ان هناك تيارا خطيرا من التطرف الدينى آخذا فى التصاعد بين الجماهير . وهى قبطية ، وهذا التيار يخيفها للغاية .

***

ليلة مع يوسف ادريس ليلة مشحونة بدراما ورهبة متوقعتين . فقد اتفقنا على ان نذهب الى مسجد الحسين لمشاهدة الطقوس الدينية التى تقام هناك فى ذكرى الحسن والحسين ، شهداء صدر الاسلام . ونظرا لما حدث فيما بعد مازلت اتساءل عن سبب موافقة ادريس على ان يأتى الى هذا المكان.

فبعد الساعة العاشرة مساء ، وصلنا الى الشارع الواسع المؤدى الى المسجد . وكان يقود السيارة صديق لادريس وهو الدكتور محمد شعلان ، استاذ الأمراض النفسية فى جامعة الأزهر . وكان الطريق مزدحما يعج

بالناس . ويبدو ان الكثير منهم قد وفدوا من الريف لحضور هذه المناسبة وزحفنا ببطء وسط الجموع المحتشدة ، وكنا نتحرك بصعوبة بالغة — وفجأة اصاب ادريس حالة خوف — خوف مرضى . واخذ يصرخ فى فزع « اخرجونى من هنا ! اخرجونى من هنا ! لا استطيع احتمال ذلك ! » .

وعندئذ اوقف الدكتور شعلان السيارة . وكنت اجلس فى المقعد الخلفى بجوار ادريس ، وأتابع ثورته هذه فى رعب . فقد كان يرتجف ولم استطع ان اقاوم شعورى بأن هذه اللحظة من اللحظات النادرة والمخيفة عندما ينفجر البرق فى الظلام ، وهنا تظهر — تحت وهجه العجيب — الخطوط الخارجية لبعض الأشياء الغامضة الرهيبة ، واخذ الجمهور يتدفق ، بينما كان ادريس يتأوه وهو لا يزال يرتعد « لا استطيع احتمال ذلك ، ابعدونى عن هنا » .

ما الذى كان سيفعله كتاب (سيرة تولوستوى) بالنسبة لمشهد كهذا لأصاب تولوستوى غثيان اثناء اندفاع حشود الفلاحين الروس عبر بوابات دير (اوبتينا بوستينى) يكتب ادريس — الذى ربما يعتبر اكثر الكتاب المعاصرين فى مصر — يكتب عن مصر والمصريين بحب انه يشبه الشخص الذى يعانى من الدوار ولكنه محكوم عليه ان يعيش فوق جرف مرتفع .

ويقول له الدكتور شعلان محاولا تهدئته : « استرح ، ارجوك ان تستريح وينظر الى تلك الحشود المتجمهرة ويقول : انهم مؤمنون .

وصرخ ادريس قائلا « اننى اكره خرافاتهم . اننى اكره فقرهم ! وجهلهم ! ابعدنى عن هنا ! لا استطيع احتمال ذلك ! » .

وقال شعلان فى صوت خفيض : اننى احبهم .

ويصيح ادريس « انك تحبهم لانك ترى ! انك تنحدر من اسرة اقطاعية ومن السهل عليك أن تحب الفقراء . لكننى من اسرة فقيرة . لذلك اكره الفقر . اكرهه !

ارجوك ابعدنى عن هنا .

وبصعوبة بالغة استطاع شعلان ان ينحرف بالسيارة ويقطع الطريق بسرعة فى اتجاه تلال المقطم الصحراوية الجرداء ، التى تقع خلف المدينة. وخرجنا من السيارة . واخذ ادريس يتنفس بعمق ولم يكن هذا الفراغ يسوده الصمت والظلام وتبدو المدينة من على بعد متلالئة من خلال طبقة رقيقة من الضباب .

الفصل الرابع

غادرنا القاهرة فى الصباح — شعور خانق دائم بهذه الجموع الضخمة التى لا يمكن احصاؤها — كان الوقت لا يزال مبكرا . والشوارع تعج بالناس . الآلاف تنتظر فى مواقف (الاوتوبيسات) . وحركة المرور بطيئة وثقيلة ومتشابكة عند ملتقى الطرق الرئيسية . كل شىء يزحف ببطء والباعة المتجولون يعرضون للبيع (الفطائر) والشاى الاسود فى اكواب صغيرة .

ويمتد الطريق السريع الرئيسى المتجه الى الاسكندرية شمالا على طول كورنيش النيل العريض ، الذى اخترق ايام عبد الناصر — الاحياء القذرة المزدحمة بالسكان التى تقع بمحاذاة نهر النيل . وقطارات الضواحى . التى تترك وراءها خيوطا من الدخان — تسير ببطء جنوبا ، وهى مزدحمة لدرجة ان عشرات الركاب يتسلقون ويركبون فوق ظهورها . وكنت أراقب هذا المشهد المخيف فى ذعر . لكن السيد عفيفى قال لى : « لا تنزعج ، لقد اعتادوا على ذلك » .

والسيد عفيفى هو احد المسئولين فى وزارة الزراعة — وكنا متجهين شمالا نحو دلتا النيل ، لزيارة بعض القرى هناك . وكان نهر النيل يبدو فى لونه الرمادى ، وسفن البضائع تسير فى الاتجاهين . والنساء يغسلن ملابسهن فى مياه احدى الخلجان العكرة . والاكواخ المبنية من الطين منتشرة على الجانبين فى كل مكان ، وايضا العديد من مواقع التشييد الجديد . ويقول السيد عفيفى « منازل للسكن ومصانع جديدة » . ان اكثر الأعمال يدوية . اما الحفريات الضخمة التى سيتم فوقها البناء فمنقوطة بكائنات بشرية ، مثل المناظر التى يرسمها الفنان (بروغل او هيروتيموس) خليط من الناس ذوى العزيمة مثل النمل تزحف فى الغبار ، يفعلون اليوم كما كان يفعل العبرانيون القدماء « عمل شاق ، فى الطين والطوب اللبن » .

وبعد قيادة استغرقت نصف ساعة او ما شابه ذلك — عبر الضواحى الصناعية المزدحمة والمناطق السكنية المبنية من الطوب اللبن او الحجارة الحديثة — تغيرت الصورة تماما . فبدأ الزحام يقل فى البداية ، ثم ظهرت المنطقة الريفية الشاسعة وبدت الارض منبسطة واذا بالألوان القاتمة التى شاهدناها فى القاهرة تتغير الى الوان اخرى : اللون البنى القاتم ، والوردى ، والبنفسجى وفجأة مساحة خضراء شاسعة ويانعة توحى لك انك فى احد المناطق الريفية فى اوروبا الوسطى .

وادى النيل ، فى الطرف الجنوبى الضيق من الدلتا : منطقة ضخمة وخصبة ودافئة ، حيث الشمس مشرقة طوال ايام السنة ، والمطر نادر سقوطه ، ولكن هناك مياها غزيرة ونباتات تذهل بوفرتها الغريبة التى يتضوع منها العبير . ولا توجد فى هذه المنطقة مواسم ، ولكن عملية كدح دائمة . يقول السيد عفيفى « الفلاح هنـــا مشـــدود الى الارض بوثائق . انها صـــلبية » .

ولا تزال الصحراء قريبة للغاية من هذه النقطة الجنوبية ، ولا يمكن رؤيتها الا بصعوبة من ناحية الشرق . والوادى الضيق قد وعد الله موسى ان يخرجه من مصر وياتى به الى ارض طيبة وواسعة . ولا بد ان التاكيد كان على كلمة واسعة . ومما لا شك فيه ان ارض كنعان (التى وعد بها الله الاسرائيليين) كانت واسعة اكثر مماكانت طيبة . ونظرت مندهشا الى هذا القطاع الرفيع من الحضارة على طول نهر النيل . فهو اضيق مما كنت اتصور ، واكثر عرضة للخطر فهو مجرد خيط ، ويبدو ان الحيـــاة كلها هنا متشبثة به وقد قرات فى احدى الكتيبات التى تصدرها الحكومة ان ٤ ٪ من ارض مصر آهلة بالسكان او مزروعة . وحاولت ان اتصور ما يعنيه هـــذا الرقم . ان معناه ان مساحة المنطقة المزروعة فى مصر تزيد قليلا عن ضعف ونصف ضعف مساحة اسرائيل ، ان تلك المساحة الصـــغيرة من المفروض ان تخدم ٤٠ مليون نسمة . هذا عن الأرقام فى الكتب ، اما عن معنى هـــذه الحقيقة المذهـــلة فلا يكشف عنها اى كتاب بل يكشف عنهـــا من يراها راى العين ، هذا الوادى الضيق الذى يشهد الكفاح المرير لأجيال من الرجـــال والنساء والأطفال عبر القرون . احواض الخضراوات ، حقول الطين ، اشجار البرتقال ، بساتين عامرة بالمانجو والموز . ويغطى تلك القنوات طبقـــة من ضباب الصباح الأزرق الشفاف . وفى كل مكان ينظر اليه المرء فى هذا الريف المكتظ بالسكان يوجد الرجال والنساء والأطفال فى الحقول ، او يسيرون على طول الطريق ، او خارج بيوتهم المصنوعة من الطوب اللبن .

ويبدو هذا المشهد وكأنه رشـــح ملح متعذر اصـــلاحه اكثر من كونه انفجارا سكانيا . هناك رائحة تملأ الجو . وقد كتبت (سيمون لاكوتورة) فى مؤلف صغير جميل عن مصر ــ نقلا عن تصريحات أحد المصريين : الزهور التى بلا عبير نسميها الزهور الأوروبية . اننى لا ارى اى زهور . ولكن الاريج منتشر فى كل مكان . وفى هذا الوقت من السنة ينضج القمح ، ويتم زراعـــة حقول البطيخ ، وجـــذ عيدان البرسيم ونشـــاهد اسراب طيور الربيـــع المهاجرة ، مثل طيور الخطاف واللقلاق ، تحلق فى السماء متجهة شمالا ، فى شكل دوائر جماعية داكنة .

ومررنا على حقول واسعة من القمح والبرسيم . لقـــد هاجر اليهود الرحل الجوعى الى هذه المنطقة بحثا عن الطعام ــ فى روضة الله وهى مصر كما يطلق عليها فى الانجيل ــ وفى القرآن الكريم . لقد قدموا الى هنا عندما كانت هناك مجاعة فى كل الاراضى ، ولكن فى كل ارض مصر كان يوجد الخبز . ثم اتى بعدهم مهاجرون آخرون . ويستطيع المرء ان يدرك مشاعر الفاتحين العرب خلال القرن السابع عندما دخلوا الدلتا من ناحية الصحراء . ويقال ان القـــائد العربى عمرو رفض ان يدخـــل المراعى الخضراء الذهبية اللون

والجداول وبساتين الفاكهة التى تسحر الألباب من شدة جمالها ، وذلك لأنه لم يكن يريد ان يعجل بالاستمتاع بمباهج الجنة .

فى هذا المكان الدافىء الرطب والتربة الخصبة التى تحيط بها الصحراء اخترع الجنس البشرى الزراعة وفن العمارة والعلوم والهندسة والفن وتوصل الى التوحيد . والمنظر الذى يشاهده المرء الآن هو هذا الحشد الهائل من البشر الداكنين السريعى الحركة . الأعين مصابة بـ (التراكوما) الأطفـــال ذوو الأجسام الهزيلة ـ يقومون بتسوية التربة ، وبذر الحبوب ، وتقليم الأشجار ، وعزق الأرض ، وحفر الأخاديد بينما تدور الدواب ، والبقر والجاموس الذى يلاحقه الذباب ــ فى حلقات لا تنتهى وتقوم بضخ المياه لرى الحقول . وتبدو الغربان التى تنطلق عبر الهواء الرطب ، متخمة بالطعام .

ويقول السيد عفيفى : ان المواشى التى تقوم بتشغيل السواقى اصبحت مشـــكلة لانها تدور طوال اليوم وتدر الألبان او تدر القليل . ولكنهم ــ كما يقول ــ لا غنى عنهم . فلا بد ان يتم ضخ المياه بصفة مستمرة ــ والفلاحون فقراء لدرجة انهم لا يستطيعون استخدام الآلات .

وتذكرت قصة رويت عن (ستالين) مفادها انه كان يحـــاضر خريجي الأكاديمية العسكرية السوفيتية ، واستشهد ــ بنوع من الرضا ــ ببرقية بعث بها قائد معين من سلاح الفرسان بالجيش الأحمر كان قد فقد لتوه سبعة من الجنود وجيادهم : « سبعة جياد قد تم فقدها فى نهر ضحل » لماذا ذكر الجياد المفقودة ولم يذكر الفرسان الذين ماتوا ؟ وأردف ستالين : ان اى فرد يستطيع ان يصنع رجلا ، ولكن من منكم يا اولاد يستطيع ان يصنع فرسا ؟ .

* * *

كل شىء منبسط . ان اصغر تل ــ هنا او هناك ــ هو ربوة فرعونية او رومانية على الأرجح ــ اما الأرض المحيطة بهذا التـــل فهى تشبه المائدة او كما كتبت (ليدى دف جوردون) فى القرن التاسع عشر « رف أثرى فوقه كتابات لهيرودوت ، فوقها الانجيل ، فوقه القرآن الكريم » . وبعد القرآن الكريم يستطيع المرء ان يشاهد أحدث اضافة ــ بالخط العريض ــ الا وهى فلسفة الثورة التى كتبها الرئيس ناصر . البوابات الحديدية الضخمة ، التى يتفرع منها ستة او ثمانية ارجل ــ مثل مخلوقات الكوكب الآخر (اتش . جى ويلز) فى روايته ــ والمزودة بأسلاك كهربائية من محطات القوى الكهربائية فى اسوان ، والتى تنتشر بين المسطحات من الأفق الى الأفق . وكل منها تحمل لافتـــة بيضـــاء مكتوب عليهـــا باللغتين العربية والانجليزية : « خطر ــ ضغط عال » .

* * *

(انشاص) قرية فى محافظة الشرقية ــ نحن على بعد حوالى ٢٥ ميلا شمال شرقى القاهرة . و « قرية » فى هذا الجزء من العالم معناها تجمع يبلغ تعداده من ٢٠ الى ٣٠ الف نسمة ــ وهى تشـــكل مدينة فى مكان آخر ذات

حجم مقبول . وتشغلها (انشاص) مساحة صغيرة من الارض نسبيا : ان
الأرض شيء نادر هنا . والقرية عبارة عن خلية نحل من الطوب اللبن الخام ،
والطين والقش . وحتى سنوات قليلة كان الفلاح يصنع الطوب بنفسه
طمى النيل . ومنذ انتهاء العمل من السد العالى فى اسوان ،لم يعد هناك من
وفير فى نهر النيل لذلك كان على الفرد ان يستخدم مواد اخرى غالية طمى
وقبل اقامة السد العالى ، كان بعض البيوت يجرفها الفيضـــان الثمن
وتستكين انشاص . الآن وفى امان على طول ترعة صغيرة ــ يا رجال الـكبير .
ويا نساءها واطفالها . لقد تمت المعجزة وبنيتم السد (ناصر فى عام ١٩٦٥ مصر).

كان هناك بعض الأطفال يلعبون فى العشب . الواقع انهم كانوا يرعون
اشجار القطن الصغيرة . فثمرة هذا النبـــات الضـــعيفة فى متناول ايدى
الاطفال ، وفى كل زاوية من زوايا الحقول يعمل الأطفال . وتستخدم الآلات
فى الحرث فقط . ويقول السيد عفيفى وكأنه يردد نصا مشهورا « ان القطن
هو الهبة التى يقدمها اطفال مصر لهـــا » .

ان القطن والقمح والأرز والبرسيم والخضروات يتم زراعتها بالتناوب .
ويقول السيد عفيفى : ان عملية المناوبة بين المحاصيل قد تم ادخالها بعد
الاصلاح الزراعى فى عام ١٩٥٢ ، ١٩٦٠ . وحتى ذلك الحين كان يتم انتاج
القطن والقمح وبعض الخضروات فقط . والاصلاح الزراعى ــ الذى بدأ فى
مصر عام ١٩٥٢ ــ قد اكتمل الآن تقريبا ، وبمقتضاه قد يحصل كل فلاح على
٥٠ فدانا فقط . ولم يكن اى فلاح فى انشاص يمتلك اى ارض زراعية قبـــل
الاصلاح . ان الفرق بين فلاح بلا ارض وفلاح يمتلك ارضا مثل الفرق بين
حيوان بقدمين ورجل (الكولونيل محمد نجيب ١٩٥٥) . ويقول السيد عفيفى
ان الأرض هنا كانت موزعة على الفلاحين ــ الذين لا يملكون ارضا ــ فى
شكل قطع تتراوح ما بين فدانين الى خمسة افدنة . ويكسب الفلاح ما يعادل
٤٠ دولارا تقريبا شهريا .

والسيد عفيفى له صديق فى هذه القرية اسمه عبد الله ، ويشرف على
الجمعية التعاونية الاقليمية . وزرناه فى منزله الجديد ، المصنوع من الاسمنت
والقوالب الجاهزة . وعبد الله ــ الهزيل ذو الوجه المستدير والذى يبلغ من
العمر ٣٥ عاما ــ جندى من جنودحرب عام١٩٦٧ . وعرض على حذاءه العالى
الرقبة الذى اجتاز به رمال سيناء سيرا على القدمين فى عـــام ١٩٦٧ لمدة
ثمانية ايام على ما يقول . اما الضباط فقد هربوا فى عربات نقل فوق الطرق
الممهدة .

وقال لنا ونحن نجتاز القنوات الموجودة تحت شجر المانجو ونتذوق
الفراولة التى تمت زراعتها هنا لبيعها فى القـــاهرة ، « اننى لا احمـــل اى
ضغينة لأحد » . وكانت الفراولة جافة نوعا ما . وفى نهاية الحقل ، كانت
هناك بعض اشجار الزيتون متغضنة مثلها مثل وجوه الفلاحين الذين يمتلكونها،
وهى مثلهم ايضا من حيث انها تنتج فاكهة صغيرة الحجم وغالبا ما تكون مرة .

وتقوم زوجة الفلاح بوضع الشاى الاسود الناعم فى وعاء معدنى يغلى
فيه الماء ويقوم الرجال الجالسون حول المائدة بارتشاف المزيج الاسود .

ويقول السيد عفيفى: ان شاى (سيلان) الأسود ، الذى ادخله البريطانيون
فى القرن الماضى ، غالى الثمن ، اما الشاى الصينى فهو أرخص . ولكنه اضاف
آسفا ان كل الجهود لاستبدال الشاى السيلانى بالشاى الصينى قد باءت
بالفشل . وكتبت « سيمون لاكوتور » فى كتابها « مصر » ان الشاى الاسود
هو افيون الشعب المصرى والفلاح الذى يبدو عليلا فى غالب الاحيان ومصابا
بسوء التغذية ــ ينتعش بعقار هذا المشروب القوى ـ فثلث دخله ينفقه على
هذا الغذاء الكاذب ... الذى يعتبر الانتصار الذى بقى للاستعمار الانجليزى
فى مصر » .

وتحدث السيد عفيفى عن الســـد العالى وانجـــازاته بنفس الطريقة
القدرية التى تحدث بها عن تناول شاى سيلان . صحيح ان السد العـــالى
قد وضع حدا للفيضانات وقام بتوليد كمية كبيرة من الكهرباء ــ والكثير منها
لم يتم استغلاله حتى الآن ــ ولكن فى الوقت نفسه انقلب ميزان البيئة بأكمله
رأسا على عقب . ولم يكتشف اى شخص حتى الآن افضل الطرق لتقويم هذا
الاعوجاج . ويقول السيد عفيفى : فى هذا البلد ، عندما يتم حل مشـــكلة
واحدة ، تنشأ سبع مشاكل جديدة اخرى . ولو استطاع ان يبدأ مرة اخرى
من الصفر ، لاستطاع ان يبنى سدا آخر مختلفا .

اما بالنسبة للحروب فقد قال : ان كل فرد سئم منها . تعب منها .
ان الجوع والقلق همـــا السمتان الاجتماعيتان اللتان تميزان بين الرجـــال
والحيوانات . ولكن هل يحفز التعب ؟ فى الأيام الأولى من الثورة الروسية ،
احجم البلاشفة عن تأميم السيارات الاجرة فى (بتروجراد) وعندما ســأل
احد الاشخاص (الكسندر بيركمان) عن سبب ذلك ، رد عليه الفوضوى
المشهور قائلا « انه أمر واضح . ان الرجال يستطيعون ان يعيشـــوا دون
طعام ، اما الجياد فانها لا تستطيع . فعندما لا نطعمها ، تلقى تلك الحيوانات
الغبية حتفها !

مستر ايى E يقف مستر اى E مرتديا قميصا (سبور) مفتوحا عند
الرقبة ويحيط به المسئولون المصريون وهم يرتدون حللهم الصوفية الثقيلة.

ومستر ايى : هو احد الخبراء بالأمم المتحدة فى الزراعة المصرية .وهو
من ابناء مدينة الاسكندرية ، ومن ابوين يونانيى الجنسية عاشا فى مصر قبل
قيام الحروب ، ومن ثم يتقن الحديث باللغة العربية . ويقوم بزيارة مصرمرتين
او ثلاث مرات فى السنة ليشرف على المنـــح الدولية التى يتم تقديمها لمصر
كاعانة . وهو يتحدث عن المشاريع وعن النباتات والآفات الزراعية وهو
رجل جد متشائم . ان حوالى ٤٠ ٪ من سكان الدلتا يعانون من البلهارسيا،
وهو مرض يوهن صحة ضحاياه .

ويتحدث ببطء وفى صوت هادىء فيقول « ان المشكلة الرئيسية هى
المشكلة السكانية » . وهو ليس رجل كلام ، والمهندس الكامن فيه يقول ان
اجهزة الرى اقوى من الكلام والصناعة والزراعة لا تلحقان بمعدلات الانجاب.
فلو ان حبوب منع الحمل قد تم اختراعها منذ عشرين عاما قبل اختراع
البنسلين ، بدلا من العكس .. وحتى اذا كان بالامكان الآن تنظيم الأسرة ،

فكيف يمكن اطعام ٤٠ مليون فم من خلال تلك الأرض الجيدة ؟ والحقيقة ، ان تعداد السكان سيصل الى ٦٠ او ٧٠ مليون نسمة خلال جيل واحد .

ونسأل : الا يمكن زيادة رقعة الأرض الزراعية ؟ يرد مستر ايى : ولكنها تزداد باستمرار فحوالى ٣٧٠ر٠٠٠ هكتار (اى حوالى ٩٢٥٠٠٠ فدان) من الأراضى الجديدة قد تم استصلاحها خلال الــ ٢٥ سنة الماضية، اى بزيادة قدرها أكثر من ٢٠٪ عن عام ١٩٥٤ . ومع ذلك وفى الوقت نفسه فان الكثافة السكانية فى القرية ازدادت بنسبة ٦٠٪ .

ولاتزال هناك امكانية كبيرة لتحويل الصحراء الى ارض زراعيـــة وتعتبر مصدر قبل كل شيء ــ الأرض التقليدية لاستصلاح الصحراء ، فقد تم ادخال هذا الأسلوب هنا منذ آلاف السنين ، ومع ذلك فان نهر النيل العظيم نفسه يعتبر معينا من المياه يمكن ان ينضب ــ ان ما به من المياه يكفى لرى حوالى ٨٠٠ر٠٠٠ هكتار آخر (اى مليونى فدان) ولكن ماذا بعد ذلك ؟

وذكرت لمستر ايى ان بعض المهندسين الاسرائيليين يتحدثون عن شراء مياه النيل لرى صحراء النقب .

انهم يحلمون ، فالمصريون فى حاجة لكل قطرة من مياه النيـــل ويقول مستر ايى اما فى اليونان ، فان تسعة ملايين نسمة يتعيشون على اربعـــة اضعاف مساحة الارض المنزرعة التى يتعيش منها الـــ ٤٠ مليون مصرى .

اذن ما هو الحل ؟ البعض يقولون انه ليس هناك حل . ولكن مستر ايى يعتقد أن الحل يكمن فى التصنيع ــ فالمشكلة هى ان صناعات كثيرة جديدة يطلق عليها اسم صناعات تحتاج لرؤوس الأموال الضخمة (مثل الالمونيوم او البلاستيك) وهى تتيح الفرصة للعمل لعدد محدود من الاشخاص فقط .

وبعد ذلك وفى قرية ضموره ، وقفت والسيد عفيفى عنـــد طرف حقل برسيم . شاهدنا الحقل وقد تناثرت فوقه شخوص ترتدى الملابس الفضفاضه وتنحنى فوق الأرض مثل الديدان الكثيرة فى الجنة ، فى جنة الله التى هى مصر. وقدمت للسيد عفيفى ملخصا لآراء مستر ايى التشاؤمية . ولم يعلق على هذا الكلام ، لكن كتفيه تهدلا . ونظرنا الى المسطحات الخضراء ، المليئة بالاشخاص المسبوغين باللون الأسمر غير الصافى ، واللون البنى الذى يميل الى الاحمرار، الذين يرتدون الملابس السوداء (المقلمة) بالأبيض وعندئذ تذكرت فجأة تلك الدمى الروسية الصنع المصـــنوعة من الخشب الملون المنحـــوت ، التى تم وضعها الواحدة داخل الأخرى فى صندوق داخل صندوق داخل صندوق آخر.

* * *

السيد / محمد محمود الصالحى :

لقـــد كان محمـــد محمـــود الصـــالحى ــ وزير الزراعة يجلس فى مكتبــه فى مبنى وزارة الزراعـــة القـــديم الذى يقـــع فى قلب القاهرة . وفوق مكتبه ــ الخشبى الداكن وعلى الطـــراز القديم ــ توجد اكوام من الكتب والأبحاث وكان يشغل هذا المكتب المندوب السامى البريطانى

حتى عام ١٩٣٦ . وفوق حوائط حجرة المكتب صـــورة للرئيس الســـادات وبعض الخرائط . وفى نهاية الحجرة توجد منضدة ، كبيرة لدرجة انها تستطيع ان تستوعب مؤتمرا ضخما .

والسيد الصـــالحى فى أوائل الستينيات من عمره ، ذو شارب فضى مشذب ، وكانت عيناه السوداوان تلمعان وقال لنـــا بابتســـامة واضحة تفضلوا ، تفضلوا وسألنا قهوة ؟ واجبنا : نعم . وسألنا (زيادة) ام مضبوطة؟ واجبنا (مضبوط) .

وهذه هى الطقوس الرقيقة التى تسبق اى مقابلة او لقاء فى مصر . سيجارة ؟ شكرا .

اهلا بكم وسهلا ..

اشكرك شكرا جزيلا . ولقد كنت اول اسرائيلى يقابله منذ ٣٤ عاما. « انه من دواعى سرورى » . انه لمن دواعى سروره ففى عام ١٩٤٥ امضى السيد الصالحى اسبوعا فى تل ابيب لبحث مشكلة الفحص البيطرى ، اذ ان الماشية واللحوم كانت فى ذاك الوقت تصدر من مصر الى فلســطين . وفى تل ابيب ، اقام مع احد اطباء الأسنان المشهورين ، نسى اسمه للأسف .ومثله مثل معظم المصريين اذهلته مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات . نعم « لقد ادهشتنى تماما . لكنها شيء حسن ، حسن جدا فى الواقع » . ويتوقع السيد الصالحى ان تحدث خطوات واســـعة الى الامام فى مجـــال الزراعة المصرية نتيجة لهذا السلام غير المتوقع . فسوف يؤدى هذا السلام الى تحرير الاعتمادات التى كانت مخصصة من قبل للدفاع .

وكان يتكلم وهو متردد عن طبيعة اى علاقة اسرائيلية ــ مصرية فى المستقبل . فهو يدرك انها ارض محفوفة بالمخاطر . وهو كغيره من المسئولين الآخرين فى الحكومة ، لن يطأها قبل ان ينير السادات الطريق . وهو مطلع تماما على نجاح الزراعة فى اسرائيل . نعم ، انها زراعـــة مكثفة . نعم ، انتاج وفير جدا فى محاصيل معينة ، ربما اعلى انتاج فى العالم بأسره اذ يصل معدل المحصول فى بساتين البرتقال فى اسرائيل الى ٩٦ر٥ طنا فى الهكتار ، فى مقابل ١٥ طنا فقط فى مصر . نعم ، انه سمع عن المحاصيل الشتوية التى حولت اجزاء من اسرائيل الى حديقة خضروات شـــتوية لأوروبا الشمالية ، واصبحت مصدرا هاما للدخل الأجنبى ، وفى احدى المرات فى جنيف ، حضر السيد الصالحى محاضرة حول أســـاليب الفـــلاحة فى منطقة صـــحراوية اسرائيلية تم ريها . وكان يتحدث عن هذا الموضوع بمنتهى الحماس . ولكنه لم يشر اشارة حتى اشارة غير مباشرة ، الى احتمال الحصول على اى مساعدة فنية اسرائيلية ــ فهذه المسألة بكل وضوح ، مســـألة حساسة ، تحجبها طبقات وطبقات من المشاعر والكبرياء . وقلت وانا أتحسس طريقى بحرص: ان لدينا الكثير كى يتعلمه بعضنا من البعض الآخر. ورد على بطريقة مبهمة : « نعم ، ان ٣٤ عاما فترة طويلة » . وحقا ما قال قد تكون الزراعة افضل مجالات التعاون بين اسرائيل ومصر . ومن المحتمل ان تعرض اسرائيل نوعا من المساعدة قريبا ، ولكن هل سيتم قبول هذا العـــرض فى المستقبل

القريب ؟ ان الأمر سيحتاج على الأقل الى قدر كبير من الصبر واللباقة للتغلب على اسوار الشك التى ارتفعت خلال ثلاثين عاما من الحروب . والمصريون لديهم ذكريات اليمة نتيجة لمعاملة المستشارين الروس والالمان الشرقيين لهم، واشعارهم بنوع من التفوق عليهم . ولـكن ٢٠٠٠ او ٣٠٠٠ شـباب من الكيبوتز الاسرائيلى يستطيعون القدوم الى مصر والعيش فى القرى المصرية النائية والعمل مع الفلاحين ، لا يوجهونهم من عل ، اى بكبرياء ، كما فعل الروس والالمـان الشرقيون . واعتقـد ان الـكثيرين الآن من « الرواد » الاسرائيليين المنهكين سيعتبرون هذا العمل تحديا وطنيا وادبيا وشخصيا . ولكننى لم استرسل فى هذا الحديث بعد ان شاهدت الحـذر يكسو وجه السيد الصالحى .

سيجارة اخرى ؟ شكرا . واشار على السيد الصالحى الدبلوماسى بالقيام بزيارة للمتحف الزراعى المصرى ، حيث يوجد الكثير من الاشياء الهامة معروضة الجديدة والقديمة ، ومن بينها صندوق قديم لخزن الحنطة يشبه الى حد كبير الصندوق الذى وضع فيه سيدنا موسى .

وعندما عاد سمحا دينيتز سفير اسرائيل السـابق فى واشنطن الى اسرائيل بعد حضوره مباحثات السلام فى كامب ديفيد ، سئل عما اذا كانوا قد بحثوا مسألة التعاون الفنى بين البلدين ، وتبادل الخبراء وما شابه ذلك، رد دينيتز قائلا : كلا لم نتناول تلك المسائل بعد ، فالوقت لازال مبكرا للغاية.

— هل هناك احتمال لمناقشة تلك المسائل فى المستقبل ؟

— نعم ، هناك فرصة كبيرة .

— وهل ستكون من جانب واحد ؟ .

— كلا من الجانبين .

سأل احد الصحفيين الوقحين : كيف ؟ اننا نستطيع ان نعلمهم الكثير فى الزراعة . ولكن ما الشىء الذى يمكن ان يعلمونه لنا ؟ .

فنظر اليه دينيتز نظرة حادة قائلا « يعلموننا الدبلوماسية » .

البلد الذى تسيطر فيه الدولة بلا منازع من ايام يوسف الذى كان يجلب المؤن حتى محمد على ، ومن اللورد كرومر حتى الكولونيل ناصر حتى الرئيس السادات من المفاتيح التى تحل هذا اللغز مسألة القنوات وميكانيكية الزمبرك فى فتح واغلاق الهويس وعندما جاء نابليون الى مصر سرعان ما ادرك معنى القنوات بالنسبة لنظرية الحكم . ان الذى يوزع حصص الماء هو الذى يحكم.

والمفتاح الآخر هو شكل الارض . ان مصر جزيرة من صنع انسان تحيط بها الصحراء . ونظامها السياسى مرتبط تماما بجغرافيتها . اخذت انطلع الى وادى النيل جنوب بنى سويف الى ضفتى نهر النيل الضيقتين . والشرائط الخصبة على أى من الجانبين لا تتعدى عشرة اميال عرضا . وكلما

اتجهنا جنوبا تضيق ، لتصل الى ثلاثة اميال ثم الى ميلين . اما السهل فمزروع قطنا وفولا وقمحا ، ومليء بالمنازل المصنوعة من الطين ، وباشجار النخيل، وبالعبير ، وبرماد الاجيال التى لا تحصى . ان الحسـية والعبودية والقوة تترعرع هنا بشكل منسجم . ووراء تلك العباءة الخضراء الضيقة لا يوجد شىء سوى الصحراء . ويقول لاكوتور :انه يمكن السيطرة على البلد كله بواسطة عدد قليل من سفن المدفعية . اما شمال القاهرة — فى الدلتا — فان شكل الارض يستوجب الطاعة ايضا « فلا يوجد غابات يمكن للمتمردين ان يختبئوا فيها . لا مفر الا الصحراء ، حيث الحياة مستحيلة .. هنا لا شىء يفلت من عين السيد » .

***

اطلالات على السيد :

ان صـورة موجودة فى كل مـكان : على منصـات الآلاف من اللافتـات ، والاعلانات ، واقـواس النصر فى كل مدينـة او قريـة . انها موجودة لا مفر منها ، اكبر من الحياة نفسها وهى تعبير عن نظام ، مبدا من مبادىء الحكم . نفس الصـورة مكررة بلا نهـاية على الخشب وعلى الصفائح المعدنية ، وعلى القماش وعلى الورق (الممجن) ، وعلى طول وعبر كل الشـوارع الرئيسية ، وفى كل ميدان ومبنى عام ، صور لجانب من الوجه، وللوجه كاملة فى الحلة الرسمية الغامقة ، والملابس الرياضية البهيجة اللون. انور السادات فى زيه العسكرى وفى يده عصا (المارشـالية) او بدونها وهو « ادميرال » بحرية وهو قائد الجيش ، وهو مبتسم وهو جاد ، يحيى او يفكر بعمق . ودائما فى الحجم العملاق . ان التكبير — الخارق للطبيعة — للصور، وهو الاسلوب السياسى الذى يخدم الدولة — بدعة مصرية قديمة واصيلة ، قدم واصالة اكتشاف مبادىء (الهيدروليات) . انظر الى التماثيل الضخمة والنقوش المنحوتة على الرخام للفراعنة وزوجاتهم فى الاقصر وابى سمبل . وقد كتب (نيكوس كازانتزاكيس) فى عام ١٩٢٧ بعد زيارة قام بها لمصر العليا يقول : ان كل هذه الضخامة من الصعب ان افهمها ، وهى كريمة بالنسبة لى. كان كازانتزاكيس يردد صدى حضـارة مختلفة جعلت من الانسـان لا من العمالقة الآلهة ذات الاحجام الكبيرة — مقياسا لكل شىء .

ان انور السادات يشغل حيزا كبيرا فى حياة المصريين من الصـعب تصوره — فهو رئيس الدولة ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة . وهو زعيم، رمز ينبعث منه سر القوة ، وهو ريس ، الرجل الذى يأمر بانجاز الاعمال، الرئيس . و (روتينه) اليـومى يعكس شـخصية الزعيم اكثر مما يعكس شخصية (الريس) . ويبدو دائما وابدا وهو ينتقل من مقر رسمى الى آخر. فهناك اكثر من اثنى عشر مقرا . ان بعد بعض تلك الاماكن —التىيطلق عليها عادة اسم استراحات — يعتبر شعارا للاسلوب الذى يدير به حكومته — وبابتعاده البارع عن تفاصيل الادارة اليومية ، يتظاهر بأنه مشغول فقط — كما كان يفعل ديجـول — بمجريات الامور التـاريخية الاوسـع نطاقا . والاسـلوب الذى ينتهجه يبتعد كثيرا عن الاسلوب الذى تتم ممارسـته فى اسرائيل . فرئيس وزراء اسرائيل يملأ يومه بالمناورات الحزبية والبرلمانية، ومشاكل اضرابات الأتوبيسات واجور المدرسين والاعانات المالية للمزارع ، وتهديدات الوزراء وكبار العاملين المدنيين المتفرقة بالاستقالة ، لدرجة ان

مجريات الأمور التاريخية الأوسع نطاقا تغوص وغالبا مايتم تجاهلها من حين لآخر تحت ضغط الادارة والبقاء السياسى فى دولة حديثة تخدم مجتمعها .

ويتميز (الروتين) اليومى لرئيس وزراء اسرائيل بسيل الزوار المستمر الذين يدافعون عن هذه القضية او تلك . اما السادات فلا يرى — نسبيا — الا القليل من الاشخاص . فهو يستيقظ فى ساعة متاخرة من الصباح . ويقال انه يبدأ عمله فى الساعة العاشرة او الحادية عشرة صباحا ، وينتهى من عمله فى الثانية او الثالثة بعد الظهر . اما بقية اليوم فيقضيه بمفرده يقرا او يتنزه فى حديقة منزله ، او فى صحبة اقاربه المقربين . وهو رجل مولع بالحياة العائلية . وتعيش معه فى نفس منزله ابنته وزوجها ، كما عاشت ايضا والدة قرينته حتى وفاتها فى عام ١٩٧٩ . وليست لديه «حياة اجتماعية» وله قليل من الاصدقاء المقربين — وغذاؤه خفيف للغاية ، ويتخلله فترات طويلة من الصيام . وكقاعدة هو يخلو لنفسه او يواجه الجماهير الشعبية الفقيرة . وبين هذين القطبين يشكل احساسه بالواقع . ويخاطب الجماهير « ابنائى » ويشير « جيشى » « سفنى » « ارضى » ، « آبار بترولى » او « علاقاتى مع السعوديين » .

ان سحر الزعامة فى شخص ما تعتبر سمة غريبة فالبعض يعتبرها بمثابة اهانة ، صفعة على الوجه ، بينما يعتبرها الآخرون بمثابة عطر نادر ورائع . وفى اطراف ضاحية هليوبوليس اوقف البوليس السيارة التى كنا نستقلها . فقد كان الرئيس السادات يزور جامعة عين شمس القريبة من هذا المكان ، وهكذا تم عزل الحى باكمله . وكان يصطف على الجانبين صفان من الحرس المسلح فى ملابسهم السوداء . وكانت وجوههم متجهة نحو الجماهير الواقفة على طول الشارع بينما ظهورهم الى موكب السادات . وكان من المقرر ان يصل السادات فى اى لحظة . وكان معظم الجماهير المنتظرة من الطلبة . وكان الجو يسوده الهدوء ، ويبدو الطلبة مهذبين بشكل لافت للنظر ، بل وقورين ولا يمكن ان يكونوا بنفس « دماثة الأخلاق » التى وصف بها ادوارد لين المصريين فى كتابه سلوك وعادات المصريين المحدثين (١٨٣٦) حيث قال انها « السمة العامة للمصريين من جميع الطبقات » . فقد كانت عمليات الشغب العنيفة التى كان يقوم بها الطلبة هى السمة المنتظمة للحياة المصرية خلال العشرين عاما الماضية . وقد اسفر حادث الشغب الأخير الذى وقع فى عام ١٩٧٧ ، عما يقرب من ١٠٠ قتيل . ويقال ان الجامعات اليوم اصبحت مرة اخرى مركزا رئيسيا للقلاقل التى يثيرها المتعصبون الدينيون والشيوعيون .

وتحركت مع السيل البشرى البطىء فى اتجاه الساحة حيث من المقرر ان يتحدث السادات . ووصل موكبه الذى ترافقه الموتوسيكلات التى كانت تلمع فى ضوء الشمس ، وعلى جانبى السيارة التى تقله اثنا عشر رجلا يرتدون الملابس المدنية يعدون على اقدامهم فى هذا القيظ . والسادات يستقل سيارة (ليموزين) كبيرة مكشوفة . ولا يوجد الكثير من القادة الذين يخاطرون بأرواحهم ، وحتى فى الدول الديمقراطية الاصغر حجما ، نجد ان ممثلى شعوب تلك الدول يحمون انفسهم وراء دروع من الصلب والواح من الزجاج المصفح والمدعم — وقد اخذت الجموع المحتشدة تهدر ، بينما السادات

يقف منتصبا فى سيارته محييا . وكانت الجماهير تهتف قائلة « بالروح بالدم نفديك ياسادات» . وكانت تلك الأنشودة التقليدية التى تعبر عن الاحترام والتقدير ، تستثير حماس الجموع الغفيرة . واندفع اساتذة المستقبل فى الادب والفلسفة يحاولون الاقتراب وملامسة السيارة كما لو كانت تعويذة ثمينة . توقفت السيارة الكبيرة . ونزل السادات منها بوقار ، وكان يشبه فرعون اثناء نزوله من قاربه الكبير . وتراجع الجمع المحتشد . ورفع يديه محييا . وترددت عبارات « بالروح بالدم » . واخذت الفرقة الموسيقية تعزف موسيقى شعبية . واعتلى السادات المنبر . وهنا ساد الصمت . وبسط يده فوق مصر . كانت مجرد ايماءة موجزة للغاية . وسحبها وعندئذ قام احد مساعديه المدربين تدريبا جيدا باعطائه نظارته ذات الاطار العاجى — فى يده — وراود المرء شعور اذا ما ثنى ركبتيه فجاة ليكون قد تم وضع كرسى تحته ، بكفاءة وصمت توحيان بان هذا تم آليا دونما تدخل من يد بشرية .

واستغرق خطابه حوالى الساعة . ولم يكن — على اى مستوى — متحدثا شعبيا « جيدا » . فقد كان الرئيس السابق يخاطب الجماهير بصوت مفعم بالانفعال والعاطفة . وكانت خطب ناصر تفيض بلاغة وطنية رنانة حين يقول : « اخوانى فى القومية العربية المجيدة »، باسم الامة العربية، اخوانى الابطال فى السلاح .

وبالمقارنة ، نجد ان السادات يتحدث بصوت منخفض ناعم فيقول ، على مهل ، « بسم الله » ثم يتوقف . وعبارة « بسم الله » كانت تتصدر اى خطاب شعبى يلقيه السادات سواء اكان يلقى خطابا باللغة العربية او باللغة الانجليزية ، او باللغة الالمانية او حتى وهو يجيب على سؤال فى التليفزيون الهولندى وفى المفاوضات الرسمية ايضا فيما يبدو . وقد سمعت من احد مساعدى بيجين ان الرئيس السادات — خلال التفاوض حول بنود معاهدة السلام — كان ينصت فى صبر الى حجج يسوقها بيجين رئيس الوزراء ، ثم بدا يرد عليه ، فيتنحنح ثم يقول « بسم الله ، السيد رئيس الوزراء ، لقد اصبت بخيبة امل ... » .

وقال مخاطبا طلبة جامعة عين شمس بما معناه « بسم الله ، اننا لا نحتفل اليوم فقط بانتهاء ثلاثين عاما من الحروب ، والمعاناة والخسائر فى الأرواح والموارد المادية ، اننا نحتفل اليوم باستعادة حريتنا فى الاختيار ، حرية اراضينا ، حرية ارادتنا . دعونا نبدأ فى بناء مستقبلنا فى سلام كرجال متحضرين احرار » .

واكد على كلمة سلام . وكانت تنساب بهدوء من فمه اذ يقول س.لا.م وكانت الجماهير الغفيرة تهلل بحماس ، واثناء ذلك كان السادات يتوقف عن الكلام . وكانت نظارته تقف عند منتصف انفه القوى العريض ، وكان يحدق من فوق حافتها فى هذا الحشد الماثل امامه . وتذكرت فى هذه اللحظة ما قاله يوسف ادريس من ان تلك الجماهير تستطيع ان تصرخ بنفس السهولة منادية بالحرب . (فقد قال لى صدقنى ، لقد سمعتهم بنفسى) واتذكر خطابا القاه السادات فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٧٢ حيث قال ما معناه :

« اننا لن نحرر فحسب الأراضى العربية والقدس ونحطم الغزو الاسرائيلى ولكننا سنعيد (الاسرائيليين) الى الوضع الذى وصفهم فيه القرآن : ان يصبحوا مضطهدين ، مقموعين ، وبؤساء .

واليوم يكرر الجزء الأول من هذه العبارة حين يتحدث عن تحرير الأراضى العربية والقدس ولكنه لم يذكر الجزء الأخير . اما الاهانات فقد احتفظ بها لاخوانه العرب . فقد تغير هدفه ، أو على الأقل تغيرت الأساليب. ويبرر ذلك بقوله كيف نستطيع ان نستعيد ارضنا وقدسنا ما لم نتفاوض مع اسرائيل كأطراف متحضرين ؟ لنجلس مع الاسرائيليين ونبحث معهم مشكلتنا خطوة بخطوة . واول خطوة هى وضع الفلسطينيين فى طريقهم لتحقيق الحكم الذاتى الكامل . وتساءل : ايعتبر هذا خيانة ؟ ايعتبر كذلك .

وردت عليه اصوات الجماهير المحتشدة قائلة : « كلا » . ثم قال : اذن فلماذا يهاجمنا الجهلاء ؟ واستطرد يقول ، ان المشكلة الفلسطينية قد ظهرت عندما تم تقسيم فلسطين فى عام ١٩٤٨ بين العرب واليهود . ان الزعماء العرب العنيدين رفضوا ان ينشئوا دولة فلسطينية . (ولكنه يذكر ان زعماء مصر كانوا من بين هؤلاء الزعماء المتصلبين) ولذلك استطاعت اسرائيل ان تحتل البلاد بأكملها . ونفس الرافضين المتصلبين هم الذين يعارضون الآن معاهدة السلام المصرية — الاسرائيلية .

ويقول السادات : انهم يهددون مصر ، انهم يعزلوننا فى العالم العربى. ولكنهم لن يستطيعوا ان يفعلوا ذلك . ويقول : « انهم أقزام متخلفون » وهنا هللت الجموع الفقيرة بجموح . والجزء الأكبر من الخطاب تم تخصيصه لشرح معاهدة السلام مع اسرائيل . ويقول السادات : ان معاهدة السلام ستمكن الفلسطينيين من تحديد مستقبلهم . ولا احد غيرهم يستطيع ان يمارس هذا الحق من اجلهم . اما باقى الخطاب فكان هجوما على المتعصبين الدينيين.

ويقول السادات : اننى لن اسمح باساءة استخدام الدين فى الأغراض السياسة (كما هو الحال فى ايران) ، اننا ليس لدينا الوقت لاثارة اى نزاع داخلى من هذا القبيل .. ولا الوقت لاساءة استخدام الاسلام .. يجب علينا ان نعيد بناء بلدنا من ويلات الحرب ونعمل جادين لجنى ثمار السلام .. وينبغى علينا الا نضيع الوقت (ان المتعصبين) يحاولون ابعادنا عن طريق السلام . ويزعمون ان الحكومة فاسدة ويقولون انه ينبغى اعادة بنائها على هذه الأيديولوجية او تلك ، على الطريقة الخومينية ، أو ما شابه ذلك . والحل امامهم سهل : الاعدام ، المحاكمات السرية ، وهلم جرا .. انهم يريدون أن ترتدى النساء الحجاب مرة اخرى مثل الخيمة (ضحك) ولكن ينبغى على النساء ان تبنى البلد جنبا الى جنب مع الرجال . ولا ينبغى اخضاع الدين لهؤلاء المتعصبين .

ومرة اخرى تعالت اصوات مهللة ، ولكن يبدو انها لم تكن مرتفعة ارتفاع سابقتها وانتهى الاحتفال . وانصرف الرئيس الى احدى القاعات مع اعضاء الكلية . وعادت الجموع الفقيرة الى الشارع العريض . واختفى الحرس . ولم يعد هناك سوى بعض رجال المرور لتنظيم حركة السيارات

المتشابكة فى حالة من الفوضى بسبب وطأة الزحام . وهذا السيل من الجماهير الغفيرة . ومرة اخرى يصيبنى الذهول من هذه الظاهرة . ويبدو ان هناك انسجاما داخليا فى خلية النحل هذه انها تعمل عن طريق نوع من الايقاع المستتر — او اثر الرائحة — وصبر منظم ذى طابع طيب . ما الذى يحدث لو ان هذا الايقاع اختل ، او لو وصلت ملكة جديدة للنحل ؟ ان جيوش النمل تترك اثارا لترشد غيرها من الالوف المؤلفة . واذا تم تشتيتها ، يحل عليها الخراب . ويبداون فى محاربة انفسهم ، او يدورون حول انفسهم فى دوائر غير نهائية حتى تسقط آخر واحدة فيهم صريعة .

وفى الانجيل يوجد جزء كبير مخصص للسبع السنوات العجاف والسبع السنوات السمان التى عاشتها مصر . وقياسا على الأدلة الخارجية وعلى اسلوب الخطابة الشعبية الذى ينتهجه زعماؤها ، يرى الكثير من المصريين انفسهم الآن على عتبة الخير الوفير . ان السنوات السمان قادمة ، عن طريق المساعدات الكبيرة التى تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية وعن طريق تحول الموارد المحلية من الأغراض العسكرية الى الأغراض السلمية من ناحية اخرى . ولكن ما الذى سيحدث لو ان المساعدات الأمريكية لم تصل الى معدل المساعدات التى تمتنع الدول العربية عن تقديمها ؟ او تعدت هذا المعدل كما يامل الكثير من المصريين ؟ وما الذى سيحدث لو انه بعد نهوض السبع بقرات السمان من النيل ، تأتى بعدهن سبع اخريات عجاف ؟ واثناء كتابتى لهذه السطور اتعجب لماذا اقع — وانا هنا فى مصر — تحت تأثير هذا الطراز الأصلى البدائى ، واتساءل : هل هذا الايقاع يتوقف فقط على الاقتصاد ؟ .

ويقسم لى اف.ال — احد الصحفيين المصريين الذين اعرفهم ان هذه هى الحقيقة . ويقص على حكاية عربية فيقول : كتب رجل الى محبوبته يقول لها : ارسلى لى طيفك فى منامى .. فردت عليه بقولها : « ارسل لى ١٠٠٠ دينار وسوف احضر اليك بنفسى » .

ولكن اف.ال انسان ساخر . وارى انه منطقى اكثر من اللازم . ان لمصر تأثيرا غريبا على . فالبعد المنطقى الذى اعشقه فى مكان آخر ، يبدو غير ملائم هنا ، على نحو ما . والنتيجة توقع الشر غير النهائى . واحاول ان احاربه كما يحارب المرء التخامل المتأصل . ولست متأكدا اننى سأنجح فى ذلك .

وفى طريق عودتنا من جامعة عين شمس ، مررنا على منزل ناصر الخاص ، الذى يقع فى احد الشوارع الجانبية بمصر الجديدة . وكان يقف خارج باب الفيلا متوسطة الحجم — رجلان من رجال البوليس فى احدى الأكشاك . وهما يقومان بحراسة — أو ربما بمراقبة — اسرة الزعيم الراحل . وكانت ابنة ناصر — هدى — قد تم ايقافها مؤخرا فى الشارع بواسطة رجال الأمن اثناء قيامها بتوزيع منشورات مناهضة لنظام حكم السادات الذى تعتبره نظاما فاسدا ، ومنشورات مناهضة ايضا لمعاهدة السلام ، التى تعتبرها بمثابة خيانة للقضية العربية . وتم مصادرة تلك المنشورات واعادة هدى عبد الناصر الى منزلها .

والزعيم الراحل مدفون ايضا على مقربة من منزله فى جامع عبدالناصر الذى تم بناؤه حديثا . وهو مبنى حديث ، يجمع اسلوب بنائه بين عناصر مستمدة من مصادر مختلفة غربية وزخارف شرقية . وهو يرتفع عاليا جنبا الى جنب مع خط سكة حديد مترب . وهو يذكرنى قليلا ببعض معابد اليهود الاصلاحية التى شاهدتها فى امريكا . ومنقوش على الكتلة الضخمة المصنوعة من الرخام ، والتى تعلو مقبرة ناصر ، آية من القرآن انها نفس الآية التى قرأها السادات فى الراديو معلنا وفاة ناصر : « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . ومما يثير الدهشة ، ان السادات اطاح بالكثير من ميراث الرجل الراحل .

ويقول المشرف على هذا المبنى ان القليلين يحضرون الى هنا هذه الايام.

* * *

احد رجال الحاشية :

يشغل الدكتور بطرس بطرس غالى منصب وزير الدولة للشئون الخارجية ، وهو رجل نحيف ، حسن الطلعة ، سياسى ، حذر ، شديد التدقيق فى كل صغيرة وكبيرة . ووجهه القوى العصبى الشاحب، طويل وعابس . انه وجه لافت للنظر ، انه يكاد يبعث من جديد التمثال الخشبى الرقيق النبيل من الأسرة الرابعة الذى يوجد موضوعا على ارفف متحف القاهرة . وقد كان استاذا سابقا ، استطاع السادات ان ينقله من الحياة الأكاديمية الى وزارة الخارجية ، وهو قبطى — اى — وهو على الأرجح — سليل شعب مصر القديم قبل العرب . ونتيجة لتلقيه العلم فى فرنسا ، يتمتع — بوضوح — بعقلية من الدرجة الأولى . وخلال مفاوضات السلام الأخيرة ، عندما حل الاسرائيليون والأمريكيون — بلا كلفة — اربطة اعناقهم وخلعوا ستراتهم ، ظل الدكتور بطرس غالى كما هو مرتديا ملابسه كاملة ، وقال فى احدى المناسبات « ان ارتدائى ملابسى كاملة يعطينى ثقة بالنفس » . انه مزاج غريب من وقار الأقباط وجاذبية الغاليين . وهويتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة ، مع ترنيمة فرنسية خفيفة ، فيما عدا حرف الراء ، الذى ينطقه بموسيقية ، فكأنه (تينور) ايطالى .

وقد تم تحذيرى بأننى لن اقابل من « المسئولين فى القاهرة » من هو اكثر منه تشاؤما . فهو بالتأكيد ، ياخذ كل موضوع تقريبا بنظرة مكتئبة . ولا ينبثق تشاؤمه هذا من صعوبة الموقف الحالى فحسب ، ولكن ايضا من النظرة المكتئبة بوجه عام . والمشاكل الحالية واضحة للغاية . جميل ان يشغل السادات بالحرب والسلام والتاريخ والمدنية بصورة عامة ، ولكن مهمة بطرس غالى — قبل كل شىء — هى الاهتمام بكل صغيرة . فالسادات لايعطى اهمية بالمرة للأزمة البشعة بين مصر والدول العربية — « النزاع الطويل فى الشرق » ، بعبارة جيبون — ولكن المواجهة اليومية لهذه الأزمة تعتمد على بطرس غالى . فهو يعمل بصفة مستمرة ويساعده فى ذلك معاونوه فى وزارة الخارجية ، للحيلولة دون تدهور موقف خطير جدا بالفعل .

ان الضغوط تكشف عن نفسها فيه . فالدكتور بطرس غالى استاذ جامعى ، تم وضعه فى منصب عام صعب للغاية . وقد استقال الوزيران

السابقان له احتجاجا على سياسة السادات . وتتردد اشاعات مفادها انه تم اختيار بطرس غالى لانه بوصفه قبطيا — والاقباط اقلية فى مصر — يبدو ولاؤه للرئيس السادات شيئا مؤكدا .

يقول الدكتور بطرس غالى : ان معاهدة السلام مع اسرائيل قد وضعت مصر فى موقف حساس للغاية . وتستطيع اسرائيل ان تسهم فى تحسين الموقف . ولكن ما الذى تفعله اسرائيل فى سبيل ذلك ؟ ماالذى تفعله؟ القليل، او لا شىء ! والدكتور بطرس غالى متحدث مؤثر فهو خريج السوربون ، ولديه هذا التحيز الصارم الذى نجده عند بعض المفكرين الفرنسيين فى تصيدهم لاى اختلاف ، ولو طفيف ، يفرق بين الملائكة والشياطين . وهو يقول : ان اسرائيل لاتقدر البعد العربى فى التاريخ المصرى والحياة السياسية والثقافية والاجتماعية . « فنحن لسنا مصريين فقط بل اننا ايضا عرب » . ان مصر لاتستطيع ان تتحمل العزلة ولن تعيش فى عزلة ،لتصبح (جيتو) مثل اسرائيل . لقد خطت مصر خطوات كبيرة الى الأمام نحو السلام ، ولكن اسرائيل جاحدة للمعروف متبلدة الحس . وهى تكافىء مصر على ايجادها هذا المنفذ بأن تزيد من المصاعب التى تواجهها . فهى تقيم مستوطنات جديدة فى اراضى الضفة الغربية المحتلة وغزة ومرتفعات الجولان .

تصور قيام عشر مستوطنات اخرى فى نفس اليوم الذى يصل فيه اول سفير مصرى الى تل ابيب ؟ ماذا تكون الصورة المصرية فى هذه الحالة ؟ ان العرب يتهمون مصر بانها خانت الفلسطينيين وينبغى على اسرائيل ان تساعد مصر لتثبت ان العكس هو الصحيح .

فالمشكلة الفلسطينية هى لب هذا الصراع ، ولن يتحقق السلام مالم يتم حل هذه المشكلة . ويقول الدكتور بطرس غالى : ان الوقت ضيق . وكانت تجربة فرنسا فى الجزائر هى الفكرة التى تسلطت على ذهنه . فهو يشير اليها باستمرار . « ان اكبر خطأ ارتكبه الفرنسيون فى الجزائر هو انهم لم يعطوا الا القليل جدا وفى وقت متأخر للغاية » .

وقلت : اليس حل المشكلة الفلسطينية يتوقف اولا وقبل كل شىء على تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل ؟ فالوقت قد يغير كل المناظير . فقد يبدو كل شىء فى صورة مختلفة بعد سنة او سنتين من السلام الحقيقى . ربما بعد سنة او سنتين من تطبيع العلاقات مع مصر ، لا تعتبر اسرائيل اقامة دولة فلسطينية شيئا ينذر بيوم القيامة .

« كلا ، كلا ، كلا ! ليس هناك وقت ! وهنا ظهرت الخطوط واضحة محفورة فى وجه الدكتور بطرس غالى اننا ندور فى حلقة مفرغة . وهو قد اوضح انه يرى ان السلام الحقيقى — فى نظره — لا يمكن التوصل اليه الا بعد حل المشكلة الفلسطينية ، وليس قبلها . اما عناصر الوضع الطبيعى — التجارة والسياحة والتبادل الثقافى — فانه يمكن تحقيقها فقط بالتدريج ، فى صورة عملية بطيئة مستأنية . وصاح قائلا « فى اى مكان على الأرض تحققت هذه التطورات بهذه السرعة ؟ وبعد هذا العداء ؟ ثم يسوق

مثلا تاريخيا من هنا ومثلا من هناك « اننا نحتاج على الاقل الى جيل باكمله كى تعود الامور الى وضعها الطبيعى » .

ولكن حتى رايه البعيد المدى اكثر كآبة . واينما تتجه نظرات عينيه ، يتنبأ بظهور سحب معتمة . ان وزير خارجية مصر — الرجل المثقف المتحضر الأستاذ المنفتح على العالم ، ذا الشهرة الدولية — يعتبر أن وجود الدولة للأمة بمثابة خطر كبير فى حد ذاته . وهو ضد اقامة دولة امة اسرائيلية — وهى التى وقع معها معاهدة سلام لتوه — بنفس قدر رفضه اقامة دولة امة فى مصر ، أو سورية ، ولبنان او الاردن . ولا يثق فى الاشياء المصنوعة عبثا مثل الكويت او ابو ظبى . كيف يمكنه أن يثق فى هذا ؟ فهو فيـدرالى بالعقيدة . « ربما كان هذا مثالا قديما . ولكن هذا هو رايى ! ان الشىء الوحيد الذى سيظهر الى حيز الوجود نتيجة للوجود المستمر للدولة الامة فى الشرق الاوسط هو الرعب — والمزيد من الحروب ، وكل حرب مدمرة اكثر من سابقتها — وليس الحروب مقصورة على حــروب بين اسرائيل والعرب ولكنها تشمل ايضا الحروب بين الدول العربية . وبانتهاء القرن ، سيكون هناك ما يزيد عن ثمانين مليون مصرى . كيف سنطعمهم ؟ وسيكون لزاما على الشرق الاوسط ان يكون اتحادا فيدراليا من اجل البقاء . ولكنه يشك فى ذلك . ومن هنا يأتى تشاؤمه .

ويوجد فى مكتب الدكتور بطرس غالى خريطة للشرق الاوسط لا تزال اسرائيل مشطوبة منها . وفى اعتقاده انه ينبغى على اسرائيل ان تنضم الى اتحاده الفيدرالى المقترح وان تندمج اندماجا كاملا داخل المنطقة . كيف يندمج المرء ؟ اوضح قائلا : بقبوله طبيعة المنطقة . وطبيعة المنطقة هى العرب بالتأكيد . وفى الماضى — قبل ان يصبح وزيرا للخارجية — كان الدكتور بطرس غالى يتحدث من حين لآخر وعلانية عن ضرورة « تعريب » مع اسرائيل .

وفى احدى المناسبات ، ذكر لصديقى ميشيل بريشر — وهو استاذ فى جامعة ماك جيل بمونتريال « ان اكثر من نصف سكان اسرائيل اصلهم من الشرق الاوسط . فهم عرب على اية حال ، ولكن تحكمهم نخبة اوروبيــة دخيلة عليهم وعلى هذه المنطقة .

وفى عام ١٩٧٥ ، كتب يقول انه بالامكان التوفيق بين الماركسـيين والراسماليين لأنهم يشتركون فى نفس الجذور المعنوية والفكرية ، بينمـا لا يمكن التوفيق بين اليهودية والقومية العربية لأنها تمثلان افكارا متعارضة تمــاما .

وقبل ان اغادر المكان ، سألت الدكتور بطرس غالى : هل مازال يؤمن بهذه التصريحات ؟ رد وهو شارد الذهن « هل انا كتبت هذا ؟ آه لقد كتبت الكثير » .

* * *

فى قهوة فى ميدان التحرير ، حيث كنت اجلس احتسى كوبا من الليمون بعد ظهر احد الايام ، اقترب منى رجل عجوز يرتدى جلبابا اسود ، وله وجه حاد مثل حد السكين ، وعيناه يبدو عليهما الاجهاد ، وخطوط فمه

مرسومة بعمق شديد . وكانت الابتسامة تعطى تأثيرا مختلطا من كل جانب من جوانب فمه . وكان يبيع تعويذات من الورق ضد « العين الحسود » ، ويبيع القرآن فى طبعات مصغرة ، ومسابح من الخشب . وقال لى مؤكدا لو انك فركتها بيديك فانها ستحميك من كل المشاكل . وكان يؤرجح موقدا معلقا فى سلسلة يحتوى على بخور ، وبينما كان يديره بسرعة كان يختفى تماما فى سحابة من الدخان والتراب . وقال احد الصبية وكان يجلس على مقربة من مائدتى : انه ساحر انهم فى وقت كانوا يملأون القاهرة وهذا يسىء الى سمعتنا » .

وهنا تناول هذا الرجل العجوز حفنة من الملح او الرمل من داخل صندوق صغير وقذف بحفنة منها على (طوار) الشارع — بملء ذراعيه مثل سيدنا موسى الذى حول الماء الى دماء . وقال : « الله اكبر » . بينما المرور يهدر بجانبه . وقد اعطاه معظم من كان يجلس على المقهى نقودا . اما انا فقد اشتريت منه كتيبا صغيرا يتضمن بعض العبارات المقدسة التى قال لى انه ينبغى ان اتلوها من اجل تجنب مخاطر السفر سواء بالسيارة او بالجو .

وقد كتب توفيق الحكيم — الروائى المصرى الكبير يقول : ان خبرة الماضى البعيد مطبوعة بعمق على مصر حتى لقد اصبحت شعورا غريزيا غير واع ، تقريبا .

* * *

وفى المساء قرات بعض كتابات الدكتور بطرس غالى السابقة التى تناول فيها الصراع الاسرائيلى — العربى . وقد اولى هذا الموضوع اهتماما كبيرا . فعلى الجانبين استحوذ « الصراع » على عقل المفكرين لعشرات السنين ، وما تركه من خسائر فى العالم الاكاديمى كثير ، وان كانت تلك الخسائر اقل دموية عنها فى الميادين الاخرى . وقد وصف الروائى المصرى نجيب محفوظ هذا الاستحواذ فى رواية « الكرنك » (١٩٧٤) ، حيث كانت المناقشة تدور حول هذا الموضوع فقط ، كل يوم وكل سنة — نحقق السلام او نشن حربا مع اسرائيل ، بهذه الطريقة او بتلك — حتى صاح احد ابطال الرواية قائلا : دعونا نتحدث فى موضوع آخر والا فاننا سنجن فى النهاية ! لكن هيهات وسرعان ما عادوا الى الحديث المعتاد « نقتله بحثا او يقتلنا » الى ما لا نهاية .

وقبل ان ينضم الدكتور بطرس غالى الى مجموعة مساعدى السادات ، كان يشغل منصب مدير معهد الدراسات الاستراتيجية فى القــاهرة . وفى نطاق عمله ذاك يدعى الى اطلاع الصحفيين والدارسين الزائرين على آخر الأحداث . وعندما يقرأ المرء سجله الموجود — وما اضخمه — فانه يفتن ، اذ يرى كيف اصبح عدو اسرائيل فى الفكر — الواقع انه كان من منظرى الصراع — بالتدريج وخلال السنوات التى اعقبت رحلة الســادات الى القدس — واحدا من بين المخططين الرئيسيين للسلام ، يعمل بدأب مستغلا ما يتمتع به من جاذبية ومعرفة للقانون الدولى الصعب ومعـرفة لكيفية التغلب على الخلافات والصعوبات والتوصل الى صيغة مشتركة .

والدكتور بطرس غالى يسحر كغيره من المفكرين السياسيين ، ولقد ظل سنوات وهو يعتبر اسرائيل شرا كاملا . وكانت تعميماته الرقيقة اكثر استساغة ، عندما يستخدم الصيغة الشرطية استخداما حكيما . ولا تزال آراؤه السابقةيؤيدها اعداء السادات داخل مجتمعالمفكرين المصريين . ولكن بالرغم من متاهات السلطة التى يتم ممارستها اليوم فى مصر الســادات ، يعتبر بطرس غالى اولا واخيرا وزير دولة مخلصا منضبطا ، وهو ليس ايضا الكونت موسكا — رئيس الوزراء المــاكر فى رواية ستندال « شارتر هاوس بارما » .

كما انه ليس الأمير هاملت او « لورد » تابعا ينفع فى تعزيز تقــدم ، وافتتاح فصل او اثنين وينصح الأمير ، الذى لا شك فى انه يعتبر اداة سهلة يحترم رغبات الآخرين ، وهو سعيد لانه مفيد ، يستخدم عبارات رنانة ، وان كانت غير حادة نوعا ما . ولكن العكس صحيح .

وفى مقدمة مجموعة « فلسطين عام ٢٠٠٠ » ، التى صدرت فى سنة ١٩٧٥ ، كتب الدكتور غالى يقول ما معناه : ان الصراع بين الصــهيونية والقومية العربية ما هو الا صراع بين ايديولوجيات مختلفة تماما : عــزلة عنصرية وسيطرة استعمارية فى مقابل مناهضة للاستعمار وانفتاح . انه من السهل التغلب على التناقضات بين الماركسية والراسمالية تغلبا اكثر من التغلب على الاستعمار (الصهيونى) من ناحية ، وحرب التحرير «العربية» من الاستعمار ن ناحية اخرى . وعلاوة على ذلك ، يوجــد بين الــكتلة السوفيتية والكتلة الأمريكية عنصر المساواة الذى يعمل على تسهيل التوصل الى وفاق . ولكن مثل هذه المساواة بين الوطن العربى وبين الدولة الصهيونية غير موجودة .

صحيح أن نوعا من توازن القوى قد ظهر بين الجانبين اثناء حرب ١٩٧٣ . ولكن هذا التوازن لم ينه — على حد قول الدكتور غالى — الصراع بين الكم العربى (١٢٠ مليون عربى من الخــليج الفــارسى حتى المحيط الأطلسى) وبين الكيف الاسرائيلى (التفوق العسكرى والتكنولوجى ، الذى تعززه حركة الصهيونية العالمية) . لذلك فانه قد يقــال انه بالرغم من استخدام سلاح البترول ، نجد المواجهة الاسرائيلية — العربية تشبه تلك المواجهة فى جنوب افريقيا وروديسيا بين الأقلية العنصرية (البيضاء) وبين الأغلبية الافريقية السوداء . ففى كينيا والجزائر وموزمبيق لم ينته النضال الامبريالى بالتوصل الى وفاق بين الأغلبية والأقلية ، ولكن انتهى بتصــفية الأقلية العنصرية او باستيعابها .

وهناك سجل آخر لتفكير الدكتور بطرس غالى فى المــاضى ، وهــو الشريط الذى تم فيه تسجيل حديث مطول له القاه فى عــام ١٩٧٥ امام البروفيسير بريشار ومجموعة من الدارسين الزائرين من كندا والولايات المتحدة الأمريكية ، وما تلا ذلك الحديث من مناقشة . وفى ذاك الوقت صدم زواره صدمة كبرى عندما عبر عن فكرته بأنه من الناحية الثقافية — ناهيك بالناحية السياسية — لا يوجد مكان فى الشرق الأوسط الا للعرب فقط ، وليس لسواهم .

فعلى طول هذه المساحة الشاسعة الممتدة من الخليج الفارسى حتى المحيط الأطلسى ينبغى ان يكون كل فرد عربى والا فانه يجازف بالصراع المستمر . ان سياسات الانانية بلغت اوجها فيما اعرب عنه وزير الخارجية الحالى فى عام ١٩٧٥ . ويبدو انه كان يقول فى ذاك الوقت : « ان العرب هم وحدهم الذين يتمتعون بالجمال »فى الشرق الأوسط، ان اليهود يستطيعون العيش هناك ايضا ، ولكن لا ينبغى ان يكونوا بارزين تماما ، بل ينبغى ان يتم استيعابهم ايضا . وجادله بريشــار جدالا طويلا وعنيفا فى هــذه النقطة . ولم يستطيعوا أن يفهموا لــماذا يحق للألمان والايطاليين ان يناضلوا من أجل التــكامل الأوروبى دون ان يتم اســتيعاب الدانمركيين والهولنديين ايضا ، ولكن وفقا لتصريحات الدكتور بطرس غالى ينبغى للشرق الأوسط ان يكون عربيا فقط .

وقد برر الدكتور بطرس غالى نفســه ، بنفس الاسهاب . وتحــدث باستخفاف عن « المؤسسة الاسرائيلية ووصفها بأنها اجنبية — بولنــدية المــانية ووصفها من وجهة نظره بأن لها عقلية المستعمرين البيض . وهو يعتقد ان الاندماج فى هذا الشعب أمر مستحيل ، ويقول :ان المنطقة باسرها ينبغى ان تكون كتلة واحدة ، ربما لا تكون لها عقيدة واحدة بل لغة واحدة أمة واحدة ، شعب واحد . وراى ان اى شئ غير عربى يعتبر هامشيا ، ثانويا ، ان لم يكن خطيرا بشكل فاضح . (كل هذا يصدر عن قبطى ! ربمــا كانت هذه الظاهرة غير جديدة تماما، فان بعضا من اكثر المتحمسين الألمان الوطنيين فى القرن التاسع عشر كانوا يهودا) .

ولا يزال بطرس غالى يشعر بانه لابد ان يكون هناك حل ولــكن كيف ؟ اذا كان هناك امكانية وجود قاسم مشترك اعظم بين اسرائيل وجيرانها. فما هو هذا القاسم المشترك ؟ حسنا ان اسرائيل تستطيع ان تصبح دولة عربية . فمعظم الاسرائيليين مهاجرون من الدول العربية على اية حال ، ومعدل انجابهم كان عاليا ، وهكذا نرى ان هذه هى موجة المستقبل . لكن الكثيرين تساءلوا : اليس ما يطلق عليهم اليهود العرب فى اسرائيل اكثر تعنتا وتشددا من الاسرائيليين ، ذوى الأصل الأوروبى ؟ (فخلال سنتين سيصبح هذا الجزء من أفراد الشعب هو مصدر الأصوات الرئيسى لحزب ليكود المغالى فى القومية الذى ينتمى له مناحم بيجين) واعتقد الدكتور بطرس غالى آنذاك ان هذا ليس صحيحا بالضرورة . ويبدو انه اراد ان يلمح الى ان الذى زرع هذا التعنت فى عقولهم هم الصفوة الحاكمة من الاستعماريين البولنديين والألمان والروس : وظل يقارنهم بالمستعمرين الفرنسيين فى الجــزائر . وتساءل بريشار قائلا : اليس هناك اختلاف أساسى بين الجزائر واسرائيل ؟ فقد ذهب الفرنسيون الى الجزائر من فرنسا العاصمة ويستطيعون العــودة اليها ، ولكن اسرائيل وليدة الاضطهاد والتشرد والذكريات — ان لم يكن الحقوق — التاريخية ويقول بطرس غالى : ربما ومع ذلك نجد الصورة فى كلتا الحالتين واحدة . فالصفوة الحاكمة فى اسرائيل عاشت مثل المستعمرين البيض بين الأهالى ، وكانت أساليبها متشابهة ، لتلك الأســاليب التى انتهجها الفرنسيون فى الجزائر . فقد استولى المجتمع الأوروبى المحنك على الحكم ، ودفع بأفراد الشعب غير الأوروبيين والأقل تطورا ، خارج الحكم . الا ان الدكتور بطرس غالى كان مستعدا لأن يمنح اسرائيل شكلا محددا من الحكم

الذاتى داخل الاتحاد الفيدرالى العربى ، شبيها بما حصل عليه الارمن فى لبنـــان .

وقد كشف شريط التسجيل عن قدر كبير من المناقشة الحامية التى دارت بين الدكتور بطرس غالى والأساتذة الزائرين : ومن الصعب ان توجد نقطة التقاء واحدة بينهم . وعندما ينصت المرء الى هذا الشريط الآن ، يتعجب للأحداث التى تلته . وربما كان هناك حل فى الصفحة الأخيرة من المقال الذى اسهم به الدكتور بطرس غالى فى مجلد فلسطين عام ٢٠٠٠ ، فقد فكر فى المقال فى كون اسرائيل ستوافق فى النهاية على الاندماج فى « الوطن العربى » او كون اسرائيل ستصبح فى عام ٢٠٠٠ « هونج كونج » بالنسبة « للصين » العربية هل ستصبح دولة يهودية — عربية (بالمعنى الأمريكى المحدود لكلمة دولة) داخل ولايات متحدة عربية ؟ أم ان كل تلك المفاهيم ليس لها اى جدوى ، وان النضال سيستمر لعشرات السنين ، مع نشوب حرب اسرائيلية — عربية خامسة وسادسة وسابعة ؟

ام هل يهدف الدكتور بطرس غالى الآن الى ان يحول اسرائيل الى هونج كونج يهودية عربية ؟ واقترح البروفيسور بريشار احتمالا آخر ، فهو يعتقد أن اصرار بطرس غالى على مسألة الاندماج الثقافى ربما يكون سببه جعل السلام اكثر استساغة بالنسبة للعرب . وبالتركيز على « الاندماج » سيكون من شأن هذا العذر تأجيل تحقيق العدالة الكاملة فى مستقبل بعيد ، الى الآخرة . عندما تنصهر كل الأرواح المختلفة فى وحدة غامضة . وقد تحدث بطرس غالى عن أفول اسرائيل كحضارة وكأمة ، وذلك عشية ابرام معاهدة السلام معها . ومن دواعى السرور التكهن بأنه كان يتحدث مثلما كان يتحدث خروشوف فى عام ١٩٦٠ . ففى الوقت الذى كان يقول فيه لأمريكا « اننا سندفنك » ، كان يمهد الطريق لتحقيق الوفاق معها .

واغرب شىء فى كل هذا الحديث عن « اضفاء الصبغة العربيــة » على اسرائيل ، هو انه يعيد الى اذهاننا الأصول الرومانتيكية للصهيونية . وقد اشار الى ذلك كل من بطرس غالى واناس آخرون . ففى مطلع القــرن كان بعض المؤيدين الكبار للصهيونية يحلمون بالنهضة اليهودية فى اسرائيل كشرقيين وليسوا كأوروبيين . ومن المؤكد ان شعبة من شعب الصهيونية كانت قد ضاقت بأوروبا . وقد سادت هذه الروح طول الحرب الأهليــة الطويلة بين العرب الفلسطينيين واليهود الفلسطينيين . وقد كتب المرحوم آرتر روبن — رئيس قسم الاستعمار الصهيونى — فى عام ١٩٢٣ يقول : ان المعنى الحقيقى للصهيونية هو « عودة اليهود الى فلسطين لاعادة الاندماج فى أسرة دول الشرق الأدنى — العربية — حيث ولدوا لاقامة ثقافة تقدميــة مع جيرانهم الذين تربطهم بهم صلات قوية لنوع اليهود المحبين للســلام ومعهم العرب المحبون للسلام (بقدر عدم ابتلائهم بعد ، بالسم الاوروبى وهو التفرد القومى) ينهضون ويرفعون علم السلام بين جميع الناس .

وقد انتهج مارتن بوبار وآخرون غيره فيما بعد هذه الفكرة . وبالمناسبة ، الدكتور بطرس غالى متزوج من سيدة يهودية . وهو رجل جذاب ، غير متحجر القلب ، يجذب المرء بذكائه وفطنته حتى عندما يكون الشخص مختلفا

معه فى آرائه . وقيل لى انه هو الذى كتب اكثر الأجزاء تحريكا للمشــاعر فى خطاب الرئيس السادات الذى القاه فى الكنيست الاسرائيلى .

***

جوزيف كرافت :

جوزيف كرافت هو احـد المعلقين الصــحفيين الأمريكان ، وهو شخصيــة محنكة وداهيــة . وهو غير متأثر عاطفيا — مثلى — بمصر والمصريين . وقد حضر كرافت الى القاهرة — مرات عديدة — خلال السنوات العشر الأخيرة . وهو « يعرف كل شخص » معرفة جيدة فيما يبدو ، يعرف رئيس الجمهورية ومستشاريه الرئيسيين ووزراءه ، الدكتور بطرس غالى وغيره من الشخصيات المصرية البارزة الأخرى —وتربطنى بكرافت صداقة عمرها اكثر من عشرين عاما . وهو موجود حاليا بالقاهرة وينزل فى نفس الفندق الذى انزل به . هذا اذا لم يكن مندفعا فى عجلة من اجتماع خاص الى آخر ، وهو مايليق بصحفى امريكى كبير . لقد كانت له لقاءات منفردة مع الرئيس أنور السادات والسيدة قرينته ، ومع وزير الداخلية ، او الدفاع وشيخ الأزهر ، والسفير الأمريكى ، وحتى مع بعض السياسيين السابقين الذين بهم مرارة والذين عاشوا ايام حكم عبد الناصر . وهم يكرهون السادات فى حقد وربما يدبرون مؤامرة لاسقاطه . ومعظم هؤلاء السياسيين القدامى يعارضون معاهدة السلام لأسباب شخصية ومبدئية . ومعظمهم رفض مقابلتى حتى الآن وقد منحنى محمد هيــكل — الدعائى الاول ايام حكم عبد الناصر ، الذى يعيش الآن فى شبه عزلة تامة ، العظيم فقط بالمعنى المادى منحنى ٣٠ ثانية فقط فى حديث تليفونى ليقول لى : انه لا يســتطيع مقابلتى . كلا ، ان هذا أمر مستحيل . ومنذ ايام عندما حاولت الاتصــال بزعيم معارضة آخر بارز ، اخبرنى عامل الفندق ان تليفونه غير ســليم ، او ربما مقطوعة عنه الحرارة بسبب اسلوبه السياسى غير المرغوب فيه .

وفى المساء كثيرا ما كنت اصعد الى حجرة كرافت ، ونتبادل الآراء ، ونتشاور فى الملحوظات التى قمنا بتدوينها ، واطلعه على مخاوفى واطلب منه المشورة . وكنت احسده بسبب خبرته عن مصر ، واشيد بحكمه الســديد واحساسه القوى بالسياسة وبالشئون الانسانية .

وكان كرافت ممددا على سريره ، اذ كان يعانى من الم فى ظهره فبينما كان يحتسى كوبا من المـاء المثلج ، اعرب لى عن وجهة نظره فى هــدوء . فقال : ان معارضة السادات أمر ثانوى ، والتأييد الذى يحصــل عليه للسياسة التى ينتهجها من أجل تحقيق السلام أمر شبه اجماعى خاصــة تأييد القوات المسلحة ، ولذلك اهميته القصوى . لقد اعطى الســادات لبلاده احساسا منطقيا بوجود هدف ، لأول مرة منذ اكثر من عشرين عاما من التجارب والمغامرات المتهورة — فى الداخل وفى الخارج — ربما يبــالغ فى تقديره للتأييد السياسى والمــادى الذى سيحصل عليــه من الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة للسلام . وربما يقلل من قدر عناد بيجن وبقــائه

فى السلطة . ولكن بخلاف ناصر — الذى جر بلاده من كارثة الى اخـرى — تمكن السادات من ان يحقق نتائج ملموسة . فهو يعمل على استعادة اراضيه المحتلة دون ان يريق قطرة دم واحدة ، مع ملاحظة ان مستوى المعيشة — ولو على الاقل فى المدن — قد ارتفع الى حد ما ، بالرغم من ان الله هو وحده الذى يعلم كم كلفه ذلك من مناورات مادية وميزانية . ويقول كرافت حقيقة ان السادات لا يعبأ قط بالفلسطينيين ولكنه يشعر انه ينبغى ان يفعل شيئا من اجلهم ، وذلك من اجل استعادة مكانته امام الدول العربية الأخرى . انه لا يستطيع ان يتحمل هؤلاء ايضا ، بيد انه فى حاجة الى العرب الآخرين لأسباب سياسية وعاطفية واقتصادية . وتصل التحويلات النقدية لمليون ونصف مليون مصرى يعملون فى الدول العربية ، الى بليونى دولار سنويا . وهذا المبلغ يمثل سدس الدخل القومى الاجمالى . وحتى فترة قريبة كانت العربية السعودية ودول الخليج الأخرى تقدم لمصر ما يزيد عن بليون دولار سنويا فى صورة مساعدة مباشرة .

ولم يتضايق كرافت من تصريحات الدكتور بطرس غالى السـابقة . « فلا يمكن مقارنة تلك البيانات بالبيانات التى كتبها الاكاديميون الامريكيون خلال حرب فيتنام » . وذكرنى بحقيقة هامة . فان الأكاديميين الاسرائيليين كانوا يذهبون الى هارفارد او بيركلى ، ويقومون بتمويل مشاريعهم عن طريق منح من مؤسسة فورد او روكفلر . ولكن العالم الاكاديمى المصرى مرتبط ارتباطا وثيقا بالدول العربية ، ذلك ان القاهرة هى المركز الفكرى للعـالم العربى . ولذا يوجد جو من القلق يسود بين الاكاديميين المحليين بسبب مبادرة السلام التى قام بها السادات . ومع ذلك — كما يعتقد كرافت — يؤيد بطرس غالى ، مخلصا ، مبادرة السلام التى قام بها السادات ، بالرغم من انها ابعدته عن وسطه الاكاديمى السابق .

وفى ساعة متأخرة من الليل هبطنا — انا وكرافت الى ردهة الفندق . ولم يكن بها احد فى هذه الساعة ، فيما عدا بعض رجال المخابرات الذين كانوا يأخذون اماكنهم فى زاوية بعيدة . ونظروا الينا وهم يلعبون الورق ثم اومأوا برؤوسهم بطريقة دمثة . وعبرنا الردهة وصعدنا درجات السـلم المصنوعة من الرخام الى (كازينو) القمار الذى يحتل جزءا من الفندق . وهناك مكان مشابه له فى فندق الهيلتون القريب من هنا . وكلاهما مفتوحان فقط ، وبطريقة واضحة للأجانب .

وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل . ولا تزال منضدة القمـار يحيط بها المقامرون من كلا الجنسـين وكان الجـو المختنق عبقا بروائح الماكياج . والنساء يتحلين بالمجوهرات ، بعضهن شقراوات والاخـريات قد صبغن شعورهن بلون الفضة ، اما اللاعبون فـكان يبدو عليهم انهم المـان وفرنسيون ، بعضهم قادم من لبنان ، التى مزقتها الحرب ، والبعض الآخر من ليبيا ، والسعودية والكويت . ووفقا لـما نشرته الصحف ، توقفت رحلات الطيران المباشر بين القاهرة وغيرها من العواصم العربية الأخـرى وذلك كجزء من مقاطعة مصر . ولكن لا يزال السياح والمقامرون القـادمون من تلك الدول ، موجودين هنا .

وشاهدت شابا ، لايزيد عن كونه صبيا ، ينحنى فوق مائدة القمار وكان يبدو نحيلا متوترا ، يمسك سيجارا بين اصابعه الهزيلة العصبية ، التى كانت تحليها الخواتم الغالية الثمن . وكان يرتدى حلة رمادية اللون لمصمم الأزياء كاردان ، بمردات رفيعة طويلة ، وقميصا قرمزى اللون ، ورباط عنق فضى اللون . وترددت شائعات انه امير كويتى . وتناول محفظته، وسحب منها رزمة من الأوراق النقدية الجديدة ، وسلم الرزمة باكملهـا الى معاونه ، وهو رجل فى حوالى الأربعين من عمره ، غادر المكان ليحصل على المزيد من (الفيشات) لأنه يبدو وان هـذا الشاب قد خسر خسارة كبيرة ووضع السيجار ورشف رشفة من (الويسكى) .

وعلى الجانب الآخر من منضدة القمار ، تعرفت على لاعب آخر يجلس خلف عدد كبير من (الفيشات) ويبدو انه كان يكسب باستمرار . وهـذا الشخص هو مستر اس . وهو رجل اعمال عالى من تل ابيب . واخبرنى انـه موجـود هنـا فى عمل . كـلا ، انـه لا يستطيع ان يكشف عن نوع هذه المهمة او هذا العمل — ولكن يبدو انها مهمة خطيرة . ولم اكن اعرف انه فى هذه المرحلة المبكرة كان يتم منح رجال الأعمال الاسرائيليين تأشيرات سفر مصرية . وكان مستر اس . يبتسم ابتسامة غامضة . وقال لى — بالعبرية وهو يضيف المزيد من الفيشات الى فيشاته — ان هناك عـدة أساليب لذلك . ويبدو بوضوح ان الحظ كان يحالفه فى هذه الليلة . ويبدو ايضا انه كان متفاهما مع الأمير الكويتى ، الذى كان يتعامل مع سـيجاره وخسائره بنبـل .

ووقفت على مقربة من سومرست موم الرجل الفقير ، وانا اشـعر — بلا شك — بنوع من الخجل . وكان الدكتور بطرس غالى قد ذكر لى امس انه ليس هناك ما اسوأ من التدفق السابق لأوانه لحشد من رجال الأعمال النشيطين الى مصر . وسيكون هذا شيئا ضارا جدا اذا حاولوا ان يعقدوا صفقات سريعة وسهلة ويستغلوا المشروعات الاستثمارية الكبيرة التى من المتوقع ان تقيمها الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر . وقد سمعت بعض المصريين الآخرين يرددون نفس المخاوف ، بأسلوب اكثر الحاحا . وقـد قال سيدنا يوسف لأخوته عندما ذهبوا الى مصر قادمين من كنعان لشراء طعام : لقد أتيتم لتشاهدوا الأرض وقد تم تجريدها ، (ان عبارة « التجريد » لا تعطى المعنى الكامل للكلمة اليهودية الأصلية ، التى تعنى الأجزاء الخاصة ، الاعضاء التناسلية) .

واخشى ان يكون المصريون لديهم نظرة مبالغ فيها بالنسبة لدهاء رجال الأعمال والمقاولين الاسرائيليين ، ويبدو انهم قد بالغوا فى تقديرهم لقـوة اقتصادنا . وينبغى عليهم ان يلقوا نظرة فاحصة على الاحصائيات الأخيرة . ولكن الدكتور بطرس غالى على حق بالطبع فى ان يطلب من المسـتثمرين الاسرائيليين ان يتقدموا ببطء ، ولو على الاقل فى المراحل الأولى ، وأن يظهروا اكبر قدر ممكن من اللباقة والذوق . ومن سوء الحظ ، ان الحقيقة هى انه بمجرد ان سكتت المدافع بدا الكثير من المضـاربين فى تل ابيب يستمعون الى رنين النقود فى مسجلاتهم النقدية .

الفصل الخامس

يرتفع برج مكاتب الأهرام ثلاثة عشر طابقا مطلا على انقاض جزء متهدم فى وسط القاهرة . وقد اسس هذه الصحيفة المصرية شبه الرسمية — التى تتمتع بهيبة كبيرة ، والتى كانت فى وقت ما ولفترة قصيرة صوت الحركة الليبرالية البرجوازية المتأثرة بفرنسا — أسس هذه الصحيفة اسرة لبنانية مقدامة ، وذلك فى اوائل هذا القرن . وتم تأميمها فى الخمسينات بعد الانقلاب الذى قام به الضباط الاحـرار .

وقد بنى هذا البرج العصرى جدا رئيس تحرير جديد للجريدة وهو محمد حسنين هيكل — احد دعاة الناصرية اللامعين . اما الآن فيعيش هيكل مطرودا وحيدا يشعر بمرارة كبيرة . ولا يزال هذا النصب التذكارى الذى شـهد مجده وشهرته — واحدا من علامات القاهرة . ويجمع اسلوب بناء هذا النصب بين الخشونة الايطالية فيما بعد الحرب وبين الواقعية الاشتراكية الروسية . وهو يعكس ذوق الرئيس الراحل ناصر ، ويقول البعض : انه يعكس جنون العظمة التى كان يتمتع بها هو ومجموعة المتشددين القساة ، والدعائين والمتملقين ورجال الشرطة والمخبرين الذين كانوا يحيطون به . وكل شىء عن هذا المبنى يشير الى الضخامة والفخامة . ومنحوت على جدرانه ومرسوم فوق اللوحات ، العمال والفلاحون العديدون وهم يبرزون عضلاتهم والجنود فى اوضاع بطولية يزارون من اجل الهجوم .

وكان جناح هيكل السـابق — الذى تم تصميمه بشكل يوقع الروع فى نفس اى زائر لمجرد حجمه — يحتل طابقا باكمله تقريبا . وكان لموسلينى مكتب شبيه بهذا المكتب وكان يقع فى بالاتزيوفينيتسيا — وكان يشبه هيكل فقد كان رجلا ذا قامة قصيرة ايضا . اما الحوائط فمغطاة بالخشب ومعلق عليها (تابلوهات) من (الكانفاه) . وهناك نظام معقد عبارة عن دوائر تليفزيونية مغلقة تمكن من الذى يحتل هذا المكان من مراقبة زواره — دون ان يروه — وهم جالسون يتململون فى قلعة فى حجرة الانتظار ، فى انتـظار مقابلتـه . ويشغل كرسى هيكل الكبير الدوار — الذى يقع خلف المكتب الضخم — يشغله الآن على حمدى الجمال . وهو صحفى أكثر منه مشتركا فى لعبـة السلطة التى تحيط ببلاط الحاكم الطاغية وقد اصبح هذا المكتب الان مجرد قلب امبراطورية نشر ضخمة ، تصدر عنها الصحف والكتب والمجلات الكبيرة التى يتم توزيعها فى جميع انحاء العالم العربى . ويصل توزيع الأهرام يوميا الى حوالى ٨٠٠ر٠٠٠ نسخة . ويتم طبع الجريدة بواسطة احـدث آلات الكومبيوتر . ويوجد فى مكان آخر من المبنى مكتبات تضم مراجع ، ويقال

انها تعد من بين افضل المكتبات فى مصر ، ويوجد ايضا مراكز بحث مختلفـة مزودة باجهزة كومبيوتر الكترونية يديرها العلماء والخبراء فى كثير من الميادين. ويتجاوز عملهم حدود متطلبات دار النشر هذه .

ودار الأهرام عبارة عن مكان للتوظيف ربما مكان شـاغر لتوظيف المفكرين ذوى الاتجاهات المختلفة ، البعض منهم مغضوب عليهم بصـفة مؤقتة (والعبارة التى تستخدم بصفة عامة هى انهم موضـوعون على الرف) . والقليل مما يكتبونه يتم نشره ، ولكنهم جميعا يحصلون على مرتبات مجزية .

واكبر مثل على ذلك ، هو الدكتور لويس عوض — الذى ربمـا يعتبر اكبر ناقد ادبى فى العالم العربى واستاذ جامعى سابق . وهو يؤيد معاهدة السلام . ولكن نظرا لانه يسارى سابق لم ينل رضا السادات بصـورة ما ، فان مقالاته لا يتم نشرها فى جريدة الأهرام .

وبالرغم من ذلك تمكنت من اجراء حديث صحفى معه . وهو يعتقد ان تحديد اللقاء بين المصريين والاسرائيليين سيكون من شانه ايجاد وضع ثقافى هام . فقبل ان تصبح اسرائيل دولة ، كان اليهود المصريون مرتبطين ارتباطا وثيقـا بالحياة الثقافية فى مصر . فقد ادخلوا معرفتهم للثقـافة الفرنسية والالمـانية الى الحياة الفنية فى البلاد . وكانوا مجدين وقد اسرعوا فى عملية صبغ الثقافة بالصبغة الغربية ويقول الدكتور عوض : « لقد احبوا مصر ، ولكن انتهى وجودهم هنا بقيام الثورة ونشوب الحروب . وانا من الذين يرحبون جدا برؤيتهم مرة ثانية » .

ويقول الدكتور عوض : « اننى لست مؤمنا بالقومية ، وانما انا علمانى » وهو اولا واخيرا من اصحاب النزعة الانسانية . (ثم هو قبطى وهو يأسف لأن عبد الناصر قد دفع مصرالى الدخول فى تجارب الوحدة مع الدول العربية — قبل الأوان . وقد قام — هو شخصيا — بزيارة لاحدى الدول العربية لأول مرة فى حياته فى عام ١٩٧٤ فقط . ويقول : « اننا جزء من هذا البحر العربى ولكن لنا شخصيتنا المستقلة » . ويؤمن الدكتور عوض بأن مصر لها حضارة فريدة . وينبغى على مصر الا تتطلع فحسب شرقا الى دمشق وبغداد ، بل ايضا شمالا الى اوروبا ، وان تطمع فى ان تكون دولة من دول البحر الابيض المتوسط . ويأمل فى ان يتم اعطاء عملية صبغتها بالصبغة الغربية دفعة جديدة الآن . وبالرغم من ذلك لا يتوقع الكثير من الروابط الجديدة مع اسرائيل . وهو رجل رزين ومطلع ويدرك ان هناك فى اسرائيل — ايضا — نزعة اقليمية . بيد ان اسرائيل وثيقة الصلة بأوروبا وبالمنابع الأصلية للحضارة الغربيـة ، وربما يكون تأثيرها على مصر « عاملا مساعدا » . ويخشى الا يكون هناك اكثر من هذا التأثير . فلم يعد فى اسرائيل الآن من هم اتباع ارمينا النبى ، كما انه لم يعد فى مصر الآن من هم اتباع اخناتون ويوجد فقط درجات مختلفة من شخصيات عادية . والدكتور عوض صديق لتحسين بشير . وهو يعتقد ، مثل بشير ، ان كلتا الدولتين عليلتان ، بطريقة ما .

وقد كتب الدكتور عوض فى عام ١٩٦٩ يقول : « ان مصر تشبه جبل جليد عائم ، يرتفع عن مستوى البحر بمقدار الـ ١/٨ فقط . اما الـ ٧/٨ فتغوص فى الاعماق . فحوالى الـ ١/٨ من حياتنا يعيش على ضوء القرن العشرين ، اما الـ ٧/٨ منها فيعيش فى ظلام القرون الوسطى .. ففى القرن التاسع عشر اجتزنا تجربة آلام الولادة . ولكن (عصر النهضة) ولد ميتا ، وعندما تكون جنين آخر فى الرحم ، تم اجهاضه .

هذه الصورة العنيفة التى تتناول المولود الميت والاجهاض تتكرر فى مكان آخر فى الادب المصرى الحديث . فقد وصف نجيب محفوظ فى مسرحيته تحت عنوان « طفل الآلام » سنة ١٩٧١ ، وصف فترة البرجوازية فى تاريخ مصر الحديث فى ظل الملكية الفاسدة بأنها تجربة انتهت الى ولادة ميتة ، ووصف الثورة التى قام بها ناصر بأنها السبب فى حمام الدماء الرهيب » .
وسألت الدكتور عوض عما اذا كان ينوى زيارة اسرائيل فى المستقبل القريب، قال وهو متجهم « كلا » ، اننى لن أضع قدمى فى هذه البلد طالما ان هناك جنديا اسرائيليا واحدا فى الارض المصرية المحتلة ، وفيما عدا ذلك نجده يتكلمبصوت هادىء لطيف .

ان اكثر الاماكن التى تخلب الالباب فى برج جريدة الأهرام هو الطابق السادس . ففى صباح كل يوم خميس من كل اسبوع يجتمع الروائيون والشعراء والنقاد فى مصر الحديثة ، هنا فى احد الأجنحة التى وضعها تحت تصرفهم محمد حسنين هيكل الذى كان يعشق ان يلعب دور الملك ذى السلطة ، الواعى .

الأستاذ توفيق الحكيم المسن ــ الذى اصبح الآن فى الثمانينات ــ عميد الأدب المصرى ومؤلف عودة الروح سنة ١٩٢٧ التى تصف عصر النهضة الوطنية الاولى فى مصر فى عام ١٩١٩ ، ورئيس اتحاد الكتاب .

الأستاذ الرقيق نجيب محفوظ ــ الذى ذاع صيته بسبب روايته ثلاثية القاهرة المثيرة للذكريات ــ وهى (بانوراما) تمثل ثلاثة اجيال من الحياة فى المدينة ، تمت كتابتها بأسلوب رواية Bildungsroman التى تمت كتابتها فى القرن التاسع عشر (ويقارن محفوظ بديكنز) .

الدكتور يوسف ادريس ــ سليط اللسان المتوتر ــ الذى قابلته من قبل ، والذى كانت غزواته السريالية فى مجال الجنس والعنف وعمليات القهر واليأس سببا ــ كما هو فى اعتقادى ــ فى أن اصبح من اكثر الكتاب المصريين الحاليين تشويقا وتجديدا . والدكتور حسين فوزى كاتب المقالات الادبية ، وغيرهم .

وعندما تسلموا حجراتهم فى بادىء الامر فى برج جريدة الاهرام ، كان مكتب الرقيب ــ الذى تم الغاؤه منذ ذلك الوقت ــ يقع قريبا بدرجة كافية من حجراتهم . ومن حسن الحظ ان الرقباء لا يفهمون الأعمال الادبية الا نادرا ، ويبدو ان توفيق الحكيم ومحفوظ وادريس وغيرهم ــ وهم فى

احلك ايام القمع ــ استطاعوا ان ينشروا هجوما رمزيا على نظام الحكم وكانوا يتمتعون بحصانة واضحة . فقد كتب الحكيم رواية « السلطان الحائر » وهى هجوم على نظام حكم ناصر وعدم خضوعه لأى قانون . وفى رواية اخرى تحت عنوان « كل شىء فى موضعه » كشف عن التبلد والفساد السائدين ، وفى روايته تحت عنوان (بنك القلق) هاجم قسوة رجال أمن عبد الناصر وشبكة المخابرات الكبيرة التى حولت مصر الى « دولة محاطة بسياج سلكى من المتكلين والمتملقين المتعطشين للحصول على السلطة » .

وفى روايته تحت عنوان « واهب الحياة والموت » ، ندد الحكيم بالتغلغل السوفيتى داخل مصر الذى ادى الى تحويل مصر الى مستعمرة روسية .

وفى روايته تحت عنوان « اللص والكلاب » « وميرامار » ، ندد نجيب محفوظ بالفساد والجشع المنتشر بين الطبقة الحاكمة فى مصر .

وتعتبر روايته تحت عنوان « الرجل الذى فقد ظله مرتين » ، عملا آخر من اعمال نجيب محفوظ الرمزية التى تحمل فى ثناياها معنى خلفيا غير معناها الظاهرى وهى هجوم على بوليس ناصر السرى . وقد ذكرت بالفعل مسرحيته « طفل الآلام » ، ورسالتها الضمنية التى تقول انه فى ظل حكم الملك فاروق انتهت محاولة مصر فى الاصلاح والتجديد الى مولود ميت ، وانتهت فى ظل حكم ناصر الى بحر من الدماء .

وعندما قمت للمرة الاولى ــ بزيارة الطابق السادس من مبنى جريدة الاهرام فى صباح يوم من ايام الخميس ، فوجئت بشعور بالارتياح السائد بينهم وقدر من التفاؤل . وذكرنى هذا المشهد بلقاء الكتاب البولنديين والمجريين فى وارسوا وبودابست بعد عام او ماشابه ذلك من وفاة ستالين . فبعض الاشخاص الذين يحتلون الطابق السادس سجنوا لآرائهم ايام عبد الناصر . لقد انتهى ما هو اسوا ــ وهذا ما يبدو ان الحكيم ، ومحفوظا، وادريس يريدون ان يقولوه ، ولكن بشىء من التحفظ . ان الكثير لم يتم عمله بعد . هل سيسمح لنا نظام الحكم بانجاز هذا الكثير ؟

يقول محفوظ : « من جانبى سابذل كل مافى وسعى » .

وكما هو الحال فى اوروبا الشرقية ــ حيث الكتاب والفنانون مدللون من قبل نظام الحكم الديكتاتورية وفى النهاية يتحولون ليصبحوا رؤوس حراب للتحررية ــ كذلك الحال فى مصر حيث كان احسن الشعراء والروائيين ــ خلال العشرين سنة الماضية ــ على خلاف مع الحكومة باستثناء بعض الفترات القصيرة نسبيا . فلم يمتثل الحكيم ومحفوظ وفوزى وادريس لأى مطالب خاصة بتقديم ادب بناء يكون فى خدمة ثورة عبد الناصر . وهم يرون ان واجبهم ، كفنانين ، هو تحريض المجتمع ، وليس عصب عينيه . وعندما تأكد الحكيم ان هذا أمر مستحيل فى دولة بوليسية ، التزم الصمت . وتحول محفوظ الى السينما ، اما ادريس فقد قام بتطوير اسلوب الالغاز مستخدما الرموز والشفرة .

وعندما تم تطبيق الضغوط مرة اخرى من اجل فن « تعبئة » ، فى عام ١٩٦٥ ، كتب ادريس يقول : ان اكبر خدمة يستطيع الفنى أن يسديها الى الثورة هى ان يصبح هو نفسه ثورة .. ان هؤلاء الذين يحاولون ان يحولوا الفن الى ادلة لتمجيد الانجازات المادية للثورة لا يفهمون الأدب او الثورة .

ثم كان هناك حوالى العشرين من احسن الروائيين والشعراء والنقاد المصريين برياسة الحكيم وفوزى ومحفوظ يناضلون ، لعدة سنوات ، من اجل تحقيق تسوية مع اسرائيل . وفى عام ١٩٧٠ — ويقول البعض : بل قبل ذلك العام — تجمعوا فى شكل حركة سلام صغيرة : وفى عام ١٩٧١ خاضوا مناقشة حامية مع المتحدثين الرسميين والمفكرين المتشددين المصريين والعرب . ولم تعلن تلك المناقشات على الملا ، ولكن وفقا لشاهدى الرؤية الأجانب ، اصبحت تلك الجهود التى بذلها الحكيم ومحفوظ وغيرهما امرا معروفا فى القاهرة . ولم يتم نشر الرسالة التى يقومون بها ولكنه تم مهاجمتهم بسببها فى الصحف . وقد تم الاشارة الى حركة السلام هذه كما هى فى اسرائيل فى ذاك الوقت . واذا نظرنا الى الماضى فانه يتبين لنا انه من العجيب الا يولى سوى حفنة فقط من الاكاديميين — خارج المؤسسة الحكومية — اهتمامهم بهذه الحركة . ومع مرور السنين ، انضم الى حركة السلام — التى قام بها هؤلاء الكتاب — شخصيات ادبية كبيرة فى مصر . وفى عام ١٩٧٧ اعطاها السادات نفسه شكلا ، واصبح هو مصممها الأصلى ومتحدثها الرسمى . ولكنهم هم الذين وضعوا حروفها الاولى .

وكانت الأسباب المنطقية التى عرضوها — مع استخدامهم لدرجات مختلفة من الحماس — هى أن الحروب الخارجية التى شنها عبد الناصر قد استنزفت البلاد وحطمتها — وقال الحكيم : ان مصر بالسلام فقط سوف تلحق بركب العالم ، وستحقق واجبها الحضارى « ومصيرها الحقيقى » . وذهب محفوظ الى ابعد من ذلك فقال فى حديث صحفى ادلى به الى احدى الصحف الكويتية (ولم يتم نشره لمدة تزيد عن السنتين) : ان السلام وبناء الحضارة اهم من تحرير الأرض المحتلة .

وقال : « اننا نضحى بأرواح البشر ونرسلهم ليموتوا فى الحروب. لماذا، اذن لا نضحى بالأرض اذا كانت التضحية بها شيئا ضروريا نحو تحقيق هدف اسمى ؟ وعندما سئل عما اذا كانت لديه رؤية جديدة تتناول مشاكل مصر ، رد بلا مواربة قائلا : « ليس لدى اية رؤية جديدة . كل ما اعرفه انه ينبغى علينا ان نحقق السلام .. « خلاص » دعنا نعقد صلحا مع اسرائيل.

وقد دعا الكاتب اليسارى ، محمد سيد احمد ، فى كتابه الذى صدر فى عام ١٩٧٥ تحت عنوان «عندما تسكت المدافع» الذى تم نشره فقط فى الخارج، فى بيروت ، دعا الى انتهاج سياسة للوفاق بين مصر واسرائيل شبيهة بتلك السياسة القائمة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى . وزعم انه ليس هناك سبيل الى حل المشكلة عن طريق استخدام القوة . وينبغى على الجانبين الاختيار بين السلام وبين الانتحار المتبادل .

وقد أصيب الحاكم الليبى — معمر القذافى — عندما زار القاهرة فى عام ١٩٧٢ — اصيب بصدمة عندما اكتشف ان بعض الكتاب الكبار فى مصر —

اى العالم العربى بأسره — مستعدون ان يخونوا هذه القضية المقدسة — كما قال : وان يعقدوا صلحا مع اعداء الله . وقد حدث هذا الاكتشاف فى مقر جريدة الأهرام . ففى مكتب هيكل قابل القذافى كلا من الحكيم ومحفوظ وفوزى وادريس وغيرهم من الكتاب المشهورين الآخرين . ودارت بينهم مناقشة مطولة اعرب فيها هؤلاء الكتاب عن آرائهم .

ويتذكر محفوظ قائلا : كانت مناقشة حامية . ولم يستسلم القذافى ، واستشهد بسور من القرآن ليعزز بها جداله . ولكن ظل الكتاب متمسكين برايهم . وهنا فقد القذافى اعصابه وحاول هيكل تهدئته قائلا : (نقلا عن محفوظ) : ان هم الا كتاب، كما ترى . والكتاب عادة مايكونون خياليين غير ان القذافى لم يهدأ . فلم يكن يتصور ان البعض يفكر بطريقة استقلالية دون ان تملى عليه الحكومة اية افكار ، ومن ثم رجح انهم يرددون صوت اسيادهم، ربما يرددون صوت السادات شخصيا . واقسم ان يناقش هذه المسألة مع الريس ، الذى هاجم — بعد فترة قصيرة وفى خطاب القاه فى جامعةالاسكندرية — الانهزاميين من الشعراء والروائيين ، ووصفهم بانهم رجال ايمانهم ضعيف يريدون الاعتراف بالواقع (اسرائيل) ولكنه لم يذكر الحكيم بالاسم .

وكان الحكيم فى اوائل ذلك العام ١٩٧٢ قد قام — بصفة خاصة — بتوزيع بيانه الذى اصبح شهيرا « عودة الوعى » بين اصدقائه فى مصر وفى الخارج . وقد استرجع عنوان هذه الوثيقة مؤلف الحكيم الهام «عودةالروح» فى عام ١٩٢٧ . وقد حظى هذا الكتاب باهتمام عبد الناصر ، الذى قال عنه انه قد ساعده على ان يتحول الى رجل ثورى . ويبدو ان الحكيم وعبد الناصر كانا قريبين من بعضهما خلال سنوات الثورة الأولى . ففى عام ١٩٥٤ ، عندما حاول وزير التعليم ان يفصل الحكيم من عمله كمدير دار الكتب ، ثار عبد الناصر وطرد الوزير بدلا منه . وكان هناك اعجاب متبادل بين عبد الناصر وبينه على الأقل — حتى عام ١٩٦٣ — وفى عام ١٩٦٧ يبدو ان الحكيم اصبح مشمئزا تماما منه .

وعند مرحلة معينة كان رجال بوليس عبد الناصر يعاملون الكاتب معاملة فظة واتهموه بأنه عميل للأجانب . وكان سبب ذلك خطاب خاص كتبه الحكيم الى معبوده السابق يحتج فيه على تعيين هيكل وزيرا للدعاية .

وقد احدثت وفاة عبد الناصر فى عام ١٩٧٠ تفجرا مفاجئا واخيرا لما يمكن اعتباره حب الحكيم لعبد الناصر . فقد اقترح الحكيم علانية اقامة تمثال كبير تخليدا لذكرى عبد الناصر . وبعد ذلك بسنتين ، اعرب الحكيم عن اسفه على تقديم اقتراحه المتهور هذا واقترح ان تكون تل أبيب هى المكان المناسب لاقامة مثل هذا التمثال ، باعتبار عبد الناصر واحدا من القليلين الذين فعلوا الكثير لتحطيم مصر .

وبالرغم من ان « بيانه الشهير » قد تم توزيعه خفية ، سرعان ما ظهرت مقتطفات منه فى الصحف اللبنانية . وقد احدثت كراسة الدعاية هذه ضجة فى مصر ، ايضا ، حيث بدات الصحف تهاجم « الروائيين

الانهزاميين » برياسة الحكيم ،واطلقت عليهم مسميات كثيرة مثل « اليمينيين »، و « اليساريين » و « الموالين للأمريكان » و « عملاء موسكو » وخرج الحكيم فى هذا « البيان الشهير » بتنديد ملتهب ضد عبد الناصر . وزعم ان الثورة التى قام بها عبد الناصر لا تخرج عن كونها انقلابا . وشجب طغيان عبد الناصر ، وحبه لنفسه لدرجة العبادة ، وغطرسته واستبداده (كما هو الحال بالنسبة لتأميم قناة السويس) ، وتبديده المتهور لموارد البلاد ، وسوء استثماره (فى ذلك السد العالى بأسوان) ، والحروب غير النهائية (مع اسرائيل وفى اليمن) التى تركت مصر حطاما — بطريقة لا يمكن ان يتحملها احد .وكان البيان الشهير عبارة عن وثيقة عاطفية للغاية قام بكتابتها — فى عجلة واضحة —رجل وقور مسن آلمه كثيرا تهور عبد الناصر بنفس درجة تألمه لعدم اكتشافه ذلك فى وقت مبكر وكتب الحكيم عن البلايين التى تبددت فى الحرب والمؤامرات الخارجية — قائلا: انه بهذه الأموال كان من الممكن اعادة بناء كل قرية من قرى مصر البالغ عددها اربعة آلاف قرية ، والارتقاء بها الى مستوى القرى فى اوروبا .

لكن ، كان أسوا جريمة ارتكبها عبد الناصر هى انه تسبب فى ان تفقد مصر وعيها بنفسها . وكان البيان الشهير للحكيم عبارة عن نداء الى رفاقه من ابناء بلده ان ينهضوا ويستعيدوا حرياتهم التى ضاعت منهم ، وان يتمسكوا بحرية الكلمة ، وحرية النقد ، وحرية الانتخابات ، وان يطالبوا بالقضاء على جميع اجهزة القمع فى الحكومة وعلى المراقبة الشعبية .

وليس من السهل اليوم استخلاص السلسلة الحقيقية للأسباب والمسببات التى ادت الى كل تلك التغيرات التى طرات على الحياة المصرية منذ اوائل السبعينيات ، والتى انتهت بالسلام . ونحن نعلم انه فى شتاء ١٩٧٢ — ١٩٧٣ خطا الكتاب برياسة الحكيم خطوة اخرى . فقد قدم الحكيم واثنان وعشرون شخصا آخر آراءهم فى مذكرة مكتوبة الى الرئيس السادات. وقد تلا تلك المذكرة — وكان ذلك بناء على طلب السادات فيما يبدو اجتماع مطول مع الرئيس السادات ومع وزير التربية والتعليم والثقافة . والوعى الجديد الذى كان يطالب به الحكيم فى بيانه الشهير كان بكل تاكيد قد انتشر — بطريقة ما — فى جميع أنحاء مصر .

وكانت نتيجة طبيعية للحريات الجديدة التى فرضها السادات ، والتى تشبه الحريات التى فرضت من أعلى فى شرق أوروبا نتيجة لقضاء خروشوف على المفاهيم الستالينية فى روسيا وكان من بين النتائج السريعة لاعتلاء السادات السلطة استرخاء السيطرة الصارمة على نواميس التفكير . ويبدو ان الكتاب قد استغلوا هذا الوضع استغلالا تاما . ويقول محفوظ اليوم : ان الكاتب يشعر شعورا طيبا عندما يعلم انه يسبق السياسيين بعض الشىء ، بل ربما يؤثر فيهم ولو قليلا .

وقال الحكيم فى ٣ مارس سنة ١٩٧٣ : ان مجموعة الكتاب قد توصلت الى نتيجة مفادها ان واجبها هو نثر الورود امام السادات فى طريق المفاوضات مع اسرائيل . ويبدو ان السادات قد اجتاز هذا الطريق على مضض فى بادىء الأمر وبتردد . وقام الحكيم ومحفوظ بتشجيع السادات على الا يحيد عن هذا

الطريق . وحتى بعد ان بدا السادات يتحدث عن السلام ، لم يستبعد — فى اى مرة — الخيار الآخر وهو نشوب حرب اخرى مدمرة ، كما اثبت ذلك — بعد قليل — فى حرب اكتوبر فى نفس العام .

والذى يبدو مؤكدا الآن هوحقيقة انه قبل قيام هذه الحرب بفترة طويلة، وبعد اعتلاء السادات السلطة فى عام ١٩٧١ مباشرة — دار نوع من الحوار بين نظام الحكم وبين الكتاب برياسة الحكيم . ولم يكونوا يمثلون ، البتة ، كل الطبقة المفكرة فى مصر ، ومع ذلك كانوا يضمون اكثر الأسماء شهرة فى الادب المصرى (اى العربى) الحديث . وقد استاء السادات فى بادىء الأمر من تدخلهم واطلق عليهم اسم « الانهزاميين » . عندما اقترب اكثر من السياسة التى تستهدف تخليص مصر من تركة عبد الناصر المثقلة بالتجارب الاجتماعية العميقة وبالحرب ، وبدا يشعر بمدى اهميتهم . وكان يقف بمفرده بين زعماء العالم العربى فى مساعيه المترددة لاقرار السلام . واراد ان يضفى الصيغة الشرعية على السياسة السلمية التى ينتهجها — باعتبار السلام هو احد اوجه الخيار — واستطاع ان يستفيد من بعض رجال الادب ذوى المكانة فى العالم العربى باسره . واذا كانت مبادرته للسلام قد جاءت مفاجاة فى عام ١٩٧٧ ، فانها لم تكن وليدة يوم واحد . فهى لابد وان تكون قد تاصلت فى داخله منذ فترة كبيرة . فقد كانت نتيجة عوامل مؤثرة مختلفة. ان السلام كان لابد من انه واقع،دون تدخل الكتاب نتيجة للجمود العسكرى. وربما لم يكن ليتحقق بهذه السرعة . ولم ياخذ الحكيم واصدقاؤه الاشارة من الرئيس السادات ، هذا واضح . لقد وصل السادات متاخرا نسبيا عن قضية السلام . بل قد يكون السادات هو الذى اخذ الاشارة منهم .

وكتب جونتر جراس فى كتيب صغير اعتز به كل الاعتزاز : « هناك كتاب كثيرون — وهم بعيدون كل البعد عن افتراض انهم يعبرون عن ضمير الأمة — كثيرا ما يهربون من مكاتبهم ويشغلون انفسهم فى توافه امور الديمقراطية التى تدل ضمنا على الاستعداد للتوصل الى حل وسط .. ويعلم الشاعر انه ليس هناك حل وسط . لكن الرجال يعيشون على الحلول الوسطى والرجل الذى يستطيع ان يقاوم ويصمد فى ظل هذا التناقض ويتصرف ما هو الا رجل مجنون ، وهو الذى سيغير نظام الكون » .

ولكن نيتشه عبر عن ذلك بطريقة مختلفة اذ قال : « هناك خطأ شائع جدا وهو أن تكون لديك شجاعة التمسك بمعتقداتك ، انما الشجاعة هى أن تهاجم معتقداتك » .

وتوفيق الحكيم رجل مسن الآن ، منحنى الظهر ، يرتدى فوق رأسه (بيريها) جبهته عريضة عالية ، وانفه حاد ، وشاربه الأشيب مشذب فوق شفته العليا . لراسه هيبة . يقول : ان الدول العربية ثارت مطالبة حظر بيع كتبه . ولكن باستثناء بعض الحالات المنفردة القليلة ، فان هذه الثورة لم تتمخض عن شىء . ويقول محفوظ بشجاعة : « انهم لا يستطيعون ان يفرضوا حظرا على الحكيم . لا يستطيعون لو كانوا يريدون ان يقراوا فان هذا سيكون بمثابة حذف تولو ستوى من اللغة الروسية » .

وقد علم الحكيم ايضا ان المنظمة الارهابية الفلسطينية التى اغتالت يوسف السباعى رئيس تحرير الأهرام — فى قبرص عام ١٩٧٨ — قد وضعت اسمه فى قائمة سوداء خاصة . وقال : انه كان فى استطاعتى ان انسحب من تلك المعارك المرهقة ولكننى ناضلت كثيرا ولسنوات — عديدة مع الاغراب ومع الأصدقاء . والا لخالفت طبيعتى » . كان امامه ، لو اراد ، ان يلعب دور التقية وهو ان يتظاهر بانه يؤمن بعقيدة اخرى) ، وهى رخصة للمسلمين فى حالات الشدة — اذا كانت الحياة تتوقف عليها . ولكنه وهو فى هذه السن لا يريد ان يقوم بهذا الدور . وانه ليبلغ الحادى والثمانين عاما .

ويعتقد الحكيم ان مصر ستستمر فى الاضطلاع بدور رئيسى فى مجال الثقافة العربية . وهناك القليلون من الكتاب المصريين الذين كانوا ينتقدون العرب مثلما كان الحكيم فى السنوات الأخيرة . وقد كان يتالم لأن الدول العربية الغنية بالبترول قد اوقعت الكثير من المصريين فى حبالها ليقوموا بالتدريس فى مدارسها ، وادارة جامعاتها ، وفى عملية اصدار صحفها العلمية والادبية ، ومع ذلك — وليس هذا نادرا — نجد المدرسين والفنيين المصريين يعانون من المهانة فى الدول العربية . ويقول : انه ينبغى على مصر ان تهتم بمصالحها الخاصة ، ويجب الا تستمر فى ان تظل مطية للآخرين : أى الانتهازيين والمتهكمين فى دول الرفض . فقد استغلوا مصر كثيرا فى الماضى فقط لخدمة مصالحهم واطماعهم الخاصة . ويجب على مصر ان تنتهج موقفا محايدا فى الشرق الأوسط ، كما هو الحال بالنسبة للسويد فى اوروبا .

ويسعد الحكيم — وقد يدهشه قليلا — ان كتبه تتم قراءتها مترجمة فى اسرائيل على نطاق واسع . وكان على صلة بواحد من هؤلاء المترجمين الذى تصادف ان يكون ابا ايبان . وكان اول لقاء بين الحكيم وايبان فى القاهرة خلال الحرب العالمية الثانية — اذ كانت احدى اعمال الحكيم تحت عنوان « شجرة البؤس » ، تستخدم كنص اساسى لتدريس قواعد الاعراب العربى فى المدارس الاسرائيلية . واحدى مسرحياته يتم عرضها حاليا على احدى المسارح الاسرائيلية ، وقد قرا الحكيم ما كتبه النقاد عنها ومن اكثر النقاد المفضلين لديه الدكتور ساسون سوميخ الأستاذ بجامعة تل ابيب ، ويقول عنه : « ان سوميخ يفهم الأدب المصرى افضل من معظم الناس » . وهو يأمل ان يتم ترجمة ونشر المزيد من الكتب الاسرائيلية فى مصر . وينبغى ان يتم اخراج مسرحية اسرائيلية فى القاهرة قبل ان يلتقى فريقا كرة القدم فى البلدين ولكن يخشى الحكيم ان يتم الأمر بالعكس .

ويقع مكتب نجيب محفوظ فى الحجرة الملاصقة لهذه الحجرة . وهو رجل نحيف البنية ، وشعره الأسود الناعم ممشط الى الخلف بعيدا عن جبهته ، ويرتدى نظارة كبيرة سوداء تخفى الجزء الأكبر من وجهه . ويبدو وكأنه يرتدى قناعا . وقد قام بخلع نظارته بعد قليل . وكان يخفى وراءها عينين تشعان دفئا وتأملا . وتذكرنى فطنته وصراحته بشخصية هيركونر التى كتبها بريخت ، المفكر الذى يوازى — وغالبا ما يتم قهره — بين التعاليم المتضاربة : تعاليم الدولة بنفوذها ، وتعاليم ضميره . وسالت محفوظ عن كون هؤلاء الكتاب الذين استهزاوا بعبد الناصر بعد وفاته ، عارضوا ايضا

سياسته خلال حياته ؟ هل كانوا دائما ضد الحرب ، أم انهم فقدوا الثقة فقط بعد ان اسفرت الحروب عن كوارث ؟

ربما كان السؤال مباشرا اكثر من اللازم . غير انه يبدو ان محفوظا ايضا لم يسمعه . لذلك كان ينبغى على ان اكرر هذا السؤال . وعندما كررته اوما محفوظ براسه آسفا ، ولكنه لم يتهرب من السؤال .

يقول محفوظ : « مما لا شك فيه انه كان يوجد نوعان من الرجال : رجال المبادىء ، والانتهازيون ومن المؤكد ان الحكيم لم يكن ينتمى الى النوع الآخر . فالحكيم زعيمنا . اننا نحذو حذوه . وعندما قال الحكيم فى « بيانه الشهير » انه قد فقد « وعيه وادراكه » خلال اوج عبد الناصر ، كان هذا الكلام مجرد استعارة . فلم يفقد الحكيم وعيه على الاطلاق ، كما يتضح هذا بجلاء فى كتبه . فهى تثبت اين يقف هو . لقد ثار الحكيم ضد الطغيان بقدر استطاعته وفى ظل ظروف صعبة . فقد كانت هناك ديكتاتورية ، وفى الوقت الذى لم تكن فيه هذه الديكتاتورية بهذا القدر من الكبح والقمع الذى كانت عليه الدكتاتوريات الشيوعية فى اوروبا الشرقية او الطغيان فى كل من سوريا والعراق ، كان الضغط حقيقيا بالفعل . اذ كانت رقابة الشرطة قائمة . كلا . كلا ، لم يكن الحكيم مثل « ابى سيز » ، الذى استطاع ان يدعى بعد قيام الثورة الفرنسية فقط انه نجح فى البقاء . ويقول محفوظ : ان الحكيم يكتب ويجادل باستمرار .

ويقول محفوظ انه يرحب بأن تصبح اسرائيل الآن حقيقة جزءا من هذه المنطقة التى حاولتم زهاء قرن ان تمدوا جذوركم فيها . ما الذى تقصده من عبارة ، ان تصبح جزءا ؟ .

انها فى الأغلب مسألة شعور . فالمرء يستطيع ان يعيش فى منزله الخاص ولكنه يشعر فى نفس الوقت بانه غريب . قد يحس المرء بأنه فى بيته وهو فى مكان غريب وفى كلتا الحالتين يؤثر هذا على التصرفات . ففى فترة ما كان الانجليز والفرنسيون اعداءا . والآن اصبحنا اصدقاء .

اليس الأمر معقدا نوعا ما بالنسبة لنا ؟ نعم ، وذلك بسبب الأرض . ارض محررة ، وارض محتلة . كل هذا الحديث يدور حول الأرض ، ودائما . اننا نحب الأرض اكثر مما نحب الناس . ويعتقد محفوظ ان هذا اخلال سافر بالآداب المرعية . وينبغى على الكتاب والفنانين أن يحاربوا هذا ، فى كل من مصر واسرائيل . ان الأرض جماد ، فهى ليست حرة او مستعبدة انما الحرية او الاستعباد امر يتعلق بالناس .

ويقول محفوظ « كونوا عادلين مع الفلسطينيين . فقد كنتم يايهود اسرائيل شعبا بلا ديار ، واحرى بكم أن تقدروا مايعانى منه الفلسطينيون من مرارة وضيق . ان ماحدث للفلسطينيين هو نفس ما حدث لليهود ان نصف المسافة للتوصل الى حل منصف هو التقمص الوجدانى . فمن الناحية التاريخية ، تعتبر هذه البلاد خاصة بشعبين هما : اليهود والفلسطينيون . دعوهم يقتسمون هذه الأرض معكم .

ويقول محفوظ انه يكتب رواية جديدة مستوحاة من الاحداث الاخيرة ، ولكنها لاتعكس تلك الاحداث ، وبمجرد صدورها سوف يرسل نسخة الى الدكتور سوميخ الاستاذ بجامعة تل أبيب . ومحفوظ ـــ مثله مثل الحكيم ـــ يشيد اشادة تامة بهذا الناقد الاسرائيلى . ويدعى مثل ادريس ـــ انه لايوجد ناقد يفهم اعماله فهما جيدا مثل الدكتور سوميخ . وهو لم يلتق به ولكنهما كانا يتراسلان . ما الذى فهمه سوميخ ؟ « ان غيره من نقاد ومؤرخى الأدب المصرى يرون نوعا من التاريخ او علم الاجتماع فى اعمالى . اما سوميخ فشىء آخر . فهو يفهم الشىء الرئيسى » .

ماهو هذا الشىء الرئيسى ؟ انه صراع الانسان مع الزمن .. وسالنى محفوظ عن كونى اقرا العربية ، فاجبته بالنفى ، وقلت له : اننى استطيع التحدث بها بعض الشىء فقط . وعندما سالنى عن سبب ذلك ، اجبتــه قائلا اننى درست اللغة العربية فى احدى المدارس الثانوية ولكن لم تتح لى فرصة استخدامها . وقال لى محفوظ : انك تستطيع ان تبدا الآن . فقلت له : اننى اخشى ان يكون الوقت متاخرا للغاية ، واستشهدت بفقرة من شعور يهودا اميش اميخاى وهو شاعر اسرائيلى ـــ وعندئذ ضحك محفوظ . وعندما يضحك محفوظ ، تغرورق عيناه . وقد كتب اميخاى بعد حرب سنة ١٩٦٧ التى احتل الاسرائيليون خلالها القدس الشرقية يقول : « ان الزمن ليس هو الذى يبعدنى عن طفولتى ، ولكنها هذه المدنية وكل شىء فيها . والآن ينبغى ان نتعلم العربية » .

كذلك تحدث الدكتور بطرس غالى عن اللغات منذ ايام وسالته عن افضل طريقة لتطور التبادل الثقافى بين البلدين . فقال لى : « اولا وقبل كل شىء ينبغى عليكم كشعب أن تتعلموا اللغة العربية » .. وليست اللهجة العربية التى يتحدث بها اليهود فى الدول العربية ، ولا اللهجة المحلية التى يستخدمها الفلاحون الفلسطينيون ـــ وهى العربية التى يتحدث بها موشى ديان ـــ كلا ، ليست هذه ، بل العربية الكلاسيكية . وبينما كان الدكتور بطرس غالى يقول هذا الكلام ، اشار بيده فى ايماءة تدل على نفاذ الصبر ـــ فهو مسيحى بطريقى ، وزير فرعونى .

وقد اعرب كل من محفوظ وادريس عن قلقهما ازاء المشكلة الخطيرة، مشكلة اللغة فى الأدب العربى المعاصر . فالاختلاف بين الكلمة الكلاسيكية المكتوبة ، والكلمة المنطوقة يزداد . وقد حاول بعض الكتاب العرب ان يتغلبوا على تلك الصعوبة بابتكارهم لغة وسطى هى خليط من العبارات الكلاسيكية والشعبية . والحوار الذى يستخدمه ادريس فى كتاباته شعبى محض ، وايضا اجزاء كبيرة من قصصه .

وتعتبر هذه ايضا ـــ وان كانت بدرجة اقل ـــ المشــكلة الرئيســية بالنسبة للأدب العبرى الحديث ، وهنــاك وجوه شــبه اخرى فى اللغتين تستدعى التفكير . فاللغتان العبرية والعربية لغتان مؤكدتان بشكل لا نظير له فى اللغة الاوروبية . ففى كلتا اللغتين نجد ان الأزمنة غير واضحة ، مبهمة نوعا ما . وصيغ الأفعال محدودة : فليس هناك اسلوب الشرط او التمنى ، او الماضى المطلق ، او صيغة المفعول او الفاعل او المصــدر ، او

تتابع ازمنة ـــ بل احداث فقط . والاساليب المعقدة التى استخدمت فى هاتين اللغتين للتغلب على هذا العائد الكلاسيكى تفتقر الى الدقة . وكلتا اللغتين تستخدمان الالقاب التصديرية التى تعكس المستقبل الى ماض وتجعل الماضى مستقبلا . وحتى اللغة العبرية الحديثة ، لا يوجد سوى زمن مضارع واحد ، ولا يوجد ماض تام او اسلوب شرطى ، ولكن هناك طريقة غير مبــاشرة للايحاء باسلوب الشرط . ففى اللغتين العبرية والعربية الحديثتين ، من المستحيل ان نقول بنفس التحديد كما فى اللغتين الفرنسية او الانجليزية ، « ان الاسرائيليين اعتقدوا انهم لم يكونوا ليتركواالاراضى المحتلة طالما كان السلام لم يكن موجودا » . اما فى اللغتين العبرية والعربية فنقول : « ان الاسرائيليين اعتقدوا انهم لن يتركوا الاراضى المحتلة » الخ ...

اما فيما يتعلق بمجموعة اللغات الاوروبية الناشئة عن اللغة اللاتينية ، واللغات التيوتونية ، فنجد ان فعل الشرط سوف would يشير الى وجود مشكلة ، وجود شك متوقف على بعض الاحتمالات التى قد تحــدث او قد لا تحدث وانى لاتساءل : الا يمكن ان تكون خصائص اللغــة قد اسهمت عبر السنين، فى العناد العربى والاحجام الاسرائيلى ، فحالت دون ادراك ان السلام عبارة عن عملية طويلة لا يمكن تحقيقها بجرة قلم ـــ ففى اللغتين ، نجد ان تسلسل الزمن قد حجبه التركيز الكلاسيكى على الاحداث . وهــذا من شانه ان ساعد على عملية كتابة القصائد الشعرية العظيمة بهذا الاقتصاد المذهل فى استخدام الكلمات . ولكن ما وقع هذا العمــل بالنســبة للتفكير السـياسى ؟

كتب دى فى سيجر ـــ « اسرائيل : مجتمع فى مرحلة انتقالية » يقول : ان تركيب الفعل فى اللغة العبرية قد يوضح الى حد ما السبب الذى يجعل الراى المسئول فى اسرائيل يجد صعوبة كبيرة فى التمييز الواضح بين الماضى والحاضر والمستقبل فيما يتعلق بأى قضية تتصل بمشاعر اليهود الجماعية. الا يقال نفس الشىء بالنسبة للثقافة العربية ايضا ؟ يقول سيجر وهو عالم سياسى مشهور من اصل ايطالى ـــ ان فى اللغة الايطالية يوجد مالا يقل عن ١٤ زمنا ـــ منهم ثمانية ازمنة فى الصيغة الدلالية فقط واربعة ازمنة فى الصيغة الاحتمالية واثنان فى الصيغة الشرطية وربما ستة ازمنة فى صيغة المصدر واسم الفاعل او اسم المفعول .

واذا لم يكن هناك ماض تاريخى واضح (او مطلق) فى اللغتين العبرية او العربية فان العلاقة بين الاحداث التى وقعت فى ازمنة مختلفة فى الماضى تظل مبهمة . والرجل الذى يفكر باللغتين العبرية او العربية يجــد انه من الأسهل ان يتخيل أن محمدا او سليمان او صلاح الدين او ماسادا تصرف او حدث امس فقط . فقواعد اللغة تساعد قرونا كثيرة على التلاشى محدثة وهما بالاستمرارية المتواصلة .

وتحدثت مع حتام عن هذا الموضوع مازحا ، فقال لى : انه ينبغى علينا ان نمتنع عن ارسال اسرائيليين يتحدثون العربيــة الى مصر او مصريين يتحدثون العبرية الى اسرائيل . وبدلا من ذلك ينبغى علينا ان نواصــل الحديث بالانجليزية او الفرنسية مع بعضنا . فان هذا سيعطينا مجالا اوسع

لاختيار الفوارق الرقيقة التى لا تكاد تدرك واختيار الازمنة ــ والحقيقة ان السادات وبيجين يتحدثان مع بعضهما باللغة الانجليزية ، وهكذا الامر بالنسبة لمعظم المتفاوضين الدبلوماسيين . لكن ، لا زال كل منا يفكر بلغته .

***

وحتى بعد ان ايد المصريون المتعلمون معاهدة السلام ــ كما فعل الكثيرون ــ لم اقابل شخصا واحدا حتى الآن اعرب لى حتى عن رغبته البعيدة فى زيارة اسرائيل . والأشخاص الوحيدون الذين اعربوا لى عن رغبتهم فى الذهاب الى اسرائيل فورا هم عامل المصعد فى الفندق ، وسائق سيارة شحن اعرب عن رغبته فى العمل مع شركة اسرائيلية ، ورجل يعمل فى متجر صرف الشيكات السياحية وقال لى : انه يرغب فى العمل أمين صندوق فى احدى البنوك الاسرائيلية . اما بين المفكرين والكتاب فقد لاحظت نوعا من عدم حب الاستطلاع ، بل حتى عدم مبالاة . ولكن يبدو العكس صحيحا فى اسرائيل . ومع ذلك نحن الذين خرجنا من العزلة ، وليسوا هم ، اننا نحن ، وليسوا هم ، الذين ظهروا الى حيز الوجود ، والذين يتوقون الى رؤية شكل الحياة وراء هذا الحائط .

ان حتام يفضل ان يقوم بزيارة لندن او نيويورك . وادريس لن يذهب طالما انه لن يستطيع ان يأخذ قراءه معه . والدكتور عوض ممتنع عن الذهاب بسبب وجود الجنود الاسرائيليين فى سيناء . ويقول محفوظ لكنى لا اذهب الى اى مكان كان ــ عدا الاسكندرية ــ لقضاء بعض شهور الصيف فيها ! اما الحكيم فهو يسافر فقط الى باريس حيث يمتلك مسكنا هناك .

ويقول حتام : ان المصريين بطبيعتهم يفضلون البقاء داخل ديارهم . واردف « لقد جاء هيرودوت الى مصر ولكن من الذى سمع ان مصريا من القدماء زار اليونان ؟ » .

***

اننى اقرأ ما كتبه محمد سيد احمد تحت عنوان « عندما تسكت المدافع » ، (١٩٧٥) ، واتعرف ــ من استنتاجاته ــ على الأساس المنطقى وراء الكثير مما سمعته من دعاة السلام الكثيرين هنا . ولفت نظرى فى جدل ــ سيد احمد ــ وانا التواق الى اقامة تقارب حقيقى مع جيراننا العرب ــ انه « عملى » اكثر من اللازم . فهو يؤيد السلام بوصفه رجلا متخصصا فى الرياضيات وليس رجلا متخصصا فى علم الاخلاق . وهو يصف المجتمعات وكأنها آلات ولكنى ادرك ــ مع ذلك ــ ان هذا هو المنطق وراء كل عمليات الوفاق .

ومحمد سيد احمد شيوعى سابق ، وسليل اسرة اقطاعية غنية ــ ويصفه حتام بانه اشبه بشخصية فى الرواية الروسية فى القرن التاسع عشر : الارستقراطى الذى يتمتع بضمير اجتماعى . ومع ذلك ، يبدو ان

الشىء الذى ينقصه هو التقمص الوجدانى . فقد قضى سيد احمد فترة من الزمن فى السجن ايام حكم الملك فاروق والرئيس عبد الناصر . وفى الستينيات عندما صالح عبد الناصر الشيوعيين اصبح سيد احمد يكتب بانتظام فى جريدة الاهرام .

فقد كتب يقول : ان الوقت قد حان كى نتأمل فيما لم نكن نجرؤ حتى الآن على ان نتأمله ، وهو الوفاق (والسلام) مع اسرائيل . اما الأسباب التى ابداها بعد هذه الافتتاحية المشجعة فكانت سلبية اساسا . فيقول ان مساوىء الحرب تفوق ــ ببساطة ــ مزاياها المحتملة . ان السلام امر ممكن الآن ــ وهو لا يزال مترددا فى ان يسميه امرا مرغوبا فيه ــ بسبب « توازن الرعب » ، وايضا بسبب ان الاموال (العربية) فى حاجة الى تكنولوجيا (اسرائيلية) . وكل صراع فى الشرق الأوسط لا يزال يرتبط بطريقة او بأخرى ــ بما اسماه سيد احمد الخطر الصهيونى . ويجادل بقوله : ان السلام لن يقضى على المتناقضات بين اسرائيل والعرب ، فهو يعنى فقط اعادة تنظيمها . ان السلام لا يتعدى كونه « اقل الاحتمالات المتاحة ضررا » بالنسبة لجميع الأطراف وامام اسرائيل دور (عملى) ينبغى ان تضطلع به فى المنطقة على حد قول سيد احمد . يتطلع الى اختفائها ، ويأمل ان يتسبب الوفاق بالتدريج فى ذبول الدولة اليهودية كثقافة مميزة عن طريق استيعابها داخل العالم العربى لأن اسرائيل حتى ولو لم تكن « اداة امبريالية » فانها من وجهة نظر سيد احمد (جسم غريب) .

وهو فى الوقت نفسه ناقد لاذع للحياة العربية والمصرية .. فهو يقول « اننا لازلنا نعيش بمنطق المجتمع القبلى » وهذا التفكير القبلى يهدد بالزيادة، لأنه اذا كانت العروبة قد اكتسبت كرامة جديدة فى السنوات الأخيرة ، فقد كان هذا نتيجة للثروة المعدنية وليس نتيجة اى جهد فكرى او مادى ، او حتى نتيجة معاناة بشرية . وفى مكان آخر اعرب عن تذمره من ان هناك رحيلا جماعيا للثروة العربية الى الغرب ــ الشباب العربى المستهتر الذى يجرى وراء المغامرات فى لندن ، الاستثمارات العربية فى بنوك اوروبا والعقارات فى كاليفورنيا ــ اكثر من تدفق ثروة حقيقية الى العالم العربى .

وقد فكر محمد سيد احمد فى طريقة لافتة للنظر تعمل على حماية الحدود المستقبلة بين اسرائيل وجيرانها ضد اى اعتداء من اى جانب على الآخر . فاقترح اقامة حزام من الصناعات الثقيلة . فى محاذاة الحدود حيث يستطيع المال والقوى البشرية العربية الانضمام الى الخبرة الفنية الاسرائيلية . وقد يولد هذا التماذج اهتماما من جانب الطرفين بحيث لا يعرض اى جانب هذا الحزام المفيد لخطر الدمار .

ولكنه اضاف يقول : ان مثل هذا الحزام لا يستطيع بمفرده ان يمنع نشوب حرب ، كما هو الحال بالنسبة للمناطق الصناعية الموجودة على الحدود الألمانية ــ الفرنسية التى لم تمنع على الاطلاق نشوب حرب . وهو يتمسك بأن السلام الحقيقى يمكن التوصل اليه فقط بعد تجريد الطابع القومى لاسرائيل داخل دولة « علمانية » فى فلسطين كلها . وهذا ليس راى الحكيم ، او ادريس او محفوظ . ومع كل تأييد لعملية الوفاق ــ تعتبر هذه العملية مبحثا يدعو الى القنوط .

الشاى فى منزل مهندس معمارى شاب فى الريف

لقد اتجهنا بالسيارة فى الطريق المؤدى الى الاهرامات ، مارين على النوادى الليلية المبهرجة و (البارات) و (الكباريهات) وعندما بعدنا مررنا فى طريق الأسفلت العتيق المحاذى لقناة ساكنة تخترق الريف المفتوح والمنبسط ــ لقد درس اسماعيل ــ المهندس المعمارى . فى ايطاليا وهو يعمل لحساب شركة انشاءات محلية . وتظلل حديقة منزله اشجار النخيل وتكسوها شجيرات الورد والياسمين والنباتات الحمراء والصفراء ، والشمس تتخلل الأوراق والأغصان . واحتسينا الشاى من اقداح من الخزف الثقيل ذات لون احمر قان لامع ، تم صنعها فى قرية قريبة . وكان اسماعيل يتحدث ــ وهو متأثر ــ ايما تأثر ــ عن مشاكل الاسكان الرهيبة . فنحن فى حاجة الى ما لا يقل عن مليون مسكن جديد ، ومع ذلك فلا يتم انشاء الا الآلاف القليلة شهريا . لا توجد اموال . واذا بنا نتطرق الى الحديث محمد سيد احمد « عندما تسكت المدافع » . وذكرت له انطباعى عن هذا الكتاب .

وكان اسماعيل يتحدث الايطالية بطلاقة ، وهو مغرم بشدة بفن العمارة وشعر القرن الرابع عشر . واستشهد بشعر من تأليف بترارك (اننى لا اجد السلام ، ولا اجد السبيل الى الحرب . اننى اخاف وآمل ، انا احترق وانا جبل جليد عائم) .

وبعد ان تناولنا الشاى ، وصل صديق لاسماعيل ، مهندس معمارى مثله . وبخلاف اسماعيل ، لم يتمكن من العثور على عمل فى مصر . ذلك ان عدد المهندسين المعماريين المدربين الذين لا يجدون عملا محليا ضعف عدد المهندسين الذين يجدون العمل . ويعمل نبيل لاحدى المؤسسات المعمارية فى الكويت ، وكان يقوم بتصميم المكاتب والمنازل للكويتيين الأغنياء خلال الأربع السنوات الماضية . ويقول : ان سعر بيت مكون من خمس غرف مبنية فوق قطعة ارض صغيرة فى ضاحية من ضواحى الكويت يصل الى اكثر من نصف مليون دولار . ويقول : ان الراتب ليس رديئا بالرغم من انه يحصل على ½ الأجر الذى يحصل عليه زملاؤه الكويتيون . والترقية شىء صعب ، فالكويتيون لا يدعون مجالا للشك فيمن هو السيد ومن هو الخادم . ونظرا لانه « اجنبى » مصرى فى الكويت ، تعرض لاهانات كثيرة ، وزادت تلك الاهانات منذ بدأ الرئيس السادات التفاوض مع الاسرائيليين . وانه لمن المستحيل تقريبا بالنسبة للمصرى ان يصبح مواطنا كويتيا . وكان نبيل يأتى الى مصر مرة فى العام . وفى هذه المرة كان عليه ان يطير عن طريق اثينا ، فقد كانت رحلات الطيران المباشرة من الكويت الى القاهرة متوقفة ــ بصفة مؤقتة ، وهو يعيش بالأمل ، ولكنه قلق جدا على مستقبله .

ويشعر اسماعيل ايضا بالقلق ، اذ يخشى احتمال وصول شركات التعمير الاسرائيلية وتضييقها الخناق على السوق المصرية . وكانت عبارته تعكس شعورا سائدا بالنقص ، شعورا غير منطقى ولكنه موجود . وسيحتاج الأمر الى وقت لازالة الفكرة السائدة بان الاسرائيلى اما سوبرمان عسكرى او شخصية مخادعة فى مجال الأعمال التجارية .

واثناء عودتنا الى القاهرة ، مررنا على فندق مينا هاوس . ويقع هذا الفندق الضخم ، عند سفح هرم خوفو الكبير ، ويتميز بقبابه ونوافذه واسواره المزخرفة المستوحاة من القصر الصيفى لمهراجا هندى . وتم بناؤه ليكون بمثابة احدى الاستراحات التى تقع فى الطريق وذلك ايام الامبراطورية البريطانية . ولا تزال قائمة الطعام التى يقدمها الفندق تحمل كل أصناف الطعام (بالكارى) كما كان الحال أيام السيد البريطانى .

واثناء اختراقنا شارع الهرم ، شاهدنا النوادى الليلية مضاءة ومزدحمة ، والسياح يندفعون من (الأوتوبيسات) ويدخلون مبنى للرقص الشرقى . واسماعيل لا يحب الرقص الشرقى ، ويصفه بأنه ذوق تركى غير انيق . واستغربت لهذه التسمية « تركى » . اليس الأتراك هم اكثر تزمتا بالنسبة لتفسير القرآن ، كما هو الحال بالنسبة للبروتوستانت الانجليز فيما يتعلق بالانجيل ؟ ورد على اسماعيل بعناد قائلا : كلا ، انهم الأتراك و (باشاواتهم) القساة الفاسقون الذين تم ارسالهم ليحكموا مصر . ان الراقصات يرتدين بدلا للرقص من طراز القرن التاسع عشر الفرنسى ، والفكرة مستوحاة من الشرق ، وهن يتحلين بالمجوهرات ، وبطونهن مكشوفة ، يوحين بالعبيد وهن يقمن بهز اردافهن لادخال السرور والمتعة على الحكام الشهوانيين .

* * *

وخلال الأيام القليلة الماضية ، وبعد توسلات من جانبى ، تم تخفيف اجراءات الأمن المشددة المفروضة على . فقد اصبح كافيا ان اخبر الضابط الذى يقوم بحراستى عن المكان الذى انا ذاهب اليه ثم اتجه الوجهة التى اقصدها بمفردى . وقد كان هذا بمثابة فرج وراحة خاصة بالنسبة لمعارفى من المصريين . فقد كانوا يشعرون بالحرج من وجود رجل من رجال الأمن فى انتظارى فى الخارج . الا انه تم تعيين حارس جديد لى ، وهو الرائد شريف . وهو شاب فى اواخر العشرينيات ، ابن ضابط من ضباط الجيش ويتقاضى شريف ، الذى تخرج من كلية الحقوق ، اقل من ٨٠ دولارا شهريا ، وهو يعتبر اجرا مرتفعا فى مصر . ولكنه يقول : ان تكاليف شقة مكونة من حجرتين تصل الى ٤٠ الف دولارا . وقال لى : انه تزوج منذ ثلاث سنوات ، ولكنه لايزال يعيش مع والديه . وزوجته وهى ايضا خريجة جامعة ، لم تستطع ان تجد لها وظيفة فى مصر . وبعد زواجهما بعدة اشهر ، سافرت الى احدى دول ــ الخليج حيث تعمل هناك موظفة استقبال فى احد الفنادق . ويقول شريف انه لم ير زوجته الشابة منذ اكثر من عامين وهو حزين جدا ويشعر بالوحدة ويقول باستسلام ، ان زوجتى تعيش فى « متحف ذكرياتى » .

المتاحف

يعتبر متحف القاهرة الشهير مكانا يثير الكآبة فى نفس الانسان ، عبارة عن مخزن اكثر من كونه معرضا للآثار والأعمال الفنية القديمة . تلك الكنوز مكدسة على الارفف والأرض وغير مضاءة اضاءة كافية ، وبعضها مطموس المعالم ويكسوها الغبار . ولابد ان السلطات

المسئولة غارقة وسط هذا الحشد كما هو الحال بالنسبة للزائر العرضى. وتحمل العديد من النسخ الواضحة مايدل على التلف الذى احدثته القرون. ونجد الأصول — سواء المسروقة او المباعة — معروضه فى المتاحف الاوروبية او الأمريكية . ولكن اى نوع من الكنوز !

وقال لى شريف ، الذى كان يرافقنى فى تلك الزيارة ، انه حتى سنوات قليلة ماضية كانت هناك جوالات من الرمل فى قاعات المتحف لحماية القطع الأثرية الرائعة الموضوعة فى صناديق قديمة الطراز من الزجاج لحمايتها من الدمار خلال الغارات الجوية. وقد شاهدت الكنوز الخلابة من الكراسى الفرعونية المحفورة والأسرة ، والمناضد والتماثيل الخشبية مكومة فوق بعضها فى الواجهات كما هو الحال فى أحد متاجر الأثاث المستعمل .

وشعرت فى هذا المكان بنفس الاختناق الذى اشعر به فى كل مكان بالقاهرة حيث الازدحام الشديد والركود . وفى هذه المتاهة من الزحام والجرانيت والخشب المحفور ، يسود نفس الانطباع القوى بانه « لا حدود » والأرقام المدونة على الآثار آخذة فى الاضمحلال . ويشير هذا المستودع المهيب ، وهذا المخزن المتلىء حتى الحافة بأكثر القطع الأثرية روعة — يشير الى ان أحداثا كثيرة وقعت هنا لفترة طويلة جدا فى مساحة ضيقة للغاية . تمثال تحتمس وأقرانه وهم يتأبطون اذرع زوجاتهم وامهاتهم، خصورهن نحيلة وأصابعهن طويلة بشكل غريب ، وتمثال ابى الهول المنحوت نحتا رقيقا ، نصفه أسد ونصفه انسان ، للاشارة الى الحكمة الالهية والقوة الحيوانية . والجمال الذى يتمتع به كل هؤلاء الحكام القدماء ربما يكون جمالا اخاذا ، لأننا لا نعرف الا القليل نسبيا عن تاريخهم .

وتوجد الموميات فى حجرة خاصة بالدور العلوى . ان افتتان الزوار بما هو سليم يستغل بذكاء ، اذ يضطر المرء الى ان يدفع رسوما منفصلة من اجل الاستمتاع بمشاهدتها . وهذه الحجرة الصغيرة — التى تشبه المكان الذى توضع فيه جثث الموتى بعد حلول كارثة مفاجئة — قد غصت بجثث الموتى ، وقد ازدحمت بالزوار الفضوليين . وبالقرب من هذه الحجرة توجد مجموعة عجيبة من الحلى والأشياء المصنوعة بيد الانسان والصور الرقيقة المرسومة بالالوان على الجبس قبل جفافه — تلك المجموعة تجعل الانسان يتساءل عما اضافته الحضارات الأخيرة لها . ان الواقعية الخلابة لتمثال اخناتون — واقعية — تقترب من الشذوذ فى فن النحت — تصيب الانسان بقشعريرة تصل الى عظمة . الى جانب البقر المقدس ، والجياد الرائعة المنحوتة . والمطلية بالذهب : وقد جاء فى الانجيل : ان سليمان قد احضر جياده من مصر ، كما احضر ايضا — وعلى الأقل — احدى زوجاته البالغ عددهن ١٠٠٠ زوجة ! حبيبتى ، لقد قارنتك بمجموعة الجياد التى تجر عربات فرعون . وهناك (بلاطة) جميلة تحمل نقشا تذكاريا منذ ايام المملكة الوسطى جاء فيه : آه ، أنتم يا من تعيشون على الأرض ممن تمرون من امام هذا الحجر ، وتحبون الحياة وتكرهون الموت . اما كنوز توت عنخ آمون فهى موجودة فى حجرة جانبية خاصة . ممنوع الدخول لأكثر من خمسين شخصا . وهناك أكثر من مائة نفس فى داخلها ، ولا يزال المزيد يتدافعون ليدخلوها .

كل هذه الأعمال الفنية العظيمة ، تدفع الانسان الى النظر اليها فى ذهول — والاعجاب بها كلما تذكر مقدار قدمها — فأوروبا كانت لا تزال آنذاك غابة ومستنقعا ، وكان اليهود القدماء لا يزالون مجموعة من الرحل الهائمين على وجوههم فى صحراء ما بين النهرين . وقد كتب الدوس هكسلى فى احدى المرات متحدثا عن كل تلك الأفكار الرفيعة ، عن الفن ، والحياة ، والاله ، اله شمس واحد . ما الذى حل بالنظريات اللاهوتية والعواطف؟ ان تلك الحفريات لا تزال موجودة هنا . ان السياح يتطلعون اليها ، ويتطلعون الى المزيد ايضا خارج هذا المتحف ، توجد كل هذه الكميات من القذارة ، وكل تلك التساؤلات التى يبدو ان احدا لا يستطيع ان يشرع حتى فى الرد عليها . وكذا المشاكل التى يقول يوسف ادريس : انه لايمكن حتى تحديدها .

ويدخل السياح فى جماعات ، تفوح منهم رائحة المستحضرات السائلة المستخدمة فى دهان البشرة لحمايتها من الشمس ، ومزيلات رائحة العرق . وهم لا ينصتون تماما الى الابتهالات المبتذلة التى يرددها المرشدون السياحيون . وعندما كان الدوس هكسلى موجودا هنا فى ١٩٥٤ ، تحطم فلم يشعر من قبل قط بمثل هذا الشعور بالاحساس بالطبيعة المأساوية للوضع الانسانى مثلما احس به هنا — وفى القدس اهوال تاريخ لا تزيد فيه الأعمال الفنية العظيمة والفلسفات والأديان — عن كونها اجزاء صغيرة فى جدول لا ينتهى من الحرب والفقر والمجاعة وخيبة الأمل والبؤس والمرض . وكتب فى خطاب الى صديق له يقول : « ان المرء يرى بؤس المصريين المتراكمين عند الأهرامات ، ويأس اهالى القدس الذين اصبحت اقدس المدن بمثابة سجن لهم ، سجن من اليأس المزمن الذى يتخلله الفزع من وقت الى آخر عندما تبدأ القنابل اليدوية تتطاير . ولابد ان الحال كان على هذا النحو دائما — جزر قليلة من العظمة فى بحر من الظلام — وعندئذ وخلال فترات الضيق يسود الظلام المطلق على مدى قرون .

هذا وقد نهرنى كمال الملاخ — عالم الآثار الشهير — بسبب خضوعى لمشاعر هكسلى السوداوية . ان الانفعالات العاطفية شىء مألوف فى ردود فعل الكثير من الغربيين الذين يزورون مصر . فالبعض يحلم — كالأطفال — بمصر ، والبعض ، مثل هكسلى ومن قبله جيرار دى نرفال — يرون فقط شموس اليأس السوداء تشرق يوميا على سهول النيل المضيئة .

القى على كمال الملاخ محاضرة عن روح مصر « الحقيقية » وكان كمال الملاخ يرتدى حلة سوداء أنيقة ، وعيناه تلمعان فى وجهه المربع . وهو رجل جذاب للغاية ومن اشد مؤيدى السلام ، اذ يقول « انه كان ينبغى ان يتحقق السلام منذ زمن بعيد » . وهو الذى اكتشف مركب الشمس الشهيرة الخاصة بخوفو عند قاعدة الهرم الأكبر ، وواحد من الذين اعدوا معرض توت عنخ آمون فى واشنطن ، ونيويورك وغيرهما من مدن الولايات المتحدة الأمريكية الأخرى . وهو كاتب مشهور فى الآثار والفنون ، وكاتب قصة حياة توفيق الحكيم ، ووطنى كبير من وطنيى وادى النيل . من ابناء نهر النيل ، كما يقولون هنا . ومثله مثل الكثيرين من ابناء نهر النيل ، ليس شغوفا بالعرب شغفا كبيرا . وهو يعتبرهم بدوا ، مثل الهكسوس .

نعم ان مصر بلد فقير جدا ، ولكنها اساسا — كما يقول — ارض السلام ولا ينطبق هذا القول على معظم البلدان ! وهذا هو السبب الذى يدعونا الى ان نشعر باننا ننتمى الى عنصر الزمن وليس فقط الى عنصر التاريخ ، فهناك شعوب اخرى قد تفرقت وتبددت مع الوقت . ولكن لم يكن المصريون من بينهم . ويقول : انهم هم الذين ادخلوا الحضارة على الذين غزوهم—يقول هذا الكلام بنغمة تشير الى انه لم يستبعد من ذلك احدث غزاة غزوا المصريين — ثم ابتسم . واخذنا نحتسى القهوة . واحدث نفسى . انها وجهة نظر نبيلة جدا . ويقول الملاخ : انه حتى الغزاة المسلمون فى القرن السابع اصبحوا مسالمين بمجرد ان استقروا هنا . فبعد استيلائهم على القاهرة على راس ٣٥٠٠ فارس (معظمهم يمنيون) قال قائدهم عمرو لجنوده ما معناه «لقد هبطت فيضانات نهر النيل . ان رعاية الماشية فى الربيع لامر حسن» . انتشروا — بعون الله — واستمتعوا بالأرض وبلبنها وبماشيتها وبقطعانها، وعيشوا فى سلام مع جيرانكم .

•

واستطرد الملاخ يتحدث بحرارة عن الروح التاريخية الحقيقية لارض نهر النيل . لقد ولت ايام عبد الناصر باوهامها الطنانة — وكانت تلك الايام — فى مجال السياسة الخارجية عبارة عن حادثة عرضية . ومن الناحية التاريخية ، تعتبر تلك الأرض الواقعة على النيل ، بلدا مسطحا يعمل فيه الفلاحون الكادحون ، وهى تمقت بشدة الحرب ، وتكره المغامرات الأجنبية . وهى عبارة عن قطعة صغيرة من الأرض الخضراء ، تحيط بها الصحراء من كل جانب . ويعلم سكانها بالغريزة انه اذا غامر المرء ودخل الصحراء فانه ميت لا محالة . ومع بعض الاستثناءات (ملوك الأسرة الجديدة المغامرون، من عام ١٥٨٠ حتى عام ١٣٢٠ قبل الميلاد) كانت الحروب الوحيدة التى دخلتها مصر حروبا دفاعية : ولذلك عندما يظهر تهديد على الحدود الشرقية — وهى البوابة الوحيدة الى مصر . وعندما لا يظهر اى تهديد من ناحية الشرق ، عبر سيناء ، كان المصريون يتشوقون فقط الى ان يتركوا بمفردهم ليعيشوا فى سلام . ويقول الملاخ وهو يتحدث عن حلم عبد الناصر فى تكوين امبراطورية عربية مركزها القاهرة . انها فكرة مستوردة محكوم عليها بالفشل منذ البداية . فهذه البلاد لم تكن على الاطلاق قلب امبراطورية ، فيما عدا ايام الحكم الأجنبى . فالفاطميون لم ينشأوا هنا . وكان صلاح الدين من اصل كردى . ونحن لانعتبره مصريا . حقيقة ، ان مصر كانت دائما المركز العالمى للاسلام بسبب جامعة الأزهر ، ولكنها مركز روحى ، وليست مركزا سياسيا .

وعندما كان السيد الملاخ يتحدث عن تاريخ مصر القديم ، كانت عيناه تلمعان ببريق معين . فهو فى مجاله ، وهو ايضا يشعر بالراحة اكثر ، عندما يتحدث عن أمجاد الماضى ، لا عن فساد الحاضر . وظل يستمع الى اعتراضاتى فى هدوء ، ثم استطرد يفندها مستندا فى ذلك الى القواعد التى لا تتغير والى الأفكار التجريدية التى استوحاها من الجغرافيا والتاريخ. ويقول الملاخ : من بين اول الاشياء التى ينبغى ان يفعلها الاسرائيليون هو ان يتعرفوا على الفن المصرى . وينبغى على اسرائيل ان تطلب من هيئة الآثار المصرية — وهو عضو فيها — ان ترسل نموذجا لمعرض يضم الاثار الاسلامية والقبطية والفرعونية الى القدس ، ربما ايضا معرض توت عنخ آمون بعد جولته الحالية للمدن الأمريكية . وهـذا من شانه ان يعطى

الاسرائيليين فكرة عن حقيقة مصر افضل من آلاف المقالات المنشورة فى الصحف . وقد اسهب فى هذه النقطة لفترة . فيقول : دعنا نتبادل المعارض والكتب قبل ان نتبادل رجال الاعمال . وهو ، ايضا ، متخوف من رجال الأعمال الاسرائيليين . فبالرغم من ان بعضنا فى حاجة الى البعض الآخر ، اقتصاديا ، علينا ان نترك رجال الاعمال يأتون فيما بعد .

وهو يرحب ايضا بأن تشترك اسرائيل فى مهرجان السينما القادم فى القاهرة وهو احد منظمى تلك المهرجانات . فهو رجل متعدد المواهب . ويحذر قائلا : ولكن لا ترسلوا افلاما سياسية . ويضف بحماس « ارسلوا ابناء شعبكم الى هنا ليشاهدوا الاقصر واسوان وابو سمبل ووادى الملوك ! ووجدت انه من الصعب مقاومة جاذبيته واخباره بالتجربة التى مر بها صديقى شالوم كوهين .

فقد استطاع كوهين — وهو اسرائيلى — ان يزور القاهرة قبل السلام عن طريق صلته باحدى الصحف الفرنسية . وفى يوم من الايام طار الى الأقصر لزيارة وادى الملوك . ولمدة يومين كان يتجول مع احد المرشدين المحليين ، الذى كان يدرك هوية كوهين . وفى نهاية اليوم التالى ، وصلوا الى معبد الكرنك ، حيث شاهد على احدى الحوائط صورة مرسومة بالالوان محفورة تصور صفا من اسرى الحرب من اليهود الذين اعتقلهم فرعون خلال عملية نهب القدس . (وربما كانت هذه الحادثة هى الحادثة التى تم وصفها فى كتاب من كتب الانجيل) عند الحديث عن السنة الخامسة من حكم الملك ريهو بوم شيشاك وكيف هاجم ملك مصر القدس ، لانهم خالفوا الرب ومعه ١٢٠٠ مركبة حربية وعشرات من الفرسان .. واستولى على المدن المحصنة، واذل ريهو بوم نفسه امام ذلك الفرعون ، الذى استولى على الكنوز وعلى دروع الملك سليمان المصنوعة من الذهب ، كما اخذ العديد من الأسرى عبيـــدا) .

وعندما وصل كوهين ، والمرشد السياحى الذى كان يرافقه الى تلك الصورة المحفورة بالالوان ، قال هذا المرشد فجأة — وكان طوال الوقت يتحدث العربية والانجليزية — قال بالعبرية مبتهجا بهذا النصر «انظر ياسيد كوهين — وكان من الواضح انه ينتظر تلك اللحظة— ان مافعلتموه بنا فعلناه بكم فمرة اخذنا اليهود الاسرى الى الاقصر ، ومرة اخذتم ابناء الاقصر اسرى حرب الى اسرائيل . وكان هذا المرشد قد تعلم اللغة العبرية عندما كان اسير حرب فى اسرائيل .

وهنا صاح الملاخ « ارايت ! انها تدل على ان المـاضى هنا ليس مجرد فنون من صنع الانسان ، وبقايا — بل انه يحيا !

ويعتقد السيد الملاخ ان اليهود والمصريين قد يحققون — مع ذلك — اعمالا عظيمة معا . وهو معجب بكتاب فرويد الصغير الذى يتناول موضوع الايمان باله واحد ، والذى يزعم ان سيدنا موسى كان مصريا الهمه اخناتون— واخناتون هو زوج نفرتيتى الجميلة . ولا يزال وجهها الجميل يجذب الآلاف من السيارات السياحية يوميا لزيارة متحف القاهرة ، حيث يتم بيع نسخة مطابقة لها . اما النسخة الأصلية — التى تم تهريبها من مصر فى اوائل القرن الحالى — فهى موجودة فى برلين .

الفصل السادس

شققت طريقى بأسرع ما يمكن عبر الزحام فى شارع سليمان باشا . وكان سليمان باشا (واسمه المستعار الكولونيل دى سيف) مرتزقا اوروبيا ينبض بالحيوية ، قام فى القرن التاسع عشر بتجديد جيش الخديوى ، وأصبح من ابناء البلد وتزوج من امرأة مصرية ، وقيل لى انه انجب عددا كبيرا من الأطفال من زوجته ومن غيرها .. وفى الخمسينيات ، تم اعادة تسمية شارع سليمان باشا ــ وكذلك شوارع اخرى مسماه ــ ليصبح اسمه شارع طلعت حرب رجل البنوك . ولكن لايزال الكثير من القاهريين يطلقون عليه اسمه القديم .

ويعتبر سليمان باشا ــ او طلعت حرب ــ واحدا من شوارع البيع الرئيسية فى القاهرة ، ربما اكثرها اناقة . وكان فى يوم ما « قلب المدينة الأوروبية» ، قاهرة اليونانيين والايطاليين والانجليز واليهود والأرمن والفرنسيين والاقباط والملطيين ــ الذين لعبوا دورا هاما فى مجال الحياة التجارية والثقافية داخل البلاد قبل قيام الثورة المصرية . وهذا اللقب « المدينة الاوروبية » لا يزال يطلق عليه من حين الى حين . وكما هو الحال فى اماكن اخرى ، فان هوس الثوريين المشترك باعادة تسمية الشوارع والميادين يصطدم بشعب محافظ لا يحب التغيير وله ذكريات طويلة على غير العادة .

كانت الساعة السابعة مساء ، وقد امتلأ (جروبى) وهو محل شهير لبيع الحلوى وكان فى يوم من الايام الملتقى المفضل لدى الأجانب والمصريين الاغنياء والبوهيميين ــ لكنه يمتلىء اليوم بالموظفين الذين يعملون فى المكاتب والبنوك القريبة منه ، وهم يجلسون مع صديقاتهم ــ وكانت واجهات المحال التجارية باهرة الضوء ، وتعرض ــ ربما بطريقة رثة ــ مجموعة من الاحذية والملابس المصرية الصنع ، بينما كان التجار اليونانيون واليهود ، فى اوائل الخمسينيات لا يزالون يعرضون بضائعهم المستوردة الايطالية والفرنسية ، الغالية الثمن ، على الطبقة القليلة ــ طبقة (البكوات) والباشوات والاجانب الذين يستطيعون شراءها . وتعطينا سيمون لاكوتور فى كتاب مصر ــ مثلا حيا للسيدة الانيقة التى تصدر اوامرها الى سائقها الخاص بايقاف السيارة الرولز رويس امام محل لبيع الأحذية . « ويومىء » السائق ، وتسرع بائعة الاحذية بعرض زوج من الأحذية لتقوم السيدة بقياسها وهى فى داخل سيارتها دون ان تحاول حتى النزول منها . وتضيف لاكوتور بطريقة جافة قائلة : « ولكن الثورة قامت » .

ويوجد هنا ايضا الآن اعداد كبيرة من الناس ويوحى الانطباع العام انهم من الطبقة المتوسطة . والبضائع المعروضة ــ ان لم تكن من افضل الخامات او احدث المواصفات ــ فان اسعارها منخفضة نسبيا ، ربما يقل سعرها عن سعر البضائع المعروضة فى اوروبا او فى الولايات المتحدة الأمريكية بنسبة الثلث والمحال التجارية مزدحمة ، والبنات بعضهن شعورهن طويلة ويرتدين البلوجينز والأحذية ذات الكعب العالى ، يتحولن وقد تشابكت اذرعهن وقيل لى : ان هذا ايضا يعتبر تغييرا كبيرا عما كان عليه الحال فى الماضى ــ ولايزال بعض المحال التجارية ــ بالرغم من انها اصبحت مؤممة الآن ــ تحمل اسماءها اليهودية القديمة مثل بنزايون ، شيكوريل ، شملا ، وجابى .

وعندما وصلت الى محل جروبى ، اتجهت يمينا الى شارع جانبى ، حيث المكان القديم لنادى (التيرف) الانجليزى القديم (وكان قد تم احراقه خلال المظاهرات المناهضة للانجليز فى عام ١٩٥٠) ، ووصلت عند احد التقاطعات المزدحمة . وفى هذا المكان شاهدت مكتبات الزوايا الثلاث . وكانت معظم الكتب مكتوبة باللغة العربية، ولكن كان هناك ايضا عددا من النصوص الفنية باللغتين الانجليزية والفرنسية . وكانت الجماهير تسرع الخطى فى هذه المنطقة . وعندما عرجت الى شارع عدلى ، وجدت الهدوء يسوده فى هذه الساعة من النهار . وعلى اليمين ، وفى احد ادوار مبنى مكتب قديم ، كانت الانوار لا تزال مضاءة فى المكتب المحلى الخاص بمنظمة التحرير الفلسطينية . وفى مواجهة هذا المكتب مباشرة تقع الواجهة المظلمة للمعبد اليهودى المتبقى فى القاهرة المتداعى للسقوط .

وداخل هذا المعبد ــ اذ كان هذا هو موعد صلاة السبت المسائية ــ يوجد عدد قليل من الرجال المسنين وصبى صغير يجلسون فى مقاعدهم . وكان صدى اصوات ترانيم الذكور الحزينة وغير المتزامنة يملأ الحجرة الخالية . واثناء دخولى ، التفت الرجال ناحيتى التفاتة قصيرة . ولاحظت من خلال هذا الضوء الخافت ، وجه رجل مسن ذى لحية ، وقد التفت كتفاه الضيقتان بوشاح الصلاة الأبيض . وعندئذ اخذت اصوات اللحن الحزين ــ وهو خليط من النشيج والنداء ــ تسترسل من جديد .

وعندما انتهت الصلاة ، وذلك بعد فترة وجيزة ، انتحينا جانبا للحديث. وعندئذ ازاح الرجل المسن ذو اللحية وشاح الصلاة . وارتدى زيا آخرا ــ عباءة رقيقة من القطن الرمادى ، نصفها عربى ونصفها اوروبى على الطراز القديم . ويقول : انه موظف بريد متقاعد ، وهو آخر من تبقى من اسرته فى مصر . والبعض الآخر هاجر الى فرنسا واسرائيل . ويضيف قائلا انه ، فيما سبق ، كان يعيش فى مصر حوالى ١٠٠٫٠٠٠ يهودى . ربما يصل عددهم اليوم الى ٣٠٠ يهودى . ويقول آخر « اقل . اقل ثم يردف « مسنون ، وهو يشك فى ان يكون هناك اكثر من اثنين او ثلاثة من الشباب اليهودى من الذكور فى سن الزواج قد بقوا فى مصر كلها . سينتهى كل شىء فى خلال عشرة او عشرين عاما .

ويردد الرجل المسن الذى يرتدى قبعة « نعم » ، ان كل فرد رحل ، طرد مع الأجانب الآخرين اثناء الأوقات العصيبة . ورد عليه الرجل الاخر

غاضبا : لكننا لسنا اجانب . وقد كان هذا الرجل مدرسا سابقا ، غادر اخواه واولادهما مصر الى اسرائيل عن طريق فرنسا ، وذلك بعد الحرب (ولكنه لم يذكر اى حرب) وتم نهب متجرهما ثم استولت عليه الدولة ، بصفته احد ممتلكات العدو . ويضيف قائلا : « ولكننا مصريون ! ، ويردف حقا ان كثيرا من اليهود يحملون جنسيات اجنبية ، ولكنهم لا يؤذون احـدا . ولكن على العكس . من الذى شجع الاوبرا ؟ من الذى نمى التجارة ؟ ان تاريخ الجالية اليهودية يرجع الى ايام الاغريق ، وكانت قد تكونت فى ظل حماية خاصة من جانب الاسكندر الأكبر شخصيا . قال الرجل المسن هذا الـكلام ثم انتقل ليتحدث بالفرنسية . فهو يتحدث بها بطلاقة عن الانجليزية — ويضيف قائلا مركزا على كل حرف « اننا مصريون اكثر من اى عربى آخر » .

ويقول : ان الحياة كانت قاسية للغاية بالنسبة لليهود ولا سيما خلال فترة الحروب . ولكن تحسنت الأحوال فى السنوات الأخيرة . ان بيت المسنين فى الاسكندرية تم السماح له بقبول المساعدة من منظمة دولية لغوث اليهـود .

اخذ المساء يقبل . واسرعت جماعة المصلين الصغيرة بالخروج الى الشارع المضىء الذى امتلأ بالناس فجأة . وشاهدت — فى الخارج — اكشاكا تبيع عصير الفواكه للناس ، واكواما من البطيخ مكدسة فوق الأرض . وكان الرجل المسن هو آخر شخص يترك المعبد ويغلق البوابة بالمزلاج . ونادرا ما يمتلىء المعبد اليهودى الواقع فى شارع عدلى بالحد الأدنى المقرر للمصلين (وهو عشرة مصلين) وذلك باستثناء الأوقات التى يوجد فيها السـياح هنـا .

وقد كتب (ادوارد لين) فى كتابه بعنوان « سلوك وعادات المصريين المحدثين » (١٨٣٦) يقول : ان اليهود لديهم ثمانية معابد فى الحى اليهودى فى القاهرة ، وانهم لا يعيشون فقط فى ظل التسامح الدينى ولكنهم يعيشون ايضا فى مصر فى ظل حكومة اقل استبدادا من اى دولة اخرى من دول الامبراطورية التركية .

لكنه يستطرد قائلا : « ان المسلمين عامة يحتقرونهم اشد الاحتقـار ويشمئزون منهم اكثر مما يفعلون ازاء المسيحيين » بل كان يتم اثارتهم فى الشوارع او ضربهم لمجرد مرورهم عن يمين المسلم . ولم يكن اليهـود يجرؤون الا نادرا على التفوه باى كلمة بسباب عندما يقوم احقر عربى او تركى بسبهم او ضربهم بلا سبب ، اذ انه تم قتل كثيرين من اليهود بتهمـة كاذبة وخبيثة وهى التفوه بعبارات غير لائقة ضد القرآن او ضد النبى . وكتب ادوارد لين يقول : ان اليهود يعتبرون بوجه عام غير طاهرين » ان دماءهم ستدنس السيف . ولهذا السبب لا يتم قطع رقبة اليهود ولـكن يتم تعليقهم خارج نافذة احدى المبانى العامة يموتون جوعا وعطشـا فى الشمس .

ويتحدث أحدث مراقب وهو الكاتب الانجليزى هارى هويكنز فى كتابه بعنوان (مصر البوتقة ١٩٦٦) عن الترويض المشجع وان كان فى كثير من

الاحيان « ترويضا حادا » لكل من اليهود والمسلمين والمسيحيين فى مصر . ويردد الكثير من اليهود المصريين الذين يعيشون فى اسرائيل حاليا نفس هذا الكلام .

وقد نشر بعضهم فى السنوات الاخيرة مذكراتهم — التى تتسم بالحنين الى الوطن — فتحدثوا عن حياتهم فى القاهرة والأسكندرية . هذا ، وقد وجه الكاتب نجيب محفوظ اللوم الى عبد الناصر بصفة خاصة وايضا الى الثورة المتعصبة بصفة عامة ، لأنهم السبب وراء تدهور العلاقات بين المجتمعين بعد انقلاب عام ١٩٥٢ . وقد عانى الأقباط ايضا . وهم يمثلون ٨٪ من سـكان الشعب المصرى .

وجاء فى مقابلة صحفية مع نجيب محفوظ فى عام ١٩٧٥ عبارات اشـار اليها كثيرون « لقد حطمتنا الثورة وينبغى علينا ان نعقد الصلح مع اسرائيل »، وتحدث باسهاب عن التعصب ضد الأقلية القبطية فى مصر بسبب دكتاتورية عبد الناصر ويقول محفوظ : انه من الناحية التاريخية ، كانت مصر مجتمعـا متسامحا . فلم يكن هنـاك حرب استغرقت ثلاثين عاما كما كان الحـال فى اوروبا . ومع قدوم عبد الناصر بدات التفرقة ضد الأقبـاط « فالدكتاتورية لا تستطيع ان تحترم الأقليات فالاحترام يقوم على الثقة الشـخصية وليس على الموهبـة وعندما يكون الطـاغية مسـلما فبمن يثق ؟ انه يثق فقط فى المسـلمين » .

وبالنسبة للكثيرين من اليهود ، لم تكن النتيجة الفورية التى اسفرت عنها أول حرب اسرائيلية — مصرية هى مجرد التمييز والتفرقة ، بل الاعتقال ومصادرة الممتلكات ، وفى بعض الأحوال الطرد ، ثم الانتشـار المفـاجىء للدعاية المناهضة للسامية .وقد راى مؤسسو دولة اسرائيل بلادهم على انها الترياق والحل لمشكلة (مناهضة السـامية) التى عانى منهـا اليهود لقرون . ومن سخرية الأقدار غير المتوقعة ان انشاء دولة اسرائيل الفعلى — فى الوقت الذى كانت فيه معاداة السامية فى اوروبا شيئا مرفوضا وآخـذا فى الأفول — قد تسبب فى انتشار نفس المرض فى اجزاء من العالم لم تعرف هذا المرض من قبل . فقد اضطر اليهود الذين عاشوا لمدة الف سنة فى مصر والعراق واليمن وشمال افريقيا ، الى الهجرة لا لشىء الا لأنهم كانوا يهودا . وفى ظل القوميات الجديدة ، تم احياء اكثر عناصر القبلية الاسلامية سوادا وتشددا وغموضا . وتأثرت ايضا الأقليات الأخرى : الارمن والأكراد والقبارصة واليونانيون والايطاليون ، ولـكن لم يعاملوا بهذه القسوة التى عومل بها اليهـود .

وقد اصدرت « الثورة المباركة للقوات المسلحة » برئاسة عبد الناصر اوامرها الرسمية بشن الحرب ضد اليهود اعداء الاسلام ، مع اعتبار هذه الحرب واجبا مقدسا ، على كل مؤمن ، اذ ان كل من يضحى بحياته فى حربه ضدهم يكون شهيدا جزاؤه الجنة .

عشـية عيد الفصح

ان الاحسـاس الغـريب الذى يشـعر به المرء اثنـاء وجـوده فى القاهرة — فى المقام الأول — قد ازداد بسبب الشـعور الشاذ بالوجود

هنـا فى اليـوم الذى يشهد ذكرى الخـروج الجماعى لليهـود من مصر ـ وفى منزل اسرة يهودية مصرية قديمة . وسيتساءل اليهود فى جميع انحـاء العالم الليلة وهم مجتمعون يحتفلون بعيد الفصح كيف تختلف تلك الليلة عن بقية الليالى الأخرى ؟ وقد دعيت للاحتفال بها مع اسرة مستر ان . ويقع منزل هذه الأسرة المكون من خمس غرف ، فى احـدى احيـاء الطبقة المتوسطة فى القاهرة . ومستر ان ، رجـل فى اواخر الخمسينيات من عمره ، خريج جامعة الاسكندرية ، ويعمل عملا حرا وموسر الحـال ، ومتزوج من امراة رشيقة القوام رمادية الشعر ، تعلو وجهها امارات الحزن . وتقول : ان اسرتها تعيش فى مصر الى الأبد وهى اسرة تضم الحاخامات وتجار التوابل والأخشاب . وتقول : انها تستطيع أن تعزو تاريخها الى الأيام التى كان فيها ميمونيديس طبيب صلاح الدين فى بلاط القاهرة . وقد التحق مستر ان وزوجته بمدارس ـ البعثات الفرنسية مثلما فعل الكثيرون من الأطفال اليهود الأكثر غنى فى مصر . لكن ولديهما وهما فى سن المراهقة الآن ـ يذهبان الى مدارس حكومية يقول مستر ان « ان ايام الماضى » قد ولت وانتهت .

وتجتمع الأسرة حول مائدة العشاء فى الساعة الثامنة مساء . ولـكنها تشاهد اولا الحديث العائلى الذى يوجهه السـادات الى الامـة وينقله التليفزيون ـ واستغرق حديث السادات اكثر من ساعة . وكان يتحـدث تلقائيا دون مذكرات معدة وذلك من مكتبه الخاص فى فيلته التى تقع بالقرب من فندق شيراتون . وكان يتحدث فى هدوء ، وبشىء من العطف ، وقد مزج وعوده بالنصح الأبوى ـ وما قاله هـذه الليلة يشير الى انه غير قانع بأن يقوم البرلمان المصرى ـ بأعضائه المختارين ـ بالتصديق على معاهدة السلام مع اسرائيل . وانه سيطلب من الشعب المصرى ان يصـدق ـ هو الآخر عليها ـ وذلك عن طريق اجراء استفتاء شعبى ويقول : دع الرافضين من الزعماء العرب الذين استغلوا الدماء المصرية فى رفع اسـعار بترولهم الى اربعة اضعاف ـ دعهم يرون بأنفسهم ان هذه هى ارادة كل رجـل مصرى وكل امراة مصرية . ويشير السادات بحماس ـ الى هؤلاء الأقزام ، هؤلاء انحكام الصغار ، هؤلاء المنافقين ـ وبعضهم فاسدون لا يجرؤون على الظهور امام الناس فى الشوارع ! .

كلا انه لن يضع مصير الأمة المصرية فى ايديهم . وسوف يحقق السلام ويعيد الأراضى المصرية . « اننى اتحداهم ! دعنا نراهم يفعلون ما فعلته » .

وعلاوة على ذلك ، اعلن ان انتخابات البرلمان الجديد سيتم اجراؤها خلال اسبوعين . ولأول مرة منذ عـام ١٩٥٢ اعلن حرية تشـكيل احزاب جديدة ، فقد انتهى عصر الدولة ذات الحزب الواحد . اننا نعيش فجر عصر جديد من الحرية ، وهلم جرا .

ويقول مستر آن ـ الذى كان واحدا من مؤسسى الحزب الشيوعى المصرى ـ ان هذا هراء . ان الحزب موقوف نشاطه رسميا ، بالرغم من انه نجح فى ان يحقق وجودا هامشيا بوصفه تنظيما وحدويا تقدميا فى مصر . وقد قضى مستر آن فترة من الزمن فى عدة سجون مصرية وفى معسـكرات الاعتقال التى تقع فى الصحراء . ومن الطبيعى ان يكون متشككا نوعا فى

تلك الوعود التى يقدمها السادات . فمنذ ايام قليلة فقط قام رجال البوليس بمحاصرة مقر الحزب . ولكن لم يتم القبض على اى شخص ، ولكن ضبط البوليس اكواما من الكتيبات التى تهاجم « الرخاء الذى يهذى به السادات » بعد اقرار السلام . ويقول مستر آن : لقد اعتادوا على اخمادنا وقمعنـا باسم الحزب . والآن يمارسون تجاهنا عمليات القمع باسم السـلام . وكان مستر آن يتحدث عن هذا بنوع من رباطة الجاش . لقد مر بعهـود اكثر من العهود الحالية مشقة . ويقول : « انهم يتهموننا بنشر انباء مزيفة للتضليل ولاحداث بلبلة بين افراد الشعب . اننا نقول الحقيقة فقط » .

والحقيقة ان تلك الليلة كانت مختلفة عن غيرها من الليالى الاخرى ، اذ يعترف مستر آن بأنه يشعر لأول مرة منذ سنوات بالأمان نسبيا . وهو لايخشى ان يوضع فى الحجز التحفظى لعدة اسابيع او لعدة اشهر . ولمستر ان وزوجته اقارب يعيشون فى اسرائيل . نعم لقد غادروا مصر فى عـام ١٩٥٤ ، عندما تأزمت الأمور بالنسبة لليهود . نعم ان الحياة كانت صعبة للغاية بعد حرب ١٩٤٨ وفى ظل حـكم عبد الناصر . وبالرغم من ذلك فان مستر ان معجب بعبد الناصر . ويقول عنه « انه رجل عظيم » ، ومصلح اجتماعى عظيم جدا .

وفى عام ١٩٤٨ كان الشيوعيون فى مصر هم الحزب السياسى الوحيـد الذى يعارض شن حرب ضد اسرائيل (وعلى كل كان الاتحـاد السوفييتى واحدا من الذين تبنوا فكرة قيام اسرائيل) . ولهذا السبب ، تم اعتقال مستر ان وبعض زملائه . والآن ؟ ما هو راى مستر ان الآن فى السـلام الذى تم توقيعه اخـيرا ؟ .

حسنا ، وبعد اربعة حروب وخسائر فى الارواح بلغت ١٠٠٫٠٠٠ شخص من الجانبين ، يعارض مستر ان والشيوعيون فى مصر معاهدة السلام . واقول اليست هذه مأساة اذا اخذنا فى اعتبارنا السجل الماضى لليسار المصرى الذى يعتبر بمثابة الحزب السياسى الوحيد الذى عارض شن حرب على اسرائيل منـذ البداية ؟ .

يقول مستر آن ، نعم ولا . ويضيف قائلا : ربما رغما عن نفسه وبابتسامة خجـل : ولـكن « نعم ، اننا ضد المعاهدة » . انها الحقيقة ، اننى لم احبذ هذا السلام تماما . لمـاذا لانه سلام السادات . انه ليس سلاما حقيقيا . انه سلام امريكانى . فرضته هيئات متعددة القوميات . وكان يبدو على وجه زوجة مستر ان التجهم . ولم تلفظ بكلمة واحدة .

وتم تجهيز المائدة فى حجرة الطعام الفسيحة التى تلى حجرة المكتب . وكان منظر المدينة يبدو رائعا من خلال النوافذ . وكان النبيذ مصريا ـ ماركة كليوباترا اما خبز الفطير (الذى ياكله اليهود فى عيد فصحهم) فقد كان من اسرائيل ، اذ لم يعد يتم خبزه اليوم فى مصر . وهذا هو خبز الحزن الذى كان ياكله اسلافنا فى ارض مصر . وقد قرا مستر ان واولاده الأجزاء المختارة من التلمود باللغة الفرنسية . « نحن فى هذا العام عبيد ، وفى العام التالى سنكون احرارا » ، او ينبغى على المرء فى كل جيـل ان يعتبر نفسه وقد تخلص من العبودية المصرية ، ان جزءا كبيرا من روح الشعب اليهودى مضغوط ومغلف

في كتاب التلمود الصغير ، شفرة مختزلة ، اما الكتب السماوية الاخرى فتكاد تبدو حواشي له .

وعندما رحل اسرائيل من مصر

ان مستر آن كانت امامه اكثر من فرصة للخروج من مصر . ولكنه اختار البقاء ، وكان الثمن كثيرا من المتاعب والمشقة والمعاناة . هنا هذا العام وفي العام القادم في القدس . ولكن مستر ان ليس صهيونيا . لهذا السبب كان ضد اقامة دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ . وبعد ذلك اعرب عن اسفه في ان يرى اسرائيل وقد اصبحت — كما يقول — اداة للامبريالية . « لقد كنا عبيدا لفرعون في مصر » . ويؤمن مستر ان بحقوق الانسان في ظل الاشتراكية . وعندما كان شابا في الجامعة صمم على انه مصري ، بالرغم من انه في الوقت نفسه يهودي مؤمن بيهوديته . « انني فخور تماما بهذه التركة » . هل يؤمن بالله ؟ وهنا ساد الصمت قصيرا . « انني .. انني .. لا اعلم » .

وبعد الحساء تناولنا لحما مسلوقاشهيا، وقد دار الحديث بيننا باللغتين الانجليزية والفرنسية ، ولكن كانت اسرة مستر ان تتحدث مع بعضها البعض باللغة العربية . وابنة مستر ان مخطوبة لشاب مسلم .وكانت ارفف المكتبة القريبة منا مكدسة بالكتب في موضوعات يهودية محاصرة وسط اعمال لينين والكتاب الفرنسيين والماركسيين الايطاليين المعاصرين . ويتحدث مستر ان اربع لغات بطلاقة ، «صب غضبك الشديد على الوثنيين الذين لايعرفون اسمك» . وباعتباره يهوديا معتزا بنفسه كان مستر ان رجلا نشيطا خلال عشر السنوات الماضية اذ ساعد على استعادة الحقوق المدنية اليسيرة للقلة القليلة من اليهود الذين يعيشون في مصر . وهو يتذكر يوما عاد فيه اطفاله من المدرسة وقد آلمتهم الملحوظات التي اشار اليها مدرسوهم عندما قالوا ان كل اليهود اعداء الله ، وانهم اعتدوا على مصر وعلى العروبة ولذلك استحقوا الموت . الا ان الدعاية المعادية للسامية ، ايام حكم عبد الناصر قد ولت . ويقول مستر آن : انه كان يحتج عليها دائما . ويقول : ان آخر انجازاته في مجال الحقوق المدنية ، كانت استعادة جوازات سفر اليهود . منذ سنوات قليلة . كي يسافروا بها الى الخارج على قدم المساواة مع سفر المصريين الآخرين . كما اوقف ايضا عملية مصادرة الممتلكات اليهودية — وان لم يكن قد بقى الكثير منها . ان اجدادنا كانوا عبيدا لفرعون مصر ولكن الله خلصنا من تلك العبودية واصبحنا احرارا . انه ينبغي على كل فرد في كل جيل ان يعتبر نفسه وكأنه قد تخلص من العبودية المصرية » .

ويقول مستر آن : انه قد قرر البقاء في مصر . ويقول : « انني انتمي الى مصر » ، وهو ينوي ان يواصل نضاله من اجل الحصول على حقوق الانسان، حقوق العمال ، ومناهضة الاستغلال الاقتصادي . وفي خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية قضى خمس سنوات ونصفا في السجن ، معظمها بسبب نشاطاته السياسية كيساري ، ولكنه سجن على الاقل مرتين بسبب الشكوك التي حامت حوله باحتمال تعاطفه مع اسرائيل ، باعتباره يهوديا . أهو متعاطف حقا مع اسرائيل ؟ يقول بحزم : على العكس . ففي عام ١٩٥٦ اثاره العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي — الاسرائيلي على مصر ، لدرجة انه تقدم نفسه ليكون متطوعا في الجيش المصري . وكان مستعدا — حتى —

لمحاربة افراد أسرته المقربين الذين كانوا موجودين في ذاك الوقت بالفعل في اسرائيل .

غير ان طلبه رفض . ويقول مستر آن بابتسامة خبيثة، ان العذر الذي تعلل به الجيش المصري هو نفس العذر الذي يستخدمه الجيش الاسرائيلي تجاه العرب الاسرائيليين . فلم يرغبوا في ان يورطوه في أزمة ضمير . الا انه بعد ذلك مباشرة تم اعتقاله ووضعه في السجن لمدة ثلاثة اشهر . ونفس الشيء حدث له في عام ١٩٦٧ . فقد قدم نفسه ليكون متطوعا في الجيش المصري ، وتم رفض طلبه ، والقى القبض عليه وسجنه — في هذه المرة — لمدة ستة اشهر « اننا كنا عبيدا .. في مصر » ولكن الله لم يخرجنا بعد الى الحرية . ويأمل مستر آن أن تكون الحياة اسهل من الآن فصاعدا ، ولكنه ليس متأكدا من ذلك .

وبعد ذلك تم تقديم القهوة في (فناجين) دقيقة الحجم من (البورسلين) وكان مستر آن ممشوق القوام ، وسيما . وكانت عيناه المليحتان تروحان جيئة وذهابا حول المائدة ، وعندما كان يضحك — وهذا يحدث غالبا — كانت وجنتاه الشاحبتان تتوردان ، وينفجر ضاحكا بصوت عال وسرعان ما تسرى هذه الضحكة منه الى الآخرين . وهو رجل لطيف وان كان لغزا ، ففي مناسبات عديدة في الماضي كان من الممكن ان ينتقل ، الى باريس ، حيث كان من الممكن لآراء كتلك التي يعتنقها — عندما يتم اعتناقها بحماس — أن تبدو أنيقة بل حتى بمثابة مصدر وفير للدخل . ويضحك مستر آن وهو يقول هذا . وكانت زوجته تنظر اليه وهو يتحدث هكذا بينما كانت تجلس في الناحية المقابلة من المائدة ، وعيناها السوداوتان مكفهرتان . ويؤمن مستر آن بأن مكانه هو هنا . فهو مؤمن . ولايترك لحظة عابرة تمر دون أن يبحث عن الشيء المطلق وراءها . هناك شيء قديم جدا ، شيء يهودي جدا موجود فيه . وأخذت احتسي القهوة ، واحسست في نفس الوقت بالنبيذ الذي تناولته ، وكنت انظر الى مستر آن وافكر في انه بالرغم من كونه مصريا وليس يهوديا بولنديا ، تبدو شخصيته كأنها قادمة توا من احدى روايات اسحاق باشيفز سنجر التي اعشقها .

* * *

خاصة من خواص مصر :

ان من بين خواص الشعب المصري انك ، نادرا ما تسمع منه كلمة لا . وليس معنى ذلك انهم دائما ما يقولون لك « نعم » بشكل مباشر . وعندما يريدون أن يقولوا لك (لا) : توجد لديهم طريقة رقيقة غير مباشرة يلجأون اليها ، وذلك عن طريق التحريف او المماطلة .

مثال ذلك المسئولون دائمو الابتسامة ، الودودون جدا ، في المركز الصحفي الحكومي الذين يساعدونني في اعداد المقابلات داخل وخارج الحكومة . انني لا ازعجهم كثيرا ، لانني لا ابحث عن « الأسماء الكبيرة » التي يبحث عنها غيري من الصحفيين الأجانب ويريدون مقابلتها . كما انني لا اتطلع الى اجراء احاديث صحفية ، ولكنني بالاحرى — اتطلع الى لقاءات

غير رسمية لأتعرف شخصيا — على قدر ما استطيع — ببعض الاشخاص في مختلف دروب الحياة . فكلما اطلب من المركز الصحفي ان يعد لي لقاءا مع شخصية معروفة بمعارضتها لحكومة السادات لا تكون الاجابة بالنفي ابدا . ولكن لا يتم اي لقاء مع ذلك . ويقال لي : انه قد تم الاتصال بالشخص الذي اريد مقابلته . وانه ليس هناك مشكلة على الاطلاق ، وان الوقت والمكان سيتم تحديدهما فيما بعد . وبعدئذ لا اسمع شيئا . واتصل تليفونيا للاستفسار أكتشف ان الملف قد تم وضعه في غير موضعه او ان السكرتيرة قد خرجت وانها ستتصل بي فور عودتها . ولكنها لا تفعل ذلك .

فاذا كان هذا هو التقليد المتبع ، فان الاسرائيليين الأقل لباقة والذين لا يضيعون وقتهم ، سيجدون انه من الصعب التكيف على هذا الوضع بسرعة . وعلاوة على ذلك تعلم الاسرائيليون من واقع تاريخهم ان يعتبروا ان كلمة « لا » قد يكون معناها « نعم » ، والمطلوب فقط هو استخدام قدر معين من العناد والتصميم . ان كل نقاش سياسي اسرائيلي — دائما ما يكون فيه نصح وتحذير ومواعظ — وكل صراع عمالي ، وكل مفاوضات يجريها اتحاد العمال ، قد عودت الاسرائيلي الا يعتبر كلمة « لا » بمثابة رد على سؤاله . واعتقد ان هذا التباين في الأسلوب تسبب بالفعل في الكثير من سوء الفهم بين الجانبين خلال مفاوضات السلام .

ان المشكلة الفلسطينية تعتبر حالة في صميم هذا الموضوع . فقد كانت كلمة « لا » بالنسبة لمصر فيما يتعلق بضم قطاع غزة والضفة الغربية ، حازمة وقاطعة . وكان كل حديث تقريبا مع المصريين ينتهي الى مناقشة هذا الموضوع . ولم تكن هناك فرصة لتجنب الحديث عنه . وكان يثار دائما بنفس الطريقة ، اما كالتماس او كشكوى . وقد سمعت هذا الموضوع من كل فرد تقريبا ، السياسيين ، الرسميين ، المثقفين ، الصحفيين ، او رجل القهوة الذي اقابله مصادفة . ويتحدث الرائد شريف ، وهو من جهاز امن الدولة ، يتحدث ايضا عن الفلسطينيين . ربما كان هذا امرا طبيعيا ، طالما انه اذا لم يكن في مرافقة زائر اسرائيلي فانه يكون قد يقتفي اثر الارهابين الفلسطينيين الكامنين في مخابئهم في القاهرة .

ولكن حتى الشخصيات اللامعة التي اضاءت الطريق امام حركة السلام المصرية الأصلية وهم الكتاب ادريس ومحفوظ والحكيم ، كانوا يتحدثون ايضا عن هذا الموضوع . ومهما حاول المرء ، فانك لن تستطيع ان تتخلص من الحديث في هذا الموضوع ، بل ستجد نفسك تعود اليه مرة اخرى . ولكن ليس بطريقة حادة او طريقة ملحة ، لأن الادب التام وقواعد كرم الضيافة ، حتى من جانب المفكرين المتشبثين برايهم ، دائما ما تحول دون توجيه اي اهانة مباشرة . فهناك أساليب مهذبة في تأكيد الراي باصرار ، عن طريق اللف والدوران ، والاشارات والتلميحات العامة الى طبيعة واصل الصراع . وعندما تنقطع الحواشي والزخارف نجد الجميع يبدون وكأنهم يقولون : ان القضية الفلسطينية هي لب وقلب الصراع الذي فرق بيننا خلال الثلاثين عاما الماضية والذي لا يزال يفرق بيننا حتى اليوم . لقد تم توقيع معاهدة السلام مع اسرائيل ، نعم ، وانها تعتبر شيئا حسنا للغاية ايضا . ولكن بدون حل المشكلة الفلسطينية فانه لا يمكن التوصل الى سلام حقيقي .

وينبغي على الاسرائيليين ان يحاولوا استمالة الفلسطينيين الى قضية السلام . كيف ؟ بان يمنحوهم حق تقرير المصير على الضفة الغربية وفي قطاع غزة . ولكنني اتساءل : هل يريد الفلسطينيون حقا ان يعيشوا معنا في سلام .

الاجابة : سيريدون ذلك ، سيريدون ذلك ! ان الأمر متوقف عليكم ! ينبغي ان تكسبوا ثقتهم فيكم ! ينبغي ان تستثمروا موقفهم ! ان مصر لا تستطيع ان تفعل ذلك نيابة عنكم ! انها مشكلتكم ، وليست مشكلتنا !

ومما لا شك فيه انها مقترحات معقولة . وعندما اصغى الى تلك المقترحات ، كنت اسأل — في بعض الأحيان — المشتركين في الحديث قائلا : طالما ان هذه المسألة فعلا مسألة خاصة بيننا وبين الفلسطينيين فقط ، فلماذا اذن صوتت مصر ضد مشروع التقسيم الذي اقترحته الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧ والذي نص على اقامة دولة يهودية وفلسطينية داخل بلد مقسم ؟ ولماذا غزا الجيش المصري اسرائيل بهدف واضح هو منع تنفيذ هذا القرار ؟ ان اقامة دولة فلسطينية كانت ممكنة منذ سنوات عديدة . وربما كان في امكان الدولتين ان تتعلما كيف تعيشان مع بعضهما وربما كنا قد تجنبنا ثلاثين عاما من اراقة الدماء والدمار . ولماذا لم تمنح مصر حق تقرير المصير للفلسطينيين في قطاع غزة ، الذي كانت تسيطر عليه حتى عام ١٩٦٧ ؟

وعندما كنت اطرح تلك التساؤلات — وكلها ليست تافهة تماما — كنت احاول ان اكون لبقا بقدر الامكان . وليس هناك معنى في ان اعيد فتح كل الجروح القديمة . لقد اخطأنا جميعا . ان المشكلة الفلسطينية حقيقة ، وانا اعلم ذلك تماما . ولكنني احاول ان اوضح كل ما يثير حيرتي .

وتتراوح الاجابة على تلك التساؤلات بين الأسف الحذر ازاء تلك الأخطاء التي ارتكبتها الحكومات المصرية السابقة ، والبيان الصريح الذي يقول ان السياسة التي انتهجتها مصر في عام ١٩٤٨ كانت صحيحة خلقيا وسياسيا ، ولم يتضح الا مؤخرا فقط انها « غير عملية » او مليئة بالمخاطر ، بسبب ثمنها الباهظ . ويفسر البعض تدخل مصر في عام ١٩٤٨ بانه كان نتيجة للحزازات والعداوات التي كانت قائمة بين العرب وليس نتيجة العداء المتأصل ضد اقامة مقاطعة اسرائيلية صغيرة في الشرق العربي . وآخرون يكتفون بأن يقولوا ، ان الوضع قد تغير .

واحد المصريين من كبار السن يعيد الى الأذهان اسماعيل صدقي باشا ، رجل الدولة المصري الذي توسل الى الملك فاروق في عام ١٩٤٨ لتجنب الخوض في مغامرة عسكرية في فلسطين . وكانت نبرات صوته تتسم بنوع من الحنين الى الماضي . فقد كان صدقي باشا واحدا من رجال الدولة المصريين العديدين في ذلك الوقت الذين كانوا يشكون في حكمة السياسة التي ينتهجها الملك فاروق في فلسطين . ولم يكن هناك واحد من بينهم يتسم بهذا الحزم الذي كان يتمتع به صدقي باشا عندما حذر الملك فاروق من مغبة تورط مصر في نزاع لا يخصها . ولهذا السبب ، تم التنديد بصدقي بانه

عميل محرض ، وجاسوس يعمل لحساب أمريكا واليهود ، وخائن . ومات بعد ذلك بسنوات قليلة ، بعد أن اصبح رجلا عليلا محطما .

وقد وجه موسى صبرى ، رئيس تحرير الأخبار ، اللوم الى عبد الناصر لوما تعوزه الحماسة . ويقول : ان عبد الناصر قد واصل السياسة التى كان ينتهجها الملك فاروق ، تلك السياسة التى لم يبد الضباط الاحرار — فى بادىء الأمر — ميلا كبيرا الى انتهاجها . فقد اتضح فى خنادق الفالوجا خلال الحملة الفلسطينية الميتة التى خاضها الملك فاروق أن الضباط الأحرار بادروا الى « ان نفكر مرة فى مشاكلنا » . كما سجل عبد الناصر فى كتابه فلسفة الثورة، واستقروا على ان المشاكل الحقيقية موجودة فى مصر وليست فى فلسطين . اقول ان صبرى كان يوجه اللوم الى عبد الناصر لوما تعوزه الحماسة لانه كان يصر فى نفس الوقت على أن عبد الناصر لم يكن يريد حقيقة الحرب مع اسرائيل .. كلا ، ولا حتى فى عام ١٩٦٧ ويقول صبرى : ان عبد الناصر كان يناور فقط . فقد كان عبد الناصر يتوقع ان يفرض حصارا على السفن الاسرائيلية فى مضيق تيران ويطرد قوات الطوارىء الدولية التابعة للامم المتحدة ، ويدفع بقواته ودباباته فى سيناء دون أن يستفز الطرف الآخر الى حرب . ويصر صبرى على أن عبد الناصر قد تورط فى هذه الحرب عن طريق الصدفة ، ولم يكن متعمدا على الاطلاق . لقد اختلط الأمر على عبد الناصر واساء تقدير حساباته . ويبدو ان صبرى يريد أن يقول ان التاريخ هو ثمرة اشياء من هذا القبيل . وكان ينبغى ان اؤمن بأن عبد الناصر كان الكبش الاسطورى الذى كان الراعى يقوم بتسمينه ليذبحه ، ونظرا لانه كان اسمن من بقية الكباش كان يعتبر زعيما كبيرا ونابغة فى عيون القطيع، وفى عينى نفسهأيضا . وفى الوقت نفسهكانت الأحداث تأخذمجراها الطبيعى، ولم يكن لهذا الكبش تأثير كبير عليهم .

ويضيف قائلا ، وعلاوة على ذلك — الم تكوناسرائيل — وليست مصر — هى التى أطلقت طلقتها الأولى فى هذه الحرب ؟ هل أجرؤ على ان اقول لصبرى — الذى اصبحت معجبا به لدرجة كبيرة — أن هذا الجدل يبدو بالنسبة لى غير مختلف — فى وجاهته — عن الزعم القائل بأن بريطانيا وفرنسا هما المعتديتان فى الحرب العالمية الثانية لانهما هما اللتان اعلنتا أولا الحرب على المانيا ؟ وهذا ، فى واقع الأمر ، كان الجدل الزائف الذى اثاره ريبنتروب مع السفير الفرنسى .

اينبغى على ان اقول لصبرى ان عبد الناصر هو الذى اراد الحرب، وانه هو الذى قال هذا بنفسه ، ولكنه لم يكن مدركا الى اى مدى كان جيشه فى حالة غير لائقة ؟ بالطبع لن اقول لصبرى هذا الكلام . فما الداعى الى اثارة مشاعره ؟ وعلاوة على ذلك ، كنت اخشى ان يرد على موسى صبرى — وهو الرجل العليم — برواية تولستوى « الحرب والسلام » التى تؤيد نظريته الخاصة بالجنرالات والملوك الذين ارتكبوا اخطاء خلال مجرى التاريخ . ولكنه لم يفعل ذلك . وغيرالموضوع ، وقال بصوتناعم : انه يود ان يصحبنى الى احدى معارض الفنون الهامة الذى تم افتتاحه فى القاهرة مؤخرا فالفنان ، منير كنعان ، صديق له ، ورجل لطيف جدا .

فكرى مكرم عبيد— الأمين العام للحزب الوطنى الديمقراطى الذىانشاه السادات . وهو يعتنق الراى السائد القائل بان السياسة التى انتهجتها مصر ازاء المشكلة الفلسطينية كانت صحيحة ، ولكن ثبت أن ثمن تلك السياسة فاحش فى النهاية . ويقول السيد عبيد : ان الحروب كلفت مصر ٥٨ بليون دولار . ويقول — مرددا ماسبق ان قاله توفيق الحكيم — انه كان من الممكن الاستفادة من هذا المبلغ فى اعادة بناء كل قرية من قرى مصر .

ويقول « اننا نحب الفلسطينيين ، ولكن ما الذى يفعلونه حقيقة لأنفسهم؟ وما هو الشىء الذى يعتبر العرب الآخرون على استعداد لأن يقدموه من اجلهم ؟ ففى مقابل ١٦٠ر٠٠٠ فلسطينى ماتوا فى تلك الحروب ، هناك ١٠٠ر٠٠٠ فلسطينى قتلهم العرب ، فى الاردن او لبنان .

لقد اثر تحرر السادات من وهم القومية العربية على موقف السيد عبيد ايما تأثير . فعندما يشجب هو ، او الرئيس السادات ، علانية الفساد المتفشى بين بعض زعماء منظمة تحرير فلسطين ، يدعم هذا ، على الفور، من تعلل الكثير من الاسرائيليين بالأمانى . وقد اخذت افكر فى هذا الأمر مليا وتساءلت هل نفهم ، على النحو المناسب ، التعقيدات التى يعزفها اوركسترا السياسة المصرية . ربما كان السادات يهاجم بعنف الفساد والجشع السائدين بين الزعامات السورية والعراقية والفلسطينية الحالية ، ربما يحدوه امل ساذج فى ان يحل محلها زعامات اخرى . ولكن هذا لا يعنى — كما يود الكثير من الاسرائيليين ان يعتقدوا — انه لا يهتم البتة بالفلسطينيين وانه اذا تمسكنا طويلا بالأراضى المحتلة ، فان كلمة السادات وهى « لا » بالنسبة لعملية الضم ستصبح نعم رغما عنه » . وانى اخشى ان يكون هذا رايا خاطئا — فكلمة « لا » المصرية ستستمر يكتنفها الهدوء طالما ان اسرائيل لاتزال مستمرة فى عملية اعادة اراضى سيناء لمصر . ولكن بمجرد ان ينتهى الانسحاب ، ما الذى سيمنع السادات من الغاء المعاهدة بسبب رفض اسرائيل الاذعان لمسألة الحكم الذاتى الفلسطينى ؟ او ، على الأقل ، ما الذى سيمنعه من تأجيل عملية تطبيع العلاقات ؟

وعندما صرح نجيب محفوظ علانية بأنه على استعداد لأن يضحى بالأرض من أجل الحضارة ، هاجمته الصحف العربية بعنف وقالت (ان محفوظ يبيع الفلسطينيين) . ولكنه أوضحفىنفس هذا التصريح انه يقصد فقط«بالتضحية» تلك الأجزاء الخاصة بفلسطين العربية كما اطلق عليها ، والخاصة باسرائيل اصلا ، وليست الأجزاء التى تم احتلالها خلال حرب عام ١٩٦٧ .ويؤيد محفوظ الحل الوسط ، ولا يؤيد الاستسلام بشروط .

***

الدكتورايه :

التقيت مصادفة بالدكتور ايه . وهو احد الفلسطينيين المناضلين من الأراضى المحتلة . فقد رأيته فجأة بعد ظهر احد الأيام وسط زحام ميدان التحرير . وكنت أعرف الدكتور ايه . منذ سنوات . واستطيع ان أوصفه بأنه رجل معتدل . واقصد من كلمة « معتدل » انه يرضى « بشكل ما » من الحكم الذاتى الفلسطينى فى الأراضى ، وهو الأمر الذى لن يكون « ادعاء » كما يقول « ولن يكون بتسوانا لاند اخرى » . وهو يتنقل ذهابا وعودة —

بين الدول العربية واسرائيل بصفة منتظمة . وهو على علاقة طيبة مع الشخصيات السياسية الهامة فى اسرائيل ، وايضا فى القاهرة وعمان وبيروت .

وكان الدكتور ايه . مندهشا حين رآنى فىالقاهرة بنفس قدر اندهاشى عند التقائى به صدفة فى وسط هذا الزحام . وهو رجل ضئيل الحجم ، متكور البدن لكنه قوى البنية ، ويشبه الى حد ما نابليون فى بعض اوضاعه الاكثر جاذبية . والدكتور ايه .رجل ذو ثروة كبيرة مستقلة ، وخريج احدى جامعات اوروبا الشهيرة — ولا يمارس مهنته . فهو مولع باشياء كثيرة الى جانب السياسة مثل : الفن ، والبساتين ، وعلم الآثار . وهذا الشيء يجعل من السهل عليه ان يكون صداقات حتى عندما لا يريد اى طرف اجراء اى حوار سياسي لكن الحوار مع الكثير من المناضلين الفلسطينيين الآخرين فى الضفة الغربية يتحول بالضرورة الى الموضوع المشترك:السياسة ولا شيء غير السياسة ، والتوتر ، وحروب الاستنزاف الشفهية المثبطة للعزيمة بين الآراء المتضاربة التى تبدو انها لا تسمح بالتوصل الى حل وسط معقول. اما مع الدكتور ايه . فاننى استطيع ايضا ان اختلف او اتفق معه حول فن العمارة . ويكون بيننا اهتمام مشترك فى هذا الموضوع . وهذا يساعد على ان نتقارب من بعضنا كآدميين .

وتعانقنا وانتحينا جانبا فى قهوة قريبة . وكان يبدو عليه الاحباط والاكتئاب ، ويريد التحدث .واعتقد اننى كنت افهم سبب اكتئابه . فقد كان وطنيا فلسطينيا معتدلا (وليس هناك الكثيرون من أمثاله) ، ومن ثم كان واحدا من الزعماء الفلسطينيين القلائل الذين دعوا الى الاعتراف باسرائيل ورحبوا برحلة السادات الى القدس لاقرار السلام . وهو يشعر باحباط نتيجة الرفض المتعنت من جانب الفلسطينيين الآخرين للانضمام الى الجهود التى يبذلها السادات ، وفى نفس الوقت ، يشعر بالاحباط نتيجة لما يخشاه من ان يحجم السادات عن مساندة الفلسطينيين غير المعارضين مساندة قوية . وكل احباط يقوى من الاحباط الآخر .

وهو مع ذلك سعيد لوجوده فى بلد عربى ، بعيدا عن الاحتلال الذى يشتكى منه فقد اصبح « اكثر وحشية » مع مرور الوقت وهو ينزعج فى الوقت نفسه بسبب ما سمعه هنا . فقد عقد سلسلة لقاءات مع الوزراء فى الحكومة المصرية . ويقول : انهم حاولوا ان يطمئنوه ولكنه لم يطمئن . وقد ازعجه فى الحقيقة — تعجل المصريين فى ابرام معاهدة السلام هذه دون ان يضمنوا اولا الحصول على التزام اسرائيلى محدد اكثر فيما يتعلق بمسألة استقلال الفلسطينيين . واخبرنى عن لقاء تم بينه وبين احد كبار وزراء الرئيس السادات . « سألته ، لماذا لم تكتبوا فى المعاهدة الخطوط الواضحة الخاصة بالحكم الذاتى الفلسطينى ؟ بنفس الطريقة التى تمسكتم فيها بضرورة وجود جدول زمنى محدد للانسحاب الاسرائيلى من سيناء . والآن قد سبق السيف العذل .

ويقول الدكتور ايه . ان الوزير وضع يده على صدره وقال « اننى اقسم لك ، وصدقنى فى هذا ، ان القضية الفلسطينية لا تزال قريبة للغاية من قلبى . واعدك اننا لن نتخلى عن مصالحكم » .

ويقول الدكتور ايه . ان الدموع كانت فى عينيه . وكانت الايماءةمؤثرة، ولكن لم يقتنع بها الدكتور ايه . وهناك مسئول آخر كبير فى وزارة الخارجية اتفق معى فى كل ماقلته . فقد قال لى : تأكد من ابلاغ الذين هم فوق بهذا، وكان يقصد السادات شخصيا . ولكن الدكتور ايه . لم يعد يثق فى السادات .

وقلت لوزير السادات ، لقد وقعتم على تلك المعاهدة دون ان تفكروا فينا . فلا تندهش من ان الفلسطينيين يرفضون الآن ان ينضموا الى المفاوضات كما كنتم تأملون . لقد وقعتم معاهدة السلام اذن اعطونا الآن شيئا ملموسا .

وهو لا يعتقد على الاطلاق انهم سيقدمون شيئا ملموسا . ويخشى ان يؤدى الى انهيار الصرح الكامل للسلام . ويقول : انه لن تتاح لنا فى حياتنا مثل هذه الفرصة . فحولنا مجانين كثيرون وسيطير عائدا الى بلاده خلال ايام قليلة ، وذلك عن طريق اثينا . وفى الضفة الغربية يرفض الكثيرون ان يتحدثوا معه لانه يريد السلام مع اسرائيل ويؤيد اساسا الجهود التى يبذلها السادات فى هذا المضمار . هل سيلغى كل هذا الآن ؟

ويقول « اننى اشعر بالسأم » . وهو قلق ايضا لأن واحدا من ابناء اخوته قد تم القبض عليه مؤخرا بتهمة انه عميل مشكوك فيه لمنظمة التحرير الفلسطينية وهناك احتمال ان يطرده الاسرائيليون .

والدكتور ايه . رجل وحيد تماما . فهو يقف فى الوسط — فوق جسر — ويقول جان ماساريك — وهو يتحدث عن الدور الذى لعبته تشيكوسلوفاكيا بين الشرق والغرب عشية الحرب الباردة ، ان مشكلة ان تكون جسرا هى ان كل فرد سوف يدوس عليك . واثناء مغادرتنا للقهوة ، شاهدنا امراة مجنونة فى ميدان التحرير تصرخ فى وجه السماء .

ويقول الدكتور ايه . انه قابل من بين المصريين العاديين الكثيرين الذين يكنون العداء بل حتى الكراهية للفلسطينيين . وقد اخبره البعض « انكم السبب فى كل هذا الشقاء الذى نعيش فيه . بسببكم هناك عجز فى الاسكان فى مصر » ويقول الدكتور ايه . ان الفلسطينيين يعتبرون فى مصر بمثابة متطفلين ، و « جعجاعين) وعالة يجب استئصالهم . ويقال . ان الفلسطينيين يغشون فى الضرائب . ويقال : ان عدد الفسطينيين الملتحقين بالجامعات المصرية « مرتفع بطريقة غير متناسبة » فى الوقت الذى لاتوجد فيه مدرجات كافية واماكن فى المدينة الجامعية للطلبة المصريين . ويقال ايضا انهم اصبحوا امة من المليونيرات الذين اثروا على حساب مصر . وكل هذا يشبه الى حد ما الاتهامات الموجهة فى الغرب عند مطلع القرن ، ضد اليهود البولنديين . وقد اطلعنى الدكتور ايه . على نسخة من صحيفة « السياسى » التى صدرت هذا الأسبوع — وهى مجلة سياسية شعبية — اذ نشرت مقالا فى الصفحة الاولى تحت عنوان « الحقيقة وراء المليونيرات الفلسطينيين » حيث نشرت قائمة بأسماء وعناوين الفلسطينيين الأغنياء الذين يعيشون فى مصر والحقتها بتقديرات لثرواتهم . ومن الواضح ان جهة حكومية قامت بتسريب هذه المعلومات .

ان الفلسطينيين يمتلكون اكبر المحال التجارية والاعمال التجارية فى اكثر احياء القاهرة ثراء . محلات نانى الكبرى » ٤٢ شارع طلعت حرب .. المالك: محمد حسين الشرفا . راس مال قيمته ٥ر١ مليون جنيه » وهكذا .

واستطردت « السياسى » تقول : انه فى الوقت الذى تعانى فيه مصر من عجز خطير فى الاسكان ، يسكن الفلسطينيون (وفى ذلك عدد من زعماء منظمة التحرير الفلسطينية) فى ١١٩٨٥ شقة مفروشة فاخرة بايجار يتراوح ما بين ١٥٠ الى ١٥٠٠ جنيه شهريا . من اين لهم تلك الاموال ؟ وتتذمر السياسى من ان اكثر من ١٢٠٠٠ طالب فلسطينى مدرجون فى الجامعات المصرية . والكثير منهم يختارون كليات الطب ، والصيدلة والهندسة ، وعندما ينتهون من دراستهم — يفضلون — اى تلك الزمرة العاقة — العمل فى مكان آخر ، خارج مصر .

ويقول الدكتور ايه . اننا اليهود الجدد ، الا تعتقد ذلك ؟ واخذت حركة المرور فى ميدان التحرير تهدر من حولنا . وبدات المناقشة تدور حول نفسها وتصيب المرء بدوار .

وكما وعدنى موسى صبرى صحبنى لمشاهدة معرض منير كنعان للوحات الزيتية وصبرى معجب به للغاية . وكنت اعتقد ان السبب الذى دعا صبرى يصحبنى لمشاهدة معرض كنعان هو انه اراد ان يعطينى اجازة من السياسة . ومع ذلك لم يتحدث عن شىء آخر سوى السياسة . وقال لى : انه اصيب بخيبة امل فى بيجين رئيس وزراء اسرائيل كرجل . فعندما سأل بيجين ما الذى تنوى اسرائيل ان تقدمه مقابل اعتراف السادات باسرائيل ، رد بيجين بتعطف قائلا : صديقى العزيز ، اننا لم نطلب منكم ان تعترفوا بنا » .

ومعرض منير كنعان فى قصر صغير يقع على النيل . وتوجهنا اليه فى سيارة صبرى المرسيدس الليموزين . وفى المقعد الخلفى من السيارة يوجد تليفون لاسلكى . وكان حارس صبرى الخاص يجلس فى المقعد الامامى بجوار السائق . ودخلنا القصر واجتزنا حديقة فسيحة . وكان كنعان ينتظرنا عند الباب . وهو رجل ضخم الجسم . ويقول كنعان : ان هذا المعرض يصور اعماله خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية وانه سوف يؤجر صالة عرض قريبا فى باريس .

ولوحاته عبارة عن تجميعات جزئية على (الخيش والغاب) بالوان ارضية قوية ، وايضا لوحات تجريدية رقيقة ابيض فى ابيض واحمر وردى فاتح . اما الاسلوب وطريقة الاخراج فهى نفس الشىء الذى يراه المرء فى كل مكان فى الغرب ، ولكن كنعان يصرخ ويقول « ولكننى قمت بهذا العمل قبل روشنبرج بعدة سنوات » . اما الاحساس بالافول فى الالوان والنسيج فهو من صنعه هو . وقد اشار الى لوحة تعشيقات مربعة من الخشب المجروف ومن الرمال ، وهى عبارة عن فواصل رقيقة تكاد اجزاؤها ان تكون غير متماسكة ويقول « انها تشبه مصر . اسحب فقط (دبوسا) يتهشم الرسم كله » .

ويسود احساس بالانهاك فى كل مكان . ويقول لورانس داريل (الذى استبد به تأثير الجغرافيا على شخصية الانسان) : ان هذا الاحساس بالانهاك وبالطقس هو الذى يجعل الناس يريدون الهرب من مصر — الشعور بالاختناق والانهاك ينشأ عن وجود المرء على مقربة من الصحراء فى ارض مسطحة لا تكاد تلمح فيها تلا على مسافة اميال . وهذه الحافة غير القابلة للتلوين ينتج عنها مثل هذا الفن المفعم بالحيوية ، الملىء بالمشاعر والالوان المصقولة ، ولا يزال ينتج عنه تلك اللوحات الجميلة التى صورها الفنان منير كنعان .

مثل هذه الاعمال تبرر وجودها بنفسها ، انها مطلقة ، لا جدال فيها وهى على عكس النظريات — لاتجادل وكان داريل يكره مصر . ففى رباعية الاسكندرية هاجم مدينة خيالية يسود فيها عصيان المحارم ، وهى مكان وهمى ليس له وجود . وشعر داريل بما شعر به اوفيد المنفى فى رومانيا . ولكن عندما يقول داريل : انه حتى صغار الموظفين المصريين (بالنسبة لداريل فقد كانت مصر بلدا غنيا) قد اعتادوا ان يسافروا الى باريس مرة فى السنة .. لتغيير نظام حياتهم ، كنت اتساءل : كم عدد الموظفين الكبار غير الاوروبيين الذين كانوا موجودين ايامه .

ويقول كنعان : انه لا يستطيع العمل فى اى مكان آخر غير مصر ، بالرغم من ان حياة الفنان فى مصر صعبة للغاية . وليس هناك الا القليلون الذين لديهم اهتمامات بالرسم الحديث . وقلة قليلة هى التى تفكر فى شراء تلك اللوحات . ويتكسب كنعان عيشه من العمل كرسام خاص لجريدة الاخبار التى يراسها صبرى . وتحدثنا عن روشنبرج وكلى وداريل . ويقول كنعان ان الالوان تشبه الموسيقى ، فهو يستطيع سماعها بأذنيه . واستطعت ان اقضى ليلة بأكملها مشغولا بشىء آخر غير السياسة .

ما الذى ينبغى ان يواجهه المصريون الحساسون — من امثال يوسف حتام — فى الازمنة الجديدة القادمة : حصل حتام على طبعة حديثة من الجريدة الاسرائيلية الصادرة باللغة الانجليزية وهى (جيروزاليم بوست) وهى تتضمن تقريرا مفصلا كتبه ثلاثة من المراسلين الصحفيين الذين رافقوا بيجين رئيس الوزراء فى زيارته الى القاهرة . وركزوا فى تقريرهم على الفساد والقذارة والتليفونات المعطلة . ولم يتناولوا اى جانب آخر من جوانب الحياة فى القاهرة ولو بكلمة . وبدلا من ذلك كان هناك موقفا فيه استعلاء .

ان القاهرة فى حد ذاتها تصرخ مطالبة بتيدى كليك (عمدة القدس) ليقوم بعملية تشذيب ، يروى الحدائق — وهى قليلة — ويضع صفائح القمامة ويعلم الناس كيف يستخدمونها .. وكنت افكر فقط فيما يستطيع ان يفعله افراهام يوفى (رئيس الحدائق الوطنية الاسرائيلية) اذا ما عهد اليه بتزيين المنطقة الواقعة حول الاهرامات وابى الهول الحزين . فان فى استطاعته ان يحول المنطقة كثيرة الجفاف والعواصف الترابية والتى تستخدم كمقلب للنفاية — الى حديقة تسر الناظرين .

وقد تضايق حتام ــ بطبيعة الحال ــ واتهم « البوست » بالتعالى ، بالغطرسة بالطبع . وقد ضاق ذرعا بالاعتراضات التى قدمتها له . لا يهم اذا كان هناك فعلا مقلب نفاية بجوار الهرم الاكبر . وهو الشيء الذى لاينكره حتام : ولكنه مستاء من نغمة المقال فى حد ذاتها ، وفى هذه النقطة لااستطيع ان أتحداه . وجلسنا فى شرفتى على ضوء المساء نتجاذب اطراف الحديث .

ويحكى لى حتام : انه عندما كان صبيا تحرش الجنود الانجليز بوالده ــ الذى كان يعمل مفتش جمارك ــ وذلك فى منطقة القناة . وتركوا والد حتام راقدا فى حفرة ومضوا فى طريقهم وهم يتغنون « ياملك فاروق ، ياملك فاروق علق ثيرانك بكلابة » .

ويقول حتام : انه بعد هذا الحادث لم يعد والده على ما كان عليه من قبل على الاطلاق . اكل تلك الظلال العصبية قد القى بها الماضى على شعوب الدولتين ، مصر واسرائيل ! (ويقول تحسين بشير : ان الشعبين « عليلان » ، والآن ايمكنك تحقيق سلام بين مثل هذين الشعبين ؟) ففى اسرائيل نجــد ان ظلال الاضطهاد تخيم على غالبية الحوار الذى يدور حول اى موضوع عام ، وينفجر العداء ، نتيجة للعيش فترة طويلة كشخص منبوذ من المجتمع فى (حلة) ضغط مغلقة . وفى مصر ، نجد الظلال قد القاها الاستعباد والقمع والذل الذى عانى منه المصريون على ايدى المماليك والاتراك والحــكومات الاستعمارية البريطانية .

ويحكى انور السادات فى مذكراته ، قصة قرية دنشواى التى يقول عنها انها اصابته بصدمة نفسية عندما كان شابا . فقد كانت دنشواى قرية صغيرة تقع فى دلتا النيل ، وتبعد عن قرية السادات ميت ابو الكوم ببضعة اميال . وكان سكان القرية يربون الحمام فى ابــراج من الطوب المطلى باللون الأبيض . وفى عام ١٩٠٦ جاء فريق من الضباط الانجليز الى القرية ليصطادوا الحمام . وبعد معركة اختلط فيها الحابل بالنابل ، تم ضرب احد الفلاحين ضربا مبرحا حتى الموت ، واصيب اربعة آخرون بأعيرة نارية ، وتم ضرب (الكابتن بول) ضربا مبرحا هو الآخر واخيرا مات بسبب اصابته بارتجاج وضربة شمس . وبالرغم من انه كان من الواضــح ان هؤلاء « الرياضيين » لم يكن لديهم اى حق فى القدوم الى هذه المنطقة وفى ضرب حمام الفلاحين ، اعتبر الانجليز هذا الحادث بمثابة مثال على التعصب الوطنى والدينى الخطير . وكانت العقوبة ــ وكان المقصود منها ان تكون عبرة تحمل طابع القرون الوسطى . فقد اصدرت محكمة خاصة حكم الاعدام فى اربعة من الفلاحين وحكما بالسجن مدى الحيــاة على اثنين آخــرين ، وبالسجن سبع سنوات على ستة آخرين ، وبالجلد خمسون جلدة على تسعة آخرين . ويقول السادات فى مذكراته : انه تم نصب مشنقة فى ميدان القرية حتى قبل أن يتم اصدار الاحكام . وتم تنفيذ احكام الاعدام والجلد على الملا . على مرأى ومسمع من سكان قرية دنشواى .

ويبدو أن هذا الحادث قد انشأ جيلا من الثوريين المصريين . وقد كتب برنارد شو عن هذا الحادث فى « جزيرة جون بول الأخرى » يقول : حاولوا أن تتصوروا مشاعر قرية انجليزية عندما يظهر مجموعة من الضباط الصينيين

نجاة ويبداون فى اصطياد البط والأوز والدجاج والديك الرومى ويحملونهم مؤكدين انها طيور وحشية ، كما يعلم كل فرد فى الصين ، اما سخط الفلاحين المزعوم فسيعتبر ذريعة يتذرعون بها بسبب كراهيتهم للصينيين ، وربما من اجل تدبير مؤامرة الاطاحة بدين كونفوشيوس الفيلسوف الصينى واقامة كنيسة انجلترا بدلا منه .

ويحكى حتام : ان جد الدكتور بطرس غالى كان رئيس المحكمة التى اقيمت فى دنشواى . ولا يتذكر حتام هل كان اغتيال جد الدكتور بطرس غالى فى عام ١٩١٠ لهذا السبب ونظرا لأنه كان متواطئا مع الانجليز ــ ولأنه مسيحى ، لم يكن الجد ــ بطرس غالى باشا ــ شخصا يتمتع بشعبية .

وكما ان للقدس صحيفة يومية ، توجد للقاهرة صحيفة يومية ناطقة باللغة الانجليزية واسمها « الايجبشيان جازيت » . وقد نالت نظرية آرثر كوستلر المتطرفة التى تقول : ان اليهود ليسوا فى الحقيقة يهــودا ولــكنهم كازاريون ــ نالت شعبية بين المحررين . فقد هاجم المقال الافتتاحى الذى نشرته الجازيت ــ والذى تناول مطالب اسرائيل التى طال امدها والخاصة باحداث تغيير اقليمى (حد آمن) ، هاجم المقال بيجين وطاقمه المتشددين من مغتصبى الأرض . انه من المحال بالنسبة لدولة يرجع تاريخها الى ٧٠٠٠ عام أن تبحث وتناقش تغييرات اقليمية مع مجموعة من اليهود الكازاريين الذين لا تختلف مطالبتهم بالأرض العربية ، عن مطالبة الاسكيمو بتانزانيــا مثلا وببذل بعض المجهود ربما يستطيع مستر بيجين ان يرى ان اسلافه وخاصة هؤلاء اليهود من اوروبا الشرقية ــ ليسوا هم اليهود القدامى ولكنهم يهود كازاريــا ، حيث تم اقامة مملكة فى الفترة ما بين القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر محصورة بين بيزنطة المسيحية وبين الخلافة العربية . وعندما سحقت المملكة بواسطة المغول هرب الكازاريون الذين تحولوا عن عبادة رمز الذكورة الى الديانة اليهودية ، هربوا الى ما هو معروف الآن باوروبا الشرقية . ووفقا لجريدة الايجبشيان جازيت ينبغى التفرقة بين اليهود الحقيقيين واتباع بيجين من عبدة رمز الذكورة .

* * *

الفصل السابع

يطلق على البرلمان المصرى اسم (مجلس الشعب) ويعيد ذلك الاسم الذى اطلق عليه ابان عهد ناصر ، يعيد الى الأذهان صلة مصر فى الماضى بـ « الديمقراطيات الشعبية » السائدة فى اوروبا الشرقية ..

وعلى غرار البرلمانات الأوربية الشرقية لا يزال مجلس الشعب «يبصم» الى حد كبير على القرارات التنفيذية .. وتدقق الحكومة فى اختيار (لا انتخاب) اعضائه البالغ عددهم ثلاثمائة عضو ويعد المجلس مكانا ملائما لمراقبة حكام الدولة ، واجراءات الأمن اقل صرامة من تلك التى تتبع فى الكنيست حيث يتم تفتيش الزائرين تفتيشا ذاتيا وباشعة اكس بحثا عن الأسلحة ، ويسمح لهم بمتابعة الجلسات من خلال مكبرات صوت فحسب ومن وراء لوحة من الزجاج المدرع . وذلك اجراء احتياطى تم اتخاذه على الرغم من احتجاج الشعب وقبل تصاعد الارهاب الفلسطينى بفترة طويلة .

وتنعقد جلسة مجلس الشعب تحت قبة مطلية باللون الأصفر الفاتح والذهبى داخل قاعة دائرية ذات ابعاد تشبع الفة وقد تم بناؤها على غرار الطراز الكلاسيكى الفرنسى الجديد الذى كان سائدا فى نهاية القرن .

وقد شهدت تلك القاعة مولد وزوال الحياة البرلمانية على (الطراز) الغربى فى مصر ، بما صاحبها من اعمال عنف واغتيالات .. ويجلس النواب جنبا الى جنب على مقاعد منجدة خضراء اللون ويرتدى غالبيتهم ازياء عمل غامقة اللون ، وقلة منهم ترتدى (الجلابيب) الطويلة .

وكان السادات قد انتهى لتوه من خطاب دام ثلاث ساعات حث فيه المجلس على التصديق على اتفاقية السلام .. اذ قال « باسم الله ، وباسم مصر أمى ، وباسم مصر ابى ، ايمانى — وباسم ذلك التراب المقدس ولكل طفل ، كل ام ، كل اب ، ان السلام شئ عظيم ، وهو امر طيب بالنسبة لمستقبل المدنية والحضارة .

وينقل التليفزيون الجلسة على الهواء ويقف الجميع يصفقون للسادات طويلا « فليباركك الله لكل اعمالك الطيبة » هكذا يصيح احد النواب يرتدى رداء طويلا ، ان السلام هو احد اسماء الله .

وينصرف السادات الى غرفة جانبية ويتوجه النواب ببطء الى حجرة الانتظار حيث يقفون فى مجموعات .. ويوضح الدكتور بطرس غالى ، الذى

يحمل ملفا من الأوراق ويبدو استاذا فى طلعته ، يوضح نقطة دقيقة لحسنى مبارك نائب الرئيس ويقول مصطفى خليل ، رئيس الوزراء وهو طويل القامة ذو وجه مربع ومهندس سابق ، انه فى الحقيقة لم يقاطع زيارة بيجين للقاهرة ، وانما كان معتل الصحة . ويشعر بالثقة فى ان المعاهدة ستنجح ويقول « ولكنه يتعين على اسرائيل ان تكون اكثر مرونة حيال المسألة الفلسطينية واكثر تعقلا اذ انك اذا سحبت التوراة كل يوم للمطالبة بحقك فى مدينة على تل ما ، فان العرب سوف يسحبون القرآن فالى اى طريق يقودنا هذا ؟ انها مشكلة سياسية وليست دينية » .

وعلى عكس بطرس غالى والمسئولين فى وزارة الخارجية لا تهيمن على رئيس الوزراء المخاوف والشكوك .

اما عثمان احمد عثمان : وهو مقاول مبان كبير ووزير سابق للاسكان فيعد نصيرا رئيسيا للنظرية التى تنتشر على نطاق واسع فى دوائر العمل المصرية ومفادها ان عقود البناء أكثر ربحا من المدافع ..

ومما تجدر الاشارة اليه ان نجله متزوج من كريمة السادات ، ويقف عثمان يتصافح مع كل من حوله وكأنه قد عقد لتوه صفقة تجارية ناجحة .

ويقول عثمان احمد عثمان : انه يرحب بالقيام باعمال فى اسرائيل ولكن ليس فى القريب العاجل ، اذ ان مصالحه فى الكويت وليبيا كبيرة للغاية .

ومن ثم سيخاطر ويواجه صعوبات اذا ما تحرك على وجه السرعة وفى الحال . .وهو يشترك بالفعل وعلى نحو غير مباشر فى عملية ترميم المسجد الأقصى بالقدس .. ويقول « اذا كان لدى بيجين اى وعى فانه سوف يمنح الفلسطينيين الحكم الذاتى الكامل اذ انه لن يخاطر بشىء .. ان المنظمات الفلسطينية سوف تمضى فى مقاتلة بعضها ولن تقبل عرضه قط .. حتى وأن انقضى الف عام » .

ويؤكد الدكتور صوفى ابو طالب ، رئيس مجلس الشعب ، على المشكلة الفلسطينية ايضا ويقول : انها لب وصلب المسألة ، وهكذا يردد ما اعلنه السادات لتوه امام المجلس ومع ذلك صار جليا ان صبره قد نفد من اولئك الذين يعينون انفسهم مسئولين عن القضية الفلسطينية . انهم ينزلون الأذى بذلك الشعب الذىيعملون علىانقاذه ، انهم الارهابيون الضالون واساتذتهم الأكثر خطورة ، والمثقفون الأبطال الصوريون الذين هم على استعداد للقتال حتى النهاية المريرة من مكاتبهم الفخمة واجنحتهم فى الفنادق ، والحاقدون والموجهون لمختلف الجماعات الصغيرة لمنظمة التحرير الفلسطينية يتوقون الى الحفاظ على منظماتهم وارصدتهم فى البنك اكثر من الحفاظ على قضية الشعب الفلسطينى ..

ويعتقد صوفى ابو طالب : ان سكان الأراضى المحتلة هم الذين ينبغى لهم تولى تلك القضية اذ انه يتعين ان يحددوا مصيرهم بايديهم . ماهو السبيل الى ذلك ؟ من خلال العمل مع مصر ، واسرائيل ، والولايات المتحدة ،

لتنفيذ المعاهدة . ان بث قنبلة هنا أو قنبلة هناك لن يحرر اراضيهم وما الذى يحدث اذا لم يتعاونوا ، يقول أبو طالب « انهم سوف يتعاونون ، أؤكد لك انهم سوف يتعاونون » . واذا لم يتعاونوا ؟ « فى تلك الحالة فليذهبوا الى الجحيم » .

وفى احد الأركان يقف بعيدا بمفرده شخص لايشجع على اجراء حوار ذلك هو محمد حسن التهامى ، وهو شخص عابس الوجه ، ملتح ، تبدو عليه مسحة من شر والتهامى مستشار ومبعوث السادات للعديد من المهام السرية . فقد اجتمع التهامى سرا مع ديان فى المغرب كى تبدا عملية محاولة ايجاد اتفاق حتى قبل ان يطير السادات الى القدس . وهو يحبذ ان يظل خلف الكواليس لا ، انه آسف للغاية ، انه لن يتحدث ، ان ذلك ضد مبادئه واسلوبه فى العمل ، وهو يخجل ايضا من مواجهة عدسات المصورين .

ويقال ان صوفى متدين .. وفى صباح احد الأيام اثناء مفاوضات كامب دافيد ، صرح لأحد الدبلوماسيين الاسرائيليين بأنه شاهد حلما غريبا اثناء الليل اذ راى السادات فى حلمه يواجه خطرا مهلكا وان التهامى علم بذلك الخطر وحلق فى الهواء مسرعا لانقاذه ووصل حيث كان السادات وانقذ حياته وفى مناسبة اخرى تردد انه قال لرفقائه ان النبى محمد تجلى له فى حلمه وقال له : انه من الصواب اقرار السلام مع اليهود .

وفى غضون تلك الفترة كان السادات قد غادر المبنى ، ويرجع سبب مكوث النواب فى غرفة الانتظار الى ان احدا لايغادر مبنى المجلس قبل السادات وفى الخارج ارتفع صوت الأبواق ووقف حرس شرف عسكرى لتأدية التحية للرئيس وتحركت سيارته عبر الشارع الضيق وكانت الطرق الأخرى قد تم اغلاقها وخلت من المرور .

واصطف حرس خاص على طول الكوبرى الذى يعبر النيل وبالقرب توقفت حركة المرور فى ميدان التحرير الشاسع وصنعت فى وقوفها كتلة داكنة وفى ممر جانبى وقف عازف كمان ضرير مستندا الى الحائط وكأنه لوحة بريشة (هوجارث) غير واع بما يحدث حوله ، ومرر القوس القصير المستدير على الأوتار الثلاثة لآلته التى تشبه ثمرة القرع ، وابتلعت الضوضاء صوت (الكمان) المرتعش غير ان صندوقه الصغير امتلأ بالنقود .

وتجولت فى منطقة الاهرامات لفترة طويلة ساعة الغسق .. وسلكت الطريق الخلفى من ابى الهول صاعدا المنحدر المؤدى الى هرم خوفو . وكما يقول الرسام منير كنعان ، يعد ذلك الطريق اكثر اثارة ، كما لو كان الطريق الآخر يفتقر الى (الدراما) المروعة والمثيرة . وتحت الضوء البنفسجى كانت تفوح فى الجو الخفيف رائحة (الروث) والاحجار الساخنة وتلاشت الرمال فى الظلام . وتربض الاهرام فوق هضبة جرداء تطل على المدينة ولم تعد المدينة واضحة الرؤيا نظرا لتلوث الهواء . ومن الخلف يبدو الهرم الأكبر اكثر ضخامة منه من الأمام . وهو محاط بسائقى البغال وباعة (الجيلاتى) ويجوب السياح المكان وتتناثر النفايات على الأرض . بينما الرياح تقذف الأكواب الفارغة المصنوعة من (البلاستيك) اسفل الوادى

الصغير الصخرى ويتلمس بعض الزائرين طريقهم ببطء الى القمة وكأنهم حشرات تسير باضطراد . ان الهرم الأكبر ذو مذاق يستغرق المرء بعض الوقت حتى يعتاد عليه . وعندما شاهد (جوستاف ماهلر) شلالات(نياجرا) بحث عن كلمات تبعث السرور على ضيوفه . ثم تنهد فى النهاية وقال « عظمة لا حد لها » .

وليس هناك الجديد الذى يمكن ان يقوله المرء بشأن الاهرامات . وعندما شاهدها (نيكوس كازانتزاكيس) تذكر على الفور جبلا من الجماجم هرمى الشكل فى لوحة شهيرة تصور الحرب . ان تلك المقابر المنهوبة للوك الآلهة القدامى ، التى شيدها آلاف الذين كانوا يعملون ويموتون تحت وطأة السوط ، قد تم تصميمها على نحو يجعل الانسان الفانى يشعر بانه ضئيل لا اهمية له وكأنه حشرة . ان الانسان ليس هو المقياس ، كما فى اليونان، حيث تبدو الجبال وكأنها بشر وليس هو مركز الخلق وانما شكل آخر من اشكال المادة الطبيعية فحسب ، ان ذلك الشعور شعور حديث وينتاب (روكانتان) ذلك الشعور عندما يتأمل الشجرة فى كتاب « الغثيان » (لسارتر) وهى احدى اللحظات العظيمة فى الأدب المعاصر ، انه الاحساس الوجودى الشهير بالاعتلال الذى ينتابك ، هذا الشعور بالفزع والتقزز الذى يترتب على الادراك بانه تحت المظهر الخادع للانسان توجد حقيقة مطلقة ، مادة حقيقية قاسية ولا حدود لها .

« لم اشعر فى اى مكان على الأرض بمثل ذلك الاتصال العنيف والحى للحياة مع الموت ... ان كل شىء يكتسب قيمة رمزية جبارة ، اذ انه ليس ثمة مكان آخر خارج مصر يمكنك ان ترى فيه ، وعلى نحو جلى ، هكذا امامك ، ان الحياة جزيرة صغيرة قامت وسط محيط من الموت لا نهاية له وهكذا كتب « كازانتزاكيس » فى عام ١٩٢٧ . وفى مصر اجد نفسى منجذبا مرة اخرى لكازانتزاكيس انه مثال الرجل المفكر المشبع بالعاطفة فى نفس الوقت .. ولقد كان لمصر جاذبية الرجل العصرى الباحث عن روحه وقد اضحت الملاحظات والأوصاف الواردة فى يومياته المصرية ، اضحت فى وقت لاحق موضوعات كبرى فى قصة (زوربا) و « العاطفة اليونانية » و « تقرير مرفوع الى جريكو » الذى كان بمثابة سيرة ذاتية الى حد ما . ومن كازانتزاكيس يمتد خط الى « كامى » الذى يبدو انه سبقه فى التفكير زهاء عشرة اعوام وكتب كازانتزاكيس خطابا من مصر جاء فيه « ماهو التزامنا ؟ » ؟ « ان نحدق فى الهوة بدون امل او خوف » « وان نشن » « الحملة الوهمية واليائسة » مثل سيزيف او مثل « ورقة خضراء فى دلتا النيل » تمتد وراءها مباشرة صحراء لا حياة فيها .

ويزحف السياح ببطء الى مدخل الهرم وهناك ممر راسى ضيق يفضى الى حجرة الدفن الخاوية . ويتولى مرشد سياحى يتحدث باللغة الألمانية الشرح من خلال ميكرفون متنقل ويتحدث عن الارتفاعات والمقاييس . هناك اثنان ونصف مليون حجر منحوتة . وقال نابليون عنها : انها تكفى لبناء حائط يرتفع تسعة اقدام حل منطقة فرنسا بأسرها . ويتحدث المرشد عن الأعماق والأوزان والآلهة ، لقد كان هناك العديد من الالهة « آلهة للحياة ، وآخرون للموت ، وآلهة للثيران والبقر وفى الوقت نفسه آلهة للشمس والكواكب .

والهواء رطب فى داخل الممر الضيق ، ويتحدث المرشد عن ازمنة سحيقة ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، وخمس آلاف سنة ، سبعة آلاف ، لقد بدأت السياحة هنا فى عام سبعمائة قبل الميلاد . وتشهد مليون من الكتابات الحائطية على تلك الحقيقة ، بما فى ذلك الأشعار الكلاسيكية لشاعر يونانى عاش فى عهد البطالمة ونصوص شاعر آخر ظهر فى عصر لاحق لذلك هو عصر ادوارد السابع فى انجلترا .

ويقول المرشد نقلا عن مؤلف المانى « عند سفح ذلك الاثر يصبح كل شىء تافها لا قيمة له » ويمسح السياح عرقهم من جباههم بالمناديل الورقية.

ويتذكر المرء انه منذ اسبوعين فحسب وقف هنا فى ذلك الممر رجل يهودى شاحب الوجه وطاعن فى السن بين النقوش المتلاشية وهو مواطن من مدينة برست ليتوفسك الصغيرة التى تقع فى المنطقة الشرقية المليئة بالمستنقعات فى بولندا ، هنا وقف محاطا بحاشية فرعون معاصر وسحرته. تصور انه حظى بترحيب هنا بكل الفخامة التى تليق برجل دولة زائر ، ثم تفوه ببعض كلمات التقدير لكافة الأعماق والأحجام والقيم الخاصة بحضارة عظيمة وقديمة ، كلمات كان لها وقع طيب ، بل أشاعت الرضا والبهجة ، وحسنت الى حد كبير المناخ الفاتر الذى خيم على زيارة رسمية لم يسبق لها مثيل .

ولنتصور انه منذ اقل من اربعين عاما ، افلت ذلك الزائر شاحب الوجه نفسه من الموت كحشرة فى غرف الغاز فى بولندا ، وذلك بالفرار الى دولة مجاورة حيث انضم الى جالية منعزلة آنذاك من الطلائع المشاكسين الذين يعيشون من خلال حلم للخلاص الفردى والجماعى فوق أرض جرداء ولنتصور ان ذلك الزائر يشغل الآن منصب رئيس وزراءتلك الارض ، دولة ذات سيادة ابرمت لتوها معاهدة لانهاء ثلاثين عاما من الحرب مع مصر .

هناك شىء ، يفوق الواقع فى تلك الافكار — الافكار التى تدور عن البشر كحشرات ، وعن الروح الانسانية التى تحقق الخلاص . ومع بيجين فى النفق المعتم وقف ايضا ستة ملايين من الموتى ولولا هؤلاء الموتى لما كان له أن يقف هناك . ان تراود مثل تلك الأفكار فى ذهنى وانا فى ذلك النفق المعتم ، داخل الهرم الشاسع ، يدفعنى الى تأمل الجوانب المحيرة والخرافية لما يسميه الناس الصهيونية نحن هنا مع كازانتزاكيس فى « الرحلة الوهمية البائسة للورقة الخضراء » . ويكتب فى مجال آخر قائلا « ان روح الانسان هى الشجيرة التى تحترق لكنها لا تذوى » .

وفى وقت لاحق ، وفى ردهة الفندق اصطدمت بشخص اعرفه نمساوى الجنسية ومن اليهود الخيرين ، ويدعى « كارل كاهانا » وكان من مؤيدى اسرائيل على مدى سنوات وهو رئيس رابطة اسرائيل وكارل كاهانا على علاقة طيبة بالرئيس السادات والعديد من الزعماء الاسرائيليين كذلك وقد لعب دورا معينا فى الماضى للتقريب بين المصريين والاسرائيليين .

وقصصت على كاهانا الأفكار التى راودتنى فى نفق الهرم الاكبر ،

وتحدثنا عن التحول الكبير فى الاحداث ثم هز راسه وقال « الم يفسد بيجين كل شىء الآن ؟ » ان كاهان يمقت بيجين . انه واحد من اولئك القلة الذين يتمتعون بنفوذ من زعماء الطائفة اليهودية فى اوروبا وامريكا الذين ليسوا على استعداد بعد الآن لاقرار خط السياسة الاسرائيلية بدون مناقشة مثلما كان الحال فى الماضى وهو يعتقد ان بيجين ، من خلال سياسة المستوطنات التى ينتهجها فى الضفة الغربية يقوض تلك الفرصة للسلام . ويقول مهددا « لقد لاحت امام اسرائيل فرصة اخيرة . ولن تلوح هناك فرصة اخرى » ونتجادل : ما الذى يفعلونه بتلك الفرصة ؟ » واقول ان اسرائيل تخشى الفلسطينيين والسوريين ، ومشاعر الخوف هذه منطقية ويقول كاهانا . انها ليست كذلك .

ويقول بنبرة مريرة « ان اليهود يخشون الموت الى حد انهم على استعداد للانتحار » .

وحملت الصحف نبأ وصول سفير بريطاني جديد الى القاهرة ، ما يكل وير وهو صديق قديم . واتصلت بالسفارة تليفونيا وطلبت محادثة السفير . وجاء على الخط الآخر صوت يشوبه الارتباك ويتسم بالتحفظ البالغ ويقول لى : انه لا يستطيع رؤيتى لا . لأنه مشغول للغاية بل لأن ذلك متعذر الآن على اية حال .

ويقول بصوت متلعثم قليلا « رغم كامب ديفيد يعتبر من العسيربالنسبة لى مقابلة احد الاسرائيليين فى ذلك الوقت فى القاهرة » وتبسمت من ذلك التملص وفى الوقت نفسه شعرت بالامتنان حيال صديق قديم لصراحته اذ كان بوسعه تقديم عذر مهذب . وبدلا من ذلك كشف عن حقيقة هامة اذ ان البريطانيين ، شأنهم شأن الدول الأوروبية الأخرى يتصرفون بحذر وتحفظ حيال معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية ، نظرا لأن الدول العربية الأخرى قد رفضتها . بل ان الفرنسيين — انتقدوها علانية . ان الأوروبيين لم يعد لهم سياسة خارجية ، وانما لديهم سياسة تجارية ، ودول الرفض العربية تملك البترول وفى الأيام الأولى من قيام الأمم المتحدة كان شن حرب يعتبر انتهاكا هائلا للكياسة الدولية ، غير ان اقرار السلام يعد كذلك هذه الأيام.

ولم المس مثل تلك المشاكل مع السفير محمود حسن وحرمه . انهما والدا سناء حسن زميلتى التى اشتركت معى فى اعداد كتاب « ما بين الأعداء » الذى ذكرته من قبل . ولا تزال سناء فى أمريكا . وتم توجيه دعوة لى لتناول الشاى فى شقة والديها التى تقع فى الجزيرة وتطل على النيل . والشقة مجهزة بقطع اثاث تاريخية انيقة وذكريات حياة دبلوماسية طويلة. وتعد تلك الشقة واحدة من تلك الأماكن الخيالية التى يقرأ عنها المرء فى المذكرات القديمة او يشاهدها فى افلام معينة .

وكانت الفلوكة تبحر فى النيل ، وعلى مائدة انجليزية الطراز فى حجرة الاستقبال توجد صورة داخل برواز لفرانكلين ديلانو روزفلت وهو يتبادل الحديث مع ضيوفه فى الحجرة البيضاوية بالبيت الابيض ووسط هذا الجو

الرسمى ساد جو عائلى حميم وكرم ضيافة . وكانت عائلة السفير حسن ترحب بى كابن لهـا .

وادرك ان وراء مشاعر سناء الرحيمة للمصالحة ، وهى مشاعر كانت مثيرة للغاية فى ذلك الحين ، يكمن تاريخ عائلى .

وكان تحسين بشير زوج سناء السابق ، حاضرا ايضـا ، ورغم انه انفصل عن كريمتهم بالطلاق لا يزال يدعو السفير وحرمه (بابا ، وماما) والسفير حسن رجل من العهد السابق ، كان يحمل لقب الباشوية نحيف للغاية ، دمث الخلق ومهذب للغاية . ويذكرنى وجهه — من بعيد — بوجه مارسيل بروست القصصى الفرنسى ، وكيروست . فان طريقته فى التأمل الهادىء هى « بحث عن الزمن الضائع » .. وهو متقاعد من وزارة الخارجية المصرية وكان يشغل منصب سفير لدى الولايات المتحدة ومندوب بلاده فى الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ، وذلك عندما اقرت الأمم المتحدة قيام دولة اسرائيل وعلى غرار اسماعيل صدقى باشا وآخرين كان السفير حسـن يرغب فى الا تعارض حكومته على الأقل القرار ، الا ان نصيحته قوبلت بالرفض .

وكان نظيره الاسرائيلى فى الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ هـو ابا ايبـان ويستعيد السفير حسن ذكرى ما اصابه من حرج حاد عندما اضطر الى ان يرفض فى احد الأيام الرد على رسالة خاصة من ابا ايبان يدعوه فيهـا الى حديث غير رسمى ولم يكن بوسعه حتى مصافحة ابا ايبان . فقد كانت مثل تلك الايماءات الكيسة محظورة فى تلك الحقبة الجديدة . وكان حسن من عصر مختلف .

ويفاخر السفير حسن وقرينته بابنتهمـا . ويعربان عن شجاعتهـا واسـتقلالها الفكرى اللذين دفعاهـا قبل معظم المصريين الى تأييد السلام علانية . وجلس تحسين فى كرسيه يبتسم بدهاء .

وتقول السيدة حرم السفير « ان سناء كانت رائدة ، اذ ان الامر تطلب منها مزيدا من الشجاعة على نحو فاق السادات فى زيارة اسرائيل » .

ولقد استحقت جائزة نوبل « هكذا اضافت فى خيلاء » كم اساءوا جميعا الى ابنتى فى ذلك الوقت . والافتراءات التى الصقوها بها فى الصحف . وقد اشار البعض على الفور بالطبع الى ، ان من المحتم انها خليلتك . ذلك هو اسلوب تفكير الأشخاص هنا حيال سيدة شجاعة . لقد قالوا انك غررت بهـا . وتردف قائلة بالفرنسية وبتأثر « لقد ارهقنى ذلك يا سيدى وانت — مع ذلك — شخص جذاب ... هلا تناولت قدحا آخر من الشاى .. ؟ » .

وتصب نوال ، شقيقة سناء ، الشاى . وهى ذات ملامح هـادئة ووجه مستدير جميل وترتدى نظارة كبيرة . وصوت نوال ، مثل شقيقتها مهذب وهادىء وتشيع فى الجو هدوءا كبيرا وشأنها شأن شقيقتها اذ تكمن وراء تلك الرقة ارادة من حديد . وتعمل نوال مديرة لمركز الحضارة المصرية وهو معهد انشأته بجهودها الشخصية تقريبا ابان الخمس سنوات الماضية .

ويستخدم المصريون والدارسـون الزائرون مكتبتها ومقتنياتها . وشأنها شأن سناء ، فهى مقاتلة ، وتنصب معركتها على الحفاظ على الفن المعمارى المملوكى القديم فى وسط القاهرة . وهى ايضا تعد من انشط المختصين بعلوم العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها فى مصر .

ويقع مركزها فى مبنى مملوكى قديم — وقد سعت نوال الى اعـادته جزئيـا الى مجده القديم — خلف سوق خان الخليلى . وقد تعهدت باصطحابى الى هناك فى جولة .

ودار حوار صغير بين تحسين ونوال بشأن معركة نوال الأخيرة التى تتمثل فى معارضة مشروع هدم القطاع القديم لوسط القاهرة من اجل اقامة فنادق حديثة وشقق سكنية . ويقول تحسين « ولكنه فى حالة سيئة ، وليس بديعا وهو ملىء بالورش والمخازن القذرة .

وتعتقد نوال انه يتعين تجديده من اجل سكانه الحاليين الذين لا يتعين الالقاء بهم فى مشروع اسكان عام كئيب ، وتقول : ان ذلك سيكون من شأنه تمزيق النسيج الاجتماعى ويغذى الجريمة والاحساس بالاغتراب » .

ومادار من حديث يعد من قبيل الجدل المعتاد الذى لم يتوصل احد الى اجابة حاسمة بعد بصدده . اننا جميعا نشارك فى هذا الجدل ، وفى القاهرة — كما هو الحـال فى كل مكان آخر ، تثير البلدوزرات مزيدا من الضوضاء وهى التى تنتصر . ومع ذلك نجد أن نوال ، بصوتها الهادىء لاتستسلم .

وكان لتحسين سيارة وسائق يقفان فى انتظاره اسفل العمارة على الجسر واصطحبنى الى مقر اقامتى من خلال الشوارع المعتمة وتحدثنا عن سناء التى تعمل الآن فى المجـال الاكاديمى فى امريكا ، شأنها فى ذلك شأن العديد من الشباب المصرى الموهوب ، وربما لن تعود فى المستقبل القريب. ويقول تحسين موافقا « ان نوال » من جانب آخر ، قررت البقاء فى مصر ، هل تعلم كم عـدد المصريين الاكاديميين الذين يعيشون فى امريكا اليوم ، اجبته « لا أعرف » فسألنى « خمن » اجبت ربما يصل عددهم الى ثلاثمائة فرد ، رد تحسين قائلا « لا . انهم ثلاثة آلاف تقريبا » وقص لى رواية قاهرية صميمة . اذ سأل رجـل آخر عما اذا كان مهاجرا . اجابه الآخر « لا » فى تلك الحالة لا تعد مثقفا » .

ومررنا بالسـفارة البريطانية ذات الحوائط الحجرية العالية . ولم اقل لتحسين عن تلك المحادثة التى دارت بينى وبين السفير فى صباح ذلك اليوم .. وكان الضوء ينبعث من نوافذ السفارة ..واشار تحسين اليهـا قائلا : « اعتادت مصر أن تحكم من هنـا » . رغم انهـا لم تكن سوى مقر القنصل العام » .

ويضيف تحسين قائلا : لكن بدون مرارة « انهم كانوا يحكمون البلاد وكأنهم نواب الملك » قليل هم الذين يشعرون ببعض المرارة الآن . ولا يزال الـزمن هو أكبر من يلئم الجـراح .. اذ أن اللوردات العظـام للجنس

البشرى ـ كرومر ، جورست ، كتشنر ـ اصبحوا الآن بمثابة حكايات تروى وحواشى فى كتب التاريخ . ان صديقى مايكل وير بالمقارنة موظف مدنى ، وتحولت الآن قاعة الرقص الكبرى التى انشئت فى عهد اللورد كيتشنر الى قسم اصدار التأشيرات .

* * *

وسالنى احد الاشخاص منذ ايام هل ارغب فى مقابلة انيس منصور ، رئيس تحرير مجلة اكتوبر .. ويقال ان منصور صديق شخصى للرئيس السادات .. اجبت قائلا : ان ذلك ليس بالأمر الهام . اذا ما جدوى اللقاء ؟ ان مقالات منصور قد امتلأت على مدى سنوات بموضوعات فجة واشارات الى مؤامرة يهودية دولية لمهربى المخدرات واصحاب بيوت الدعارة .

وطلب منى اعادة النظر فى تلك المسالة ، اذ ان منصور قد اضحى مؤخرا من اقوى مؤيدى السلام ، كما ان احدا فى الصحافة المصرية لم يؤيد المعاهدة بمثل تلك القوة التى أيدها بها منصور .

وفى عدد اخير لمجلة اكتوبر كتب موضوعا يتحمس فيه لسيناء التى كان قد سبق وهاجمها فى عام ١٩٧٥ . وجعلنى ذلك اتوقف هنيهة . ان منصور يشيد بسيناء الآن ـ ويصفها بانها حاملة شعلة . اذ ان حلمها العظيم عن المصالحة قد اضحى حقيقة وحيرنى ذلك التغير ـ اذ لا يبدو انه مجرد تغيير من السطح ـ وقررت الذهاب الى مقابلته رغم كل شىء واستقبلنى منصور دون موعد سابق فى مكتبه الذى يقع على كورنيش النيل وكان يقف فى الركن البعيد لحجرته الشاسعة والطويلة مديرا ظهره الى الباب محدقا فى كتبه . ويبدو ان العديد منها عن اليهود . اذ ان اليهود موضوع مفضل لدى منصور مثل الارواح والأجسام الطائرة التى لا تعرف (وجهتها) والأشخاص الذين يأتون من الفضاء الخارجى والأديان غير السماوية ، كل ذلك كتب عنه منصور باسهاب فى الماضى .

وبدأ فقط فى الالتفات الى عندما دنوت من مكتبه ثم نظر الى فجاة وتفحصنى بنظرة ثاقبة وفعلت المثل . وكان مشهدا مسرحيا الى حد ما وكان منصور يرتدى حلة انيقة طراز (سافارى) ويحيط شعره المجعد الناعم بوجهه المستدير حسن الطلعة . وقدم لى كرسيا على نحو يفتقر الى الحماس وطلبت منه ان يحدثنى عن اعماله ، اذ انه يحبذ الحديث عن نفسه ، نظرا لانه كما قال ، قد اسىء فهمه كثيرا . ويحبذ أن ينظر اليه بوصفه فنانا ، ويقول متباهيا : انه كتب ثلاثة وستين كتابا واحدى عشرة مسرحية وتمثيلية تليفزيونية . وقد صدر كتابه الاخير منذ شهر مضى ومن المنتظر ان يصدر الكتاب التالى فى غضون ستة اسابيع وهو بمثابة تاريخ مقارن للأديان ويكتب منصور كل يوم من الساعة الخامسة صباحا حتى العاشرة .. وترجم ايضا الى العربية اعمال فريدريك ديرنمات ، يوجين يونسكو ، صمويل بيكت والقصص القصيرة التى كتبها البرتو مورافيا .. وسالته قائلا : هل ترجمتها من الانجليزية ؟ اجاب « لا » من اللغة الاصلية ، الالمانية ، الفرنسية والايطالية . انه يتحدث تلك اللغة بطلاقة . واكملنا

حديثنا باللغة الالمانية التى يتحدثها بصورة متقفة اذ ان جدته كانت المانية كما يقول .

ثم انتقلنا الى الحديث باللغة الايطالية التى يتحدثها بسلاسة ايضا وفضلا عن ذلك يتمتع بموهبة مسرحية ملحوظة فى التقليد الساخر للعديد من اللهجات الاقليمية .. وبدا بلهجة اهل البندقية الثقيلة ثم انتقل الى لهجة الجنوب التى تخرج حروفها من الحنجرة وفى النهاية انتقل الى لهجة الميلانيين التى تخرج الفاظها من الأنف .. انه يحرك الحروف مثل الرايات ويقول : انه يدرس اللغة العبرية الآن ، مستعينا بالنص « الأصلى » الذى كتبه ميمو نيديس فى القرن الثانى عشر تحت عنوان « دليل الحائرين » .

ويسارع قائلا « رغم أن ميمو نيديس » كتب ذلك الكتاب باللغة العربية اولا ، وقد عمل منصور فى الصحافة منذ ١٩٤٧ وقد ابعده ناصر من صحيفة الأخبار من جراء مقالة سياسية كتبها ولم تعجب ناصر .

ثم اضحى استاذا للفلسفة فى جامعة القاهرة . وكانت رسالته عن نيتشه ويقول ان مجاله الخاص هو الفلسفة المعاصرة . وسالته قائلا اى فلاسفة على وجه الخصوص .

اجاب « كير كجارد ، هيدجر ، سارتر ، اونا مونو ، مارتن بوبر » ومع ذلك فان الأدب هو حبه الأكبر ، وسالته هل يعجبك دورنمات ؟ قال « انى اعشق دورنمات » وماذا عن ماكس فريش ؟ اجاب « انه كاتب رائع » وما هو شعورك حيال كتاب « اندورا » (الذى كتبه ماكس فريش وهاجم فيه معاداة السامية) ؟ يقول منصور : انه عمل فنى رائع ، ومضى بنا الحديث على ذلك النحو ، نتحدث باربع لغات عن الفن والشعر وما يحمله سارتر من دين لهيدجر وكير جارد .. ويبدو منطقيا تماما فى تناوله لهذه الموضوعات ومن الواضح انه واسع المعرفة بل شخص جذاب ويتسم بروح الدعابة ربما الى حد كبير للغاية .

وفى النهاية رفعت يداى وقلت : اننى لا استطيع ان افهم ذلك ! تفهم ماذا ؟ « واننى لا استطيع ان افهم كيف يكون شخص متحضر مثلك، محب لسارتر وماكس فريش ويكتب مثل » .. « مثل ماذا ؟ » .

« مثل هذه الزبالة يا سيد منصور ؟ » .

لم يفاجأ بحديثى . بل على العكس ابتهج بنفسه وسالنى قائلا : « ما الذى يمكن ان اعنيه بمثل ذلك الاتهام ؟ » وكنت قد احضرت معى قائمة صغيرة من فقرات كتبها وبدات اقرا فى التاسع عشر من اغسطس .. قاطعنى قائلا « ياه انه يوم عيد ميلادى » .

وكررت قائلا : فى التاسع عشر من اغسطس عام ١٩٧٣ كتبت ان اليهود هم اعداء البشرية . ان الجرائم التى ارتكبوها فى الأراضى المحتلة ، لم يكن

من الممكن ان يرتكبها حتى هتلر .. ان هتلر قد فعل خيرا اذ ذبح ستة ملايين منهم والناس فى كافة ارجاء العالم قد بداوا يأسفون لأن هتلر لم يقتل البقية الباقية من اليهود فى افران الغاز .. أن اليهود بطبيعتهم خائنون لقد باعوا هتلر والمانيا لروسيا وامريكا ، أن اليهود مصاصو دماء . ولقد بدأ الناس فى شتى انحاء العالم يقتنعون بأن هتلر كان محقا .. الخ .

وجلس منصور ينصت لما اقوله بهدوء ثم قال « آه اتقصد هذا ، لقد فهمت » قلت هل فهمت حقا ؟ رد قائلا : « حسنا لقد كانت هناك حرب دائرة عندما كتبت كل ذلك . وابان الحروب ينبغى للسان الكاتب ان يكون بمثابة مدفعه اما اليوم فلن اكتب مثل تلك الكلمات بالطبع — كلا فى اوقات الحرب اقول للشعب ان اعداءه كذا وفى اوقات السلم اقول انهم بشر مثلنا » .

ويطمئننى قائلا : انه لا يمقت اليهود بل على العكس يكن لهم الاعجاب وبدأ يتحدث بسرعة الآن وقال « لقد اعتدت بأن يكون لى اصدقاء يهود عديدون فى الأيام السابقة » ويتحدث منصور بانفعال مبالغ فيه . يود ان يجعلنى افهم موقفه .

ويرى ان واجبه يتمثل فى حماية الشعب وفى ذلك الجزء من العالم يميل الأفراد ان يكونوا عاطفيين ومن ثم يتعين عليه فى بعض الأوقات تحذيرهم من الخطر العظيم الذى يواجهونه ، وفى احيان اخرى يخفف الآلام ويلئم الجراح .

ويعتقد أنه حتى الآن يوجد خطر من ان المصريين قد يبالغون فى الاحتفاء بالاسرائيليين لمجرد أن هناك سلاما . وقد نما الى علمه ان الاسرائيليين يستقبلون بالقبلات فى شوارع القاهرة .. وقال : ان هناك اموالا طائلة فى العالم العربى . وفى حقبة السلام الجديدة قد يضع اليهود ايديهم عليها . قاطعته قائلا « ماذا ؟ فصاح لاتكن مفرط الحساسية ، لماذا انت حساس الى هذه الدرجة ؟ لا ينبغى ان تكون كذلك .. » .

ولم يستطرد ويبتسم وهو يتساءل الا يحب اليهود المال ؟ وما الضير فى حبهم للمال ؟ انكل فرد يحب المال وانه هو انيس منصور ، يحبه ايضا وهو يحبذ توسيع نطاق العلاقات الثقافية مع اسرائيل فى اسرع وقت ممكن ، ترتيب محاورات ، تبادل الكتب والمعارض وتبادل الفرق الموسيقية .. ويتعين علينا بذل قصارى جهدنا فى سبيل تدعيم ذلك السلام .. وينبغى ان يساعد بعضنا البعض الاخر .

وكبداية لهذا التعاون قال انيس منصور ، ونحن نتجه الى المصعد انه يعرض على سيارته وسائقه لتوصيلى الى الفندق « لكننى شكرته وقلت اننى احبذ السير قليلا .. هز منصور كتفيه دون مبالاة وقال « اننا فى بلد حر » .

برز المحررون والمذيعون فى اذاعة راديو القاهرة الناطقة باللغة العبرية من وراء مكاتبهم الصغيرة فى حجرة الأخبار المزدحمة .. وكان الجو مفعما بمشاعر الود وحب الاستطلاع .. وهم يتحدثون العبرية بطلاقة ولكنها لغة الكتب القديمة « الحق نقول لكم سلاما ، سلاما ، تجيش به افئدتنا » .

« ... واذا بالسادات يعود من القدس ويقول فى حديث صحفى .. »

ووجهت الى انواع من الأسئلة الملحة فى ذلك المزيج الغريب من العبارات الانجيلية المزخرفة واللغة العامية الراهنة التى التقطوها من اذاعة اسرائيل » .

بربك فسر لى السياسة الحقيقية لبرنامج البحث النووى الذى تجريه اسرائيل .. انهم يقراون الصحف الاسرائيلية بانتظام ولكنها تصل متأخرة اسبوعين أو ثلاثة اسابيع اذ تصل الصحف عن طريق باريس .

ترى ماهى انطباعات سيادتكم عن القاهرة ، عاصمتنا الحبيبة ؟ واين يستقر بك المقام فى القدس .. ؟ اتريد فنجانا من القهوة أو اى مشروب .. انظر الى برنامجنا الاذاعى اليومى .. اتريد سيجارا ؟ ابق معنا لفترة اطول .. اذ أنه لسنوات عديدة كانوا يتحدثون اللغة فى فراغ ، اما الآن فهناك مستمع من لحم ودم فى الحجرة ومن ثم يكون من العسير عليهم تركه يرحل .

وسمير فرحات كبير المعلقين السياسيين فى المحطة ، يكتب الشعر باللغة العبرية .. وفى كل اسبوع يقرأ قصيدة جديدة عبر الأثير .. وكان يحمل معه فى جيب سترته الداخلى نسخا من احدث اشعاره .. وكانت مكتوبة بخط يد أنيق بالحبر الأسود وزخرف مابين المقاطع بزهور حمراء :

ان لحظة الأمان لحلم وردى
فى حياة انسان عقد ميثاقا مع القلق .
ان لحظة الأمان تنبت زهورا بيضاء .
فى قلب صحراوى لم يكن ينبت سوى العوسنج والشوك .
هاهى هبة الله لأم ابيضت عيناها من الدمع
على ولدها الحبيب ولدها الوحيد
انتزع من صدرها الى اتون الحرب
والآن السلام ... السلام يسود الجميع

وطوال سنوات ظل القسم العبرى فى راديو القاهرة يبث عبارات بذيئة قام انيس منصور بكتابة بعضها .. ويقول فرحات : انه تم تغيير

البرنامج القديم كلية .. واطلق عليه ايضا اسم جديد .. اذ كان يسمى « صوت الحرب » والآن هو « صوت السلام من القاهرة » واحدث ابتكار هو برنامج اذاعى عن الطهى يسمى « مطبخ زهاوا » .

وفرحات من عزبة صغيرة تسمى سرس الليان لاتبعد كثيرا عن القاهرة ويقول « ان المصرى الحقيقى فلاح يتسم بقلب مفتوح وفى قلبه خضرة مقدسة دائما والى الابد » .

وفى عام ١٩٧٥ كان فرحات لايزال ينظم اشعار الثأر المقدس ونوافذ حجرة الأخبار يملؤها الذباب وتطل على النيل .. وينعكس خيال المبنى فى المياه التى تميل الى اللون الأخضر الفاتح .. وسمير فرحات الشاعر ، المعلق ، رجل الدعاية ، يقف محدقا فى النهر .. ويقول وهو مستغرق فى التفكير « ذلك هو منبع حبى والهامى » .

* * *

مساء آخر فى الريف فى منزل المهندس المعمارى اسماعيل : تلك هى المرة الرابعة التى نلتقى فيها .. وكانت المرات القليلة السابقة بمثابة لقاءات تمهيدية كانت تمليها بعض المجاملات والظروف الفريدة الخاصة بحياتنا السالفة التى تكشفت بالصدفة على جانبى الهوة التى كانت تفصل بين الطرفين .. وقد علمت فى لقائنا الثانى ان شقيق اسماعيل قد اصيب فى عام ١٩٧٠ خلال « حرب الاستنزاف » .. وقد اشار الى ذلك بصورة عابرة ضمن حديث عن موضوع آخر ولم يشر اليه قط منذ ذلك الحين . غير اننا كنا نحاول سبر غور بعضنا . وراودنى شعور بانه يدير جهاز تسجيل كما فعلت معه من قبل وقد بدانا نتقارب على نحو اكثر منذ لقائنا الأخير .. وبوسعى القول باننا صرنا اكثر استرخاء . الا اننى لا ازال متوترا نوعا ما كما هو الحال معى دائما فى مصر ، غير اننى كنت مسرورا لابتعادى عن المدينة المتربة ولتواجدى وسط تلك الخضرة الممتدة الهادئة مع اسماعيل .

لم نتطرق بالحديث الى السياسة . وكان الجو حارا غير انه لم يكن ثقيلا وتجولنا عبر الحقول . وتبعث رائحة البرسيم النضر الذى كان قد تم ريه والتقطنا بعض ثمار التوت من احدى الشجيرات . ودار بيننا حديث عن ايطاليا ففيها شىء مشترك بيننا يتعلق كل منا به ــ تلك هى دائما بداية ما يشبه الصداقة . وتحدثنا عن الواجهة الرومانسية لمدينة لوتشا الايطالية والجمال المعجز والحزن الهائل فى تمثال راس دوناتيلو النحات الايطالى الموضوعة فى بارجليوس بفلورنسا .

ان تمثاله الحزين داود يذكرنى دائما بالوجوه الناضجة الغريبة لبعض الشباب الذين عرفتهم .. والذين ذهبوا الى هذه الحرب او تلك دون اى شعور بالكراهية او اليأس ولكن دون ان يراودهم اى امل ايضا . ان احساسا بالزوال وتارجح الحياة بشكل تعس محفور على تلك الوجوه .

وعبرنا قناة وتبرز من خلال البوص مجموعة بط على هيئة راس رمح ويميل لون الأرض هنا الى اللون الرمادى المتشقق .. ويروق لاسماعيل الضوء الهادىء لريف توسكانيا وتوزيع الأضواء والظلال على التلال فى الفجر او فى ظل سماء ملبدة بغيوم خفيفة والضوء فى مصر قوى للغاية ، والسماء كأنها رمال متوهجة تتالق من بعيد .. وتشبه الطبيعة التى تكاد تتجرد من الأشجار وجها صارما يخلو من الشفقة .

وتاتى ثرثرة الطير عبر الأعشاب الجافة ويقول اسماعيل « ان هذه ارض جديدة تم استصلاحها من الرمال ابان الخمسينات وذلك بشق قناة .. ووصلنا الى احد المراعى حيث الارض متربة وكأنها تعانى من قشر الراس .. وعلى مسافة تقع احدى القرى وتتجمع اشجار الأيوكاليتيوس كالعنقود والمنازل المبنية من اللبن النيىء وكانت تسير معنا صديقة اسماعيل وهى سيدة شابة طويلة القامة زيتونية اللون . ذات وجه باسم عريض يتسم بالود .. وهى ذات عيون مشرقة صافية للغاية بندقية اللون .. اما الأنف المفرطح الحاد والتقاطيع الداكنة ، ونتوء عظام الوجنتين فتنم عن انها تنحدر من بعيد من سلالة نوبية .. وهى مولودة فى مصر العليا وخريجة احدى الجامعات الفرنسية وتوجه لى اسئلة عن زوجتى واقول ان زوجتى امريكية وتسألنى لماذا لم تحضر ايضا ، وارد قائلا : لم تستطع اذ لدينا طفلة صغيرة فى المدرسة . يجب اذن ان اعد باصطحاب زوجتى لرؤيتهم فى زيارتى القادمة لمصر .. وقد دفعنى حديثها الى الشعور بانه اكثر من مجرد مجاملة .

وقالت : انها تود حقا ان يتم هذا .. وينبغى ان نتوجه جميعا الى الشاطىء فى الصيف .. هل الشواطىء فى اسرائيل ملوثة ؟ الى حد ما .

تأبط اسماعيل ذراعها وذراعى وسرنا عبر بستان صغير للمانجو واشجار النخيل وينبثق النخيل رفيعا وكأنه ريش منفضة .. وتبدو ثمار للمانجو ناضجة تتلألأ : وكأنها مصابيح من الأغصان الوارقة ولا اكاد اشعر بالحرارة بين النباتات المشبعة بالبخار ، كما لو كان ثمة نبع غير مدفون .

ووصلنا الى مشارف القرية حيث شاهدت صبيا يسير على جانب الطريق يحمل كتابا مفتوحا فى يده . انه يحفظ دروسه عن ظهر قلب .. ويقول اسماعيل ان هذه طريقة شائعة .. وهى بمثابة حشو للذاكرة دون محاولة تشغيل الذهن .. ومنازل القرية بأسرها من الطوب اللبن .. ويخزن القش على كل سطح ومن ثم يعتبر مصدرا دائما للحرائق الخطرة ، وفى القرية ، لحسن الحظ صنبور مياه عام . ولم يعد الفلاحون يشربون مياه القنوات المليئة بالأمراض . ودلفنا الى كوخ مكون من حجرتين تقطنه عائلة تضم احد عشر فردا وبقرة عجوز .. وفى الفناء يرتفع مأوى الحمام وهو ملىء بالنتوءات ومدبب الأطراف .. والفلاح رجل صغير الحجم داكن اللون يناهز الخامسة والأربعين عاما . وقد لقى ولده الأصغر حتفه مؤخرا فى حادث سيارة صدمته وفر سائقها ، وهو ينتظر مجىء ، طفل جديد هو طفله العاشر . ويقول : ان عائلته الكبيرة تعيش على زراعة ما يربو على هكتار واحد بقليل

(نحو ثمانين ونصف) ويقول الحمد لله . رغم انه من العسير على الفرد ان يلمس ما يشكر الله عليه . ويلتفت بضعة اطفال حول جهاز تليفزيون فى الحجرة الثانية . حيث يشاهدون فيلما مصريا ، وهـو بمثابة قصـة « ميلودرامية » لأسرة من الطبقة المتوسطة العليا ، تدور حول الحب والمـال والعربات الفارهة ، وتعيش الاسرة فى فيلا بيضاء اللون تضم تماثيل من المرمر وتظهر سيدات يرتدين ازياء انيقة ويتحلين بالمجوهرات ويسرن فى ممـرات من العشب والحصى وسط حديقة كبيرة خاصة . ويبدو الموضوع غريبـا فى تلك البيئة .

ويقول اسماعيل « ان الاشخاص الذين يصنعون تلك الافلام ويعرضونها يعتقدون ان الفلاحين يعتبرون — نظرا لحياتهم الفقيرة الحقيرة — فى حاجة الى حلم » .

وفى وقت لاحق من ذلك المساء ، حضرنا لقاء اجتماعيا صـغيرا فى احد المنازل التى لا تختلف عن ذلك الذى عرض فى التليفزيون بعد الظهـر .. وقد اعد عشاء رائع . وتكسو اعمدة الشرفة الشاسعة نباتات خرافيـة . ان المنزل ، والمروج وحمام السباحة ، والاثاث العتيق ذا الاصل الاوروبى غير المحدود ، والسجاجيد الايرانية الممتدة فى الصالون التى لا تقدر بثمن ، والخدم ، ثلاثة سودانيين يرتدون ازياء مطرزة ، كل ذلك لا ينتمى لهـذا العصـر .

ويضم الضيوف اثنين من رجال الأعمال من الاسكندرية ، ومدير بنك من القاهرة ومديرا تنفيذيا لسلسلة من الفنادق ، ومقاول نقل الى جـانب زوجاتهم وابنائهم البالغين اما مضيفنا فمدير متقاعد لاحدى الشركات المؤممة . ويقول احد الضيوف « لقد قضوا على هذا البلد . كل شيء للعـرب .. ولكن ماذا عنا نحن المصريين ! ان ناصر لم يفعل سوى انه افقر الاغنيـاء وزاد الفقراء فقرا « اما زوجة ابنه فطبيبة اطفال ممارسة تلقت تعليمهـا فى انجلترا .. وقد توجهت الزوجة الى مكة فى العام المـاضى للحج . ويقول انه منذ ذلك الحين وهى ترتدى نقابا خفيفا ، وليس على غرار النقـاب التقليدى غير انه يغطى جزءا من وجهها وتعتقد ان ذلك له قيمـة « وانه شيء هام بالنسبة لها » .

كان الحوار يدور بلا توتر اذ دارت الموضوعات الرئيسية حول المسائل العائلية ، السفر الى الخارج ، العربات ، المنازل .. ويقوم اسماعيل ببناء فيلا جديدة لاحد الضيوف .

واشار احدهم الى « رباعية الاسكندرية » للورانس داريل . وتعلق احدى السيدات عليها بشيء من الحنق قائلة : ان حبكتها شاذة اذ ان اى مليونير قبطى او حتى فقير مدقع لن يصبح جاسوسا صهيونيا . ربما زوجته اليهودية نعم . اما (نسيم حسنانى فلا على الاطلاق) .

وكانت الانوار ساطعة فى المنزل والشرفة . ومن مسافة بعيـدة وفى الخارج فى ظلام الليل المصرى كانت اصوات العـديد من صرصـار الليل وضفدعة تأتى من بين الشجيرات والقنوات .

فى كتاب توفيق الحكيم « عودة الروح » الذى كتبه عام ١٩٢٧ هناك حوار قصير ربما يفسر لمـاذا ساعد ذلك الكتاب على تحول ناصر الى الاتجاه الثورى جاء فيه ما معناه :

ـــ صدقنى يا مستر بلاك ، لاتقلل من قدر اولئك الفقراء . ان هناك قوة خفية كامنة بهم وانهم يفتقرون لشيء واحد فحسب .

ـــ ما هو ؟

ـــ المثل الأعلى ـــ رجل يجسد شخصيتهم ومطامحهم ويعتبر بالنسبة لهم رمزا للمثل الأعلى .

وكان الراحل جمال عبد الناصر رغم المفاهيم « المسلوقة » التى كان يعتنقها المتمثلة فى الحكم المطلق وكراهية الأجانب والاشتراكية العربية — يجسد بلا ريب فكرة كانت بمثابة الهام الوطنيين المصريين منذ بزوغ مصر الحديثة فى القرن التاسع عشر ، وكان ناصر ينفث فكرة القومية الملتهبـة التى بدت فى اعين شعب مضطهد تحطمت معنوياته من جراء حكم استعمارى ونزوات طبقة عليـا فاسدة ، بدت وكأنها تجسيد لفكرة الاستقلال .. وقد حكم ناصر مصر باسلوب ديكتاتورى على مدى ثمانية عشر عاما ، باسم ايدلوجية قومية اشتراكية متحذلقة حجبت لبعض الوقت الحقيقة الاساسية المتمثلة فى انه لم يكن يحكم البلاد وفقا لأى مبدأ سوى الانتهازية الشخصية .. وعندما توفى ناصر عام ١٩٧٠ خلف وراءه ميراثا كان بمثـابة كارثة على نحو بارز .

وقد كتب فى عام ١٩٥٤ عن الدور الذى يهيم بلا هدف (فى العالم العربى) بحثا عن بطل ومهما كان ذلك الدور فقد أداه بصورة سيئة .

ان جزءا كبيرا من مصر ، — بما فى ذلك بعض حقول البترول القيمة — كان محتلا ، على نحودائم ، فيما يبدو ، من عدو داب ناصر على اثارته بتهور وحماقة وبلا داع قبل ثلاث سنوات لخوض حرب اسفرت عن الدمار الفعلى لجيشه وسلاحه الجوى وقد اغلقت قناة السويس التى تعد مصدرا هاما للدخل .. أضف الى ذلك انه فشل تماما فى تحقيق حلمه الأعظم ، المتمثل فى ان يوحد ، تحت حماية مصر ، العالم العربى ، مثلما توحدت الولايات الألمانية فى عام ١٨٧١ تحت حماية بروسيا .. وفى الوقت الذى توفى فيه ناصر كانت الدول العربية منقسمة على نحو اكثر وتكن العداء لبعضها بصورة اكبر حتى من ذى قبل . وفى مصر ذاتها ، نجد ان التقدم الذى احرزته « الثورة المباركة للقوات المسلحة » راح ضحية لمـا وصفه السـادات فى وقت لاحق بأنه وحش الاشتراكية ، البيروقراطية ، التخطيط الذى لا يتسم بالمسئولية واجراءات المراقبة الوحشية بصورة مفرطة التى كان يضطلع بها البوليس .

وبالرغم من الاستصلاح الزراعى ، والسد العالى ، والمصادر الجديدة للطاقة الكهربائية ، والجهود الهائلة التى بذلت للتحديث والتصنيع — انخفض معدل النمو الاقتصادى الفعلى بشدة الى اقل من نصف ما كان عليه فى ظل

حكومة فاروق الفاسدة السابقة .. ويقول شيمون شامير فى كتابه « سقوط الرسالة الناصرية » ، ان جاذبية ناصر الهائلة كانت ترجع الى مقدرته على ابراز وجهة جماعية جديدة . اذ أنه اعلن ظهور أمة عربية كبرى تمتد من المغرب حتى العراق ، وظهور رجل جديد «يتحدى الغرب سياسيا وعسكريا وثقافيا » . ان « الناصرية » لم تكن فى الأصل كلمة مصرية ، وانما نبعت من العالم العربي من وراء حدود مصر، كما كان الحال فى القرن التاسع عشر اذ ان الوحدة الألمانية كانت تلقى حماسا اكبر فى النمسا وفى الولايات الالمانية اكثر من بروسيا ذاتها .

وعلى اية حال فان قلة من الرجال قد نجحوا عقب الحرب العالمية فى ربط اسمائهم بأيديولوجية مثل ستالين ، وديجول ، ماو ، وناصر .

ويشيد بالسادات اليوم بوصفه « جندى السلام » وفى بعض الأحيان « الحرب والسلام » غير انه ليس ثمة ساداتية ، اذ انه لا يمثل ايدلوجية .

ويقول شامير : ان ناصر كان يمثل ايدلوجية نظرا لانه كان اول زعيم عربى فى العصر الحديث « عربيا اصيلا » اى مصريا او عربيا اصيلا وليس سياسيا شرقيا اووربى الوجهة ، او (برجوازيا) او (ليبراليا) او (شيوعيا) او (فاشيا) وفى حقبة عدم تحديد الوجهة « الهوية » تمكن ناصر من ابراز نفسه كرجل المصير ، المنقذ او الدليل او المهدى او (الفوهرر) الذى سوف يخرج العرب من الظلمات الى النور . ويستشهد شامير بقصيدة كتبها نزار قبانى جاء فيها ما معناه :

ان اقداحنا مملوءة لك

حبنا لك

مثلما يسكر الصوفى بروح الله

ومنذ عام ١٩٧٤ نشرت العديد من الدعايات المرتدة فى مصر ولبنان هاجمت ناصر شخصيا ووصفته بأنه رجل فاسد تظاهر بأنه شخص فاضل وزاهد الا انه عاش فى رفاهية غير محتشمة .

وينتحب النقاد على ميراث النفاق وعدم الثقة الذى خلفه ويشجبون فترة حكمه ويصفونها بانها « عصر الارهاب » ، « السنوات التعيسة » فى « جمهورية التسجيلات » حيث كان كل فرد يتصنت على كل شخص آخر ويضارب مستعينا بجهاز التسجيل — يستخدمه فى تحقيق مصالح شخصية وتدبير المؤامرات .

وهناك العديد من المذكرات الشخصية المليئة بالاسرار القذرة مثل « الصامتون يتكلمون » و « الحياة السرية لناصر » التى تكشف لنا كيف تعرضت المحاكم لضغط وتم تهديد القضاة بالانتقام اذا لم تتلاءم احكامهم مع خط الحكومة . وكيف تم التلاعب بالصحفيين والكتاب وكيف جردت نقابات

العمال من حقها فى الدفاع عن مصالح العمال . غير ان المذكرات تشجب — اولا وقبل كل شىء — الارهاب والمعتقلات وغرف التعذيب التى اقامها البوليس السياسى فى عهد ناصر .

وفى الجزء الثانى من مذكرات مصطفى امين ، وهو صحفى بارز ورئيس تحرير صحيفة « الأخبار » سابقا ، كان ناصر قد زج به فى السجن بتهمة الاتصال باحد الدبلوماسيين الأجانب ، جاء بها « فى السجن كان الجواسيس الاسرائيليون يعاملون كسادة فى حين كان يعامل المعتقلون السياسيون المصريون مثل العبيد وكان ذلك يرجع الى ان الجواسيس الاسرائيليين متهمون باهانة الدولة فى حين ان المعتقلين السياسيين متهمون باهانة الطاغية » .

وقد تصاعدت عمليات الكشف عن حقبة ناصر ووصلت الى ذروتها فى عام ١٩٧٥ . الا انها بدات تخف منذ ذلك الحين — اذ لم تكن قد توقفت كلية بناء على اوامر صدرت فيما يبدو . ربما يكون السادات قد ساوره شعور بان حرية التعبير هذه يمكن ان تشكل تهديدا لنظامه نفسه . وكانت تلك الحملة — اثناء قيامها — تذكر المرء بعملية الكشف الحذر عن اخطاء ستالين فى عهد خروشوف .

ومع ذلك لمس ناصر — بلا ريب تلك الأوتار العميقة فى ضمير مصر الحديثة ومن ثم لايزال هناك — على نحو لايبعث على الدهشة — قدر من المشاعر المتضاربة والحنين الذى ينبعث من ان لآخر .. والحنين بالطبع هو السمة المميزة لكافة أوجه النقد التى وجهها رفقاء ناصر السابقون للسادات . اذ كانوا يأملون فى السيطرة على السادات عقب وفاة ناصر ، الا انه جردهم بدلا من ذلك من كافة سلطاتهم المفرطة .

ويثير اسم ناصر حنينا مماثلا لدى اليسار الشيوعى وغير الشيوعى ايضا .. وقد عانى الشيوعيون ايضا فى عهد ناصر غير أنهم يمتعضون من اتجاه السادات الغربى ويندددون باعادة ادخال الاقتصاد الحر على نحو تدريجى وبزوغ طبقة جديدة من الراسمالية والالغاء الجزئى لسيطرة الدولة — كما كان الحال فى ظل ناصر على الصناعة والمصارف والأعمال التجارية ، وكانت الدولة مسيطرة على ذلك فى ظل ناصر .

ولا تزال المشاعر المتضاربة ايضا سمة الآخرين الذين يتطلعون بأسى لعصر العمالقة « الذى لم يعد موجودا .. اذ ان محمد هيكل فى كتابه الخاص عن ناصر ينقل بعض اقوال أندريه مارلو . الذى نافح — بشكل بارز — عن ضرب من ضروب قومية — متشددة .

فقد صرح مارلو لهيكل قائلا « بغض النظر عن كل شىء ، وبغض النظر عن النجاح او الفشل ، الانتصار او الهزيمة .. ارى أن ناصر سوف يصور فى التاريخ بانه تجسيد لمصر مثلما اضحى نابليون تجسيدا لفرنسا » .

غير ان من الصعب على اى شخص اجنبى أن يفهم لماذا يتعين على فرنسا أن تشعر بالامتنان البالغ حيال نابليون ولن يجد تلك الصعوبة

ف فهم ذلك التعاطف الجياش حيال ناصر ، الأمر انه تعاطف ظل باقيا بين الحطام .

وليست الثورة الفرنسية هى التى يعرب الفرنسيون عن اعجابهم بها عندما يقرون بحبهم لنابليون .. غير انه بالنسبة لناصر فان العديد من المصريين لايزالون يحبون ماوصفه توفيق الحكيم بانه « امل » « خالد » وربما ساذج .. امل قوى بالنسبة للأطفال ان نابليون لم يكن جاهلا او ساذجا .. ولكن ثورة ناصر كانت ثورة ساذجة وكانت تتسم بالبراءة على نحو غريب فى مستهلها على الأقل . اذ كان الضباط الأحرار يودون تطهير السجل تطهيرا كاملا كى يحكم البلاد الساسة الوطنيون المؤهلون على نحو افضل لتلك المهمة .. وفيما بعد فحسب بداوا يتسوقون الأفكار .

وكتب ناصر فى كتاب « فلسفة الثورة » (الذى نشر باللغة الانجليزية عام ١٩٥٦) ما معناه : لقد توجهنا الى اهل الراى طلبا للنصيحة والمشورة وذهبنا الى ذوى التجربة لارشادنا .. ولسوء الحظ لم نجد الكثير لدى اى منهم .

اذ ان كل فرد توجهنا اليه لم يكن لديه ما يوصى به سوى قتل شخص آخر وكل وجهة نظر اصغينا اليها لم تكن سوى هجوم على بعض الآراء الأخرى ..

وغمرتنا الالتماسات والشكاوى .. غير ان معظمها لم يكن فى كثير او قليل سوى طلبات للثأر كما لو كانت الثورة قد تمت كى تصبح سلاحا فى يد الكراهية والحقد .

وفى النهاية اضحت الثورة كذلك على يد ناصر ، حكومة شرهة تهيمن عليها الكراهية والحقد ، كما قال توفيق الحكيم شاكيا ، غير انه حتى توفيق الحكيم عندما نشر هجومه الحاد على انقلاب ناصر وعلى طغيان ناصر وعدم نزاهته اعترف قائلا : اننى فى اعماق قلبى اكن له الحب ، ولم يلم فى هذا الا نفسه .. وكتب الحكيم يقول : انه حتى اذا غفر التاريخ لناصر ، وربما يغفر ، فاننى لا اتوقع من التاريخ ان يغفر لشخص مثلى رجل مفكر سمح للعاطفة ان تغشى عينيه وتفقده وعيه بما كان يحدث حوله .

ويستشهد شامير بلويس عوض الذى قال : ان مسئولية المثقفين عن اخطاء ناصر تفوق مسئولية التكنوقراطيين .. اذ كان يتعين عليهم ان يكونوا اكثر ادراكا .

واتصفح كتاب هيكل الخاص بناصر « وثائق القاهرة » رغم ان هيكل يعجب — غير آسف — بناصر ، فانى اجد انه يخوض بتبصر فى شخصية ناصر .. والانطباع الأساسى الذى لمسته عن ناصر هو انطباع ببراءة طفلية وتلك البراءة تتحول امام النجاح الى جنون العظمة ، وامام الفشل الى غضب وازدراء مدمر للذات .

وشأنه شأن الشخصيات المنقذة الأخرى كان يساوره احساس بالانقباض — ان الأحداث التى كان يبدؤها كانت تنتهى دائما بما هو غير متوقع « الى حد ان من يكتبون سير القديسين يجدون انه من العسير التغاضى عنها . والتعبير الأساسى الذى يتكرر فى كتاب هيكل يتمثل فى ان الأحداث التى صنعها ناصر كانت يفلت زمام السيطرة عليها دائما .. ويبدو ان العديد من الأحداث الكبيرة التى صنعها كانت من وحى الضيق او الغضب او الحقد .

وعلى سبيل المثال اتفاقية التسليح المصرية السوفيتية فى عام ١٩٥٥ ، تأميم قناة السويس ، الاعتراف بالمانيا الشرقية ، حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ .. ووفقا لما قاله هيكل : تصورات ناصر لم تكن افعالا وانما ردود فعل .

ويزعم هيكل انه فى لحظة معينة كانت الأحداث تتخذ ببساطة سبيلا حتميا وقلما يسرد سبب ذلك .. ولو لم يكن ناصر متهورا على ذلك النحو فى اغلب الأحيان لما كانت الأحداث تتخذ سبيلا حتميا هكذا .

ويقول هيكل على سبيل المثال : انه عندما وجه ناصر الدعوة الى ديكتاتور المانيا الشرقية ، وولتر اولبريتش ، لزيارة القاهرة لم يكن يستهدف بذلك اهانة المانيا الغربية .

ويود هيكل ان يدفعنا للاعتقاد بانه لم يكن بوسع ناصر رفض رجل مريض « اراد الاستشفاء تحت اشعة الشمس » .. ومن العسير قبول ذلك ، الا انه من الآن فصاعدا اتخذت الأحداث مرة اخرى سبيلا حتميا .

ويقول هيكل : ان ناصر كان يمقت الحرب وربما كان ذلك صحيحا .. وفضلا عن ذلك ، كما يقول هيكل ، تكهن ناصر حتى بهزيمة ١٩٦٧ ، واذا كان قد اشعل تلك الحرب فان ذلك كان يرجع الى انه راى نفسه مرغما الى العمل بالنيابة عن الأمة العربية ويود هيكل ان نعتقد ان ذلك كان عملا انتحاريا لأسباب وطنية .

ونتابع ماهو اسوا اذ يزعم هيكل ان ناصر قد حذر القوات الجوية المصرية من — احتمال توجيه ضربة اسرائيلية خاطفة .. وعندما حدثت تلك الضربة ، حدثت « مثلما توقعها ناصر تماما » .. كان ناصرا لم يكن اكثر من مجرد معلق — هيكل آخر يستحق الثناء لما يتسم به من نفاذ بصيرة فى حين توجه الاتهامات الى الآخرين لعدم الالتفات الى نبوءته المحددة .. ويقول هيكل : ان القادة قد قرروا الانسحاب من سيناء دون — مشاورة ناصر .. وعندما سمع ناصر ذلك بكى « لأول مرة منذ طفولته » وهرع الى مقر القيادة العامة (الم يكن من المتعين ان يتواجد هناك فى المقام الأول ؟) غير ان الوقت كان متأخرا للغاية .. اذ ان الجيش كان قد سحق .

ان ذلك الانطباع بالسذاجة المخادعة لا يعضده بالضرورة كتاب

ناصر الذى نشره عقب الانقلاب بفترة وجيزة تحت عنوان رنان الا وهو « فلسفة الثورة » ، ومذكرات الديكتاتوريين ، حتى تلك التى يكتسبونها بانفسهم ، لا تعد بصفة عامة اكثر من مصدر للمعلومات يمكن الوثوق به .. وفى حالتنا هذه كتب محمد هيكل نفسه مذكرات ناصر فهو كاتب الرئيس ناصر .

وفى كتاب « فلسفة الثورة » يوضح ناصر نظريته الشهيرة الخاصة « دور يبحث عن بطل » ويتحدث عن ثلاث « دوائر » كبرى تنتظر تحريرها على يد منقذ ، منقذ مصرى ، ومن المفترض انه هو شخصيا / اذ سوف يشترك خمسة وخمسون مليون عربى ومائتان واربعة وعشرون مليون افريقى واربعمائة مليون مسلم (وتلك الارقام هى ارقام عام ١٩٥٤ ، وربما تضاعفت منذ ذلك الحين) .. سوف يشتركون معا فى « عمل متفاعل » وسوف تصبح رحلة الحج الى مكة « بمثابة مؤسسة ذات قوة سياسية كبرى » ويتعين استخدام تلك القوة بحكمة .. وانما « بدون حدود » ايضـــا .

وربما كان من المبالغة اعتبار كتاب « فلسفة الثورة » كما اعتبره جى موليه وسلوين لويد فى عام ١٩٥٦ ، ودالاس وايزنهاور فى وقت لاحق ، صورة جديدة من كتاب هتلر « كفاحى » كشف فيه هتلر شرقى عن اجرا احلامه الخاصة بتحقيق امبراطورية ومكاسب من خلال الغزو .

ومع ذلك لم يكن ناصر مطلقا ذى الشخص البرىء المقـدس الذى حاول هيكل تصويره فى كتابه الذى نشره عقب سنوات لاحقة .. اذ انه كان فى الامكان تحقيق حلم الامبراطورية لو كان ناصر اكثر تعقلا .. ان التهور ليس براءة . لقد كان « بسمارك » حصيفا .. وكان ناصر مجرد شخص يتحدى شخص غير مكترث ، وطائش .

ويقول السادات فى مذكراته : ان ناصر قد ابتلى « بعقـد » رهيبـة منذ طفولته وفى كتاب « فلسفة الثورة » الصق ناصر تلك العقد بجمهوره ، كما فعل العديد من الساسة قبله وبعده ودفع الشعب الثمن .. وفى النهاية فعل ذلك ناصر .. ويزعم هيكل ان ناصر قد توفى فى الواقع فى عـــام ١٩٦٧ .

وقد حصلت على نسختى من كتاب ناصر ، وهى نسـخة بالية الى حد ما ، فى عام ١٩٥٦ من المكتب الاعلامى فى السفارة الاسرائيلية فى واشنطن وكانت السفارة قد اشترته ، وقامت بتوزيع النسخة الامريكية كلها تقريبا ، كى تتأكد من ان الكتاب قد وصـل الى كل عضـو فى الكونجرس ومجلس الشيوخ .. وكل كاتب مقـال افتتاحى فى الولايات المتحـدة .

لم يكن هناك فى ذلك الوقت ، وسيلة دعائية مضادة لمصر افضـل من هذه الوسـيلة .

* * *

وثمة حادث يبعث على السخرية وقع لى فى الليلة الماضـية بينما كنت اسير فى ميدان التحرير ، ذلك الميدان الكبير الذى يقع خلف فنـدق هيلتون على ضـفة النيل وكنت قد قضيت المسـاء مع احد المثقفين « اليسـاريين » الذى اكد لى ان السـادات سوف يتم الاطاحة به فى القريب العاجل ، كما انه ليس هناك تأييد شعبى كبير فى الواقع لمعاهدة السلام هذه ، بعكس مايبدو .. الا انه لم يقنعنى او يقنع ايا من الآخرين الذين كانوا مجتمعين فى شقة احد المحامين التى تطل على النيل .. غير اننى خرجت من ذلك اللقاء باحسـاس بالاحباط لما بدا بوضـوح بمثابة معارضـة عميقـة من جانب طبقة معينـة من المثقفين المصريين لاقرار معاهدة سـلام مع اسرائيل .

وبينما كنت اعبر ميدان التحرير فى طريق عودتى الى مقر اقامتى ، تقـدم لى شـاب حسن الطلعة وسألنى عن الوقت .. ثم دار حديث بيننا وسألنى من اى بلد قدمت ، وعندما قلت له اننى قادم من القدس ، احاط عنقى بذراعيه وقبلنى على وجنتى وصـاح قائلا بعاطفة جياشة « مرحبا » ، « مرحبا » . ومضى يقول « سـيدى لقـد كنا ندعو الله ونصلى طوال سنوات فى سبيل تحقيق ذلك اليوم .. ان الحرب سيئة سيئة للغاية . والسلام امر عظيم جدا . واسرائيل دولة طيبة جـدا ، ومضى يتحدث بهذه النغمة ويضغط على يدى .. ويربت على كتفى . وخيل لى ان الدموع ترقرقت فى عينيه — وتبدد عنى — كما يتبدد الضباب — ذلك الاحساس بالاحباط الذى راودنى عندما تركت منزل المحامى .. ثم صـافحته ووجهت له الشـكر .

ثم مال على وقال : « اسمع . عندى اربع فتيات . حسناوات جدا . وصغيرات السن جدا .. اثنتان ايطاليتان .. واثنتان يونانيتان .. تريد واحـــدة ؟ .

ان اصداء مايتسم به المصريون من « دماثة الخلق » وحسن المعاشرة قد اشـار اليها العديـد من المراقبين بدءا من ادوارد لين حتى الوقت الحاضر .. وهناك حركة سائدة بين اليساريين .. وغيرهم من المعارضين للرئيس السادات تستهدف ابراز معارضتهم لمعاهدة السلام مع اسرائيل « تلك المعاهدة التى اوحت بها امريكا » . اذ عقدوا العزم على مقاطعة الاسرائيليين الزائرين لمصر ، وانهم لن يقـابلوا او يتحـدثوا مـع اى اسرائيلى .. ويعد س.هـ واحدا من المحرضين على اقتراح المقاطعة .. ولكن نظرا لانه دمث الخلق واسع الاطلاع يتسـم بالجاذبية فانه عندما اتصلت به تليفونيا وجه لى الدعوة لتناول الغذاء فى النادى لتوضيـح سـبب مقاطعته لى .

ويفسر موقفه قائلا وهو يقدم لى طبقا من الجمبرى المشوى وزجاجة نبيذ ابيض « ان الامر ليس مسألة شخصية » بل انه مسـألة مبدأ .. اذ يتعين ان نحتج على خيانة السادات للقضية العربية .

ثم تحدث عن اصدقائه الحميمين ومعارفه فى اسرائيل — وغالبيتهم يساريون وغالبا ماتقابل معهم فيما مضى ، فى ايطاليا وفرنسا ، فى فترة كانت مثل تلك الاجتماعات تماثل الخيانة تقريبا . وطلب منى ابلاغهم اطيب تحياته .. غير أنه اسف للغاية اذا جاءوا الى مصر ولم يتمكن من لقائهم مرة اخرى .. ويكرر قائلا : ان الأمر ليس مسألة شخصية .. بل انه مسألة مبدأ « ويعرب عن ثقته فى ان اول سفير اسرائيلى لدى مصر سوف « ينبذ » اجتماعيا .. ويقول : « يتعين علينا اتخاذ موقف » .

الفصل الثامن

لايزال يحيرنى تلك السهولة النسبية للتحول النفسى الذى تنتقل به مصر من حالة الحرب الى السلام ، ويبدو من الظاهر ان تحويلة القطار قد تغيرت ودفعت به الى سبيل مختلف .. ان المشاعر التى سارت فى طريق واحد لفترة تسير الآن فى طريق آخر بيسر وفاعلية وقليلة هى النكسات الناجمة عن الاقتلاع او التكيف .

وفى اسرائيل كانت الحكومة والراى العام يطالبان بصخب دائما باقرار سلام .. ولم يكن هناك سوى مظاهر ضئيلة تنم عن الكراهية للعدو ، او دعاية صريحة للحرب فى وسائل الاعلام او فى المناهج الدراسية ، كما كان المجال فى مصر .. ومع هذا كان التحول النفسى من الحرب الى السلام يبدو اصعب فى اسرائيل منه فى مصر .. ان الأمر ليس مجرد مسألة ايمان او عدم الايمان بقطعة ورق تم التوقيع عليها بصورة وافية واطلق عليها معاهدة السلام .. وانما هى مشكلة اعادة تكيف ذهنى ..

ان الموقف الجديد لم يكن عدد كبير من الاسرائيليين يعتقدون انهم سوف يشهدونه ابان حياتهم .

وينطبق نفس القول على غالبية المصريين الذين قابلتهم .. اذ يقر عدد كبير منهم بأنهم قد « اجفلوا » او « ذهلوا » بمبادرة السلام التى قام بها السادات الا انه سرعان ماكيفوا انفسهم معها .. اذ كانت هناك الحرب والآن هناك سلام .

وقد يبرر خبراء مدرسة الاستشراق القديمة ذلك التناقض الواضح ملتجئين الى التعميمات المعتادة عن الشخصية « العربية » . اذ انه بتحليلها وتجزئتها ثم تجميعها مرة اخرى وصيانتها فى العديد من العبارات العلمية نجد انها تردد نفس الكلام البلاغى الأجوف الذى يعزونه الى موضوع بحثهم ويمثل فى الاذهان فى التو الخطيئة المنمقة التى وردت فى كتاب « اعمدة الحكمة السبعة » الذى كتبه تى . اى . لورنس ، اذ جاء فيها :

« هؤلاء الناس هم ناس الأسود والأبيض ، ولا ينسحب هذا على رؤياهم وحسب بل يتعداه الى اعمق اعماقهم .. الاسود والأبيض ليس فى مجرد الوضوح وانما فى المعارضة ، ان افكارهم لا ترتاح الا فى الأضداد .

اختاروا أفعل التفضيل عن عمد .. انهم يتذبذبون من خط متقارب الى خط آخر متقارب ... المهم اهل التشنجات ، الانتفاضات .. وانهم لمصابون بعمى الالوان » .

ويقول لورنس بعد بضعة أسطر ، انه منذ فجر الحياة والعرب « يتدافعون ويلطمون شطآن اللجم » فى موجات متتابعة ولا ادرى ماذا يعنى بهذا .. « والعرب يتسمون بضيق الأفق ويرقد ذهنهم الخامل هاجعا فى استسلام غريب » . وفجأة يلقى لورانس بهذه العبارة « بوسع العرب التأرجح على فكرة مثل التأرجح على حبل » .

واذ كان هناك حبل فى مكان ما ، فانه يخيل الى انه كان يجذب من كلا الطرفين .. من يدرى ربما لم تكن الكراهية الشعبية حيال اسرائيل عميقة قط فى الواقع ومثلما كانت تتظاهر بها دعاية ناصر ؟ وتشير كافة الأحاديث التى جرت مع مختلف المصريين ، وبعض الدلائل العامة المدعمة بالوثائق كذلك الى أن السادات فى سعيه للسلام لم يكن يقود الشعب المصرى بل كان يتبعه .. لقد استجاب للرجل العادى الذى ارهقته الحرب والتضحية ، كما استجاب للمفكرين والشخصيات الادبية البارزة الذين شكلوا شيئا يماثل حركة السلام .. ويكتب البروفيسور « برنارد لويس » المتخصص فى الشئون العربية فى جامعة برنستون بأمريكا قائلا : « ان السادات عبر عن رغبة عاشت وتدعمت لفترة طويلة .. وقد اهتدى هو نفسه الى تلك السياسة على نحو متأخر نسبيا .

ترى كيف تطورت تلك الرغبة رغم ثلاثين عاما من التلقين المكثف ؟ ذلك سؤال جذب حتما المتخصصين فى الشئون العربية ودارسى علوم الدعاية كذلك ، فى حين ان بعضنا ممن يشكون من هذا الجانب او ذاك من مناهجنا الدراسية ، قد يضايقهم او يسعدهم الا يكون تأثير المدرسين على التلاميذ الصغار كبيرا كما كنا نعتقد .

ويقول استاذ أمريكى فى احدى الجامعات المصرية : انه منذ بضع سنوات خلت طلب من احد الطلبة سرد وجهة نظره بشأن النزاع العربى الاسرائيلى قال الطالب : « اننا سوف ندمرهم بمشيئة الله » وعقب بضعة أسابيع عقد الأستاذ الأمريكى ندوة بشأن « مصر فى عام ١٩٩٠ » .. وكان السؤال الذى طرحه على طلبته هو « ما الذى ستكون عليه العلاقات بين مصر واسرائيل فى عام ١٩٩٠ » ؟ .

أجاب الطالب ذاته قائلا : « حسنا اننا سوف نتوصل بطريقة ما الى تسوية معهم » . يقول الأستاذ الأمريكى : ان ذلك ما يطلق عليه علماء الاجتماع حالة تنافر توقعى .

لقد قمت بزيارة عدة مدارس خلال الأسبوع الماضى فى القاهرة والأقاليم .. والانطباع الأساسى الذى خرجت به هو انه ليس ثمة أثر كبير اذا كان هناك اى أثر — مميز لدعاية الحرب الهائلة وكراهية الجنس التى انغرست فى أذهان الأطفال المصريين طوال العديد من السنوات وبعض

الأمثلة الأكثر وضوحا لذلك التمييز العنصرى تعد بمثابة معلومات عامة .. ولم يخفها المصريون انفسهم قط .. وقد قام الدارسون الجادون باعداد وثائق بصددها .. وتم نشر العديد من الدراسات التى ترتكز على مختارات من الكتب المدرسية المصرية .

وقد برزت افضل الأمثلة المعروفة ، وربما أكثرها تطرفا ، الى الضوء فى عام ١٩٦٧ ، عندما احتل الجيش الاسرائيلى غزة ، فقد تم العثور على كمية كبيرة من تلك المادة فى المدارس المصرية التى تديرها الحكومة المصرية ، هناك التوجيهات الرسمية التى اصدرتها وزارة التعليم المصرية ، والكتب المدرسية ، ورسومات الأطفال وموضوعات الانشاء .

وتضمن احد كتب القواعد العربية تدريس اداة التعريف « ال » مدعمة بأمثلة مثل « ان اليهود هم اعداء العرب اللدودن » . وفى احد تمارين الحساب طلب من التلاميذ حل المسألة التالية : « اذا قتل ستة من الفدائيين الأبطال اربعة من اثنى عشر جنديا يهوديا ، فما عدد اليهود الذين ظلوا على قيد الحياة ؟

ويطالب تمرين آخر فى القواعد تحويل جمل مثل « ان العدو قد هزم » « العدو قد الحقت به المهانة » . « ان العدو متعطش للدماء » تحويلها الى المستقبل والماضى .

وفى احدى المدارس الابتدائية عثر على موضوع للانشاء فى الصف الرابع ومنحه المدرس درجة « ممتاز » جاء فيه : اننى اشعر بالظما والشمس تضرب رأسى .. ان كوبا فحسب من دماء يهودى هو الذى يمكن ان يروى ظمئى » .

ووجدت العديد من رسومات الأطفال تصور الدبابات المصرية وهى تسحق الاسرائيليين الذين انتابهم الهلع تحت جنزيرها . وجنود يضعون شارة نجمة داود يحملون سكاكين ضخمة لذبح سيدات عربيات واطفال .

ولم اجد اى آثار لذلك على الاطلاق فى المدارس التى زرتها اذ تمت بزيارة ست مدارس حتى الآن ، اثنتان منهما بناء على ترتيب مسبق من وزارة التعليم .. وتوجهت دون سابق انذار الى اربع مدارس اخرى فى القاهرة والأقاليم القريبة .. وسمح لى بتبادل الحديث ، بحرية الى حد ما ، مع المدرسين ولم اجد اية اختلافات ملحوظة بين مختلف المدارس . اذ وجدت فى كل مدرسة حوائط مغطاة برسومات الأطفال التى تشيد بمقدم السلام ونقوشا باللغة العبرية « شالوم » . ان وجود مثل تلك الرسومات والشعارات ربما تكون بناء على توجيهات وزارية .. ومن الجلى ان الرسومات تعكس مشاهدة الأطفال لتليفزيون الدولة ، ومع ذلك وفى الوقت نفسه توجد درجة ملحوظة من التلقائية واضحة فى نسيج اللوحات وتكوينها . ان وسائل الاعلام توحى بلا ريب للأطفال بتمجيد جهود السادات الرامية الى اقرار السلام ووصفها بانها بطولية ، تاريخية ، وتستهدف النفع العام وهلم جرا .

وقد ظهر السادات مرات عديدة على شاشة التليفزيون ، وتذاع خطاباته الكثيرة بالكامل ، ثم يعاد اذاعتها ثلاث او اربع مرات .

غير انه فى العديد من الرسومات تخصص مساحات مماثلة لبيجين وموشى ديان والزعماء الاسرائيليين الآخرين . وطبيعى ان يحلق فوقهم يمام كثير ، وتصور غالبية الرسومات العديد من الاعلام وصور السادات وهو عائد منتصرا الى القاهرة من مؤتمر السلام والأعداد الوفيرة تحييه .

وفى عدد من الرسومات ترجمت صور السلام بخيالات ساذجة — لازيف فيها — تنطوى على طبيعة غير سياسية . اذ يصور السلام على انه شخص يجلس بارتياح ويداعب بسعادة عددا كبيرا من الدمى العجيبة او يتجه الى حمام سباحة .. ويصور السلام على انه طفل يرتدى ثيابا غريبة أنيقة ويرقد فى صدر عريض لأم على شكل هرمى غريب .

وصورة اخرى تصور السلام وهو يلتقط زهورا ، ويلعق (آيس كريم) احمر واصفر اللون من وعاء مخروطى ضخم .. وفى صورة اخرى اصبحت الدبابات بمثابة دمى فى الفناء وواحدة مربوطة فى محراث ، تجره عبر حقل اخضر ملىء بأخاديد طويلة ذات لون بنى داكن . ان الالوان تتسم بالحيوية على نحو غير عادى . وقيل لى : ان ذلك هو سمة رسومات الأطفال المصريين كما هى سمة رسومات (هيتان) اذ يهيمن على الرسومات الوان فاقعة من الأحمر ، الأزرق ، الأخضر والأصفر .

وفى كل مدرسة زرتها سمح لى بزيارة العديد من الفصول وقيل لى انه بوسعى التحدث مع التلاميذ كما اشاء والنظام المدرسى المصرى صارم بصورة نسبية . كما أن العلاقات بين التلاميذ والمدرسين رسمية الى حد ما . وفى ظل تلك الظروف كان الحوار مع التلاميذ ، ورغم انه اتسم بالود كان حوارا رسميا الى حد ما وربما زاد من توتره وجود المدرس وما يصاحب ذلك من رهبة .. غير انه فى كل فصل زرته طلبت من التلاميذ ايضا كتابة موضوع انشاء صغير بشأن السلام وما يعنيه بالنسبة لكل من مصر واسرائيل فى رايهم .

وتم كتابة موضوعات الانشاء بصورة تلقائية وبدون توجيه ، واعطيت لى دون ان يقراها المدرسون .. وفيما يلى بضعة مقتطفات :

« ان الشعب اليهودى كان مشتتا ، انهم اناس مروا بمعاناة لا توصف لقد خرج بهم موسى من مصر عقب الأهوال التى لاقوها على يد فرعون . وقد عانوا كثيرا فيما بعد . واسوا ما عانوه ذلك الذى واجهوه على يد الألمان الذين احرقوهم ، وفى عصرنا الحديث منح لهم موطن خاص بهم . انهم يستحقونه ، ان اسرائيل تستحق العيش فى سلام اذا ما انسحبت قواتها من الاراضى المحتلة من سيناء والضفة الغربية » .

تلميذ من الصف التاسع .

« اننى اؤيد تلك المعاهدة ايضا نظرا لاننى تاثرت شخصيا بحرب اكتوبر اذ ان احد اقاربى سقط فى تلك الحرب .. وقد لاحت لنا فرصة للسلام ، واننى ادعو كافة العرب لانتهاز تلك الفرصة . ان السلام اجمل ما فى الحياة ، ان الله قد امرنا فى كتبه المقدسة بالسعى الى السلام .. ان الحرب لاتسبب الا الأسف والدمار للجميع وأعتقد ان السلام سوف يحقق رفاهية دائمة لكل مصر واسرائيل .. ويتعين علينا ان نتعاون .

تلميذ من الصف العاشر .

« ان اولئك الذين يعارضون هذه المعاهدة (فى دول الرفض العربية) بين مصر واسرائيل لا يمكن ان يعيشوا بدون حرب على الاطلاق نظرا لانهم هم الوحيدون الذين يستفيدون منها » . غير ان الأمم التى يقاتل بعضها بعضا سواء كسبت او خسرت هى الخاسرة فى النهاية اذ تخسر الأرواح والممتلكات .

ان السلام يعنى (بالنسبة لنا) نهاية الفقر والتخلف والمرض والجهل وليس بوسعنا مواجهة تلك المصاعب طالما ان كافة مصادرنا تحول الى شن حرب لا نهاية لها » .

وبابرام معاهدة السلام هذه فان كل مصرى يعيد تأكيد وجهته (هويته) المصرية وينظر بكبرياء الى الرافضين ومتعهدى العداء (لمصر) .
تلميذ فى الصف الثامن .

« والآن اذا استطعنا ان نتخلص من كافة الدول العربية فاننا قدنطالب كافة الدول المحبة للسلام بمساعدتنا نظرا لأننا قد تعاونا دون جدوى حتى الآن مع اولئك الذين يعارضون السلام . انهم أنفسهم لم يشاركوا قط فى اى حرب ولم يعانوا من الضيق والحرمان ، ان (العرب) الرافضين يعيشون فى رغد من العيش (يحققه لهم البترول) .

ان السلام هو الوصية العظمى للتوراة ، العهد الجديد والقرآن .. وكان الأنبياء يدعون الى السلام .. وحتى فى ايام النبى محمد تم ابرام هدنة مع اليهود وعاشوا فى سلام بعد ذلك .

تلميذ من الصف الثامن .

ان ديننا السلام ، وما كان له ان يسمى بالاسلام ما لم تكن تلك الكلمة مستمدة من كلمة سلم .. ويا أبناء الوطن الحبيب باركوا رئيسنا محمد انور السادات لكونه مسلما وربما يؤمن بالسلام » .

تلميذ من الصف الثامن .

« ان اسرائيل تريد السلام غير انها تهابنا . ويتعين قول الحقيقة ، حتى اذا كنا قد حاولنا انكارها فى الماضى .. ان اسرائيل موجودة كدولة

ومن لم يعتبر اقرار السلام بصورة عادلة ومن خلال التفاوض افضل من شن حرب غير مجدية . ان الدماء التى اريقت على أرض المعركة يجب ان تتحول الى شرايين للانسان الذى يشترك فى بناء وتعمير شعوبنا . ان اسعار البترول ترتفع ارتفاعا باهظا ، هل مصر هى المستفيدة ؟ لا . اننا نعانى فحسب من الحروب التى نخوضها فى سبيل العرب ، حروب لا يرغبون هم انفسهم فى خوضها » .

تلميذ من الصف التاسع .

« لقد نسينا او ربما اخترنا تجاهل ان ابراهيم هو اب كـلا الشعبين.

تلميذ من الصف العاشر .

* * *

وقد طرحت سؤالا على العديد من الفصول الا وهو : من منكم اشترك والده او احد اقاربه المقربين فى واحدة من تلك الحروب ؟ فمن واقع اعمارهم (وتتراوح ما بين اثنى عشر وسبعة عشر عاما) نجد ان الجميع قد خدم اباؤهم او اعمامهم فى الجيش .

وقد ساد الصمت عندما طرحت ذلك السؤال على تلاميذ الصف الحادى عشر فى احدى المدارس الثانوية التى تضم ابناء الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة .

والمدرسة مجهزة بمعامل ومكتبة طبية وملاعب فسيحة .. وينتمى غالبية التلاميذ الى عائـلات موسرة نسبيا .. وبعضهم ابناء الصـفوة السياسية والادارية الراهنة .. ويتضح ان والد او قريب اى منهم لم يخدم فى صفوف الجيش .

وكانت الاجابة مختلفة تمـاما فى الصـفوف السـادسة والتاسعة فى مدرسة تضم ابناء الطبقة المتوسطة الدنيا فى حى بولاق الذى يقع فى قلب القاهرة والصف التاسع مزدحم فى فصل صغير يطل على ارض مجاورة مليئة بالنفايات وتخلو تلك المدرسة من قاعات استماع انيقة ، وليس بها سيارات اتوبيس تقل التلاميذ ، او معمل او مكتبة او ملعب .

وتتقدم الدروس على ثلاث فترات مزدحمة من الساعة الثامنة صباحا حتى الظهيرة ومن الظهر حتى الساعة الرابعة مساء ومن الساعة الرابعة حتى الساعة السابعة مساء . ومن بين اثنين واربعين صبيا قال واحد وثلاثون : ان لديهم قريبا اشترك فى الحرب .

وطرحت عليهم سؤالا آخر الا وهو : كم منكم قد فقد قريبا له فى الحرب؟ رفع ستة وعشرون صبيا ايديهم .. ولم يتحدث احد دون اذن من المدرس ثم انطلقت اجاباتهم وكانها طلقات رصاص وترددت فى ارجاء الحجرة .

« لقد فقدت واحدا »

« والدى ...

« اثنان من اعمامى »

« قريب واحد »

« والدى »

« ابن عمى »

ابن عمى »

وادركت فجاة انه فى تلك الاجزاء ، كما كان الحال فى سفر (الخروج ١٢ : ٣٠ ، ان هناك ضجة كبرى فى مصر ،اذ انه لم يخل منزل من قتيل واحـد » .

وانتابنى شعور بالصدمة وربما شحب وجهى الى حد اننى لـدى مغادرتى الفصل شعر مدير المدرسة بالحرج الذى اعترانى فتأبط ذراعى وقال : « اننى واثق من ان هذا هو نفس الوضع فى المدارس الاسرائيلية .. ومن ثم كان من الأمور الطبية ان وجد بيجين والسـادات مخرجا لتلك المشكلة المروعة » .

* * *

وبينما كان يتحدث بنبرات جادة ، قدم مدرس التربية الرياضية من نهاية الممر تجاهنا .. وهو رجل قوى البنية يناهز الثلاثين من عمره ، وكان يرتدى قميصا أزرق اللون وحذاء ابيض خفيفا من القماش .. وقال مدير المدرسة « اقدم لك رجلنا الرياضى الكبير السيد جبار .. لقد كان ضابطا برتبة نقيب ابان حرب اكتوبر » واضاف قائلا : ربمـا كى يخفف من التوتر ربما بلمسة من الدعابة الكئيبة التى تردد انها تنتشر فى مصر ، قال « من المؤسف انك لم تقتله » .

بدا السيد حليم جريس حياته العملية فى عام ١٩٤٢ كمدرس فى احدى المدارس الابتدائية .. وبعد فترة وجيزة التحق باحدى كليات المعلمين واستكمل دراسته فى جامعة برمنجهام بانجلترا .. وهو اليوم يشغل منصب وكيل وزارة مسئول عن المناهج والامتحانات فى وزارة التعليم المصرية .. وشأنه شأن العديد من كبار الموظفين المدنيين فهو قبطى . ومكتبه كبير ، ويقع فى المقر السابق لأحـد الأمراء ، ويزدان الحائط بنقوش تصـور عظمة مصر الفرعونية .

وهو رجل متين البنية متوسط الطول ، وتتناقض عيناه اللتان يشع منهما الدفء ، والذكاء ، تتناقضان على نحو غريب ولكنه مستساغ مع مظهر وجهه المتشدد النحيف ، وخطوط فمه مرسومة برقة اسفل شارب خشن الشعر رمادى اللون .. ويبتسم ابتسامة عريضة .. وعندما يبتسم يتغير وجهه كما لو كان قد غير النقاب .

ويصبح الموظف الجاد وكأنه طبيب قرية صديقا يسأل عن صحة الاطفال والكلاب ويقول : انه هو ورفاقه كانوا يعدون للسلام منذ عام ١٩٧٤ .. كيف ذلك ؟ من خلال اعادة كتابة التاريخ .

ويقول : ان لجانا خاصة عديدة قد اجرت مراجعة شاملة لكتب التاريخ باسرها وتم سحب النسخ القديمة وصدرت الكتب الجديدة ، التى قامت على اساس مناهج منقحة ، الى كافة المدارس فى الجغرافية والتربية الوطنية .. وقد حذفت كافة الاشارات السلبية عن اسرائيل وكل ادانة لليهود وجميع الصيحات التى تطالب بالثأر .. ان السلام هو الرسالة الآن . وتختفى الابتسامة ويميل جريس الى الامام ويقول : « ولكن هل انتم على استعداد للسلام » ؟ . اقول « هل تشك فى ذلك » ؟

« حسن انكم شعب تتسمون بالفاعلية والنشاط » .

وأؤكد للسيد جريس ان غالبية الاسرائيليين يريدون حقا السلام بصدق وامانة .. ويشير جريس ضمنا الى انه لايزال تساوره بعض الشكوك . غير انه يود ان يؤمن هو وكل فرد فى وزارته بذلك .

وهناك مناهج جديدة متكاملة « للدراسات الاجتماعية والبيئية » مخصصة لتلاميذ الصفوف من الرابع الى السادس .. وتبدأ المناهج الجديدة بتعريف الأطفال باقليمهم المحلى .. وتستمر فى سرد تاريخ وجغرافية مصر منذ العهود القديمة حتى العصر الحديث . ويقول جريس : ان التركيز ينصب على مصر « فنحن أولا وقبل كل شىء مصريون ونحن عرب ايضا بالطبع ولكنى اكرر باننا لسنا سوريين او عراقيين او فلسطينيين » .

ويقول جريس : ان الكثير قد تغير منذ عهد ناصر ، وينبغى ان يدرك ذلك نظرا لانه قد شارك ايضا فى اعداد المناهج الدراسية السابقة فى عهد ناصر .

وكانت المناهج السالفة تركز على الدراسات العربية ، تاريخ العرب ومصير العرب وكنت ادرك فى ذلك الحين ان هذا لم يكن كافيا . غير ان الناصرية كانت مرحلة ضرورية لنضوج مصر . ويقول جريس : انه على مدى الفى عام كنا نعتمد على الآخرين .. وكان ناصر هو اول من حقق لنا الاستقلال غير ان تلك الفلسفة قد ولدت على ارض معارك فلسطين .. وكان ناصر مشدودا لذلك للغاية .. الا ان السادات رجل مختلف انه فلاح مصرى .

ويمضى جريس قائلا : ان الكتب الدراسية الجديدة تركز على احدث اساليب التعليم البيئى وقد تم تطهير المقررات التعليمية بصورة شاملة الى حد ان جريس لم يتمكن من تزويدى بأمثلة الكتب القديمة .

ويقول : انه تم طبخها لانتاج ورق جديد منها .. اذ ان الورق باهظ الثمن وينبغى دفع ثمنه بالعملة الأجنبية . ان الطفل المصرى يسمع كلمة

اسرائيل فى الفصل اليوم لاول مرة وهو فى الحادية عشرة من عمره . غير انه ليس ثمة شجب واتهامات بل مجرد حقائق .

وقدم لى جريس نسخة من الخطة الجديدة تضم الخطوط الرئيسية للمناهج وهناك ثمانية فصول تشمل « كفاح مصر من أجل الاستقلال » والفصل السابع يتناول اسرائيل . ويبدو انه يسرد الحقائق ويقدم مايبدو على الاقل بمثابة اطار موضوعى للدراسات . ويبدو من الظاهر على الاقل انه خال من الشجب ، رغم انه لا يخلو من بعض الاحكام القيمية على الماضى ممثلة فى :

١ ــ قيام دولة اسرائيل .

٢ ــ حرب عام ١٩٤٨ .

٣ ــ توسع اسرائيل الاقليمى .

٤ ــ العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ .

٥ ــ حرب عام ١٩٦٧ .

٦ ــ حرب عام ١٩٧٣ المجيدة : تضامن العرب وسلاح البترول .

٧ ــ مبادرة السادات للسلام : معاهدة السلام مع اسرائيل .

ويقول جريس : « اننا لم نعد نعلم اى فرد الكراهية » اذ ان الطفل يتعلم ان هزيمة مصر فى عام ١٩٦٧ كانت ترجع الى افتقار « الساسة الذين كانوا يحيطون بناصر » الى الاحساس بالمسئولية .. الا انه لا يلقى اللوم على اسرائيل لانتهاز الفرصة » وفى الجغرافية ندرس جغرافية العالم وندرس كوكب الأرض .

وقبل مغادرتى لمكتبه ، يعود جريس الى الحديث عما يصفه بروح التاريخ المصرى .. وتماثل عقيدته الأساسية عقيدة كمال الملاخ عالم الآثار . اذ يقول : « انه فى ظل حكم السادات اصبحنا مصريين مرة أخرى. تذكر ان جزءا كبيرا من تاريخ مصر يمكن ايجازه فى جملة واحدة الا وهى « لقد ارسل فرعون قواته لتأمين الحدود الشرقية » تلك حدودنا الحالية مع اسرائيل .. وطالما نشعر بالأمن من تجاه الشرق يكون بوسعنا تكريس انفسنا لما يردده كل مصرى وهو : السلام ، الهدوء ومباهج الحياة » .

ويحبذ جريس كثيرا التبادل الثقافى مع اسرائيل « بأسرع وقت » ، غدا مثلا وحتى اقامة معسكرات صيفية مشتركة للاطفال .. وثمة اقتراح يقضى بمحاولة اعداد كتاب مشترك للتاريخ (يتناول الأحداث التى وقعت على مدى الأربعين عاما الماضية لتدريسه فى المدارس الثانوية المختارة .. واقول لنفسى : انه اذا تحقق ذلك فانه سيكون بمثابة البداية « للعصر الذى يعيش فيه الذئب مع الحمل » . غير ان الأمر سوف يتطلب حذف الكثير من كتاب مشترك وفى النهاية قد « نأكل جميعا القش مثل الثيران » بيد ان جريس يحدوه الأمل.

ويقل ذلك التفاؤل الى حد كبير فى الدور الأعلى من المبنى ذاته ، وذلك فى مكتب الدكتور اسماعيل حسن المكيف الهواء .. والدكتور حسن يشغل منصب وزير التعليم ، الثقافة والبحث العلمى فى وزارة الرئيس السادات وكان فيما مضى رئيسا لجامعة القاهرة .. وفى المكتب الخارجى تعلق صور اسلاف الدكتور حسن فى ذلك المكتب . اذ أنه منذ عام ١٩٣٨ توالى على ذلك المنصب واحد وسبعون وزيرا للتعليم المصرى ، بمتوسط عامين لكل وزير .

ومن الجلى انه واحد من اشق المناصب العامة فى مصر .. اذ انه فى كل عام تقريبا يلتحق حوالى مليون طفل — او يفترض ان يلتحقوا — بالمرحلة الأولى الا ان التوسع المستمر فى التسهيلات المدرسية ، رغم كبر حجمها لا يضاهى نمو السكان الذى لا كابح له . اذ يقيد فى المدارس ما يناهز ثمانية ملايين طالب . غير ان المعدل الفعلى للأمية يبدو اعلى اليوم مما كان عليه منذ خمسة عشر عاما خلت .

وفى المستوى الابتدائى ، بلغت النفقات فى عام ١٩٧٨ لكل تلميذ ثلاثين دولارا فحسب .. اى ثلث المعدل الذى ينفق فى الدول النامية الأخرى .

ومن الشائع وجود فترتين دراسيتين ، كما أن نظام الفترات الثلاث ليس بالأمر النادر .. ومن جانب آخر يتسم النظام المدرسى بالتضخم الغريب عند القمة .. فقد التحق نصف مليون طالب بالجامعات فى عام ١٩٧٦ .. وقد توسعت الجامعات ابان الخمس عشرة سنة الماضية الى حد ان العديد من الخريجين لا يجدون العمل الملائم فى مصر ومن ثم يضطرون الى الهجرة .

وتلك المشاكل ، والعديد من المشاكل الأخرى ، تثقل كاهل الدكتور حسن اذ يبدو منهكا ، وليس ثمة ما يثير الدهشة فى انه لم يجد وقتا بعد للتفكير فى النتائج التعليمية والثقافية لمعاهدة السلام غير المتوقعة هذه .. ويبدو انه ليس فى عجلة من أمره .. وهو يتسم بالهدوء ومتحفظ وحريص للغاية ولا يعتريه اى من حمية وحماس حليم جريس حيال النزعة المصرية .

اذ يقول ان المشكلة الاساسية التى اثارتها معاهدة السلام تتمثل فى كيف نفسر للطلبة علاقات مصر الراهنة بالدول العربية .. ان الأزمة التى نشبت مع العرب وليس السلام ذاته نظرا لان كل فرد يعضده — تخلق المشكلة الرئيسية بالنسبة للمدرسين .

فماذا عن التبادل الثقافى ؟ عن اقامة معسكرات للشباب ؟ « **لا يتعين ان نسرع فى تنفيذ تلك الاشياء .. وليس فى هذه المرحلة الحرجة** » .

ويكرر تلك العبارة الأخيرة عدة مرات « ان كل شىء لا يزال دقيقا للغاية ومعقدا ومشحونا بالمشاعر المتضاربة » . ويفكر قليلا ينبغى مرور وقت كبير للغاية حتى يمكن تطبيع العلاقات . اذ انه عقب حل المشكلة الفلسطينية سوف تتعامل مصر مع اسرائيل « كما تتعامل مع اى دولة اخرى

فى اوروبا » (ولم يقل فى الشرق الأوسط) وحينئذ ربما يسمح الوقت ايضا لتبادل الطلبة واقامة حتى معسكرات صيفية للأطفال الاسرائيليين فى مصر .

فهل سيذهب الأطفال المصريون ايضا الى اسرائيل ؟ يقول الدكتور حسن : ان الأطفال المصريين فقراء للغاية .. وقلة منهم فحسب سوف تتمكن من تحمل مثل تلك الرحلة .

اليس من الجدير بالاهتمام التقريب بين شباب كلا البلدين فى مرحلة مبكرة ؟ ان ذلك قد يساعد على تحسين المناخ والقضاء على التحيزات ؟ وفضلا عن ذلك لا يستغرق الأمر سوى بضع ساعات بسيارة اوتوبيس من القاهرة الى تل ابيب .. يقول الدكتور حسن « لا » ان الظروف ليست مواتية .. ويردف قائلا : ان فى بلد يحبذ الشعب ان يسير وراء الزعيم لا امامه » .

* * *

وكان تحفظ الدكتور حسن عالقا بذهنى عندما لاحظت نشر سلسلة من اللقاءات الممتعة فى جريدة الأخبار مع الكتاب الذين قابلتهم ، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ ، حسين فوزى ، ويوسف ادريس .

وقد اجابوا على سؤال طرحه احد الصحفيين الا وهو : ما هو فى نظركم سبب تدريس وقراءة اعمالكم فى تل ابيب ؟ .

لم يكن ذلك السؤال سؤالا بريئا كلية . اذ انه فى الماضى شكا عدد من الكتاب المصريين — وليس هؤلاء — من أن الاهتمام الذى يبديه الدارسون الاسرائيليون بالأدب المصرى ليس سوى نمط من انماط « الحرب النفسية » ، ومحاولة « للتجسس » على العرب من خلال تحليل اشعارهم ورواياتهم .

وكانت تلك الشكوى تنطوى بالطبع على قدر من الحقيقة وهكذا اخذ الحوار وجهة اكثر امتاعا .

يتحدث توفيق الحكيم مرة اخرى بحنين عن علاقته الشخصية بأبا ايبان الذى ترجم احدى مؤلفات الحكيم الأولى (يوميات نائب فى الأرياف) الى الانجليزية منذ اربعين عاما خلت .. ويقول الحكيم : انه وافق على كتابة المقدمة لكتاب قادم يحمل عنوان « أصدقاء أبا ايبان » ترى من ذا الذى كان بوسعه ان يفكر فى احتمال ذلك منذ اقل من عام ؟ .

ولايبدو ان نجيب محفوظ قد اضطرب من حقيقة ان دراستين كبريين عن اعماله فى اسرائيل قد اعدها ضباط سابقون كانوا يتولون مناصب عليا فى الجيش الاسرائيلى .. ويقول : أن اهتمام القراء الاسرائيليين بصورة كبيرة بأعماله ينبع من رغبة جديرة بالثناء لشعب متحضر لمعرفة ثقافة جيرانه .

ويقول يوسف ادريس : ان وراء اية اسباب سياسية تكمن اسباب عاطفية .. اذ ان الاسرائيليين يدرسون مصر بوصفها ثقافة .. انهم يقراون الروايات المصرية نظرا لانهم يرغبون فى العيش فى تلك المنطقة مع مصر. انهم يريدون الاندماج فى ذلك الجزء من العالم واستيعاب تراثه .

ويقول حسين فوزى : « انهم يقراون كتبنا نظرا لأنهم يريدون العيش معنا » ويتعين على المصريين ان يتصرفوا بالمثل .. وحسين فوزى هو الشخص الوحيد الذى اشار الى تبادل العملية من الجانبين .

* * *

ان احدى العبارات الكبرى التى استخدموها هى « الاندماج فى المنطقة » اننى اسمع تلك العبارة دائما .. ترى ماذا تعنى ؟ اعتقد انها تعنى فى عديد من الحالات انه يتعين علينا الاندماج كما فعل يهود مصر من قبل ابعادهم ، كما يندمج الاقباط فى مصر ومسيحيو لبنان فى الثقافة العربية .. واجد انه من العسير الأخذ بذلك الى حد ما . اذ انه نمط من النرجسية الثقافية المتطرفة . وربما يستهدفون بذلك التعايش المتبادل كما كان الحال بين العرب واليهود فى اسبانيا ابان العصور الوسطى ، رغم ان ايا من الذين يدعون الى الاندماج لايقول ذلك صراحة .

ويبدو ان القلة تفكر فى الدفع بتلك النصائح قدما حتى النهاية ، غير ان التوقع العام يبدو انه يتمثل حتى الآن فى ضرورة ان يصبح الاسرائيليون عربا .

وغالبا ما اتساءل عن مدى جدية القصد . اذ ان بعض أولئك الذين يحثون الاسرائيليين على الاندماج ــ اى الذوبان ــ داخل الثقافة المهيمنة فى المنطقة يطالبون فى آن واحد بصبغ الفكر العربى بالصبغة « الغربية » او ينددون بكون الشرق الأوسط لم يمر بعصر العقل الذى اتسم به القرن الثامن عشر .. اننى لااسوى بين الراديكالية القوية للثقافة والتكنولوجيا الاسرائيلية وبين « المنطقة » بل اود ان اقول فحسب : ان اسرائيل قد « تختلف » عما يعتقد او يخشى العديد من المصريين وقد ظل العالم العربى نسيجا متعدد الألوان ان القاهرة لا تزال بلا ريب هى المركز الرئيسى للثقافة فى العالم العربى كما كانت باريس فى مطلع القرن بالنسبة لأوروبا والعاصمة الوحيدة التى تعد عاصمة حقيقية ، ولكن ما هو « الاندماج » القائم بين مصر والعراق باستثناء وجود دين مشترك ولغة كلاسيكية مشتركة أما اللغة المنطوقة فتختلف ؟ أو بين لبنان والعربية السعودية ؟ ان هناك تراثا مشتركا ، بالطبع كما كان الحال فى المقاطعات الأوروبية السابقة فى امبراطورية (كارولينيان) ومع ذلك نجد انه فى الوقت الذى تتجه فيه الدول الأوروبية حيال الوحدة ليس هناك من يطالب الهولنديين او الدانماركيين بأن يصبحوا فرنسيين او المانا لمجرد انهم يشكلون ثقافات اقلية .

« غير ان المجتمع اليهودى مجتمع منغلق ، فى حين كان المجتمع الاسلامى مجتمعا مفتوحا دائما » وتلك حجة اخرى يلذ للبعض ترديدها

وهى لاتصدق لمجرد ان عددا كبيرا من المستغربين الرومانسيين فى الغرب قد اقروها فى الماضى والحقيقة ان كلا المجتمعين مجتمعات مغلقة نظرا لانهما انغلقا لفترة طويلة للغاية وراء ستائر الايمان الذى حافظ عليهما عبر العصور .

وفى سبيل دمج مصائر الاسرائيليين والمصريين باى وسيلة ، سوف يتعين على الدولتين التخلى عن ذلك الانغلاق لتصبحا دولتين علمانيتين وسوف يتعين على كلتيهما فصل الدين عن الدولة وعن الأمة .

وكلتا الدولتين تتسم بالمحافظة فى ذلك الصدد ، وقد نما ذلك الاتجاه خلال العقد الماضى .

ثمة متحدث باسم المعارضة للسلام الا وهو كمال الدين حسين ، الذى كان نائبا لرئيس الجمهورية فى عهد ناصر ، واحد الضباط الأحرار الذين نفذوا انقلاب عام ١٩٥٢ ، وفى كتاب « فلسفة الثورة » يصف ناصر المشهد فى المواقع المصرية المحاصرة فى فلسطين فى عام ١٩٤٨ وكان الرائد كمال الدين حسين يجلس بالقرب منه فى الخندقيتطلع بعيون مشتتة وبنظرات عصبية حادة وتساءل قائلا :

« هل تعرف ماذا قال لى عبد العزيز (وهو ضابط زميل لهما) قبل مقتله » ؟ تساءل ناصر « ماذا قال » ؟ .

ويكتب ناصر قائلا : ان كمال الدين حسين رد بصوت متهدج ونظرة عميقة تطل من عينه « قال لى : تذكر أن ارض المعركة الكبرى هى مصر » وليست تلك الأجزاء الأجنبية .

ولايزال ذلك هو وجهة نظر حسين . ويتحدث بمرارة عما يراه من فساد متفش فى مصر هو نتيجة مباشرة لسياسة التحرر الاقتصادى التى ينتهجها السادات .

ان عصابة من المحتالين قد استولت على الاقتصاد ويحقق المحتالون ثراء على حساب الشعب . ان أيدى السادات نفسه ليست نظيفة ، كذلك ايدى زوجته جيهان .

وكمال الدين حسين واحد من الضباط الأحرار الأساسيين الأربعة الذين ظلوا يعارضون معاهدة السلام بقوة .. كما أن الرائد السابق خالد محيى الدين وهو شيوعى ، ضابط آخر من الضباط الأحرار الذين يعارضون المعاهدة ، وكمال الدين حسين على النقيض منه ، اذ انه عضو سابق فى جماعة الاخوان المسلمين شبه السرية .. وهو ليس ناصريا كلية ، نظرا لأنه كان قد تشاجر مع ناصر ابان الستينات واتهمه فى عام ١٩٦٧ « بتدمير » الشعب الذى كان ناصر يأمل فى استرداد كرامته بوصفه بشرا يتمتع بالحرية.

واختلف حسين مع السادات ايضا عقب توليه السلطة .. ويقول

ان السادات ديكتاتور قاسى الفؤاد . وقد ابرم السادات ذلك السلام مع اسرائيل ضد رغبة الشعب المصرى والعربى .

كيف يكون ذلك ؟ الا يؤيد الراى العام فى مصر السلام بجلاء ، ان حسين لا يرى اى تعارض وهتلر وجورنج عرفا ايضا كيف يزيفان الراى العام .

ويزعم قائلا : ان هناك اختلافا بين سلام مشرف وسلام يجلب العار . انه سلام قد يحقق من خلال الاستسلام . اذ أن مصر قد سلمت سيادتها الى اليهود الذين سوف ياتون ويهيمنون على البلاد . ان مصر سوف تكون نقطة انطلاق لتكوين امبراطورية يهودية تكون حجر الزاوية فى خطة شيطانية تستهدف السيطرة على الشرق بأسره من النيل الى الفرات .

كيف يكون بوسع اسرائيل الاستيلاء على الشرق بأسره من النيل الى الفرات فى حين انها تمر بمثل ذلك الوقت العصيب للسيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة البالغى الصغر ؟ يقول كمال الدين حسين : انه ليس ثمة مشكلة فى ذلك . اذ ان الروس يرسلون اليها خمسة آلاف يهودى سنويا يمثلون قوة بشرية ممتازة ، من علماء الرياضيات والمهندسين وعلماء الطبيعة النووية ويرسل الأمريكيون الأموال . ان التعايش بين مصر واسرائيل أمر محال .

فلماذا يستحيل التعايش ؟ الا تنسحب اسرائيل الآن من الأراضى المصرية التى احتلتها وترد آبار البترول التى هى فى مسيس الحاجة اليها ؟ هراء !

ان مصر لا تستعيد سيادتها الكاملة على سيناء وآبار البترول . لقد وافق السادات على نزع سلاح المنطقة . وسوف يكون الأمريكيون هم السادة الحقيقيون لسيناء . ان تلك المعاهدة سيئة ، سيئة ، سيئة . وما هو الحال بالنسبة لوضع القدس ؟ ليس ثمة شىء انها لكارثة حقيقية .

* * *

وروى لى صحفى هولندى زائر عن السيد م — وهو شخصية بارزة من المعارضة كان قد اجرى معه حديثا منذ بضعة ايام خلت . والسيد م — كان ذا سلطان قوى ابان عهد ناصر غير انه اتهم بالتآمر ضد السادات وتم اقصاؤه (مع حصوله على معاش من الدولة) من عدة مناصب كان يشغلها . وعندما سأله الزائر الهولندى لماذا يعارض السادات شخصيا بقوة ، ويعارض حكومة السادات وسياسته الاقتصادية ، وما اقره من سلام ، انفجر السيد م — غاضبا .. ويبدو انه كان مثقلا فى الشراب . ويقال ايضا انه زائر نساء .

ويشير الصحفى الهولندى الى ان ذلك ربما يكون سببا آخر لتزايد عزلته السياسية (لقد كان رد بسير دانتون : انه ليس فى وسع المرء

التآمر ومعاشرة النساء فى الوقت نفسه « وقدم السيد م — للصحفى الهولندى كأسا آخر غير انه لم يتمكن من البقاء لأكثر من نصف ساعة .

وقال الصحفى « لم يكن هناك ما يجذب فى حديثه » مضى العهد الذى كان الصحفى الزائر على استعداد للسير خمسة اميال فى طقس حار كى يجرى حديثا يستغرق عشر دقائق مع ذلك الرجل . ان الصحفيين اناس لا يتسمون بالرحمة اذ عندما ينتابهم الضجر فاما ان يسخروا منك او يرحلوا بعيدا .

ترى كم هو حجم قوة المعارضة للسادات ؟ ان غالبية الأشخاص « العليمين ببواطن الأمور » الذين تحدثت معهم يعتقدون أن المعارضة هامشية وليست منظمة ، ان صراحة كمال الدين حسين واعرابه عن رايه دون خوف لهو أمر يثير الدهشة .

وعلى عكس اشخاص المعارضة الآخرين لايهاب ان تنقل تصريحاته .. وقد سعى المراسلون الأجانب اليه مرارا للوصول الى وجهات نظر متباينة وهو يعيش فى شقة فاخرة ويتقاضى معاشا من الدولة مرتفعا وربما تنبع الحصانة الجلية التى يتمتع بها حسين من مركزه كواحد من الضباط الاحرار الأصليين .

وثمة تفسير آخر يسمعه المرء يقول « ان الذين يستبعدون من السلطة » يعاملون بكياسة هنا ، انه الأسلوب المصرى المتحضر . غير ان ناصر كان مستثنى فى ضوء تلك النظرية اذ انه فى عهد ناصر التزم حسين الصمت ، والا كان سينتهى به المطاف الى احد معسكرات الاعتقالات او تحديد اقامته فى منزله على الأقل .

ولا يزال الجيش يدين بالولاء للسادات ، والمعارضة الراهنة بمثابة مجموعة غريبة متباينة من الماركسيين والمتعاطفين مع الشيوعيين فى اليسار، والمتعصبين من المسلمين فى اليمين ، ومساعدى ناصر السابقين او الناصريين الجدد فى الوسط .

ويقال : ان فرص الاطاحة بالنظام ضعيفة ، الا فى حالة حدوث ثورة شعبية مباغتة تركب احدى الموجات ويقوم بها السلفيون المسلمون على غرار ثورة خمينى .

* * *

ان المساجد الكبرى ليست مكتظة بالمصلين . حتى فى يوم الجمعة يبدو نصفها خاو على نحو يبعث على الدهشة . ويحدق فيك فراغ هائل من خلال الأقواس المدببة واعمال الأرابيسك المزركشة ببراعة .. وفى القرن التاسع عشر عزا ادوارد لين تلك الظاهرة الى عدد المساجد القاهرية الكبير حجمها غير ان سكان القاهرة قد زادوا منذ ذلك الحين من ٢٥٠.٠٠٠ نسمة الى عشرة ملايين تقريبا .

وتتسم المساجد القديمة ، احمد بن طولون ، السـلطان قلاوون ، السلطان حسن ، والأزهر ، بجمال مثير يفوق فى بساطة خطوطه الرائعة ، جمال المساجد المشيدة فى اسبانيا وشمال افريقيا والألوان ما بين رمادى وذهبى ومثل تلك الأماكن تنم عن المشاعر الانسانية التى لا يمكن وصفها والايمان وهى اعمال فنية جماعية تماثل كاتدرائيات أوروبا الكبرى وهى — شأنها شأن الكاتدرائيات — تملأ المرء بالرهبـة خشية الله وتدفعـه الى التعجب ازاء ما ينطـوى عليه الجنس البشرى من تناقض بين المشاعر الجياشة الكامنة فيه وبين احلامه العظيمة وقدرته الفائقة على الأمل .

ويضم مسجد احمد بن طولون ، الذى شيد فى القرن التاسع فناء محاطا برواق معمد مسقوف ، ذا ابعاد متناسقة ، تماثل ارقى فنون العمارة الرومانسية ويقف منتصبا فى ظل برج مراقبة هائل ويقوم الشكل على اساس قطعة ارض محاطة بأسوار ومحصنة . وتحيط اقواس رائعة ببئر اذ ان البدو والرحل كانوا هم القوة الدافعة وراء الاسلام . وتلك هى عمارة الواحة فى افضل مظاهرها غير انها تقع فى وسط مدينـة كبرى وصـفها ابن خلدون ، المـؤرخ العربى الـذى عاش فى القرن الرابع عشر بأنها « عاصمة الكون ، وحديقة العالم وكثيب الأنواع البشرية ، وبوابة الاسلام وعرش الملوك » .

وهناك اعمال حفر خشبى جميلة فى مسجد السلطان قلاوون المملوكى وكان صلاح الدين قد قام بتصميمه على شكل صليبى . اذ تشير الأذرع الأربعة الى مذاهب الاسـلام الأربعة . واليوم نجد ان الكهوف المعتمة يحتلها الأفراد الذين لا مأوى لهم والذين يقيمون حواجز خفيفة من الصفيح ، وخياما تحت ظلال الأعمدة الرائعة وترابها ويحدث ذلك فى العديد من مساجد القاهرة . وقـد شحب اللون الذهبى وحـل محله اللون الرمادى وفى داخل وخارج مسجد السلطان قلاوون ترى خيـام الفقـراء المنهارة ، والأطفال يرتدون اسمالا بالية والرجال يجلسـون يدخنون النارجيلة .. وليس فى وسع العالم تقديم الغذاء لهم ، بل فى وسعه تقديم مختـلف انواع المشروبات المسكرة بالقدر الذى يمكنهم من الاستمرار فى احلامهم .

وتسلط الشمس أشعتها على الحجارة المستطيلة الكبيرة الضخمة للأزهر بأقواسه الرائعة وقبابه الكمثرية الشـكل والمصنوعة من حجارة مخرمة بدقة متناهية .

وقد تم بناؤه واعيد بناؤه مرات ومرات على مر القـرون وتم توسعته باضافة حرم مقدس ، وغرف للدراسة واماكن لنوم دارسى القرآن يفـدون من شتى أرجاء العالم الاسلامى . ان جامعة الأزهر كانت دائمـا اكبر مركز للدراسات الاسلامية له هيبته ومـكانته .. واليـوم يدرس ايضا الطب والزراعة والهندسة ، غير ان مهمة الأزهر الرئيسية تتمثل فى تدريب العلمـاء ويعد بمثابة موضع ملائم للمبتدئين المترمتين الذين يحتجون ويتظاهرون بين الفنية والأخرى ، على مظاهر فسوق وفساد الحياة الحديثة .

وعلى البوابة الرئيسية هناك لوحة ضخمة تعلن عن المؤتمر العـالمى

التقدم للعلماء . ومكتوب عليها عبارة « اننا نعرب عن املنا فى تحقيق حياة متجددة تحت لواء الاسلام » وثمة هدف رئيسى وراء عقد ذلك المؤتمر الذى يعد ثامن مؤتمر يعقد خلال السنوات الأخيرة ، وسوف يتمثل الهدف فى اعادة تحديد سمة الاسلام بوصفه دين سلام .

وكان المؤتمر الرابع الذى عقد فى شهر سبتمبر من عـام ١٩٦٨ قد خصص للحرب ، وذلك وفقا للبروتوكول المنشور . وكان الموضوع الملح هو شن حرب جهاد ضد اليهود « اعداء الله والانسان .. كما يتضح فى كتابهم المقدس » .

واسرائيل (التى كان لايزال يشار اليها فى عام ١٩٦٨ بالتلميح وقلما ما تذكر بالاسم) كانت ارض الانحرافات الشريرة والدهماء وحثالة البشر الأمر الذى لا يمكن معه ان يشكلوا دولة ، ان تفوق الاسلام على كافة الاديان الأخرى سوف يكفل الانتصار النهائى للمؤمنين على الكفار من خلال تدمير « الدولة اليهودية » .

وقد ناشد المشتركون فى مؤتمر عام ١٩٦٨ كل سلطة ممكنة تقريبا لتبرير قتل اليهود ، حتى الأحجار تقول « ايها المسلم ، ذلك يهودى ، هلم ، والتقطنى واقتله بى » . وقد اعلنت الجلسات الكاملة لذلك المؤتمر وفى اعقابه قامت مطابع الدولة بنشر ترجمة لنحو ألف صفحة الى اللغة الانجليزية وذلك فى عام ١٩٧٠ .

وقـد القى السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية الـكلمة الافتتاحية حيث طالب العلماء باعداد انفسهم لبث الرعب ابان حرب مقدسة تشن ضد أعدائنا اعداء الله والآخرين ، اذ انه ليس هناك اليوم نداء أفصح ولا نداء اكثر قدسية من الكفاح المقبل » . وقد تحدث ايضا فى الجلسة الافتتاحية شيخ الأزهر آنذاك فضيلة الشيخ الأكبر حسن مأمون . وهاجم اليهود اذ قال : ان الله حكم عليهم بالتشتت « وقـد اصـبحوا الآن مرة اخرى بمثابة » راس حربة موجهة ضد العرب .. والمسلمين .. انهم اعداء الانسانية .. والروح الباقية للصليبيين الذين سحقتهم كلية المقاومة الباسلة والبطولية التى خاضها اسلافنا .

وتردد ان المدير الراهن للمعاهد الأزهرية ، الشيخ رجب العيدى قد اختاره السادات ليتولى ذلك المنصب . ويقع مكتبه فى حجرة عالية ذات قباب فى احد الملاحق العديدة الملحقة بالمسجد . وهو يتحدث بصوت منخفض رنان مستعينا بمترجم فورى ولم يرغب فى مناقشة جلسات مؤتمر عام ١٩٦٨ الذى لم يحضره كما يقول .. غير أن الحرب كانت مريرة اذ كانت تتطلب حشد الروح والجسد على حد سواء .

والآن ابرم السلام غير ان مدينة القدس المقدسة لاتزال فى أيـدى اجانب ويقول ايدى اجانب وليس اعداء .. ان علماء وائمة مصر يقفون وقفة رجل واحد فى تأييد مبادرة السادات والسلام .. وهناك سبق تاريخى لـما فعله السادات فالقرآن يسمح للمسلمين بابرام معاهدات مع الكفار اذا

كان المسلمون يبرمونها من موقف قوة .. وقد عقد رسول الله محمد هدنة مع يهود المدينة ، وعقدت معاهدة سلام حتى مع الصليبيين نظرا لأن الاسلام ليس دين حرب .

بل انه يدعو الى السلام مع كافة الأشخاص ذوى النوايا الطيبة . أن الرئيس السادات قد منح الاسرائيليين كافة الفرص لاظهار نواياهم الطيبة .ويتعين عليهم الآن اثبات ان ايمان السادات كان فى موضعه .

ترى كيف يثبتون ذلك ؟ يقول الشيخ : من خلال الجلاء عن مدينة القدس المقدسة . وباعادة القدس لأصحابها الشرعيين الا وهم المسلمون .

وبوضع حد للتدنيس العابث بالقدس كما انتهكت مدينة الخليل ــ حيث يوجد مقام ابراهيم ، واسحق ويعقوب وزوجاتهم القديسات ــ وذلك من خلال تحويل هذه الأماكن المقدسة الى معبد يهودى .

ويقول : ان الكفاح من اجل القدس ومقام ابراهيم سوف يستمر ، وسوف يدوم اذا تطلب الأمر ، لقرون قادمة ولكن أليست القدس مدينة مقدسة على الأقل بالنسبة لليهود كما هى بالنسبة للمسلمين الذين لديهم مكة والمدينة ايضا ؟ لا ، ان القدس تأتى فى المرتبة الثالثة بعد المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، غير انها لا تقل عنهما أهمية . اذ انها مكان مرتبط بالمعراج حيث عرج النبى عليه السلام الى السماء . ان القدس كانت وسوف تصبح عرج النبى عليه السلام ، الا يمكن ان يشارك اليهود المسلمين اماكنهم المقدسة ؟ لا على الاطلاق . ان القدس هى الأرض التى دفن فيها الشهداء من رفاق محمد . وهى توارى عظامهم . ولا يمكن أن يتغاضوا عن ان يبسط غير المؤمنين سيادته هناك عليها او على المسجد الأقصى او مسجد عمر .

ان الأفراد ليسوا هم الذين يدعون ذلك المبدأ بل ان الله يقول الحق وهو الذى يرشدنا الى الطريق المستقيم .

* * *

ووراء ذلك الخلاف حول ما قد يصفه جيبون بأنه « الآثار الفخمة للخرافات » تظل المسألة الأكبر المتمثلة فى التعصب الدينى فى مواجهة التحديث ، الذى الم بمصر منذ الربع الاول من القرن الحالى .. وربما ليس من قبيل الصدفة ان تكون جماعة الاخوان المسلمين ــ ذات السمعة السيئة والمعروفة بارهابها واغتيالاتها ــ قد تأسست عام ١٩٢٨ فى مدينة الاسماعيلية مقر شركة قناة السويس التى تعد قلب التكنولوجيا المصرية وقد استمدت جماعة الاخوان المسلمين قوتها من الأزمات الاجتماعية والنفسية التى سببتها حركة التحديث والتكنولوجيا وصبغ الحياة بالصبغة الغربية التى كانت القناة وكل ما يتعلق بها من أعمال من بين اولى امثلتها الكبرى .. وقد احتفظت جماعة الاخوان المسلمين لقوتها على مر السنين وبالتالى شكلت ما بدا فى ذلك الحين بأنه التهديد الخطير الوحيد لحكم ناصر ليس بدافع حب الحرية وانما بواقع الخوف من الجديد والمجهول .

وجماعة الاخوان المسلمين تعد جماعة خارجة على القانون فى مصر اليوم غير ان المشاعر التى الهمتها لاتزال قائمة .

ولم تنجح حكومة السادات فى التعامل معها الا مؤخرا .. ان الاشارات التى تنبعث يوميا من ايران مسموعة بجلاء وفى ظل نظام تعدد الاحزاب الجديد الذى تعهد السادات بتطبيقه .. سوف تضاعف جماعة الاخوان المسلمين جهودها بلا ريب كى يتم الاعتراف بها قانونيا كحزب .

وفى الوقت نفسه توجد جماعات وفروع متباينة منشقة عن جماعة الاخوان المسلمين تعمل فى السر تحت أسماء جيش الله ، جبهة الجهاد ، قوات الهجرة او حزب التحرر الاسلامى .. وتزعم تلك الجماعات ان المجتمع المصرى ، فى ظل سياسة (تحرر الاقتصاد على نحو أكثر) التى ينتهجها السادات ، وهو مجتمع فاسق وفاسد وبمثابة (ماخور) ضخم .

كما ان مؤسساته العامة اصابها الشلل من جراء الاختلاسات والرشوة والمحسوبية .. وهناك علاج واحد لتلك الأمراض الا وهو العودة الى نقاء الاسلام الأصلى ووقف التصنيع والاتجاه الغربى والتعليم الحديث بكل نتائجه الثانوية الخطيرة المتمثلة فى التراخى والتحرر الأخلاقى .

ويبدو ان الرئيس السادات ، الذى يعد هو نفسه مسلما ورعا ، لا يفعل شيئا كثيرا لنزع فتيل تلك الضغوط .. ان اسلوب حياته الاستهلاكى الجلى ، وهو يفوق حتى أسلوب حياة ناصر ، بالاضافة الى رفقته للأثرياء المحبين للرفاهية ، وهو صورة مصغرة لما يشكو منه السلفيون والماركسيون وشعار السلفيين هو « ان لكل شاه هناك اية الله » . ولكن ترى من سيكون اية الله هذا ؟ .

وعلى عكس الوضع فى ايران ، لم يظهر بعد اى آية الله . اذ ان الهيئة الدينية الراهنة فى مصر ليست هيئة شبه مستقلة ، كما هو الحال فى ايران .. انها ذراع الدولة اليوم مثلما كانت فى وقت ما فى عهد الفراعنة .. والسلفيون غير التابعين للدولة يتسمون بالقوة بصفة خاصة بين طلبة الجامعة .. وتلك ظاهرة ليس من العسير جدا فهمها .. اذ ان جهود ونفقات الالتحاق بالجامعات البالغة الازدحام لم تعد تضمن لابن الفلاح نفس التقدم الاجتماعى الذى كان مكفولا له يوما ما .

ومن ثم كانت النتيجة هى انخفاض الروح المعنوية وزعزعة الثقة . وفى عدد من الجامعات نجح المتطرفون فى عزل الطالبات عن الطلبة وارغموهن على ارتداء النقاب .. كما ان الطالبات ومن بينهن بعض طالبات الطب والعلوم كن على استعداد للتحول الى المذهب (البيوريتانى) الجديد وهناك امل يتمثل فى انه من وراء النقاب قد يفهمن جيدا الأعماق الروحية والحقائق اليقينية التى تعتبر مفقودة فى عالم علمانى يتسم بالابتذال والمادية والتحلل الخلقى ، عالم عصبى ، وخائف .

وقد شاهدت العديد من الفتيات المحجبات فى الحرم الجامعى والغريب

اني شاهدت بعضهن فى صالات الموسيقى الراقصة فى القاهرة ، الامر الذى يشير الى انتشار نمط من العصريات المتدينات ايضا .

ومع ذلك نجد ان السلفية ليست مجرد موضة بأى حال من الاحوال . فهناك اعمال للتخريب والعنف واشتباكات تنشب بين رجال الشرطة والسلفيين ولا سيما فى الاقاليم .

وفى مدينة المنيا ، التى تقع فى مصر العليا ، وقع اشتباك خارج احد المساجد الرئيسية فى الوقت الذى كنت فيه فى القاهرة .. ولم تنشر الصحف شيئا عن ذلك الحادث .. وقد قتل احد رجال الشرطة واصيب عشرون شخصا من المشاغبين بجروح خطيرة .. وقال لى احد المراقبين الاجانب وكان متواجدا هناك ، ان الطلبة السلفيين من الجامعة المحلية قد قادوا حشدا من المسلمين الورعين الخارجين من المسجد عقب صلاة الجمعة .. واثاروا الشعب فى الشوارع هاتفين « الاسلام قوة » « الموت للصهاينة والامريكيين » « معاهدة السلام خيانة » « السادات عدو الله » .

ويسخر السادات من السلفيين ويصفهم بأنهم عصابة من الحمقى ويهاجمهم كذلك بوصفهم اقلية من الشيوعيين يثيرون الفتنة ويوارون وجوههم الحقيقية تحت قناع اللحى والورع .. ويسخر من اعدائه الآخرين بازدراء مماثل : رجال مثل هيكل ذلك الصحفى البارع الذى كان اكبر داعية لناصر ، وخالد محيى الدين زعيم الحزب الوحدوى التقدمى الشيوعى وكمال الدين حسين .. وقد تنازع محيى الدين مع ناصر فى حياته . غير انه ينصب نفسه الآن حاميا لتراث ناصر الذى يزعم أن السادات قد خانه .

وفى مذكرات السادات « البحث عن الذات » يرفض الناصريين الجدد ويصفهم بأنهم أصداف خاوية وحطام سفن تجرفهم فحسب مشاعر الحقد والضغينة .. والسادات قد املى جزءا من كتابه بنفسه والجزء الآخر كتبه كاتب له .. وهو كتاب جذاب من عدة جوانب ولايرجع ذلك لدقته التاريخية بالضرورة ، فالدقة قد تعوزه ، وانما يرجع الى كونه مصدرا ثريا لمفاتيح شخصية هذا الرجل غير العادى والصورة التى رسمها لنفسه.

لقد قرأت كتاب « البحث عن الذات » قبل حضورى الى مصر ، وفى القاهرة وفى حجرتى التى تطل على النيل ، غالبا ما اتصفحه مرة اخرى ، ولا سيما ابان الساعات الأولى من الصباح عندما يوقظنى ضجيج المرور من نومى .. وكى اقراه فى بيئته الملائمة وهى بيئة نجح الكاتب فى تغييرها بصورة كاملة ، مما اضفى عليه بعض الجدة .

ولا يتعين الاستطراد فى هذه النقطة الى حد التطويل السخيف فى مجال التحذلق على طريقة اولئك الذين يفتشون فى (حمام) احد المؤلفين كى يفهموا اعماله بصورة أفضل . غير ان كتاب السادات كتاب سياسى ويتركز موضوعه حول السادات والبلد الذى ترعرع فيه ونضج والذى يحكمه الآن دكتاتور يستهدف النفع العام لا اكثر ولا اقل وطالما يشاهد المرء الطبيعة المصرية ويزداد اقترابا من المجتمع والشعب اللذين وصفهما

السادات فى كتابه يجد الصورة التى يعرضها — عند قراءته من جديد فى مصر — تنطبع فى ذهن المرء بشكل اعمق وربما بتفهم افضل .

وهناك نسختان من الكتاب النسخة الاولى ، وهى باللغة العربية فقط نشرت على اجزاء فى مجلة « اكتوبر » التى يرأس تحريرها انيس منصور .

وتردد ان منصور ، ذلك الكاتب الواسع المعرفة ، الذى يتحدث لغات متعددة واحدا من الذين شاركوا فى كتابة « البحث عن الذات » وفى النسخة الاولى هناك ملاحظة مناهضة للسامية (وقد حذفها فى النسخة الثانية ، التى ظهرت عقب بضعة سنوات لاحقة بعد زيارة السادات للقدس) وفى النسخة الاولى لم يكن السلام هو الذروة المثيرة او حتى الموضوع الرئيسى ، كما هو الحال فى النسخة الثانية التى ادخل عليها الناشرون الامريكيون تعديلات كثيرة واعادوا كتابتها .

وفى النسخة العربية الأصيلة على سبيل المثال يتحدث السادات متأملا ذهنه ويقارنه بـ (تروس) ساعة سويسرية .

وفى بعض الأحيان يخلع ساعته ويتأملها باعجاب معتقدا ان ذهنه يعمل على ذلك النحو . وكل ذلك ، واجزاء اخرى كثيرة ، تم حذفها فى النسخة الثانية .

ومع ذلك يبقى فى الكتاب القدر الكافى الذى يبرز الجوانب التى تثير الدهشة وغالبا ما تكون جوانب جذابة ، وفى آن آخر تبعث على الحيرة .. لشخصية ذلك الرجل ، احساسه المسرحى يكشف انه قبل شروعه فى التوجه الى القدس اعتزم دعوة زعماء الصين والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا العظمى وفرنسا ، لمقابلة فى القدس كى يرسوا معا حجر اساس السلام (وفى جزء آخر يقترح ابرام معاهدة السلام على جبل سيناء حيث سوف يدفن ايضا رماد الشجيرة المشتعلة) وكان السادات يرغب فى صباه فى ان يصبح ممثلا اولا ثم محاميا .. ويقول « اننى فنان » ويعدد اللحظات العظمى الملهمة فى حياته ، كطفل ، وكسجين ، والكتب الكبرى التى اثرت فيه : القرآن ، تاريخ حياة اتاتورك الذى كتبه هـ . س . آرمسترونج فى كتاب يحمل عنوان (الذئب الرمادى) ومجلة « ريدرزدايجست » وكاتبه المفضل هو : لويد دوجلاس الكاتب الأمريكى الملهم .

وعندما كان سكرتيرا للاتحاد الاسلامى العالمى ابان الستينات ابلغ رجل دين امريكيا زائرا بأنه قد توصل من توه الى اكتشاف يهز الأرض الا وهو ان المسيحية ، اليهودية والاسلام جميعها دين واحد ومتماثلة .. وطلب منه رجل الدين ان يوضح ذلك الا ان السادات لم يبال بسؤاله وقال ، انه يتعين على علماء (اللاهوت) صياغة التفاصيل .

والسادات يتسم فى آن واحد بأنه اجتماعى وانعزالى : انه متبسط ، ودود دمث الخلق وعملى ، وفى الوقت نفسه ، متقلب المزاج ، مكتئب وحتى

كئيب الى حد يبدو فيه صوفيا غامضا او متدينا احمق .. بيد انه قبل هذا وذاك فلاح ماكر استاذ فى فن البقاء وباسلوب آخر هو رمز مصرى آخر لشعب مطحون عانى من الاضطهاد لفترة طويلة ولا يخلو — فى قرارة مخيلته — من خطة كبرى .. وحلم .

ان السادات رجل لم يكن احد يأخذه مأخذ الجد طوال عشرين عاما تقريبا من الحياة كظل مخلص لناصر ، وكان يطلق عليه اسم مستعار هو « رجل امعة » او « كولونيل صح صح » .. وعندما اطلق عليه « كلب ناصر الاثير » كان يكتفى بالابتسام وكان هو مؤسس واول زعيم لمنظمة الضباط الاحرار السرية .. وعقب اعتقاله فى عام ١٩٤٢ فقد خلفه صديقه المقرب ناصر .. ومع ذلك نجد ان دور السادات بوصفه واحدا من المتآمرين البارزين فى انقلاب عام ١٩٥٢ يبرز فى ذلك الكتاب فى ضوء غير متوقع وجذاب الى حد ما .

ففى عشية الانتفاضة حدث انه كان بعيدا عن القاهرة اذ كان متواجدا فى صحراء سيناء .. وابرق له ناصر بالحضور فى التو ، فقد كانت الثورة على وشك البدء وهرع السادات عائدا الى القاهرة .. غير انه نظرا لان ناصر لم يكن متواجدا فى محطة السكة الحديد كما كان يحدث دائما اعتقد السادات انه تم ارجاء الثورة وتوجه الى المنزل واصطحب زوجته لمشاهدة احد الافلام .

وفى الوقت نفسه استولى المتمردون على قيادة الجيش وعاد السادات من السينما كى يجد رسالة تنتظره هناك ، تضمنت استدعاء من ناصر ، وهرع الى ثكنات العباسية ونظرا لانه لم يكن يعرف كلمة السر اوقفه الحرس واحتج قائلا : انه البكباشى السادات وفور معرفة رتبته العالية ، قام الحارس باعتقاله ، اذ كان ذلك هو اوامر المتمردين بالنسبة لكافة كبار الضباط .

وفى عام ١٩٧٠ يصبح السادات خليفة عبد الناصر بشكل مؤقت فى حين حاول المنافسون الخطيرون التحايل والمراوغة لتولى المنصب .. ولم يكن السادات نفسه يعتبر شيئا ذا قيمة . اذ ان المبعوث الامريكى فى القاهرة ابلغ واشنطن بأن السادات لايمكن ان يستمر لاكثر من اربعة اسابيع وشاركه فى الراى كبار خبراء المخابرات العسكرية الاسرائيلية واشاعوا ان السادات رجل مدمن مخدرات على الارجح .

ومع ذلك صار البديل المؤقت الذى كان يبدو غير ذى اهمية صار اعقل واقوى مما كان يتصور اى فرد . وفى اليوم الاول لتوليه السلطة طرد كبير مساعدى ناصر الذى جاء اليه حاملا تسجيلات لاحاديث تليفونية سجلتها اجهزة الامن السرية وقال : اقذف بتلك النفايات بعيدا .

وفى غضون نصف عام اقصى « مراكز القوى » القديمة التى كانت تهيمن على الادارات العامة والبوليس السرى فى عهد ناصر .. وقد اطلق على ذلك فى وقت لاحق « ثورة التصحيح » الثانية لمايو من عام ١٩٧١ وكانت

بمثابة بداية النهاية لدولة ناصر البوليسية ثم طرح اول مبادرة له للسلام، اذ نطق بكلمة السلام المحظورة ، وها هو لا يغتال بينما كان ناصر كثيرا ما يقول سرا بانه سوف يغتال اذا ما اقر السلام .

وبقية الأحداث معروفة جيدا . اذ ان الاسرائيليين اخطأوا قراءة السلام المبكرة التى بعث بها السادات . وعقب سبع سنوات لاحقة وفى القدس سأل السادات ديان عن السبب واقر ديان بأنهم لم يصدقوا ان السادات يعنى ما يقول . لو كان السادات قد طار الى القدس فى عام ١٩٧١ لتحطيم الحاجز النفسى .. الا انه بدلا من ذلك مضى يتحدث عن السلام والحرب بوصفهما خيارين متعادلين ومحتملين .

وكان الاسرائيليون مغرورين وسكارى من انتصار ١٩٦٧ ، ان النصر الكبير اكثر من غيره مقدرة على الاصابة بالوهن . وكان ديان يقول علانية ان الاستمرار فى احتلال سيناء بدون وجود سلام افضل لديه من وجود سلام بدون سيناء .

ومن الجلى ان السادات قلل من قيمة الابعاد النفسية لنزاع دام حقبا .. ولايمكن ان ينتهى بمجرد التفوه بكلمة محظورة الا وهى السلام . وتوصل المتخصصون فى اسرائيل الى نقاط دقيقة فى اللغة العربية وزعموا انه اذا كان السادات يريد السلام حقا لما كان له ان يقول كلمة سلام بل يقول « صلح » اى تصالح وتآخ بين الاعداء وانقسم العديد من حول تلك المسالة وفى النهاية فاز الحزب الذى يؤيد كلمة صلح اذ كانت تلائم على نحو افضل ايضا سياسة الحكومة الاسرائيلية الراهنة .

واعتقد ديان ان السادات اضعف — سياسيا — من ان يبقى ، ومن ثم يعتبر الجيش المصرى عاجزا تماما عن اللجوء الى الحرب مرة اخرى ابان فترة حياته .

وقيض للسادات ان يثبت خطأ ديان فى الامرين . وفى كتابه تحدث باسهاب بشأن ذلك غير انه كان ابعد ما يكون عن الحقد . وعندما يقرا المرء ذلك الكتاب مرة اخرى يصطدم من جديد بالتناقض بين التشويش الذى يعترف به (ان السياسة هى فن بناء مجتمع تسود فيه ارادة الله) .

وبين الأهداف المنطقية التى حددها لمصر فى سياساته ويبرز جليا الاختلاف الكبير بين السادات وناصر . اذ ان ناصر تتبع مهام مستحيلة مستعينا بسبل محدودة للغاية الى حد يرثى له . ولكن السادات يتبع مهام محدودة غير انه على استعداد للمضى الى ابعاد كبيرة فى سبيل تحقيقها . ويكتب السادات قائلا : انه لأول مرة منذ الثورة تعرف مصر ما تريده على وجه التحديد .

ومن الطبيعى ان ذاته ومصر تستحوذ عليه كفكرة . اذ انهما شئ واحد ومتماثل بالنسبة له . التاريخ والذات كعبء ومصير « انا انور السادات فلاح ولد على ضفاف النيل ، حيث شهد الانسان فجر الزمان ،

اقدم ذلك الكتاب .. انه قصة حياتى والتى تعد فى نفس الوقت قصة مصر منذ عام ١٩١٨ .. وهكذا قضى المصير .

ومنذ مرحلة طفولته المبكرة كون صورة معينة عن نفسه وعن مصر، كما كان الوضع بالنسبة لديجول الذى يكتب قائلا فى السطور الاولى من مذكراته « طوال حياتى كونت فكرة معينة عن فرنسا » . ويشبه السادات ديجول من اكثر من جانب .. انه يحب مصر غير انه ليس بالضرورة انه يحب أولئك الذين يقطنونها .. وقد يبدو من ذلك الكتاب انه منذ توليه السلطة كانت حياة السادات بين رفاقه المصريين كابوسا من البلادة والتآمر والفوضى والانانية والعشوائية .. فما الذى ابقاه فى هذه الصحبة البليدة — لسنوات عديدة ؟ يقول انها « قوة الحب » اذ اكتشف ابعادها الغامضة — فى السجن حيث اضحى الخالق ذاته « صديقى » واقام السادات من خلال سلسلة من الرؤيا — الساحرة « صلة واعية بكل الوجود .. اذ ان روحى انطلقت تحلق فى الفضاء كطائر الى ما لا نهاية .. » .

وكان البريطانيون قد اعتقلوا السادات ابان الحرب العالمية الثانية بتهمة الاشتباه فى تواطؤ مع الألمان ، واعتقل مرة اخرى فى عام ١٩٤٦ بتهمة التواطؤ فى قتل امين عثمان ذلك السياسى المصرى الموالى لبريطانيا والسادات شأنه شأن بيجين ، ارهابى سياسى سابق . وهو ينتهى من هذه الفترة المظلمة فى فقرة قصيرة ، ولكن من المؤكد ان عرضه لا يقول كل شيء وكانت جريمة امين عثمان هى اعلانه ان مصر لا ينبغى أبدا ان تقطع علاقتها مع بريطانيا .. ويكتب السادات يقول : ان ذلك كان يعادل الحكم على النفس بالموت . وسارع السادات واصدقاؤه فى تنفيذ الحكم غير أن السادات كان اثناء عملية القتل الفعلى ينتظر فى مقهى قريب . بيد انه تم القاء القبض على الجميع .

ويكتب السادات يقول : انه فى الزنزانة رقم اربعة وخمسين فى السجن المركزى بالقاهرة تعلم السادات كيف يقضى على « الوقت والفضاء » ، واضحى الحب ، تدريجيا ، هو منبع كافة تصرفاتى ومشاعرى » .. ان الدلائل الضمنية لكلمة « حب » التى يستخدمها السادات كثيرا جديرة بالتأمل .. اذ انه بوصفه سياسيا يعتبر اول رد فعل يراود المرء هو التشكك فى التغييرات حين تكون (بلاغية) او بدون وعى . غير ان الساسة ، اذا كانوا يؤمنون بأى شيء فانهم يؤمنون بأنفسهم وبكلماتهم وهى كلمة تصبح من خلال التكرار شيئا يماثل العقيدة . واذا لم تكن مجرد بلاغة الا تكون شيئا سريع الزوال يقع خارج ما هو مادى .. اى تكون شعورا دينيا كما يقول السادات ؟ وفى ذلك الكتاب يتحدث السادات عن « نور داخلى » فى كلمات تذكر المرء بالكاتب الامريكى الملهم لويد دوجلاس .

ترى ما الذى يفعله المرء بمثل تلك الكلمات فى عالم السياسات العملية ؟ لا ينفع هنا ان نستبعدها بوصفها مجرد زخارف . وعندما اهديت الملكة ايزابيلا ملكة اسبانيا نسخة من كتاب « جراماتيكا » الذى اعده اليوانطونيو (وهو واحد من اولى كتب القواعد التى كتبت عن لغة حديثة) ، تساءلت الملكة بلا مواربة « لاى شيء ذلك الكتاب ؟ » .

فاجاب اسقف افيلا « ان اللغة ، يا جلالة الملكة ، هى الأداة المثلى للامبراطورية » .

ان ما يطلق السادات عليه « حب » هو باعترافه ، بمثابة تقدير ماكر وواقعى للذات ولاهداف المرء الحقيقية ، وفيه قدرة الحرباء على مواجهة العواصف بالتزام الصمت وانتظار الفرصة الرئيسية بأناة وصبر .. وليس ثمة شيء سوى « الحب » — كما يقول — مكنه من البقاء فى السلطة فى عهد ناصر « بوصفه الرجل الوحيد من بين زعماء ثورة ١٩٥٢ الذى لم يصبه ناصر بسوء » . ويكتب السادات قائلا انه قبيل وفاة ناصر تطلع ناصر حوله وادرك ان هناك رجلا واحدا حقا لم يتشاجر معه قط . .انه السادات . ويكتب السادات يقول انه « أحب » ناصر بعمق رغم انه من العسير معرفة السبب . وربما عرف هو ومن الأصعب أن نفهم سبب حب توفيق الحكيم لناصر فهو يقول ايضا : انه كان يحب ناصر (رغم انه لم يكن رفيقه فى الجيش مثل السادات) ان السادات وناصر قد استحوذت عليهما نفس الآراء ، التى اثبتت ان العديد منها كان بمثابة كارثة لمصر . والسادات باعترافه هو كان اكثر تهورا من ناصر فى بعض الأحيان .

الا انه على — عكس ناصر — يبدو ان السادات قد ادرك ان المرء الذى لا يمكنه تغيير فكره لن يغير قط من الواقع ، وربما ادرك ذلك فى عزلة الزنزانة رقم اربعة وخمسين .. وهو يصف فترة سجنه بأنها فترة التكوين فى شبابه . ان فن ادارة الدولة لا يزيد كثيرا — فى اغلب الأحيان — عن عملية توقف ، اذ ان حنكة الهيمنة على وضع قائم فرضته حروب ماضية ومخاوف راهنة — كثيرا ماجاء متأخرا او بصورة جزئية وبشكل محبط — ادراكه لأحلام الأجيال السالفة . ترى كم عدد رجال الدولة اليوم الذين فى امكانهم التغلب على سياسة تجمدت ؟ . ووضع قائم ؟ وعندما يحققون ذلك — كما فعل السادات — فان الأمر يبدو كأنه تغيير حياة الى حياة اخرى .

وترى كيف توصل السادات الى ذلك ولماذا ، لم يتضح فى كلا طبعتى كتابه وربما ضلل نفسه وقراءه كذلك عندما اشار الى انه لم يشن حرب عام ١٩٧٣ الا فى سبيل استعادة ثقة مصر بنفسها وتحطيم الجمود الدبلوماسى — ومن اجل اقرار السلام فلو كانت القوات الاسرائيلية قد انهارت » كما حدث لها تقريبا ، لمضى قدما « لتحرير تل ابيب » ؟ او قد يضلل نفسه او القارىء عندما يكتب قائلا : انه اضطر « بقلب يدمى » الى الموافقة على وقف اطلاق النار وهو يقول انه فعل ذلك لا لأن الاسرائيليين قد عبروا القناة وتقدموا الى مسافة ستين ميلا من القاهرة ، ولا لانه فى النهاية بدا جليا ان الجانبين لا يمكن ان يحققا انتصارا ، بل لانه اكتشف ، كما يقول ، انه يقاتل فى الواقع الولايات المتحدة الأمريكية .. ويلمح بأن الولايات المتحدة ربما كانت قد اسقطت قنبلة ذرية على القاهرة كما فعلت فى هيروشيما .

وينسب السادات الى هنرى كيسنجر بأنه هدده قائلا « ان البنتاجون سوف يضربك » وفى النسخة العربية كانت تلك الحجج اكثر وضوحا من النسخة الانجليزية وربما استهدفت الاستهلاك المحلى او العربى .. ان

السادات سياسى وليس مؤرخا وتظل الثغرات قائمة .. وتثير حيرة قارىء ، ولاسيما اذا كان متواجدا فى القاهرة بمفرده مع كتاب السادات فى حجرة مطلة على النيل ، يحاول التكهن بالتعاقب الحقيقى للأحداث واعادة بناء الدافع الحقيقى .

عندما قام السادات برحلة الى القدس لاقى تهليلا وترحيبا على نطاق واسع لشجاعته غير انه كان هناك ايضا ، بالطبع ، اولئك الذين حسدوه لكل تلك الشهرة والعظمة . واتذكر ان احدهم كان صديقى الراحل (زيف شيك) السفير الاسرائيلى لدى ايطاليا آنذاك وقد كان رجلا ودودا للغاية. وقد نفد صبره من جراء كل تلك الضجة وفى النهاية وصل حنقه الى ذروة غير دبلوماسية عندما اثنى الرئيس ليونى رئيس ايطاليا على شجاعة واقدام السادات ، وكان فى حفل رسمى ورد (شيك) الذى نجا من الموت فى احد معسكرات اعتقال النازى ، بسرد قصة على (ليونى) قال انه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كان ثمة ضابط روسى يفسر لمزارع تشيكى الأنواط الثمينة العديدة التى تزين حلته قال « لقد حصلت على هذه للقتال فى ستالينجراد وتلك للقتال فى لينينجراد ، وهذه للقتال فى خاركوف ، برلين ، براغ وهلم جرا » .

وأردف يقول مشيرا الى النوط الأخير « وذلك حصلت عليه لانقاذ فتاة تشيكية حسناء من الاغتصاب » . ومن الطبيعى ان المزارع اراد معرفة المزيد . كيف حدث ذلك العمل البطولى الأخير ؟ .

أجاب الضابط « الأمر بسيط جدا .. لقد غيرت رايى » .

ولايزال الآخرون يتساءلون متعجبين عما اذا كان السادات ذاته قد « أدرك » تماما ما فعله .. اذ بدا فى ذلك الحين ان قراره بالتوجه الى القدس قد تبادر الى ذهنه بين عشية وضحاها وبدا انه لم يترك لاعوانه وللاسرائيليين سوى ٧٢ ساعة يفكرون فيما سيقوله كل طرف للآخر وذلك دفع البعض الى الاعتقاد بأنه تصرف وفقا لنزوة ودون تقدير كامل لما ستؤدى اليه تلك النزوة او انه قدر تحقيق أمر ثم حقق شيئا آخر ، ان الكثير مما نعرفه عن التاريخ بالطريقة التى تم بها فعلا وليس بالطريقة التى زعمها الساسة ، يدفع المرء الى اقرار وجهة النظر هذه .. وتدعيما لتلك الحجة يوجد جزء كبير لقصة الحرب والسلام لتولستوى ، وتوجد ايضا العبارة المشهورة التى قالها ايه.جى.بى تايلور ، التى تعبر عن سخرية اكثر مما تعبر عن يأس مأسوى ومفادها ان اعظم رجال الدول هم اولئك الذين لا يعرفون ما يفعلونه. غير انه اذا حاولت ان اوجز — وهو ما ينبغى ان افعله — ما نعرفه حتى الآن كحقيقة واقعة ، فان ثمة ما يدفعنى الى الاعتقاد بأن السادات كان يدرك تماما ما يفعله لقد تحدثت مع عدد من المصريين يكفى للقناعة بأن السادات فى محاولته لاقرار السلام كان يتبع الشعب المصرى ولم يكن يقوده. ان الاشارات الأولى المبهمة التى بعث بها فى عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٢ قد اسىء فهمها ولا شك انه دهش لهذا .

ان السادات بتوجهه الى القدس أعطى تقديرا دقيقا لعظم المشكلة

النفسية التى دعمتها مشاعر الحقد العربية على مر السنين فى اذهان الاسرائيليين ، والتى تجاهلها حتى ذلك الحين .. وكان فى وسعه اختيار التفاوض مع الاسرائيليين سرا او من خلال وسطاء . غير انه يبدو ان فهم الحاجة المسبقة « لاعطاء الشرعية » لاسرائيل فى أعين العرب والاسرائيليين على حد سواء ، وذلك من خلال ايماءة شخصية متوهجة ، ان ناصر اراد قيادة العالم العربى بشن حرب ضد اسرائيل ، ولكن السادات يود أن يكون زعيما له باقرار سلام مع اسرائيل .

وثمة ما يدفعنى الى الاعتقاد بأنه اذا انهارت المعاهدة الراهنة لأى سبب من الاسباب ، فان الموقف لا يمكن ان يعود قط الى الوضع القديم اذ ان الرئيس السادات قد حطم العداء الكامل الذى ميز ذلك النزاع طوال نحو خمسين عاما .

واعتقد انه حتى بالنسبة للعديد من الفلسطينيين غير السادات طبيعة النزاع من الحرب الشاملة حول مبدأ مقدس الى نزاع ، اكثر شيوعا فى التاريخ نزاع حول « قطعة الأرض هذه أو تلك » .

وبايماءة مثيرة واحدة اعاد مصر — والعديد من العرب — الى حظيرة التاريخ بعيدا عن عالم غيبيات قاتلة لا تسمح بالتوصل الى حل وسط .. لقد جعل كلا من الاسرائيليين والعرب يتحولون الى « اشخاص طبيعيين » مرة أخرى .

لقد قلت ذلك لصديقى جوكرافت وتحسين بشير ونحن نحتسى المشروبات فى احدى الامسيات بحجرة كرافت .. وكرافت لا يميل عادة للمغالاة لكنه يقول : انه يعتقد ان السادات رجل عظيم حقا ، ويتعين ان نأمل جميعا أن يبقى .. ويعتقد بشير ان ذلك يرتكز الى حد ما على اسرائيل أيضا . وهكذا تنغلق الدائرة .

* * *

ويستقبلنى الرئيس فى بيته الريفى الواقع على النهر والذى يبعد نحو عشرين ميلا شمال القاهرة ويحيط بالمنزل حديقة رائعة تضم أشجارا عتيقة ، ومروجا تم تقليمها حديثا وشجيرات ورد وباذلاء ويقف على البوابة المصنوعة التى تقلد الطراز القوطى حراس يرتدون زيا رسميا غير انهم قليلو العدد على نحو يثير الدهشة .. ويحيط بمنزل الرئيس شرفات واسعة ذات اعمدة .. ويقف البيت فى ظل شجرة جميز ضخمة ، تم تشذيبها بدقة حتى القمة ، وترتفع الى مسافة خمسة طوابق ، ويبدو وكأنه تم تقليمها من طائرة هيلكوبتر .

ويجلس الرئيس فى حجرة الجلوس .. وهو رجل نحيف متوسط القوام ، سليم البنية . انيق للغاية اذ يرتدى بنطلونا مقلما رمادى اللون وقميصا ورباط عنق يلائمانه الى حد ان المرء يشك فى انه يحتفظ بـ (ترزى) انجليزى راق ، فى (دولاب) ملابسه . ووجهه داكن اللون يميل الى السواد

تقريبا . وتحت جبهة منخفضة متراجعة الى الوراء تومض عينان بدفء ، وأنف عريض وشفتان ناعمتان سميكتان وذقن حاد ، ويجلس مدخنا «غليونه» وعلى الحائط خريطة كبيرة للشرق الأوسط لاتزال اسرائيل محذوفة منها ويجلس مديرا ظهره اليها وكان قد تم ابلاغه عن تعاونى مع سناء حسن ويقول بصوت اجش « حقيقة كان بوسعى اعدامها » .

تساءلت لماذا ؟ يقول لانه ليس شابا والسادات ــ شأنه شأن غالبية المصريين ــ قد تشحن بالقضية القومية طوال فترة شبابه وسناء حسن هذه قد خرجت على الصف . « حقا لقد كنت فى شدة الغضب » .

ولكن الم تقل سناء حسن فى عام ١٩٧٤ ما كان سيقوله هو نفسه عقب ثلاث سنوات لاحقة فى الكنيست ؟ .

نعم ، هذا صحيح انه لم يعد غاضبا منها .. وعلى ان ابلغها بذلك ويقول السادات « اننا تحررنا بلا ريب من كافة العقد الآن » هنـاك سلام . وسرعان ما سيكون هناك حرية فى السفر والتجارة ، ان حقبة جـديدة تبدأ يقول هذا وهو يمسك بغليونه فى يد ويلوح باليد الأخـرى .. وفى صـوته العميق نبرة خشنة الى حد ما .. وعندما سألته ، هل التجارة والسياحة والأشكال الاخرى لعملية التطبيع بين مصر واسرائيل سوف تتوقف او يسدل الستار فى حالة عدم التوصل الى حل مرض للمشكلة الفلسطينية ؟ رفـع صوته وصاح قائلا « يا للعار يا للعار ! ان هذه هى لغة النزاع لقد انتهينا من ذلك . ان السلام حقيقة واقعـة .. والتطبيع حقيقـة » ومهمـا كانت المشاكل المتبقية فان هناك سلاما ولن يحدث تراجع عن ذلك .

وأسأل السادات : لماذا استغرق الأمر تلك الفترة الطويلة ، لمـاذا لم يعجل برحلته للسلام الى القدس ؟ انها اربع حروب ، ومائة الف قتيل .

ويبدأ فى الكلام قائلا : « جميل ... الواقع ان .. » ولا يرد على الفور ويميل الى الوراء فى كرسيه الانجليزى (الطراز) ويربت على غليونه .. ويقول : ان آلام الأفراد تصبح فى النهاية تمـارين تدرس فى المدارس غير ان الساسة يتحدثون عنها فى البداية بصورة عارضة . وانت تسأل عن سبب عدم اسراعى بتلك المبادرة ؟ يقول السادات : لقد كان هناك العـديد من الأسباب ، اسباب تاريخية ، شخصية وسياسية . وعلى اية حال لم يكن فى الامكان القيام بها قبل حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، اذ ان فى تلك الحرب استعادت مصر كرامتها وكبرياءها .. وحريتها من العقد التى اثارها ما يقرب من حقبة من المهانة المروعة للغاية .. ويقول مرة اخرى « لقد لحقت بنا المهانة . ولذلك السبب رفضت عرضا طرحه كوسيجين للاجتماع بجـولدا مائير فى عام ١٩٧٢ » .

ومن جانب اخـر يعتقد ان اسرائيل احبطت مرتين محاولتين لاقرار السلام وقد لاحت الفرصة الأولى عقب حرب الايام الستة مباشرة ، والاخرى فى عام ١٩٧١ . ولو كان موشى ديان قد تفهم فى عام ١٩٦٧ « الحالة النفسية للعرب » على نحو افضل ــ وبدلا من قوله اننى فى انتظار اتصالهم بى ــ

لكان قد استقل طائرة واتجه مباشرة الى القاهرة (كما طار السادات نفسه الى القدس فى ١٩٧٧) . حاملا معه عرضا مشرفا « صدقنى حين اقول انه كان سيلقى ترحيبا هائلا من تسعة وتسعين فى المائة من المصريين بوصفه بطلا » . ويقول حقا : انه مندهش اذ ان ديان قد ولد فى تلك المنطقـة وكان يتعين عليه فهمنا بصورة افضل .. وكان ينبغى ان يدرك انه عقب ما لحق بنا من مهانة مروعة . لم يكن بوسعه ان يتوقع منا ان نهرع ونتوسل الى اسرائيل لكى تملى شروطها .

ويقول : انه فى عام ١٩٧١ تبددت فرصة اخرى . اذ انه فى فبراير من ذلك العام وعقب توليه السلطة ، أعلن انه على استعداد لاقرار سلام وكان اول زعيم عربى يصرح بذلك علانية فى خطاب امام البرلمان ويقول ان جولدا مائير تجاهلته . ويشكو قائلا « انه لم يكن لديها الشجاعة » او ربمـا قد راودها اعتقاد بأن مصر جواد ميت .

وقاطعته بقولى : انه بقدر ما اتذكر طرح فى نهاية عام ١٩٧٥ عرض غير واضح تماما فى مقابل الانسحاب الاسرائيلى الكامل : لا منـاطق منزوعة السلاح ولا علاقات دبلوماسية او تجارية ، الأمر الذى ينبغى ارجاؤه للأجيال القادمة على حد قوله .

ويقول : ان ذلك صحيح . لكنه غير تفكيره فى صيف عام ١٩٧٧ « لقد ادركت انكم على استعداد للاستمرار الى مالانهاية فى حـالة (اللاحرب) و (اللاسلم) ولم يكن ذلك كافيا بالنسبة لى . وكان الموقف على الجـانب العربى فى صيف ذلك العام بالغ السوء وادرك ان غيره من العرب عاجزون عن اقرار سلام حقيقى ويرجع ذلك الى الجهل ، والتخلف ، وعقد النقص وفساد الزعماء » .

وكان العرب يريدون التشبث « برفضهم التام » كما هو الحال اليوم .. ويقول : ان هذا كان أسوأ مما تفعله حتى اسرائيل « وعنـدما ادركت ذلك اتخذت قرارى وكنت واثقا من نفسى . اذ ان حرب اكتوبر كانت قد حررتنا من كافة العقد .. وقررت ان امامى بديلا واحدا فحسب ، الا وهو التوجه الى الكنيست كى اتحداكم هناك والآن وقد حققنا السلام آمل ان يحضر اكبر عدد ممكن من الاسرائيليين كى يكتشفوا بأنفسهم اننا نعنى السـلام من كل قلبنـا » .

* * *

وخلال الحديث حول المسائل الراهنة يستغرق الرئيس فى التفكير فى التاريخ البعيد .. ويبدو كل شىء مرتبا فى تلك الحجرة الانيقة مكيفة الهواء . وتقدم القهوة اللذيذة فى فناجين صغيرة من ارقى انواع الصينى . ويقول السادات : ان اسرائيل ارتبطت فى اذهان المصريين من الناحيـة التاريخية بالاستعمار البريطانى والظلم اذ كان اول درس سياسى تلقيته وانا صبى هو مشاعر الحنق لحادث دنشواى ونشأت على كراهية البريطانيين » .

وابان شبابه قرا ان البريطانيين تعهدوا فى وعد بلفور ، بمنح فلسطين لليهود كى تكون وطنا قوميا لهم .. « وبعبارة اخرى كنتم حليفا لعدوى الرئيسى » .

كان ذلك منذ زمن بعيد ، لكنى لم اكن ادرى مدى قدمه عندما كنت استمع اليه .. وقد يبدو انه احس بحيرتى .. ويردف قائلا « لقد نشأت على كراهية البريطانيين » ويبتسم ابتسامة ماكرة ويقول « يالسخرية القدر لم اكن اعلم آنذاك ان زوجتى سوف تكون نصف انجليزية » .

ويبدو السادات رجلا يتسم بعمق المشاعر والقدرة على السيطرة على الذات . غير انه عندما يتحدث عن الزعماء العرب الآخرين « الرافضين » يرتفع صوته فى حنق والعبارات التى يستخدمها غالبا هى عبارات سيكولوجية .. فهو يصفهم بـ « الجنون » واذا لم يتمكن من الحيلولة دون وصولهم الى مرحلة الجنون فانه سوف يغريهم على الأقل بارتداء سترة المجانين المحكمة التى لن تفك قط طالما انه موجود .

والملك حسين ملك الاردن لم ينضم الى مبادرته للسلام نظرا لانه مصاب « بالشيزوفرانيا » هل يضايقه ان انقل ذلك على لسانه ؟ لا . على الاطلاق ، ان كل فرد يعرف ان حسين مصاب بالشيزوفرانيا ، وكان والده مصابا بذلك المرض ايضا .

ان السادات لا يفكر كثيرا فى الأفكار رغم انه نجح من خلال استخدامها، ولا يهتم بالمصالح او المخاوف حتى وان كانت شرعية .. وايا كانت المتاعب التى لاتزال قائمة فان جذورها « نفسية » ، ومصر وحدها هى التى حررت نفسها من كافة « العقد » .

كما ان رفض اسرائيل منح الفلسطينيين حق تقرير المصير حتى الآن — وهو يعتقد ان الرفض مؤقت — يبرهن على انهم لم يتغلبوا بعد على « العقدة النفسية » التى تشكل ثمانين فى المائة من المشكلة .. ويبدو من كلامه ان مهمته الرئيسية كانها تتمثل فى فتح عيادة ضخمة لمعالجة الأمراض النفسية التى يعانى منها السوريون ، الاردنيون ، والفلسطينيون ، والاسرائيليون على حد سواء .

* * *

وتهبط طائرة هيلكوبتر عسكرية على الممر الاسفلتى الضيق الذى يقع بين نهر النيل ومنزل الرئيس فى مدينة القاهرة .. والظلام الدامس يلف المكان .. وتنبعث رائحة قوية للياسمين فى الجو .. وعقب الساعة الرابعة صباحا دلفت وراء السيدة جيهان السادات داخل (الكابينة) الضيقة .. وارتفعت طائرة الهيلكوبتر وحلقت فوق اسقف المنازل متجهة الى مطار القاهرة الدولى .

وفى اسفل بدت اضواء المدينة تومض فى الظلام .. وتقول حرم الرئيس « مدينة جميلة ، رائعة ، كانها امراة مسنة ترفل فى الجواهر » .

وفى المطار — عقب مضى بضعة دقائق — كانت هناك رايات مرتفعة وحرس شرف صغير يقف مصطفا فى انتباه فى الظلام .. ففى مصر تلقى حرم الرئيس معاملة ملكية فى كافة الأوقات .. وامتد على الارض بساط احمر.. وسارت جيهان السادات مسافة قصيرة كى تستقل طائرة نفاثة فخمة كانت فى انتظارها .. (فمسز سادات) فى طريقها لحضور احد الاحتفالات فى مدينة اسوان .

وركبنا الطائرة التى طارت جنوبا .. وكان الظلام لايزال يكسو وادى النيل غير انه فى الشرق كانت تتوهج الخطوط الأولى الارجوانية والحمراء اللون لفجر الصحراء الرائع .

ومن خلال ضجيج ماكينات الطائرة تتحدث جيهان السادات عن السلام وهى ذات وجه ناعم وشاحب اللون .. وعندما تبتسم تكاد ابتسامتها تكون خجلى .. وتقول : ان السلام تحقق الآن اخيرا وكان ينبغى ان يتحقق باسرع من ذلك .. غير انه تحقق ذلك هو ماكنا نحلم به طوال السنين وسوف ترى ان كل شىء سوف يوضع فى نصابه الآن .. سيتم هذا بشكل طبيعى وسترى وقد تكون العقبات اخف مما كنا نتصور .. ان كل شىء ، يبدأ صعبا بالطبع .. اذ ان عددا كبيرا ينتابه القلق والدهشة والبعض الآخر الجمته الصدمة غير انهم اقلية صغيرة .

واسفل الطائرة بدات الصحراء تتحول الى اللون الرمادى ثم الذهبى الباهت وعلى امتداد البصر من طرف الأفق الى الطرف الآخر لا ترى سوى الرمال .

وتقول جيهات السادات : انها لا تزال تتلقى العديد من الرسائل من الاسرائيليين بعضها مؤثر للغاية وغالبيتها من الامهات واطفال المدارس.. وهى ترد على كل خطاب .. وتقول : انه مما لا ريب فيه ان بعض الاشخاص فى مصر يشكون من « ان بيجين رجل صعب للغاية » .. ويعتقد الآخرون ، وهم غالبية وتنتمى هى وزوجها اليهم ، يعتقدون ان بيجين رجل من الصعب التفاوض معه غير انه صادق ويفى بوعده .

وفضلا عن ذلك يبدو بيجين رجلا قويا .. وهكذا يكون التعامل مع رجل قوى افضل من التعامل مع رجل ضعيف حتى ولو كان التعامل شاقا .

وتقول : ان بيجين « رجل متعصب » بالطبع .. ومن العسير على شخص ظل متعصبا طوال حياته ان يتغير بين عشية وضحاها .. وتقول — وهى تضحك — انها قالت لزوجها يوما : ان بيجين قد يكون عميلا سوفيتيا .. غير انها واثقة من ان كل شىء .. سوف ينتهى الى الافضل وسوف يتحقق السلام مع الدول العربية الأخرى كذلك ، اذ ان احساسها يقول لها ذلك « انهم اشقاؤنا غير اننا اكثر تطورا وتقدما اذ لا يزال بعضهم يعيش فى المرحلة

القبلية . وسوف يحنون حذونا . ان شعوبهم فى مسيس الحاجة الى السلام » .

وتتساءل نجاة « هل شاهدت معبد ابو سمبل » ، وارد بالنفى وتصيح قائلة « ولكن ينبغى ان تشاهده . اذ انه اجمل بقعة فى مصر » .. وتصدر امرا الى الطيار بتغيير مساره والتوجه اولا الى ابو سمبل .. ان هناك الكثير الذى يمكن قوله بشأن السفر على طائرات الرئاسة حتى فى مثل هذه الساعة المبكرة وبعد فترة حلقنا على مسافة منخفضة حول تماثيل رمسيس الثانى الهائلة .. وكان قد تم قطعها من الصخور منذ بضعة سنوات ورفعها الى مكان اعلى يشرف على بحيرة ناصر الجديدة .

وتقول السيدة جيهان السادات : انها تحبذ كثيرا التبادلات الثقافية ولكن متكررة ومكثفة .. وفضلا عن ذلك تحبذ زيارات الشباب « اذ يتعين ان يتعرف الاطفال على بعضهم .. اذ ان كل شىء يكون ايسر دائما مع الاطفال .. غير ان الكبار — بدورهم — قد تعرفوا بالفعل على بعضهم على نحو افضل بكثير من شهور مضت وتصر قائلة « سوف تكون المسألة اسهل بين النساء لاقرار السلام . اذ ان النساء يغفرن وينسين اسرع من الرجال » . ويبدو انها مقتنعة بذلك .. ولكن ما تقوله يغلب العاطفة على العقل الى حد ما .. غير انه من دواعى سرورى سماع ذلك . وفى اسفل تتوهج الصحراء تحت حرارة الصباح .

* * *

اجتماع فى نادى (الروتارى) المحلى عقد فى احد الفنادق الاقليمية فى دلتا النيل . ان الفندق لا يزال تحت الانشاء ، وقد ظلت اعمال البناء معطلة على مدى ست سنوات دون تعليل .. غير ان القاعات والمطابخ تعمل . ويقف اسطول من السيارات فى الثرى بين الأوناش واجهزة خلط الاسمنت .. واعضاء الروتارى مدعوون على عشاء مكون من شوربة عدس ، سمك ، مكرونة ، لحم مشوى ، وحلوى مصنوعة من السمسم ، وهى خاصة بتلك المنطقة .. ومن بين الحاضرين هناك كبار المسئولين فى المحافظة ومديرون لشركات مؤممة واطباء ومحامون ومهندسون ورجال اعمال فى القطاع الخاص الذى ازدهر هنا وفى كل مكان اخر فى مصر منذ اجراءات الانفتاح التى اتخذها السادات .

وعقب العشاء استمع المدعوون الى محاضرة .. والضيف المتحدث هو استاذ مصرى متخصص فى الشئون الدولية .. ويتركز موضوعه حول الشرق الأوسط عقب معاهدة السلام .. وشمل الموضوع المسرح بأكمله ، ابتداء من المغرب حتى ايران .. واثنى على شجاعة السادات وخياله ، ومضى فى تفنيد حجج الرافضين فى الدول العربيــة .. اذ يقول : ان اتهاماتهم لا اساس لها ، فان مصر لم تدر ظهرها للعالم العربى . بل على العكس لاتزال مصر فى طليعة العالم العربى وسوف تواصل الكفاح فى سبيل الحصول على الحقوق الفلسطينية . وسوف تضطر اسرائيل للانسحاب من الاراضى المحتلة .

وعقب ذلك مناقشة لا احد يحتج على معاهدة السلام .. ولا احد يذكر الفلسطينيين . والاسئلة التى تطرح على المتحدث تتعلق بالموقف المقلق حاليا فى ايران والمخاوف الحقيقية ، التى تملأ تلك الحجرة المحتشدة برجال وسيدات جادين ترجع الى ظهور التيار الخومينى وتعـود بنا الى الحالة النفسية السائدة الى بداية القومية المصرية فى مستهل القرن الحالى ، التى جمعت فى آن واحد بين البرجوازية الليبرالية وبين مقاومة تدخل رجال الدين فى الشئون العامة . ان اسرائيل او الصهيونية ليست هى التى تثير قلق اولئك الافراد بل اتخاذ الاسلام فجأة وجهة سياسية .

ثم تتحول المناقشة الى المشاكل المحلية . وهنـاك الاسئلة المعتادة البلاغية التى تدور فى الحقيقة حول البيروقراطية المتمثلة فى صعوبة دفع المسائل قدما ، ومعاناة الجرى الى مالانهاية للحصول على تصريحات ، تخصيص الأموال ولكن دون انفاقها ، خطط يوافق عليها ولكن لا تنفذ ، وفى كل عام يولد مليون فم جديد تطلب الغذاء .. ويوافق الضيف المتحدث على أن كل ذلك يعد مشاكل حاسمة .. ويذكر مستمعيه بأنه لاول مرة فى التاريخ الحديث « يتركز » الاهتمام الدولى على مشاكل مصر المحلية .

ويدرك عدد كبير من الاشخاص فى الغرب أن الاستقرار الداخلى فى مصر هو ضمان رئيسى للسلام الجديد .. ويقول الضيف المتحدث ذلك بنبرة تنطوى على امل اكثر ما تنطوى على يقين فلا محل لمثل هذا اليقين .

اذ ان الغرب يريد السلام بالطبع . غير انه فى مسيس الحاجة الى البترول . ان البترول كما يقولون هو افيون الغرب ، والـكل من مختلف الأنماط متعلق به ، ربات البيوت ، الاطفال ، الوعاظ ، الداعون الى السلام، ولا يمكن القول بعد الى اين قد تحملهم وتحملنا الرحلة .

* * *

وتجلس سيدة شابة بين الجمهور .. وتقول « ان كل فرد قد طفح به الكيل وسيتم ، والكل يشعرون انهم بذلوا ما يكفى فى سبيل العـرب ومن ثم يريدون أن يتركوهم وشأنهم ويصبحوا مصريين مرة اخرى » .

وتتسق ملاحظاتها والحالة العامة التى تسود اجتماع اعضاء الروتارى وقد استمعت الى ملاحظات مماثلة طوال الوقت .. ففى شوارع القاهرة تجد ان كلمات « الفلسطينيين » و « العرب » تلقى دائما استهجانا .. وذلك الشعور ليس مقصورا على اية حال على غير المتعلمين .. ويقول احد رجال الأعمال الأوروبيين وهو يقيم فى الفندق معى ، انه سأل أحد الوزراء البارزين فى حكومة السادات عن مكان يقضى فيه احدى الامسيات خارج القاهرة . قال الوزير « لا تدعهم يصطحبونك الى صحارى سيتى » انه مكان بغيض اذ فيه العديد من العرب » .

هناك تحيز بالطبع فى كل بلد ، التحيز فى بريطـانيا ضـد السياح الأمريكيين وفى فرنسا ضد الألمـان وفى الدانمارك ضد الســويديين .. وهلم جرا .

غير ان التعصب الاعمى شيء اخر ، اذ اننى اصطدم دائما باتجاه المثقفين والمسئولين المصريين الذين يشيرون فى الاحاديث او الكتابة الى « العرب » وليس « غيرنا من العرب » وقد غير السادات الاسم الرسمى للبلاد من الجمهورية العربية المتحدة الذى اطلقه عليها عبد الناصر الى جمهورية مصر العربية .. وكل فرد يطلق عليها فقط اسم مصر . ولا تستخدم الصحف الاسم الرسمى ، ولا يجده المرء عادة حتى على طوابع البريد او الاوراق الرسمية .

وتقول تلك السيدة الشابة : ان اسم جمهورية مصر العربية اسم « سخيف » وتحفظاتها شديدة على هذا .. وتمضى تقول انه فى عهد ناصر انكرت وجهة « هوية » مصر الحقيقية ، وكان اطفال المدارس يوجهون الى ان يرددوا الى مالانهاية عبارة « أنا عربى ووالدى عربى ، الخ » وتعتقد ان المشكلة مع الضباط الاحرار كانت ترجع الى انهم ينحدرون من بيئة برجوازية ريفية صغيرة ولم تكن لديهم روابط كبيرة بالصفوة المثقفة فى القاهرة او الاسكندرية ، لقد قمع ناصر « شخصية البلاد المصرية » تحت وابل من البلاغة الداعية الى الوحدة العربية .. وكان ذلك يرجع الى اسباب سياسية غير انه حتى من الناحية السياسية وصلت الوحدة العربية الى فشل ذريع .

وفى عهد ناصر لم تكن الوحدة العربية مصر ملكة العالم العربى بل اسيرته « وعندما كان المصريون يرددون انهم مصريون كان العرب يصدقونهم، وعندما يقولون انهم عرب كان العرب يتشككون فى ان مصر تقوم بلعبة قذرة» .

وذلك الشعور ، الذى يختلف اختلافا تاما عن لغة الوحدة العربية المحمومة التى انتشرت فى عهد ناصر ، واضح فى كل مكان . وهو يتضح بقوة فى كتاب نشرته مؤخرا المؤرخة المصرية الاستاذة نعمات فؤاد تحت عنوان « دعوة الى اعادة كتابة التاريخ » . وتطالب الاستاذة نعمات فؤاد بتحرير مصر من نير الخوف والدكتاتورية والوهم الثقافى وذلك من خلال اعادة اكتشاف المراحل الرئيسية للتاريخ المصرى ، المرحلة الفرعونية القديمة ، المرحلة المسيحية ، الاسلامية .

وتقول السيدة الشابة : ان كتاب نعمات فؤاد لم يكن بقادر على ان يظهر قبل عام ١٩٧٣ . وحتى أولئك الذين لا يتفقون مع النتائج البعيدة المدى التى توصل اليها الكتاب يعتبرونه بمثابة مساهمة هامة للمناقشة المستمرة التى تدور حول دور مصر فى المنطقة مستقبلا .

وقد تعذر التأكيد العام على مصر بوصفها كيانا فريدا من خلال فظاظة الهجوم العربى الاخير على مصر ووصفها بـ « خائنة » القضية .. ويدور فى الحقيقة كلام كثير يغرى المرء بالاعتقاد فى الانبعاث القوى للوطنية المحلية الجديدة بما ينطوى عليه من نتائج محتملة بعيدة المدى لمصر وجيرانها .. الى ان يتذكر المرء ان المناقشة حول وجهة « هوية » مصر ليست بالامر الجديد . اذ انها ارقت مضاجع مصر على مدى سنوات .. وقد برزت اول ما برزت ، فى القرن التاسع عشر ، عندما انزعجت القاعدة التقليدية للمجتمع

المصرى من حكم الاستعمار والتحديث مما عجل بنشوب ازمة « الهوية » التى لم تحل قط .. وقد اثارت قلق كل كاتب هام ابتداء من طه حسين ، فى مستهل القرن الحالى ، حتى توفيق الحكيم ، نجيب محفوظ وشعراء وكتاب قصص اليوم الاصغر سنا ..

وقد بدأت القومية المصرية بمعارضة « مصر » للامبراطورية العثمانية، ناظرة الى الاسلام والعروبة على انها مجرد عوامل مكملة وقد استبعد مصطفى كامل ، الغربى الوجهة ـ ومؤسس الحركة الوطنية فى مصر ، استبعد العروبة بوصفها وهما ، وقد قال ناصر ، باسلوب يعتبر عسكريا غير دقيق ، قال عن (فلسفة الثورة) « انه دورية لاكتشاف من نكون » .. وفى النهاية اطلق السادات على النسخة الانجليزية لكتابه ما معناه « البحث عن الهوية » وعلى النسخة العربية اسم « البحث عن الذات » .

وكان طه حسين ، الروائى الشهير الضرير ، طالبا فى الأزهر ثم تحول فى وقت لاحق الى مناهض صريح لعلماء الدين باسم العلم .

وفى وقت كانت فيه القومية المصرية لاتزال تركز على الحصول على الاستقلال من الحكم البريطانى او الوحدة مع السودان بدلا من التركيز على العروبة او الحرب ضد اسرائيل ، كتب طه حسين كتابا شهيرا يحمل عنوان « مستقبل الثقافة فى مصر » حث فيه مصر على ان تصبح دولة من دول البحر المتوسط ، اى جزء من أوروبا وليست من افريقيا او آسيا .. غير ان طه حسين فى سنواته الأخيرة ، عاد للاتجاه العربى والاسلامى واعلن انه يميل الى ان يضم فى نفسه شخصيتين ، احداهما نقدية ومحبة للبحث والأخرى غير منطقية بل صوفية .

والطبيعة المستمرة لذلك الجدل ـ وما يتعرض له من جزر ومد لا يصل الى قرار ـ صاحبت فى هذا القرن بالطبع ، تحولات فى مصائر السياسة فى مصر (ان اعظم انجاز للانسان هو ان يصبح مدركا لوجهته اى لهويته الحقيقية) . عندما اعلن « جوته » تصريحه الشهير عشية عصر القومية اثار مشكلة ندر ان وجدت الاجيال المتعاقبة الاجابة المرضية عليها .

والمصريون ، شأنهم شأن الامم الأخرى ـ لم يتمكنوا قط من الاتفاق على ماهية شخصيتهم الجماعية .. وكما هو الحال فى الدول الأخرى ، كان النزاع يتحدى ـ على مر العصور ـ الحلول السهلة ، وكانت اكثر الاجابات ضحالة تنبع من عقد العصور .. وليس من المحتمل ايجاد حل لذلك الجدل فى مصر على نحو سريع شأنه شأن النزاع الخالد الدائر فى اسرائيل حول « من هو اليهودى » ؟ .

وازمة الوجهة (الهوية) هذه ، عندما يفكر فيها المرء ، ليست هى وجه الشبه الوحيد بين البلدين .. اذ ان كليهما يعتنق قومية متشددة ترتكز على الدين والعرق كذلك .

وكانت كلتا القوتين ، فى البداية على الاقل ، بمثابة ثورة ضد نزعة الدين حين يعوق التقدم وانتشار المعرفة .. وكانت كلتا القوميتين ، فى مبدأ

الأمر ، تستبد بها نوازع تسعى الى خلق انسان جديد ، وكان يهيمن عليهما فى الوقت نفسه ايمان ، ساذج بالعلم .

وكان ناصر وبن جوريون يعتقدان على نحو مماثل ــ لكنه خاطىء ــ كما اتضح فى النهاية « أن الايمان يوحد فيما بيننا غير أن العلم يحررنا » ، وتلك عبارة كان اول من كتبها هو (تيودور هيرتزل) مؤسس الصهيونية الحديثة .. لقد كان كلا الشعبين منبوذين ، لكنهما انتهيا الى انهما الشعب المختار .. وكلا الشعبين على استعداد للاعتقاد فى الأرواح حتى حين لم يعودوا يؤمنان بالله وهما يعهدان الى الدين القيام بدور علمانى بوصفه قوة اجتماعية ووطنية . ويشترك كلاهما فى شكل خاص من الاشتراكية الوطنية التى تعتبر فى كلا البلدين بمثابة وهم ميئوس منه .

وجاهد كلا الشعبين لخلق الدولة الامة التى تقتصر عليهما ، الا انهما اعتبرا أنفسهما جزءا من كيان عرقى أكبر .. واتجه كلاهما الى المستقبل غير انهما كثيرا ما وجدا أن من الايسر العيش فى الماضى . ومهما كان ذلك الماضى سحيقا فانه استحوذ عليهما ، وبذل كلاهما محاولات مستميتة لاكتشاف الاستمرار بينما هناك قدر كبير من التغيير .

وقد احتفظ اليهود على الأقل بمخطوط ولغة وايمان ، غير انه فى مصر نجد هذه الأشياء الثلاثة قد تغيرت ، ثلاث مرات على الأقل خلال العصر الفرعونى ، واليونانى والمسيحى والاسلامى .

وقد دمغ كلا الشعبين بالبيئة الجغرافية : اذ ان المصريين يميزهم النيل ، ويميز اليهود الشتات . وقد وجد كلاهما انه من العسير تحديد حدودهم الجغرافية الدقيقة ، ومن ثم عانى كلاهما وشابه الاثنان فى ان الحروب جعلت كلا منهما مدفوعا الى دراسة « عقلية » الطرف الآخر . وقد استخدم كلا منهما وجهة نظره عن مجتمع وثقافة الطرف الآخر كى يضفى قدسية على ثقافته وعنوانه السياسى .. وتظاهر كلاهما انه يحتكر المعاناة.

واستحوذت عليهما تعريفات قانونية شكلية لما كان اساسا مشكلة سياسية .. ترى من كان المعتدى فى عام ١٩٤٨ ؟ ١٩٥٦ ؟ ١٩٦٧ ؟ ١٩٧٣ ؟ ترى من الذى هوجم ؟ ان اليهود يميلون دائما الى الجدل اللفظى على النحو الوارد فى التلمود .. وقد بزغ المصريون فى البداية الى الحياة الوطنية فى ظل نفوذ قوى من مبادىء نابليون وكفاح مصر ضد بريطانيا يوصف دائما بانه « قضية مصر » كما كان الوضع بالنسبة لاسرائيل .

ويبدو أن كلا البلدين قد اصابهما التعب الآن حقا . لم يعد هناك مشكلة قانونية « هكذا قال لى صديقى تحسين بشير فى ذلك اليوم بصورة عارضة اذهلتنى » انها مشكلة سياسية . انكم تلجأون الى محام ونحن نلجأ الى محام ونبدد الوقت .

وقد ضحكت السيدة الشابة التى التقيت بها فى اجتماع نادى الروتارى لهذه السلسلة من وجوه الشبه والمقارنات . الا انها لم تاخذها ماخذ الجد مثلى .

ان سرعة بديهتها تضفى سحرا على جمالها المكتنز .. وتضحك .. وعندما تضحك يبدو جمالها نادرا .. وتروى لى قصة السيد (ك) ــ وهو مواطن اسرائيلى يؤيد السلام بحماس وكان قد جاء الى القاهرة وكان هناك القدر الكبير الذى يرغب فى مناقشته ومقارنته كما فعلت انا . وفى اول ليلة فى القاهرة اصطحبته الى احد المطاعم برفقة آخرين ارادت أن يقابلهم .. غير انه كان سعيدا للغاية لتواجده فى القاهرة فى النهاية ، وكان أن شرب حتى الثمالة وراح فى سبات عميق وهو جالس فى مقعده .. وحاولوا ايقاظه.. وغط فى نومه مرة اخرى .. وكان عليهم ان يحملوه الى داره ومشاعر الأسف تراودهم .. وتقول : ان ذلك ذكرها بقصة قديمة .. اذ ان رجلا حظى بعروس جميلة فأقسم ان يقتلها بعواطفه الجياشة ، وتالها مرة وراح بعدها فى سبات عميق .. وبعد فترة هزته قائلة « استيقظ ايها القاتل » .. غير انه غط فى نومه مرة اخرى .

* * *

الفصل التاسع

الاسكندرية فى وقت الظهيرة .. بضعة زوارق صواريخ ترسو فى الميناء القديم والميناء الجديد تحجبه القباب والمآذن التى ترتفع على النتوء الداخل فى البحر وثمة ارض مستوية تنعطف حول خليج مشبع بالشمس .. وفى الجو الحار يحلق الحمام المنبهر وترى النخيل المغبر ومشهد البحر والمدينة انها « عاصمة الذكرى التى وصفها داريل » والاسكندرية بالنسبة لفرد لم يشاهدها من قبل ، وقلما حلم بذهابه اليها تعد بمثابة تجربة تعتمد على المعرفة من الكتب ، كتب يتذكرها المرء ويحبها : مثل تلك التى اصدرها لورانس داريل . اى.ام فورستر قسطنطين كفافى .

وتضفى الكتب على المدينة خاصية اضافية تبرز فى الاسكندرية على نحو يفوق القاهرة ، لبعض الاسباب . ان بعض الشخصيات ، العبارات ، المشاهد ، مقتطفات من حوار واشعار منطبعة فى الذهن بغموض .. وها هى تعود مثل الاحلام التى يتذكرها المرء على نحو غير منتظم وغير تام .. الالوان والروائح التى تملأ الجو الحكايات ، شخصيات معنية ، ربما تكون خرافية ولكنها قد تماثل الشخصيات الخرافية من حيث انها تثير الذكريات بقوة .

وهناك (كابتن خورخى اى نيلكين فالدبرج) الوارد فى العديد من المذكرات التى ظهرت فى مطلع القرن بوصفه رومانيا .. كان يعمل ضابطا فى الجيش الارجنتينى ويحمل اسما سويديا وجنسية امريكية .. وكان رئيسا لتحرير الصحيفة الفرنسية المحلية وكان يهوديا ذا مقام رفيع فى الكنيسة الارثوذكسية اليونانية .

وعلى كورنيش البحر يقف شحاذ يتكىء على (درابزين) سور مهشم بلا حراك وكأنه ابو الهول رابض .. وعلى الطريق تشيع رائحة جو معبق بالملح والقهوة القوية الداكنة اللون .. وهناك تعقعة اقدام وصليل عجلات على جانب الطريق .. وتتعالى اصوات فى الرياح .. ويقول (بلو تراك) انه عندما سمع انطونيو اصوات فرقة موسيقية غامضة فى شوارع الاسكندرية ادرك ان الالهة قد تخلت عنه .. وقال : وداعا للاسكندرية وهو يرحل عنها . وهناك موقع الالهة الرومانية القديمة وعمود الجنرال الرومانى (بومبى) المصنوع من الجرانيت الاحمر الذى تم نقله من اسوان ، وكان رأى (فورستر) عنه انه « بمثابة شىء مفروض وبشع » . والمنارة القديمة افضل من المنارة الحديثة وهى ضعفها فى الارتفاع تقريبا .

فندق سيسل القديم ، ويقع بالقرب من محطة (ترام) الرمل .. وعندما يبدأ الترام الطويل فى التحرك والابتعاد يدوى بأصداء المشاهد الادبية فمناظر المدرسة الايرلندى فى رواية دوريل يقول : وداعا لراقصة الحانة اليونانية ميليسا .. ان اندفاع القطار الطويل الى الضوء الفضى يذكرنى بتحرك ظهرها الأبيض فجأة فى الفراش .. وجلبة قواعد البنادق والصليل البنغالى يذكرنى بجزء من لوحة لقوات هندية .

لقد اختفى الايرلنديون — اليونانيون — الايطاليون — اليهود — الانجليز — والبنغاليون غير أن تحطيم التماثيل وطرد الالهة من المعابد لا يعنى، كما كتب كفافى انهم قد لاقوا حتفهم .. فهناك قصر الملك فاروق القديم فى راس التين الذى يضم مجموعة لاتضارع من القطع الفنية ، الأثاث ، اللوحات، الثريا وقطع فنية (قوطية) وحاملات سجائر من المرمر وخشب الأبنوس المرصع بالماس واربطة عنق فاحشة .. وقد انشئت القلعة البحرية التركية على اطلال برج المنار القديم .

وليس ثمة اثار للاكاديمية حيث اعيد صياغة اسطورة مصر بدمج الغموض الشرقى بحكمة اليونان الجلية والقدس باثينا .. كما لا يوجد اثر لحكماء الاسكندرية اليهود السبعين الذين قاموا — فى وقت واحد — بترجمة كتاب العهد القديم الى اللغة اليونانية ، وتم عزل كل على حدة فى زنزانة ، غير ان الترجمات السبعين جاءت جميعها متطابقة بشكل معجز ، الى حد انه قيل ان الله قد اوحى لهم بها .

ولايزال المعبد اليهودى الكبير ، معبد النبى ليشع ، موجودا هناك فى شارع النبى دانيال ، بيد انه مغلق وموصد بمصراع باستثناء أيام الجمع والأيام المقدسة حيث يفتح لاستقبال حوالى دستة من الرجال والنساء المسنين .

ويتاخمه قصر فخم حيث رقد كفافى وهو فى النزع الأخير وكتب قصيدة « فى انتظار البرابرة » ، الذين لم يصلوا بعد .. والآن ما الذى سوف يحدث لنا بدونهم ؟ . فأولئك الاشخاص كانوا ضربا من الخلاص لنا .. اما غرفة مكتب الشاعر البارعة والجميلة فمحفوظة داخل مبنى القنصلية اليونانية .

يا للصور والخيالات التى تنتقب فى ذهن المرء خلال زيارة قصيرة الى هنا ! ومن صور ضيق الافق ان يكون الولع بالمطالعة والكتب فى عجلة من امره فى مكان مثل هذا وعلى عكس القاهرة نجد تلك المدينة تطاردك .

ويلمس المرء الماضى ليس فى التماثيل والحوائط المنقوشة وانما فى ذخيرة الأدب الذى يستبد بك .. انه ماض ينتقى اشياء ويهمل اشياء .

ويتبادر الى ذهنى رجل انجليزى اعرفه قام بزيارة الاسكندرية منذ بضع سنوات ثم زارنى فى القدس وتحدث بحزن عن التغييرات الجذرية التى طرأت على الاسكندرية ابان الخمسة والعشرين عاما التى اعقبت ثورة الضباط .

اذ قال « ان المدينة فقدت روحها » .. فاليونانيون والايطـاليون ، واليهود ، والارمن ، قد رحلوا ، أو طردوا .

ومضى يقول : ان المدينة الساحرة التى تحدث عنها كفافى ، فورستر ، داريل قد انتهت وفى ذلك الوقت لم الحظ شيئا غير انى الآن ، وأنا هنا فى الاسكندرية اتساءل بشأن نزعة التملك هذه .

وعلى حين غرة يتبادر الى ذهنى ان كتابات كفافى دارت معظمها حول اليونانيين القدامى والهيلينيين .. كما أن « رباعية الاسكندرية » لداريل لا يكاد يشغلها غير الانجليز والفرنسيين واليونانيين ، والارمنيين واليهـود وهى مملوءة حتى الثمالة بنازحين غرباء تراسهم تلك اليهودية « جستين » وهى حزمة من الاعصاب .

واستخدم اسلوبا فنيا كان سائدا فى القرن السابع عشر (باروك) ويتسم بالزخرفة على نحـو مفرط .. وحتى فى ادب بروست لم تكن كل شخصية رئيسية (دوقة) — و (نسيم) بالطبع رجل قبطى .. وليس ثمة احد بوسـعه أن يكون اكثر مصرية من مواطن قبطى .. ولـكن الم يكن جاسوسا صهيونيا ؟

والشخص العربى المصرى الوحيد الذى يمكن ان اتذكره فى «الرباعية» هو ذلك الباشا الفاسد الذى استولى على أموال نسيم لانهاء مسالة الخيانة القذرة .

ان الانسان ما هو الا امتداد لروح المكان .. ترى اين كافة المصريين الآخرين ؟ لقد كان هناك حتمـا مليون مصرى فى عصر داريل .. واليـوم هناك مليونان .

« ظل الشرق — بشكل دائم تقريبا — اختراعا اوروبيا — هكذا كتب ادوارد سعيد وهو استاذ فلسطينى — أمريكى فى كتابه « المستشرقون » ، وهو كتاب مرموق وجدت متعة كبيرة فى قراءته قبل مجيىء الى مصر .

والأدب المقارن هو الميدان الذى تخصص فيه ادوارد سعيد وكتابه يعد من الكتب النقدية ، وهو مدمر فى أغلب جوانبه ، بالنسبة للقصصيين الغربيين والمستشرقين الذين كتبوا عن الشرق بدءا من (شاتوبريان) و (نيرفال) حتى صديقى (يهو شلفات حركابى) فى القدس .

ان الشرق كما صوره عدد كبير من الكتاب الغربيين ، غير موجود على الاطلاق ، انه قد تغير تغيرا جذريا بهجرة من بالاسكندرية من اليونانيين « والاجانب » الآخرين ، الايطاليين ، الانجليز ، الفرنسيين واليهود ..

وقد كان اليهود — شأنهم شأن اليونانيين — ، متواجدين فى الاسكندرية منذ فجر التاريخ تقريبا .. غير ان الثقافة المصرية اليهودية ، والثقـافة المصرية اليونانية تنتمى الآن الى علوم الآثار القديمة ، ترى هل يمكن بعثها من جديد ؟

هنا ، وتحت اشجار النخيل الباسقة التى ترمى بظلالهـا الطويلة الرفيعة على البحر المتوسط ، بين تلك القصور المقلدة (للطراز) الأوروبى المتداعية نتيجة الاهمال واعمدة مبنى (بورصة) القطن القديمة ، هنا مكان طبيعى كى يتأمل المرء مليا ذلك السؤال بأكبر قدر ممكن من الواقعية ..

وهنا تلقى نـاصر تعليمه اذ كان والـده يعمل فى هيئـة البريد فى الاسكندرية وهنا عقب محاولة اغتياله الهب حمية الجماهير المحتشدة بقوله « انه هو نفسه يمكن تعويضه ، اذ ان كلا منهم جمال عبد الناصر .. » ومن هنا وخلال ازمة السويس فى عام ١٩٥٦ طلب من الغرب أن يشرب من البحـر اذا اراد .

وفيما بين عام ١٩٥٦ و ١٩٦٢ ، لم تعد الاسكندرية نجاة واحـدة من مدن البحر المتوسط التى تطل على البحر كما كانت مدينة البندقية تطل على البحر الادرياتيكى اكثر مما تطل على ايطاليا الرابضة وراء البحيـرة الضحلة الممتدة من البحر .

وثمة جمال من نوع حزين باق فى شوارعها التى تشبه شوارع احدى مدن ايطاليا او الدوديكانيز ، غير انه يقطنها اليوم المصريون فحسب ولا تزال اسماء بعض الشوارع القديمة كما هى دون تغيير مثل شارع دى سور وشارع شامبليون ..

وقد اطلق على الشارع الكبير الممـتد الى جوار البحر اسم طـريق ٢٦ يوليو ، ويعرف ميدان محمد على الآن باسم ميدان التحرير .. غير أن مؤسس مصر الحديثة لا يزال يطل عليه من على متن حصانه البرونزى .

وكانت الاسكندرية فى يوم ما هى « عاصمة مصر الصيفية » — اذ كان الملك ووزراؤه ، وكبار الاداريين ، ينتقلون الى الاسكندرية مع السلك الدبلوماسى و « المجتمع » ..

وقد وضعت الثورة نهاية مثيرة لكل ذلك وسارعت بترحيل او طرد « الجالية الأجنبية » ويعترف « محافظ الاسكندرية ، اليوم — وهو رجل لطيف ممتلىء الجسم ذو شارب أبيض ويمشط شعره الخفيف الى الوراء ، وتفوح منه رائحة الكولونيا النفاذة — يعترف بأن رحيل عدد كبير للغاية من الأجانب كان بمثابة مأساة كبيرة .. مأساة كبيرة يا سـيدى اذ كانت مسـاهمتهم للمجتمع كبيرة للغاية آه ولا سيما اليهود كما يقول .. وكانت علاقة كل منهم بالآخرين ودية دائما ، الى ان تعقدت العلاقات من جراء السياسات .. وتسممت نتيجة لعدوان عام ١٩٥٦ ، نعم ، ان كل فرد يتوق كثيرا الى تجديد الاتصـال ..

وصديقى ، شالوم كوهين ، قد مضى مرحلة طفولته فى الاسكندرية ، والتحق بكلية فيكتوريا ، وهى بناء ضخم مهيب من الحجارة مربع الزوايا ويضم مروجا خضراء منسقة — بعناية — ويماثل فى كل من بنائه الهندسى ومنهجه الدراسى المدارس الخاصة البريطانية ..

وابان فترة صباه كان مصريا وطنيا وصهيونيا فى آن واحد .. واشترك فى المظاهرات التى كانت تندلع ضد البريطانيين ثم انضم الى منظمة صهيونية للشباب وتلقى تدريبه كى يصبح رائدا فى اسرائيل .

وعندما اشترك فى حرب عام ١٩٥٦ بوصفه اسرائيليا ، انتابه احساس بالحزن والأسى وهو يقاتل ضد المصريين ، غير انه شعر بارتياح بالغ عندما تمكن فى اليوم الرابع من تلك الحرب من اقناع الحامية المصرية فى شرم الشيخ بالاستسلام دون اراقة الدماء .

ويبدو ان القائد المصرى الذى حاصره العدو لم يستطع ان يقاوم لهجة كوهين الاسكندرانية الممتازة ..

ولايزال هناك اقارب لكوهين يقيمون فى منزل المسنين اليهود فى القاهرة .. وقص على تلك الحكاية الصغيرة : توجه الى مبنى نادى الشباب الصهيونى الذى كان ينتمى اليه فى فترة صباه ابان الاربعينات ..

ويستخدم الآن كمركز للتدريب المهنى .. واكتشف ان البواب لا يزال هو نفس الشخص وصافح كوهين وقال له « لقد حققت ما اردت ، انت وكل الشباب الآخرين الذين كانوا يملئون ذلك المنزل ! لقد اردتم اقامة دولة خاصة بكم ، اليس كذلك والآن هناك دولة لكم . ان السلام سوف يتحقق ان شاء الله . وسوف نصبح اشقاء مرة اخرى . كما كنا فى الأيام الخوالى» . اشقاء ؟ اصدقاء ؟ ربما .. لكن من على مسافة بعيدة ... على الارجح ..

* * *

ان الأصدقاء والرفاق — او اشباه ذلك — هم الذين يتعاونون مع بعضهم ، هذا هو المنطق الذى يكمن وراء سياسة الانفتاح التى اتخذ قرارها السادات فى عام ١٩٧٤ لجذب رجال الأعمال الأجانب وعودة رؤوس الأموال المصرية التى تعمل فى الخارج الى مصر كذلك مع عرض بحمايتهم من الضرائب ووعد بتحصينهم من المصادرة والقوة الخانقة للبيروقراطية المتفشية فى البلاد .

وقد بدات السياسة الجديدة فى مطلع عام ١٩٧٤ وكانت بمثابة نتيجة مباشرة لاحساس الثقة بالنفس الذى استعادته مصر فى حرب اكتوبر .. وقد طرح السادات فى ما يسمى بـ « ورقة اكتوبر » التى اعدها ، مبادىء تلك السياسة الجديدة التى سرعان ما صبغت بالصبغة القانونية باجراء استفتاء وطنى عليها ، وفى (ورقة اكتوبر) حاول السادات اعادة صياغة الأهداف الوطنية والتغلب على تراث الناصرية .. واتسمت لغتها بابتعاد (راديكالى) عن لغة الثورة البلاغية المعتادة .. وفى مصطلحات غربية اكثر من كونها مصطلحات تستخدم فى العالم الثالث ، تعتبر الثورات التى تعرضها « ورقة اكتوبر » « ثورة تكنولوجية » ثورة فى العلم ، والاتصالات ، والنقل وفى « ورقة اكتوبر » تطلع السادات الى عام ٢٠٠٠ والى تحقيق «مجتمع مفتوح » .

لقد كانت البيانات الرسمية الايدلوجية التى طرحها ناصر تنادى بعلم الوحدة العربية ، الا ان « ورقة اكتوبر » قد اكدت على وجهة (هوية) البلاد « المصرية الفريدة .. وقد تعهدت ، من الناحية العملية ، بادخال « جو جديد » على ثلاثة مجالات هامة الا وهى :

فى العلاقات الخارجية : انفتاح اكبر على الغرب .

فى الشئون المحلية : تحقيق قدر اكبر من « الديمقراطية » وحكم القانون « والحقوق المدنية » .

فى مجال الأعمال : اعادة ادخال قطاع خاص كى يعمل الى جانب الاقتصاد الاشتراكى .

فى مجال الشئون الخارجية : نجد ان الانفتاح على الغرب قد افضى الى ابرام معاهدة السلام مع اسرائيل .. وفى مجال الشئون المحلية والاقتصادية لا يزال هناك طريق طويل يتعين سلوكه فى تلك الدولة الاستبدادية — قبل تحقيق الديمقراطية او اى قدر من العمل المحرر من سيطرة الدولة الصارمة .. بيد ان هناك بداية تغيير وسوف يظهر المستقبل الى اين سينتهى ذلك التغيير . اذ انه قد تحقق قدر من العودة الى حكم القانون فى مصر .. وتتمتع المحاكم بقدر من الاستقلال الآن يفوق بلا ريب الثلاثين عاما الماضية .. غير ان الصحافة لاتزال تفتقر الى الحرية .. الا انه هناك قدر من السيطرة على الفكر اقل من ذى قبل ، ولم يعد الأفراد يقعون تحت رحمة بوليس سياسى يتسم بالقسوة .

وفى مجال السياسة الداخلية ، صدر قرار اخير بتشكيل احزاب جديدة موافق عليها رسميا ، وفى مجال الأعمال هناك سياسة الانفتاح .. وقد اقيمت مناطق حرة امام المستثمرين المحليين والأجانب فى القاهرة ، بورسعيد ، وبور توفيق وفى الاسكندرية ايضا التى كانت معقلا للمشروعات التجارية للأجانب والمصريين .

وقد تم اصطحابى انا و (جوزيف كرافت) الى المنطقة الحرة بالاسكندرية وهى تقع على بعد بضعة اميال غرب الاسكندرية على طريق العلمين القديم .

وتستهدف تلك المنطقة تخفيف الضرائب عن رجال الصناعة الذين يشغلون العمالة المحلية واستيراد آلاتهم والمواد الخام بدون جمارك ، وتحقيق صادرات بارزة لانتاجهم .. وقد سرنا فى طريق واسع جديد يضم اربع (حارات) وكان فيما مضى شواطىء مقفرة معزولة حيث سبحت (جوستين) مع صديقها ناظر المدرسة الايرلندى .. وهنا تبادل نسيم الغرام مع (ميلسيا) وربما يكون (انطونيو وكليوبترا) قد تناجيا هنا من قبلهم .. ومن تلك المنطقة تحدث (اى . ام . فورستر) بحماس عن الحيات البرية والغزلان الخجلة والطيور والرمال البيضاء .

غير ان الاسكندرية قد ازدحمت واكتظت بالسكان حتى تلك المنطقة فى الغرب ويتناثر على الشواطىء التى لا تزال تحتفظ بنقائها الاصلى منازل جديدة واحياء فقيرة ومصانع ، معسكرات جيش ومطاعم .. وثمة طريق شاسع مرصوف بالأسفلت يفضى الى كهوف (جوستين) السرية وتحيط كثبان الرمال سياج الأسلاك الشائكة للمنطقة الحرة ..

ورحب بنا مدير المنطقة واستقبلنا بحماس واحترام يلائم ممثلى شركة (مورجان) أكثر مما يلائم اثنين من الصحفيين المشكوك فيهم الذين نما الى علمهم ان المناطق الحرة تعد بمثابة فردوس لتجار السوق السوداء .

وتقف العربات والسلع الاستهلاكية الأخرى تفرغ حمولات غير مدفوع رسومها ، اذ تتهرب من مسئولى الجمارك .. الذين يمكن رشوتهم وتتجه الى القاهرة والاسكندرية .. ان حماس الأبطال المقاتلين والوطنيين قد يذهب سدى اذا تسلل الذهب سرا من محتال الى آخر » ..

وقد صرح احد المسئولين المصريين لكرافت والحنق يعتريه بأن فى بورسعيد بمفردها تم تحصيل أقل من ٣٠ مليون دولار قيمة رسوم جمركية رغم أن قيمة الضرائب المستحقة على السلع التى فرغت هناك بلغت ٥ر. بليون دولار ..

ومدير المنطقة احد ابناء عائلة اسكندرانية بارزة .. وكان هو نفسه مسئولا جمركيا سابقا .. وينبذ تلك الشائعات جانبا ويقول « ان ذلك لا يمكن ان يحدث هنا ! ربما يكون فى بورسعيد ولكن هنا لا » .

ويرتدى (جاكيت) أنيقا (من التويد) الانجليزى ورباط عنق صوفيا رماديا وقميصا حريريا .. ويقول : ان تكاليف الخدمات الأساسية بأسرها تتحمله الحكومة .. ويقوم المستثمرون ببناء مصانعهم ودفع رسم سنوى قيمته دولار واحد عن كل متر مربع ..

وتم الموافقة على خمسة وخمسين مشروعا صناعيا .. عشرون منها يملكها رجال أعمال اوربيون ، أمريكيون — كويتيون او ليبيون والمشروعات الباقية يملكها مصريون يملكون راس مال اجنبى .

ويضيف قائلا بابتسامة تنم عن الذكاء « اننا لا نطرح أسئلة عديدة اذ ان كل فرد يحظى بالترحاب .. كل فرد » .

ويسال كرافت « والمستثمرون الاسرائيليون ايضا » ؟

يقول المدير « منذ ثلاثة اسابيع كان يتعين ان ارد على ذلك السؤال بالنفى للأسف الا انه اليوم ومن دواعى سرورى بوسعى الرد بالايجاب .. فليحضروا اهلا وسهلا بهم وطالما يستثمرون المال نحن نرحب بهم » .

« ألم يثيروا قلق المستثمرين الليبيين والسعوديين الذين فتحوا مصانع هنــا ؟ » .

« ليس ثمة مشكلة — انهم لا يأتون هنا لأسباب سياسية — بل يحضرون لاستثمار الأموال .. اذ ان المال هو اللغة الوحيدة المستخدمة فى تلك المنطقة .. فما الذى يحدث اذا وجد مصنع اسرائيلى نفسه يجاور مصنع السجاد الكويتى » .

بيد انه فى الوقت نفسه تعتبر المشكلة الحقيقية ذات طبيعة مختلفة .. اذ بالرغم من ان المنطقة الحرة قد افتتحت فى عام ١٩٧٥ ، لا يزال يتكرر انقطاع الكهرباء ولا توجد خطوط تليفونات يعتمد عليها مع الاسكندرية او اى مكان آخر .. بيد ان اجهزة (التلكس) تعمل ..

والمدير العام لشركة (سجاد الشرق الأوسط) التى تملكها الكويت والتى افتتحت فى عام ١٩٧٦ يدعى (عوين ج . سراج) وهو رجل انيق فى مستهل الثلاثين من عمره .. ومكتبه مكيف الهواء وذلك امر نادر هنا .. والأثاث الرائع الايطالى مصنوع من خشب الساج والجلد ..

وقد تم استثمار سبعة ملايين دولار فى ذلك المصنع .. ويقول : ان مائتين وخمسين عاملا ينتقلون يوميا من الاسكندرية ويحصل الفرد فى المتوسط على راتب قدره مائة دولار والمستثمر الرئيسى هو الأمير الشيخ جابر حاكم الكويت .. وصورته معلقة داخل اطار مذهب على الحائط الى جوار صورة السادات .. وتصدر السجاجيد التى ينتجها المصنع بتصريح من بلجيكا الى السعودية .

ويقول السيد سراج « ان احدا لم يتوقف عن طلب شراء سجاجيد من مصنعنا حتى عقب المقاطعة التى فرضت على مصر .. ومن المحتمل ان تكون تلك المقاطعة فقاقيع صابون . ولن تفرقع فى اى وقت » .

وقد تم تقديمنا بالاسم فحسب وتابعت السيد سراج طوال المقدمة وسألته قائلا : هل انت كويتى ؟

ويقول « اننى اردنى » وانت انجليزى او امريكى اجبته قائلا : اسرائيلى » .

يقول سراج وهو يبتسم ابتسامة عريضة « شالوم » ويواصل حديثه باللغة العبرية « فى الواقع انا فلسطينى .. مولود فى يافا وكنت اعمل فى العديد من مصانع السجاد فى اسرائيل وقمت بزيارتها منذ ثلاث سنوات .. ولنأمل أن تسير الأمور فى نصابها السليم من الآن فصاعدا » ..

ان شاء الله .

« نعم ابلغ تحياتى الى (س —) فى الناصرة يعمل فى شركة السجاد وعقب فترة وجيزة اصطحبنا المدير لتناول الغداء فى احد النوادى الخاصة الثرية ويقع فى قلب القطاع الأوروبى القديم فى الاسكندرية .. والنادى السورى السابق قد اطلق عليه فى الآونة الأخيرة اسم نادى الاسكندرية..

انه لمن الخطأ الجسيم بلا ريب ــ هكذا قلت بتهور لأحد المعارف المصريين عقب وصولي ببضعة ايام ــ ان يطلق على العديد من الكباري ، والميادين وحتى مدينة جديدة تقام في الصحراء اسم حرب اكتوبر . وكنا نسير على طول كورنيش النيل .. وامامنا كوبري ٦ اكتوبر الجديد الذي يمتد فوق النهر الى الجزيرة ويسير على ذلك الجانب فوق اسطح المدينة في محطة سكة حديد رمسيس .

لماذا ؟ هكذا قال المصري متطلعا الى بدهشة .

واردفت اقول « ان جميعنا على علم بأن حرب اكتوبر انتهت بحالة جمود كامل يضاف الى ذلك ان فيلقا كاملا من الجيش المصري قد تعرض للحصار .. وكاد الاسرائيليون ان يصلوا الى القاهرة .

واثارت تلك الملاحظة ردا طويلا ، وقد حرصت منذ ذلك الحين على الا اكرر ذلك .. وكان يتعين على ان ادرك ذلك على نحو افضل .

لان حرب اكتوبر ــ رغم انها قد انتهت بالتعادل من الناحية العسكرية ــ كسرت حالة الجمود السياسي وفتحت الطريق امام السلام (كما نعلم الآن غير اننا لم ندرك ذلك آنذاك) . سلام بين «اطراف متعادلين» كما يقول عدد كبير من المصريين .

والتعادل هو مفتاح الكلمة .. وليس من اليسير على الاسرائيليين ، الذين عانوا من الارهاب على مدى سنوات على يد العرب ، ان يفهموا جيدا المعنى الكامل لكلمة متعادلين ، حتى يسمع المرء المرة تلو الأخرى ، ان اعمال الارهاب ــ سواء كان ذلك صوابا او خطأ مماثلا ــ قد تملكت الجانب الآخر كذلك وربما بصورة اسوأ .. ويبدو ان بعض المصريين قد بدأوا يقتنعون بتفوق اسرائيل النوعي في مجال الاستراتيجية العسكرية ، والعلوم ، والدبلوماسية ، والمال ، والتكنولوجيا والدعاية مثل اقتناعهم بامكانية تغلب « ثلاثة ملايين ونصف مليون اسرائيلي ــ يبدون وكأنهم يتمتعون بقوة تفوق البشر ــ على ثمانين مليون عربي ..

وتمثلت النتيجة النفسية في تكون عقدة نقص ضخمة ، واحساس بكراهية للذات وخوف محفور من انهم قد يكونون نمطا ادنى « الى حد ما » . وقد غفلنا عن ان نفس الصحافة العالمية التي تدوي بانبعاث القوة العربية والاسلامية الآن كانت قد اشارت في عام ١٩٦٧ الى ان هناك شيئا خاطئا في تطور العرب .. وبالرغم من ان العرب قد شنوا سلسلة طويلة من الحروب ، غرس نجاح اسرائيل المتكرر في النفس احساسا بالخوف من ان اسرائيل تشبه سرطانا غريبا واخطبوطا سوف يبتلعهم في النهاية .

ولم يخفف من تلك الأعراض المتزامنة الازدراء التقليدي الذي كان العرب يكنونه لليهود على مدى الأجيال ، بوصفهم جنسا خسيسا سوف تدنس دماؤهم سيف انسان .

وهو مؤثث على الطراز الفرنسي في نهاية القرن والجرسونات من السودانيين العمالقة ويرتدون اثوابا مزركشة داكنة اللون وعمامات بيضاء . وتم تقديم الجمبري وجراد البحر المشوي على طبق فضي ضخم وكان هناك ايضا اللحم المشوي الانجليزي والنبيذ المحلي الجيد ..

والمدير مضيف ممتاز .. يسألنا دائما : اذ كنا نود احتساء القهوة ، البراندي ، تناول سيجار ؟ وكان الجو في الخارج حارا رطبا وفي الداخل باردا .. ومن خلال النوافذ الموصدة تنبعث رائحة قوية للياسمين والازهار المتفتحة ..

وكان (نيرون) قد استورد من الاسكندرية الزهور خصيصا للمآدبه الكبيرة التي كان يقيمها وذلك وفقا لما ذكره (سوتونيوس) .. ويكتب (بترونيوس) عن وجود الفتيان المنشدين من الاسكندرية في الحفلات الضخمة التي كان يقيمها الرجال المحررون الأثرياء في روما ..

وفي الضوء الخافت لم يكن الرومان هم الذين يطلون علينا من على الحوائط وانما التجار السوريون واللبنانيون الذين رحلوا منذ امد طويل، اذ وضعت صورهم داخل اطار خشبي سميك منحوت وداكن اللون ..

ويظل المضيف يملأ كؤوسنا المرة تلو المرة الأخرى ويخيم علينا جميعا شعور بالصفاء والتخمة الى حد ما .. ولا يتحدث مضيفنا الا عن الصداقة والتعاون .

لقد قال النبي داود « انظروا مدى جمال ان يعيش الأشقاء معا في وحدة » أشقاء ؟ نعم ، وانما من بعد .

وتبادل المضيف الانخاب مرة اخرى .. وقال « انه من دواعي سروري البالغ تواجدكم هنا وانا ارحب بكم وسوف نكون سعداء اذا عدتم وسوف نرحب بسرور بالاستثمارات في منطقتنا الحرة » . وقد انتابه شعور بالبهجة حيال سماع مناحم بيجين رئيس الوزراء يحث رجال الأعمال الامريكيين من خلال خطاب القاه في نيويورك على استثمار اموالهم في مصر .. اذ ان استثمار الأموال في مصر يعني استثمارا في ظل السلام . ونحن نقول « مستثمرون من كافة ارجاء العالم مرحبا بكم » . مبروك ، مبروك .

وقبل حضوري الى مصر لم اقدر ــ على الوجه الكامل ــ التأثير النفسي غير العادي الذي تركته حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، على عدد كبير من المصريين .

وكنت ادرك انها اثارت في اسرائيل حالة من الانفعال البالغ : احساس عام باليأس ، الزوال النهائي للحرس السياسي القديم ، واحساس بالواقعية طرأ عليه التحسن .

الا ان الاحساس بالمهانة المروع الذى لحق بهم فى عام ١٩٦٧ قد حول الخوف الى شعور بالحنق المؤلم الذى لا حد له .. ويقول السادات فى مذكراته : انه اغلق على نفسه داره الذى يقع بالقرب من الاهرامات لمدة ثلاثة اسابيع .. ونظرا لانه هيمن عليه احساس بالالم المبرح .. انتابته حالة من الاكتئاب حيال نتائج « تشويه السمعة » اذ خشى من ان ذلك قد يكون نذيرا بنهاية العرب على نحو يماثل نهاية « الهنود الحمر فى امريكا .. ومن ثم اصبح الاحساس المهيمن على هو ضرورة بقـاء مصر » .

ولا يهم ان العرب قد بدءوا دائرة متصلة من الحروب ، و لايهم ان مصر لم تشن هجوما على الدولة اليهودية الوليدة عام ١٩٤٨ ، وقد اخذ عن الاسرائيليين تلك الصـورة المتمثلة فى كونهم اشـخاص خيـاليين ، قراصنة ، مقاتلين لا يتسمون بالرحمة ، يهود « شـقرا » ومشركين ، ممسكين بالتوراة فى يد وبقاذف صواريخ فى اليد الاخرى .

ولا يهم ان كان متعينا على مصر استرداد ارضها وبترولها فى عام ١٩٦٧ فى مقابل اقرار سلام ، بدلا من ان تقرر مع العرب الآخرين عدم اقرار سلام ، وعدم التفاوض ، وعدم الاعتراف باسرائيل وكلما انغـرست فى الذهن حالة من الاهتياج العصبى كلما قل تخيـل المرء بان الامور قد تتطور على نحو مختلف .. او ان الأحداث قد تتغير فى المستقبل نظرا لأن الاحداث سوف تسلك سبيلها الحتمى .. كما يشير غالبا (هيكل) والآخرون الذين يدافعون عن نـاصر .

ان ماكان يتعين ان يعنيه ذلك الموقف الذى يتسم بالعصبية بالنسبة لزعماء المرء وبالنسبة لنفسه خلال السنوات التى اعقبت عام ١٩٦٧ ، يمكن ان نلمسه اليوم من خلال مناخ التعذيب وقصص المؤامرات التى كتبهـا محفوظ ، وادريس او الأديب الشاب سليمان فؤاد مؤلف قصة « يونيـو الكئيب » القصيرة التى تعد بمثابة هذيان ان ابطال قصصهم انصاف مجانين مشلولين ومنحرفين ويحتجون على نحو متلعثم وبدائى يماثل (الكوابيس) العـربية .

او على العكس يدرك المرء ما الذى كان يتعين ان تمثله تلك القصص من الطريقة التى يتحدث بها المصريون الآن عن حرب عام ١٩٧٣ .. والعبارة التى تستخدم غالبا ، وهى كلمة (العبور) تشير فى الغالب الى طقوس مرور . ان العملية الحقيقية ، من وجهة نظر الهندسة العسكرية ، المتمثلة فى خـوض قنـاة يبـلغ اتسـاعها مجـرد مائة يارده يعـد غـير ذى اهميـة ، غير ان ما يهم هو تجـدد الثقة بالنفس الذى اضفته تلك العملية على شعب بدا فى الاعتقاد بأقليته ــ وعلى النقيض ، وكما ثبت ــ اسرائيل ليست هى الدولة الشريرة الوحشية « التى لا يمكن قهرها » بل لقد تحملت النزاع باسره واضحت حافزا للسلام .. ويقول السادات فى مذكراته : انه عندما انتهى القتال لم نضمر شيئا سوى الاحترام كل منا للآخر « وما كان يمكن ان يتفوه بمثل ذلك عقب ١٩٦٧ لقد فقد السادات شقيقا اصغر كان بمثابة ابن له فى حرب عام ١٩٧٣ وذلك عقب خمس دقائق من بدئهـا .

ويكتب السادات قائلا « لم تعد تحرضنا العقد سواء كانت عقـدة النقص بسبب الهزيمة ، او تلك التى سببتها الشكوك والكراهيـة ومن خلال خطأ غريب وربما غير مقصود نجد أن السادات فى وصفه لوصوله الى اسرائيل فى مهمته للسلام تجاهل بيجين الذى كان يقف فى انتظاره ، واشار فحسب الى اولئك الذين قاتلهم فى عام ١٩٧٣ » وفى اللحظة التى تقدمت فيها خارج الطائرة وجدت نفسى وجها لوجه مع جولدا مائير التى تطلعت زيارتها للولايات المتحدة وجاءت ترحب بوصولى وتبادلنا التحيات » ثم ذكر موشى ديان ، ابا ايبان ، والجنرال شـارون « الذى قاد الهجـوم المضاد الشهير » ثم توجهت انا والرئيس افريم كاتزير (وهو استاذ جامعى ورجل ممتاز) الى القدس .. وكان بيجين موجـودا ايضـا . غير انه لم يذكره .. كما لو كان لم يره .. ان السادات قد جـاء لتحية الرجال (والسيدة) الذين قاتلهم ، ويتلقى تحية اولئك الذين « كبدهم خسائر لم يسبق لها مثيل » ..

ترى ما الذى دفعهم الى تحيته ؟ ان ذلك يرجـع الى انهم يحترمون الرجال الذين يقاتلون (لا الرجال الذين يفرون كما حدث فى عام ١٩٦٧) .. وفضلا عن ذلك ونظرا لانهم يحترمون رجلا « تمكن بعد انتصاره من الوقوف وقول ! حسنا فلتكن حرب اكتوبر هى نهاية الحروب كلها » .. فلنجلس ونتحدث معا كأناس متحضرين ومناقشة ما تريدونه : الا وهو الأمن بدلا من اللجوء الى القوة » .

كم هو تغيير سعيد من العبارات البلاغية العنيفة التى كانت تستخدم فى الأيام الخوالى .. ولكن ما الذى ينبغى تحقيقه من خلال اراقة الكثير من الدماء على نحو لا ضرورة له ؟ انه يتعين أن يقوم اطبـاء الأمراض النفسية ــ لا المحامون والفنيون المتخصصون فى الصواريخ ــ بمعالجة وزارة الخارجية وكبار قادة الجيش .

لقد كان الاسرائيليون ايضا اسرى لنفسياتهم لفترة طويلة للغاية وربما أسهموا دون وعى فى ارجاء تحقيق السلام لأمد طويل ..

واتذكر ان جنرالا اسرائيليا قال لى فى اليوم الخامس من حرب الأيام الستة بينما كنا نجلس على ضفاف قناة السويس « اننا سوف نظل هنا للمائة عام القادمة .

واردف يقول « ان اولئك الأشخاص لم يخلقوا للحرب » ، واشار الى هؤلاء الذين يقيمون على الجانب الآخر ، وكانت هناك بقرة نحيلة تدور فى دائرة لترفع المياه كما كان يحدث فى عصر تحتمس .

وثمة جنرال آخر ، فى خضم نشوة الانتصار المفاجىء المبهر ، ابرق لابنه قائلا : « ان المهمة انتهت بالنسبة لك . اذ من الآن فصاعدا لن يكون هناك اية حروب » .

وعقب بضعة ايام لاحقة فى القدس نظم سياسى شاب (وهو يشغل

الآن منصب وزير العدل فى حكومة بيجين ، قصيدة شعبية رغم انها غير سليمة من الناحية الشعرية .

(الأرض المحررة / تبقى فى ايدينا)

واعقب فترة الارتباك والحيرة التى تسببها الحرب ، والتى يشكو منها الاستراتيجيون دائما عقب الانتصار ، احساس بالحيرة هيمن على اذهان الساسة الذين اعتقدوا ان ميزان القوة قد مال فى صالح اسرائيل الى الأبد وكان ذلك الاعتقاد خاطئا حيث دفع ثمنه غاليا فى عام ١٩٧٣ .. فقد ابلى الجيش المصرى بلاء افضل فى عام ١٩٧٣ ويرجع ذلك على وجه التحديد الى انه لم يكن يضطلع بحملة اجنبية كما حدث فى عامى ١٩٦٧ ، ١٩٤٨ بل انه خاض حربا فى سبيل تحرير ارضه .

واتذكر الجلبة الهائلة ، التى كان لها ما يبررها ، والتى كنا نحدثها دائما .

ابان السنوات السابقة لعام ١٩٦٧ بشأن رفض بعض العرب مصافحة مواطن اسرائيلى حتى فى احد الاجتماعات او فى حفلة (كوكتيل) ودية .. وقد سألنى احد الدبلوماسيين الفرنسيين مرة عن سبب قلقنا البالغ وقال « ما اهمية المصافحة ؟ » غير انها كانت بالغة الاهمية .. اذ ان ذلك الرفض ينم عن انهم كانوا يعاملوننا وكأننا لسنا بشرا .. وانه لثمن فادح وضخم ذلك الذى كان يتعين على المصريين ان يدفعوه لاستعادة كرامتهم الجريحة قبل ان يتمكنوا من ملاقاتنا كبشر .

ان المأساة لم يحققها ذلك التفكير الذى يبعث على السخرية — رغم انه كان منطقيا الى حد ما — فى أن نفس الجنرالات الاسرائيليين الذين لحقت بهم المهانة والمذلة من جراء حادث عام ١٩٧٣ المؤسف كان ينبغى ان يحصلوا على اوسمة بدلا من ذلك .. ولو لم يكونوا قد اخذوا على غرة فى حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣ لما كان للسلام ان يتحقق الآن .

لقد ذكر صمويل بيكيت فى دراسته عن بروست قائلا : ان الشخص المراقب يؤثر على ما يراقبه من خلال قابليته للتحرك ، وتوجهت لمشاهدة احد الأفلام فى سينما مترو التى تقع فى وسط القاهرة ، وفى الظلام وبين مشهدين للعنف ، طرأ على ذهنى فجأة ان تلك الدار السينمائية كانت علامة مميزة فى تاريخ اسرائيل القصير وزاد توترى ، وللحظات فقدت التركيز فيما يدور على الشاشة .

ففى عام ١٩٥٤ اصدر ضباط المخابرات الاسرائيلية ، بدافع من خوف التقارب بين ناصر والولايات المتحدة ، امرا لجاسوسهم فى القاهرة ببث شحنات متفجرة فى اماكن مختلفة ، تشمل المكتبة الأمريكية وسينما (مترو) ودورا سينمائية اخرى فى القاهرة والاسكندرية .

وتم التفكير فى الفكرة وتنفيذها على نحو يعوزه البراعة وبدون

علم رئيس الوزراء مما اثار فى وقت لاحق قضية (لافون) الشهيرة التى كان من شأنها تسميم حياة الشعب الاسرائيلى على مدى حقبة تقريبا .

ان مسئولية ذلك المخطط المجنون لم تحدد بوضوح قط اذ ان رئيس المخابرات العسكرية زعم ان بنحاس سابير وزير الدفاع كان على علم تام بما كان يعمله .. ونفى لافون ذلك واتهم الجيش بعدم الانصياع للاوامر والتآمر من وراء ظهره .. ووراء تلك الخطة كانت تكمن فكرة حمقاء تتمثل فى انها قد تسبب تصدعا بين مصر والغرب وربما تدفع البريطانيين الى عدم الجلاء عن منطقة القناة .. اذ تحولت تلك الفكرة الحمقاء الى مجموعة من المزاح القاتل .. ذلك ان القنابل التى خبئت فى محافظ نظارات ، لم تتفجر او تسبب اى اضرار اضف الى ذلك ان المصريين الحقيقيين (وكانوا من الشباب اليهودى المصرى المثالى) — الذين لم يدركوا سبب اعمالهم هذه غير انهم اعتقدوا انها ربما تكون حيوية بالنسبة لأمن اسرائيل — قد تم اعتقالهم على الفور تقريبا وحكم على اثنين بالاعدام ، وانتحر شخص آخر ، وحكم على سبعة بالسجن لمدد طويلة .

لقد كانت عملية (مأساوية) قذرة .. ومما زاد الطين بلة ان جاسوس القاهرة الذى تسيطر عليه اسرائيل تبين — فيما بعد — انه عميل مزدوج يعمل لصالح مصر واسرائيل فى آن واحد .. وتخلى عن مهمة القاهرة كى يصلح من نفسه ويرد اعتباره عقب ادانته فى جريمة .. ولا تزال العملية بأسرها تترك العديد من الأسئلة بدون اجابة .. ترى هل يمكن ان يكون اساتذة مدرسة التجسس الاسرائيلية والمصرية قد حاولوا تعقيد علاقات كل منهم الآخر مع الولايات المتحدة ؟ ان الحياة الحقيقية تحاكى مؤامرة حاكها (جون لوكاريه) .. وقد عكست تلك المسألة آلام دولة جديدة لا تزال تفتقر الى النظام ومع ذلك ، كما هو الحال بالنسبة لبعض امراض الاطفال تظل ندوب الجروح بارزة حتى فترة البلوغ .. وتحت تأثير عمليات الاعدام قطع موشى شاريت رئيس الوزراء ، الذى كان يجرى آنذاك مفاوضات سرية بشأن المصالحة مع ناصر ، قطع الاتصالات (وكتب فى مذكراته الخاصة التى نشرت مؤخرا « اننا لن نلتقى تحت هياكل المشانق ») .

وظهرت على الشاشة لقطات رائعة للنيل والأقصر ، وكان الفيلم قد التقط فى مصر .. واضطلع بأدوار البطولة (دافيد نيفين ، بيتر ديفيز ، وبيتر اوستينوف) وجلست متسمرا فى مقعدى اتساءل ما الذى كان سيحدث لو لم تكن المؤامرة قد دبرت على الاطلاق ، ولو لم يكن المتآمرون قد شنقوا ، ولو كان (شاريت) قد استمر فى اتصالاته مع ناصر الذى كان هو نفسه يعتبره بالغ الأهمية ، واسفرت تلك العملية ايضا عن عودة بن جوريون الى السلطة من التقاعد .. فان بن جوريون كان يؤمن بسياسة القوة ، على عكس شاريت ، الذى كان يحبذ الدبلوماسية الهادئة التى ينتهجها والمصالحة التى يرنو اليها .. وعندما اشتركت اسرائيل مع بريطانيا وفرنسا فى حرب عام ١٩٥٦ ضد مصر عارض شاريت بضراوة .. وكان يعتقد ان تلك الحملة مغامرة عقيمة بالتآمر مع « امبراطوريتين آفلتين » مما سوف يتهدد فرص السلام

الاسرائيلى العربى ، بمعدل عشر درجات الى الوراء .. من الذى يستطيع ان يقول الآن من المصيب ومن المخطىء ؟ لا احد فى الواقع .

غير ان الفيلم الجميل الذى كنت أشاهده فى سينما مترو كان محبطا بالنسبة لى على نحو يتعذر اصلاحه .. وعندما انتهى الفيلم خرجت الى الشارع .. ووجدت (طابورا) طويلا يصطف امام شباك التذاكر لمشاهدة الحفلة الأخيرة .. وكان الفيلم يحمل اسم « جريمة على النيل » عن قصة لأجاثا كريستى .

ويتصل بى مايكل واير السفير البريطانى ويدعونى الى العشاء .. وينتابنى شعور بالبهجة والدهشة فى آن واحد .. اذ لم اكن اتوقع ان يغير فكره ويقابلنى بمثل تلك السرعة .

وفى الحقيقة لم اكن واثقا من انه سوف يتصل بى على الاطلاق .. واثبت نفسى سرا لما ساورنى من شكوك وشكرته وتساءلت هل يعرف اى سائق (تاكسى) مكان مقر السفارة البريطانية .

واجاب (واير) بسرعة انه من الضرورى ان يعرف موقع السفارة واذا لم يكن يعرف ؟ «فان مصر تكون فى تلك الحالة فى وضع أسوأ مما يعتقده المرء » .

وكما حدث ، وجدت سائق التاكسى لا يعرف مقر السفارة .. وقررت عدم ابلاغ واير ، فأنا اعتقد ان لديه من المشاكل ما يشغل ذهنه وما يفوق ذلك .. وتقع السفارة على ضفاف النيل وربما تكون اضخم واكثر سفارة مرهفة ، بما تضمه من حجرات عديدة واحواض سباحة تم انشاؤها من اجل سباق عظيم وهى كبيرة الحجم وكأنها توابيت .. والسفارة تقبع وراء حوائط عالية تماثل الحصن .. والأسد هو الشعار الوطنى البريطانى وهو منقوش على حجر هائل فى مدخل الرواق المعمد ويبدو مظهره وحشيا ولكنه يبدو انه صنع فى فرنسا .. وينتقل الخدم الذين يرتدون أثوابا فضية خلال اروقة تبدو وكأنها كهوف معتمة تلك هى (اجاثا كريستى) على وجه التحديد .

وكان السفير واير وقرينته فى انتظارى فى حجرة جلوس صغيرة وقد تزوج سيدة أخرى غير تلك التى شاهدتها منذ آخر لقائى به منذ بضعة أعوام فى نيويورك ولكنه لم يتغير اذ لا يزال يتسم بسرعة البديهة والذكاء .. وهو عليم ببواطن الامور ويساوره قلق حيال العرب واليهود مثلما كان طوال العشرين عاما الماضية نظرا لانه واحد من كبار خبراء الشرق الأوسط فى الحكومة البريطانية .

واحتسينا قليلا من المشروبات .. ويقول واير « هل تعتقد ان تلك الاتفاقية سوف تنفذ ؟ ان المنطق يناقضها غير ان هناك السادات ، اذ انه يعد وطنيا مصريا » ان تلك الصفقة لم يعد لها وقع سىء مثلما كان يحدث فى تلك الحجرة منذ — بضع حقبات ماضية عندما كان يعتقد ان

القومية — كما قال لورد كرومر — دمية بالغة الخطورة اذا ما لعبت بها « دولة تابعة » ولا سيما اذا ما كانت « راسخة وخالدة على نحو غير عادى مثل مصر (لور ميلز) وانفجرنا ضاحكين من ذلك التفكير .

ثم انتقلنا الى حجرة طعام مجاورة ، حيث اثار انطونى ايدن دهشة ناصر عندما تحدث باللغة العربية وتلا بعض الشعر العربى على نحو لبق وذلك وفقا لما ذكره هيكل وكأنه دوق يطرد رجلا متشردا .. وتناولنا عشاء مستساغا مكونا من لحم طيب المذاق وخمر فرنسى جيد .. وقدم الطعام فى اطباق مزركشة .

ان ذلك الطعام ربما لم يكن ليقدم فى عهد بعض سابقى (واير) الذين عاشوا محاطين بخدم وحشم كما لو كانوا آلهة محليين .

وقد ذكر (بيتر مانسفيلد) فى كتابه (البريطانيون فى مصر) الذى نشر فى عام ١٩٧٢ أن (سرجون الدون جورست) كان يعمل لديه سبعون خادما اوروبيا ومصريا وكان من بينهم رئيس خدم البارون روتشيلد الذى كان يعزف ببراعة ايضا على آلة (الفيولون) كان يتلقى راتبا سنويا قدره خمسمائة جنيه « ولورد كيتشنر » رغم انه كان يتجول عبر القاهرة ممتطيا حمارا — انشأ حجرة رقص شاسعة اصبحت الآن (قسم اصدار التأشيرات) حيث يحصل نحو أربعة آلاف مصرى على تأشيرات دخول سنويا بصعوبة بالغة .

وتشكو اسرة واير من التكاليف الباهظة للاقامة فى ذلك المكان اذ انه تم تشييده لنائب ملك وليس لاقامة سفير جزيرة تقع على مسافة بعيدة ويشكون ايضا من الحوائط الخالية فى الحجرات الضخمة التى لا تضم سوى بضع صور رسمية .. ترى من ذا الذى يملك صورا تكفى اليوم لزخرفة مساحات شاسعة خاوية على الحوائط ؟ او بالنسبة للكتب ؟ لقد كان (واير) يتوقع وجود العديد منها .. اذ عندما وصل بوغت من عدم وجود مجلد واحد فى تلك المقبرة الشاسعة .

وعقب العشاء توجهنا فى جولة صغيرة عبر المنزل .. ذلك هو اول منصب سفير يتولاه واير ، الذى يمارس مهامه فى ظل صور معتمة لكرومر وجورست وكيتشنر واللنبى ، معلقة على حوائط مكتبه الذى يلائم احساسه بالتاريخ وروح الدعابة التى — يتمتع بها .

ويبدو لورد كرومر بوجهه الضارب الى الحمرة .. وشاربه الأبيض القصير المنسق وكأنه عسكرى ريفى .. واطلعنى واير على مكتبه ببعض الفخر والسخرية ايضا ، وقد وجدتها بالغة الجاذبية .

وفى تلك الحجرة الشاسعة المعتمة التى تماثل حجرة مدير مدرسة اتخذت العديد من القرارات ، فى وقت ، ليس بالماضى البعيد ، حيث كان « الله فى ملكوته وانجلترا تحكم فى الأرض » وفى يوم ما كانت الحياة فى مصر تشكل من هنا أو تشوه ويتردد فى ارجاء المكان اصداء سعد زغلول

باشا ، مصطفى كامل ، مؤسسى مصر الحديثة ، حيث قال لهما لورد كرومر ان مهمة بريطانيا تتمثل فى منح مصر « حكومة طيبة » .

وبالاضافة الى العديد من المصريين الذين مروا من خلال تلك الحجرة وهم يمسكون بالقبعة فى أيديهم ، لتقديم التماسات فى سبيل الحصول على الاستقلال نجد ان مؤسس الصهيونية الحديثة تيودور هيرتزل مر من تلك الحجرة ايضا فى عام ١٩٠٢ وهيمنت عليه حالة نفسية كئيبة نظرا لانه وجد كرومر « أسوا رجـل انجليزى قابله » .. كل تصرفاته تنم عن الجنون المجازى .. « وهو ملىء بعيوب ضخمة لا حـد لهـا » .

وكان هيرتزل قد جاء للتفاوض مع كرومر بشان تأجير شبه جزيرة سيناء لاقامة وطن قومى لليهود وكانت الحكومة البريطانية فى لنـدن قـد عرضت عليه تلك الرمال القاحلة لاقامة اقليمه اليهودى المقترح فى مصر ورأى هيرتزل ان ذلك بمثابة نقطة انطلاق الى فلسطين التى كانت لا تزال تخضع للحكم العثمانى .. والمسألة الكبرى التى ارتكز عليها كل شىء .. تمثلت فى حيازة المياه واقترح هيرتزل مد خط انابيب من النيل الى سيناء . وكان ذلك أحد الأسباب التى دفعت كرومر الى معارضة المشروع ، واعتقد ان بناء شعب تحت قناة السويس قد يسبب عرقلة لا ضرورة لهـا لحركة الملاحة ورأى ايضا ان هيرتزل شخص متحمس جامح .

وفى خضم الحديث عن ذلك الحادث ، توقفنا تحت صورة لورد ميلنر الذى كان يعتبر الوطنيين المصريين « هنودا حمرا متوحشين » وكان هيرتزل قد تكهن بصورة عارضة ، بقوة القومية المصرية .. وكتب فى مذكراته عقب مقابلة مع كرومر قائلا : انهم السادة القادمون « ومما يثير الدهشـة ان الانجليز لم يدركوا ذلك . بل اعتقدوا انهم سوف يتعاملون مع فلاحين الى ابد الآبدين » .. اذ ان الرؤية من خلال عيون رجـل آخر أيسر دائمـا من الرؤية من خلال عيون المرء ذاته .

وعندما زار هيرتزل نفسه فلسطين لم ير اى فلاحين هناك .. ومن خلال السجل الذى تركه يتضح ان السكان العرب فى فلسطين قد تلاشوا من امام عينيه ببساطة كما يحدث فى روايات (الف ليلة وليلة) العربية .

وتطلعنا الى الحـديقة الشـاسعة حيث خلع (مونتوليف) سلف (واير) — الخيـالى فى رباعيـة (دوريـل) والذى كان يمـاثل واير فى تقلب المزاج وروح السخرية — خلع نـعليه وسار حافيا الى النهر — متلمسا العشب الشائك الرائع تحت أقدامه الحافيـة ، اذ كان من نوع افريقى خشن .

ولا يزال المنظر كما هو الا ان النيل يحف بنهاية الحديقة .. اذ اقتطعت نهاية الحديقة ابان الخمسينيات لشق طريق عام .. وكان المصريون يرغبون فى شق ذلك الطريق منذ أمـد طويل غير انه لم يكن بوسعهم الحصول قط على موافقة البريطانيين ويقول واير : ان الامر تطلب ارفاق فترة خاصة فى

معاهدة الجلاء عن قناة السويس التى ابرمتها بريطانيا ومصر فى عام ١٩٥٤ وذلك لضمان شق الطريق فى النهاية .

وفى آخر المساء رافقنى واير حتى البوابة الحديدية وسارع احد الخدم الذين يطلق عليهم واير اسم وهيب لاستدعاء سيارة تاكسى وسرنا الى التقاطع القريب حيث تقع السفارة الامريكية .. وهى محاطة بانوار كاشفة وحرس مسلحين .. ويقول واير « ان السفارة الأمريكية » لديهـا اربعة افراد من الحرس الخاص .. وبوسع واير على الأقل التجول بحرية حولها .. وتصافحنا .. ودلفت الى التاكسى ومن النافذة الخلفية شاهدته وهو يعود ادراجه ببطء من خلال الظلام متجها الى (بوابة) السفارة واضعا يديه فى جيوبه .

جـولة فى منطقـة القنـاة

تنبثق على شـاطىء البحيرة اشـجار (الأوكالليتـوس) وتغطية المروج الخضراء .. ويتمـدد الافـراد الذين يقضـون اجازاتهم على كراسى طـويلة تحت اشـعة الشمس .. والجـو معبق بأريج الياسمين والعطور ، والجيـلاتى والحلوى .. وترسم الرياح دوائر على البحيرة ويلهو الأطفال فى المياه .. وهكذا يجد المرء انه من العسير تخيل ان ذلك الموقع الهادىء ، الذى يقع على بعد بضعة اميال خارج الاسماعيلية كان مسرحا لمعركة من اشرس المعارك الدامية فى حرب عام ١٩٧٣ .

وفى ذلك الطرف الشمالى ، تلتقى بحيرة التمسـاح بالجزء الشمالى لقناة السويس ومن على بعد بضعة مئات من الياردات عبر الجيش المصرى القناة واقتحم المواقع الاسرائيلية الحصينة على الضفة الشرقية .. وثمة سيدة شابة تتزحلق على المياه مثيرة ضجيجا وصخبا ولا يرى المرء اى اثر لخط بارليف الذى كان يعد فى وقت ما حصـنا لا يمكن اختراقه .. واتذكر انهفى عـام ١٩٧٣ كان ذلك الخط بمثابة غرف تحت الأرض من الحـديد والاسمنت ، ويضيق حجمه من تجاه القمة وكانت التحصينات تبدو من بعد وكأنها اهرامات المكسيك او مقابر لجنس من قبل التاريخ .

لقد اختفى كل شىء وتم توسيع القناة فى تلك المنطقة .. وسـارع المصريون بازالة الآثار الأخيرة من الخط .. وتم دفنها فى الرمال او اغراقهـا فى المياه ومداراتها نهائيا وكأنها موضوع عن الجنس فى قصـة من العصر الفيكتورى .

وفى العام الماضى تم حفر قناة أخرى فى تلك المنطقة ، وهى واحـدة من ثلاثة ممرات جانبية جديدة ، بهدف تمكين مرور السفن فى اتجاهين فى القنـاة .

وبين القناتين لا يزال هناك منطقة مسطحة من الرمال ، يطلق عليها اسم جزيرة السياحة .. وتم وضع خطط لاقامة فندق هناك .. ويتناثر بها اجزاء منمعادن قديمة وبضعة نباتات شائكة وشجيرات جافة .

ومن المرجح ان اجزاء المعـادن هـذه سوف يتم دفنها فى الحـال

او تستخدم لتحديد جانبى القناة وعلى تل الرمال القاحلة هـذه اسال الجيشان دماء كل منهما الآخر فى حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩ .

وكانت هذه هى نقطة الهلاك التى لم يكن فى وسع احد تجاوزها .. وهنا توقفوا .. ومن هنا قصفوا الجانب الآخر من القناة .. ومن هنـاك قصف ذلك الجانب ، وهنا ولدت أسطورة مهلكة ، وهنا ومض سراب كان من شأنه تخدير شعب بأكمله .

وكان خط بارليف المنيع يضم سراديب تحت الارض ، حجرات لمعالجة المرضى ، مخازن ذخيرة ، أجهزة الكترونية معقدة ، صالات لعرض أفـلام سينمائية ومطابخ مجهزة على اكمل وجه ، مواقع مراقبة ، دبابات ومدافع محصنة فى خنادق .

وفى النهاية انهار كل شىء هنا بعد ظهر يوم ساخن وكأنه بيت من ورق/ المفاهيم العسكرية ، سياسية ، وحياة فلسفية كاملة لدولة صغيرة متحاربة فقد الى حـد ما احساسها بالواقع والتناسب وامتصت الضـفة الرملية الصيحات والأنين والدماء .

ولا يمكن رؤية شىء الآن .. بل هناك قوافل السفن تمر فى القنـاة بمعدل سبعين سفينة يوميا .. وفى الصباح تتجه القوافل الى الجنوب ، وفى الساعات الأولى من بعد الظهر تتحرك القوافل فى الاتجاه المضاد .. وعقب الساعة الثانية بلحظات تبدأ السفن الأولى من قافلة بعد الظهر فى الظهور وعلى المروج تمتد موائد صغيرة يقدم عليها حلوى (أم على) ناقلة بترول روسية تعقبها (شاحنات سعودية) وبنمية .

ويقول أبو حماد موظف العلاقات العامة فى هيئة قنـاة السويس : سوف تمر فى الحال سفينة اسرائيلية .. وسوف نقدم لهـا تحية صغيرة .

وأبو حماد شاب فى مقتبل العمر طويل القامة قوى البنية يرتـدى بنطلونا رماديا و (جاكيت) خفيفا .. وكان برفقته سيدة شابة قامت هيئة القناة بتعيينها نظرا لأنها تتحدث اللغة العبرية بطلاقة .

ويدخن أبو حماد سجائر انجليزية على نحو مستمر .. وليست هـذه هى النقطة الوحيدة التى يشترك فيها مع العديد من الاسرائيليين اذ انه — شأنه شأن كثير من الاسرائيليين — لا يمكن أن يعتمد على وظيفة واحـدة كمورد للرزق .. اذ يعمل فى وظيفتين اخريين احداهما فى مكتب سفريات محلى والأخرى نائب مدير احد الفنادق ويقول بحيوية وحماس بالغ يتسم به عدد كثير من المصريين الذين يوجدون خارج القاهرة والذين لا يشغلون مناصب حكومية عليا « اننا نأمل فى حضور عشرات الآلاف من الاسرائيليين».

ويصيح قائلا : « انظر كم هو جميـل كل شىء هنـا » .. وتنعكس صورة أشجار النخيل الكثيفة فى المياه .. الا توافقنى على ذلك .. الا تعتقد ان آلافا من الاسرائيليين يرنون الى الجلوس هنـا تحت اشعة الشمس

ويشاهدون السفن وهى تمر امامهم ، انه منظر رائع لا استطيع ان ارفع عينى من عليه .

وتناولنا الغداء فى ناد قريب . وجلست بجوار احد المسئولين فى هيئة قناة السويس .. وكان الطبق الرئيسى (مخ مقلى) وهو طبق مفضل لدى المصريين .

ويذكر جارى بشىء طريف اذ أن روح الدعابة المصرية تماثل ما يتسم به اليهود من دعابة دائما ما تمتزج بسخرية من الذات ويقول (جـارى) والابتسامة تعلو وجهه انه عقب حرب عام ١٩٦٧ كان هناك محلان للجزارة فى مواجهة بعضها على ضفتى القناة احدهما يسمى « ديان » والآخـر « ناصر » وجاء رجل من الاسماعيلية الى محل ناصر فى احد الأيام وطلب طبقه المفضل من المخ .. وقال الجزار « هنا نبيع لسان فقط .. واذا كنت تبحث عن المخ اذهب الى محل ديان » .

وترسو ثلاثة (زوارق مقطورات) تابعة لهيئة القناة لدى حاجز مائى قريب .. واطلق عليها أسماء سلام I سلام II سلام III .. وثمة بلدوزر يثير الرمال على الشاطىء المواجه .

واتذكر رحلة صغيرة قمت بها الى الشاطىء فى ربيع عام ١٩٧١ وكانت مدينة الاسماعيلية ترقد فى حطام فذلك الوقت .. وقادنا الجنرال أريـل شارون قائد الجبهة الجنوبية الاسرائيلية ، تجاه الجنوب من القنطرة الى ذلك القطاع الرملى المواجه للاسماعيلية .

وكان النادى الذى نجلس فيه الآن بمثابة ساتر رملى ويستخدم كموقع للقناصة المصريين .. وكان الجنرال يستضيف الراحـل بنحاس سابير ، وزير المالية آنذاك . وكان يتوق الى ان يرى سابير شبكة الطرق المـكثفة التى انشـأها مهندسو الجيش فيمـا بين خط بارليف ومؤخرة الجيش .. اراد ايضا اقناعه بالحقيقة المتمثلة فى ان تكاليف كل ياردة قد قلت عشرون فى المائة مما تتكلفه الطرق التى ينشئها المدنيون فى اسرائيل .

واومأ المول العجوز براسه الثقيلة .. وكان النوم يغالبه من جراء حرارة الجو او الاجهاد .. واتذكر قوله « نعم انه طريق جيـد » وعقب فترة وجيزة قال بلغة اردية (ولـكن من اين يذهب له المرء) ثم غاص فى طرف المقعد الخلفى وراح فى سبات عميق .

وفى عام ١٩٧١ كنا شعبا متجانسا .. وكان اسلافنا اناسا مدنيين متعصبين على ظهر الارض ، ودارسين وباعة متجولين فى وقت كانت فيـه الشعوب الأخرى فى أوروبا وأى مكان آخر تشيد بذلك وفى عـام ١٩٧١ عندما كان غالبية الاوروبيين والأمريكيين لا يريدون سماع شىء عن الجيوش والبدل العسكرية او حتى الرايات ، كنا جنودا نقبع فى ازياء مجهدة يعلوها الرماد كما لو كانت هى (قماط) آبائنا وأجدادنا .

ثمة طريق ناعم يفضى الى مشروع اسكان جديد يقع على بعد بضعة اميال شمال الاسماعيلية .. وكان قد تم بناؤه على مدى الاعوام الثلاثة الماضية لتسكين المهاجرين والعمال الذين يعملون فى القناة .

ومما يجدر الاشارة اليه ان مليون مواطن تقريبا من مدن القناة الرئيسية الثلاثة قد تم اجلاؤهم فيما بين عام ١٩٦٨ و ١٩٧٥ .. وقد عاد معظمهم منذ ذلك الحين .

ويقطن فى الضاحية الجديدة اربعة وثلاثون الف مواطن يعيشون فى ثمانية آلاف شقة مكونة من حجرتين او ثلاث حجرات .. وقد تم بناؤها فى وقت قياسى فى اقل من ثمانية عشر شهرا .. واطلق عليها اسم (الشيخ زايد) حاكم احدى امارات البترول فى الخليج الفارسى .. اذ انه قام بتمويل جزء من المشروع .

وتم بناء المنازل بأسرها على نمط واحد ، اذ تكسو واجهتها حجارة ارجوانية اللون .. الا انه فى الجزء الذى تم بناؤه مؤخرا يبدو ان الاموال كانت قد نفذت ، ومن ثم نجد (الواجهات) مغطاة بالاسمنت .. والنوافذ مطلية باللون الاحمر .. وتؤجر الشقة المكونة من حجرتين بعشرة دولارات فى الشهر .. وتم حتى الآن زرع عدد قليل للغاية من الاشجار رغم وفرة المياه .. ولا تزال الارض المحيطة جرداء رملية .. غير ان هناك ست مدارس ومسجدين جديدين وسوقا صغيرا حيث تبلغ تكاليف رغيف العيش اقل من ست (سنتات) ويباع رطل الفول بثلاثين سنتا — اذ ان السلع الغذائية — يقدم لها دعم هائل .

وفى وقت لاحق عدنا الى ادراجنا جنوبا فى شوارع الاسماعيلية القديمة التى تكتنفها الاشجار وشجيرات الزهور والمنازل القديمة المبنية من الخشب .. وتنتشر صور السادات بالطبع وهو فى جميع الاوضاع المالوفة .. ولافتات مكتوب عليها « السلام » ، السادات ، قناة السويس « بالسلام نبنى — وبالقوة ندافع » .

والاسماعيلية مكان بديع — وكما هو الحال فى المدن المصرية الأخرى التى تقع خارج القاهرة المتفجرة — الشوارع نظيفة والحدائق والاشجار التى زرعت فى القرن الماضى معتنى بها على اكمل وجه .

والأرصفة متناسقة .. ورغم ان الشوارع تعج بحركة المرور والأشخاص والحيوانات لا يراود المرء شعور بالازدحام كما هو الحال فى القاهرة .. وقد تضاعف السكان منذ عام ١٩٦٨ .. وفى الشرفات المزركشة (الفيلات) الخشبية التى كانت تنتمى فى يوم ما الى العاملين الفرنسيين فى شركة قناة السويس الجديدة .. تجلس قرينات الاداريين الجدد ممسكات بمراوح تخفف عن وجوههن قيظ الجو .. وتردد ان الادارة الجديدة تدير القناة باقتدار .. وقد زاد حجم الملاحة الى ما يربو عن ثلاثة اضعاف على مدى الثلاثة والعشرين عاما الماضية .

ترى كم كان عدد الفرنسيين الذين استشاطوا غضبا ابان ازمة تأميم القناة المتقدمة فى عام ١٩٥٦ واعتقدوا أن الملاحة سوف تتوقف ! وتمر اليوم سفن تبلغ حمولتها ٦٠٫٠٠٠ طن عبر القناة وفى عام ١٩٥٦ كان المرور مقصورا على سفن حمولة ٣٠٫٠٠٠ طن .. والآن فى خريف عام ١٩٨٠ يمكن لسفن تزن ١٥٠٫٠٠٠ طن أن تمر عبر القناة .. ومن المقدر أن تدر دخلا سنويا يبلغ بليون دولار .

هل يود اى فرد ان يعرض ثمار ذلك المجهود الجبار الى مخاطر حرب اخرى ؟ بالطبع ليس (مشهور احمد مشهور) الرئيس الحالى لهيئة قناة السويس .. ليس هو ولا الدكتور (احمد عمار) رئيس الأبحاث فى الهيئة الذى يحفظ كافة الحقائق والأرقام فى ذهنه ويعرضها بلغة فرنسية سلسة.. والدكتور (عمار) طويل القامة يتسم بالهدوء ويسلك سلوك استاذ .. وقد ظل يعمل فى القناة مدة تربو عن خمسة وثلاثين عاما .

وقد تحطم مكتبه فى مبنى هيئة القناة (الذى انشىء فى عام ١٩٦٦) جزئيا ابان الحروب .. وقدظل الدكتور عمار والعاملون معه ابان سنوات الحرب فى الدلتا يصمم كافة الأعمال المتعلقة بالمياه .

ويقول : ان ذكريات الحرب قد طواها النسيان الآن ، ويقول ذلك وهو يتطلع الى السفن عبر نافذته .. وهو على دراية ايضا بحقائق وارقام مينائى اسرائيل الرئيسيين ويقول مبتسما : ان العلم مسألة دولية .

وجنوب وسط المدينة ، وفى احدى الضواحى ، يمر الطريق عبر طريق سكة حديد قديم يعبر جسر خشبى ويمتد على طول القناة مياه عذبة .. ولا تزال الأكواخ المبنية من الطوب (اللبن) الى جانبى القناة ترقد فى حطام .

اذ فى آخر ايام حرب عام ١٩٧٣ وصلت القوات الاسرائيلية الى تلك الأكواخ عند رأس الجسر الذى اقامته على الضفة الغربية للقناة .. وفى اقصى ذلك الطريق الذى يقع بالقرب من البحيرات المرة .. حيث عبر الاسرائيليون الى الجانب الغربى ، يسير العمل على قدم وساق فى اعمال حفر هندسية .

ويجرى شق نفق تحت القناة .. وسوف يربط ذلك النفق مصر بسيناء وتعج الحفرة العميقة والمعتمة فى الأرض الرملية بالعمال والآلات .. وقد وصل النفق بالفعل الى الشاطىء الآخر .. ويجرى التخطيط لاقامة نفقين آخرين .. غير أن مهندسا انجليزيا مسئولا عن العمل هنا يشك فى بنائهما على الاطلاق.. اذ يقول : انهما ليسا اقتصاديين .. اذ ان العبور بالمعديات ارخص كثيرا .. وسوف يتكلف النفق ما يربو عن مائة مليون دولار .

هل هناك اسباب عسكرية تستلزم بناءها يجيب قائلا : « لا بد انك تمزح .... » والدكتور عمار فى هيئة قناة السويس لا يفكر كثيرا فى الانفاق ايضا .. اذ يقول انها عرضة للخطر فضلا عن انها قد تعيق تطوير القناة

فى المستقبل .. ويفكر الدكتور عمار فى بناء الجسور .. غير ان الرئيس السادات يؤمن بالانفاق .. ويقول مشهور احمد مشهور رئيس هيئة القناة مهما كانت الأنفاق عرضة للخطر ومكلفة فان السادات يرغب فى ربط الأرض .. انها تعد رمزا بالنسبة له .. كنوع من الحبل السرى يربط بين مصر الأم والأرض التى نفقدتها واستعادها هو ..

وعلى شواطىء البحيرة المرة الكبرى تقف بضعة اشجار نخيل يعلوها الرماد ومنازل طينية ومزروعات .. وأوعية وسواق وحتى وجوه معبرة تذكر المرء بالنقوش الفرعونية وتتناثر هنا وهناك دبابات تعسكر فى مجموعات صغيرة ، وما يبدو وكأنه مواقع اطلاق صواريخ مضادة للطائرات .. وكان ذلك فى يوم ما .. قلب راس الجسر الاسرائيلى الذى غير مسار الحرب بأسرها .. اذ تم محاصرة فيلق مصرى على الضفة الشرقية فى سيناء وتركه بدون مياه او طعام .

وفى الخامس من ديسمبر عام ١٩٧٣ ، قام رقيب بالبحرية المصرية يدعى محمد نـدا ويبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما وكان قد أصابه الدوار من الجوع والعطش ، بالسباحة عبر البحيرة عائدا الى ذلك الشاطىء الغربى الذى كان يعتقد انه لا يزال فى ايدى المصريين .. وفور وصوله الى الشاطىء فى الساعات الأولى من الصباح .. اطلقت عليه احدى الدوريات الاسرائيلية الرصاص فأردته قتيلا .. وكان يربط بجسده مفكرة مبتلة كتب فيها مذكراته .

ان المشهد الذى اقف امامه يثير فى معنى خاصا ، نظرا لاننى قرات نسخة من مذكراته منذ أمد طويل .. وتبدأ المذكرات فى الأسكندرية فى مستهل يونيو عام ١٩٧٣ .. اى قبل بدء حرب اكتوبر بأربعة اشهر ويكتب فيها « يا الهى العظيم ان مصرى بين يديك . وانا أؤمن بك » .. والجزء الأخير كتب على عجل قبل بضعة ساعات من مقتل ندا . ويبدأ بعبارة « اننا نقف على حافة الانهيار الكامل » .

وتصور المذكرات شابا منطويا على نفسه ، عصبيا مكتئبا ، ومفرط الحساسية يعيش فى مصر ما بعد الثورة ، وينتمى الى أسرة مزارع من احدى القرى القريبة من طنطا فى الدلتا ، ويعيش الآن فى احدى المناطق الفقيرة بالأسكندرية .

ومحمد نـدا ، كما تبدأ مذكراته ، فى آخر سنة له بالخدمة العسكرية وهى السنة الرابعة . وقد استغل اوقات فراغه بعد الظهر فى حضور دراسات حرة عن الفنون فى احدى الكليات المحلية التى تخرج منها فى الآونة الأخيرة .

وهو على وشك الخروج من الجيش الا انه لا يراوده أمل كبير فى العثور على وظيفة .. ويشكو قائلا : ان الحكومة لم تدربنى على اى مهنة مدنية .

غير أنه بوصفه جنديا فى قوة الفدائيين البحرية تلقى تدريبا فى الغطس

ويتساءل : هل سيجد عملا كضفدع بشرى فى الميناء .. اننى لا ادرى سبب ولعى بالبحر ، ان البحر قاس غير أن صوت امواجه تملأنى بالبهجة وكأنه (سيمفونية) كبرى .. ان الهدف الوحيد من الاستمرار فى الخدمة العسكرية حتى تلك اللحظة هو التحاقى ببرنامج الغطس المتقدم الذى سيجرى فى سبتمبر (٢٣ يوليو) .

وهو يتودد الى ثلاث فتيات فى آن واحد ، وواحدة منهن « اعتزم منحها اسمى » غير ان ما يعذبه هو عدم قدرته على الحب « بالاضافة الى حالة صداع مزمن وقرحة قاسية وشجاره مع والده الذى يسأله دائما كم من المال ادخره نظرا لانه فى حاجة اليه .. كم هى اسرة كبيرة » .. (٢٧ اغسطس) .

وتتكون الأسرة من اب يعمل بوابا فى احدى السينمات ، وأم تعمل فى مصنع نسيج وأربعة اطفال وعمتين مسنتين .. ويعيشون فى كوخ صغير يبلغ اتساعه نحو ثلاثة عشر قدما مربعا .. ويشاركون حماما واحدا مع ست عائلات اخرى .. ورغم ذلك يكره (نـدا) النوم فى المعسكر ويحبذ التسللمنه فى المساء كى يقضى الليل فى المنزل .

ويدخن بشراهة و « انها متعتى الوحيدة » .. ويجرب الحشيش وافاق منه بألم « يطرق فى راسى وكأنه اجراس كنيسة نوتردام » .

ومن ثم قرر عدم معاودة ذلك مرة اخرى غير انه كرر التجربة .. وكان لديه وقت فراغ هائل .. ويذهب الى السينما ثلاث او اربع مرات اسبوعيا ويقرا لتوفيق الحكيم « مدرسة الحمقى » وللناقد لويس عوض « كتب ممنوعة » ويهيمن على المذكرات احساس بالكآبة المصرية « ان ايمانى بالله هو السبيل الوحيد » .

ومن آن لآخر يحسد الأثرياء .. فى الساعة الثامنة من مساء احد الأيام سرت انا وابن عمى على طول طريق البحر ووصلنا الى شاطىء ميامى ، حيث شاهدنا كيف يقضى الأفراد اجازاتهم وادركنا مدى الفقر الذى نعيش فيه بدون امل نعم لقد تطلعنا اليهم وملأنا الأسف .. اذ ان اليد خاوية والجيب فارغ ايضا .

ان كل شىء « يبدو كئيبا » ومر يوم آخر .. « ليس ثمة اضطراب نحن مجرد كلاب وعبيد » .

وهو يعانى من الكوابيس .. وعندما يرى فيلما يمقته فانه يهرع كى يفرغ ما فى جوفه فى المرحاض « اننى لست مجنونا ، ولا اعتقد اننى أعانى من أية عقد بل اننى لا اتطلع الى فردوس على الأرض .. ان كل ما اريده هو العيش » غير ان الحياة « مثل امراة عارية » دائما تغرى ولا تستجيب قـط .

لقد بدات قراءة القرآن الكريم واداء الصلاة .. ربما يساعد ذلك (٧ سبتمبر) .

ثم يتظاهر بالسخرية « ان المال هو الشىء الوحيد الذى اؤمن به » .. وفى الوقت نفسه يجوع نفسه لمدة اسبوع فى سبيل ان يستمع الى سيمفونية لموزار .. ويمقت السلطة غير انه يخضع لها ويكتب فى الثانى من سبتمبر من عام ١٩٧٣ ان « ما حدث ظهر امس لن انساه طوال حياتى » وتوجهت الى احدى المستشفيات العسكرية لمعالجة القرحة .. ثم فكرت فى ضرورة زيارة عائلة احد اصدقائى الذى يعمل فى الخارج ، فى انجلترا ، كى اخاطب واستمتع بحديث شقيقته سامية الشيق .. وفتحت البـاب وكانت بمفردها .. وسألتها هل نجحت فى دراستها الثانوية اجابت بالايجـاب .. واحتسينا الشاى وتحدثنا عن الاشتراكية والشيوعية .. وفجأة دق جرس الباب وجاء رجل يرتدى بزة عسكرية برتبة عقيد اركان حرب وانتابنى شعور بالحرج نظرا لأننى كنت ارتدى بدلتى العسكرية وتخيلت انه ليس من الملائم اداء التحية العسكرية وصافحته .. ثم بدا فى الصياح لسامية لاستقبالها لى وهى بمفردها فى المنزل حيث كان يتعين ان تخاطبنى من وراء الباب المغلق .. واطفأت سيجارتى ونهضت واقفا للانصراف .. ثم بدا يوبخنى لجلب العار على المنزل .. ثم اشار الى الباب كى انصرف مستخدما كل سلطته العسكرية وغادرت المكان محنى الراس وشعرت بالالم البارح .. اننى اكره كل الرجال الذين يرتدون ازياء الجيش والبوليس .. اذ يختفى بداخلها رجال على شاكلته .

وعقب بضعة ايام لاحقة يتغير كل شىء على حين غرة وتنتقل وحدة نـدا الى قناة السويس .. تفتح صفحة جديدة اننى مقدم على رحلة لا اعرف نهايتها .. سوف نخوض حربا « لم يبق على خدمتـه فى الجيش الا ثمانية اشهر » ربما يكون هناك هدف ما من حياتى الآن .

ان المعجزة قد حدثت .. حوائط حجرة النوم مهشمة (٢٢ سبتمبر) بضع مئات من الياردات من المياه تتصل بيننا وبين اليهود .. لقـد نسينا انفسنا ونسينا عائلاتنا .. « وعقد نـدا العزم على ان نثبت من خـلال الاخلاص والتفانى » شجاعة ووطنية الجندى المصرى كى يراها العـالم باسره .. وداعا والدى العزيزان .

ان شقيقى مجـدى لم يكن يتخيل قط اننى سوف اشترك فى معركة واضحى بطلا ؟ لا تيأس ، سوف اعود .. ان الجيش المصرى باسره ابتداء من بور سعيد حتى البحر الأحمر سوف يعبر القناة فى سبيل تحرير الأرض وتدمير اليهود .. (٤ اكتوبر) .

ان الأمور لم تتحول الى ما كان يأمل .. وكان ندا ضـمن اول موجة عبرت الطرف الجنوبى من البحيرات المرة .. فى الساعات المبكرة من بعـد ظهر اليوم السادس من اكتوبر .

ورغم انه تلقى تدريبا كى يكون ضفدعا بشريا تم الحاقه باحـدى وحدات الصيانة الميكانيكية .. وكانت دبابته اول ما انفجر .. واقتحمـوا احد الحصون فى خط بارليف .

وابان الساعات الاولى من المساء تعرقل تقدمهم .. ويكتب فى الساعة السادسة من مساء اليوم الاول قائلا « اننا لن نموت ، وسوف ننتصر » .

وفى صباح اليوم التالى يكتب قائلا : « لقد كنت اتمزق بين نيران العدو الثقيلة والبرد القارس .. وبدات افكر مرة اخرى فى والدتى والعـائلة .. ان الحرب عمـل قذر ، انها ترهبنى .. اننى امقتها .. وفى الوقت نفسه فانا على استعداد للتضحية بحياتى » .

وفى المســاء ، كتب بنبرة متشائمة ايضا ليس ثمة شىء يفعله المرء سوى انتظار وصول الموت فى طائرات الفانتوم والدبابات الاسرائيلية فى الصباح .. ان الانباء المتفائلة التى يبثها الراديو تجعلنا نضحك .. انهم يرابطون فى خندق على راس الشاطىء الضيق وهنا سوف يظلون محاصرين على مدى الشهرين القادمين .

وتعكس بقية المذكرات مزيجا من الخوف والضـجر الذى كان سمة كل الخندق طوال العمليات الحربية ، وتعكس ايضـا الانهيار التدريجى للمعنويات .. ويبدو ان نـدا نفسه كان منضبطا ، مخلصا شجاعا يقسم آخر (بسـكوتة) و (سيجارة) مع كافة رفاقه .. وفى اوقـات فراغه يجلس متأملا الحياة والموت .. ويكتب قائمة بالاشياء التى يحبها : الموسيقى افتتاحية عام ١٨١٢ لتشايكوفسكى ، كسارة البندق ، الفتنة النائمة .. جان سبيلويس ، جورج بيزيه ، كارمن ، موزار السيمفونية رقم ٢٩ ، ٤١ .

افضل الكتب : لعبة لكل العصور بقلم روبرت بوليت (رجـل لكل العصور بقلم روبرت بوليت ؟ ـ ايه . اى .) كتاب الشعب والحرب بقلم موشين ـ تفسير الحديث والقرآن الكريم .. مسرحيات فريدريك دورنات .. كتاب ايرنست فيشر عن الفن .. الزفاف الدامى بقلم لوركا .. كتاب سوف اؤلفه بنفسى عقب الحرب بعنوان العبور العسير ـ كلمـات سوف تصف الضجيج الحاد اللعين الذى يصم اذانى هذه اللحظة .

افضل الأفلام التى شاهدتها فى عام ١٩٧٣ : شين كونرى وكلوديا كاردينالى فى فيلم الخيمة الحمراء . المنحرفون ، وهو يصور ادمان الخمـر ونساء الليل ، بالكولا ، وهو فيلم مثير .. كباريه ، الموت ياتى ، ومؤامرة شيطانية .. ماكبث وفيلم الانقاذ العسير قام الجيش المصرى بتمثيله انتاج ـــــ فى : ـــــ (٢٨ اكتوبر) .

ويحلم باحدى صديقاته « اننى احلم بها كل ليلة .. لا استطيع التفوه بكلمة حب .. كل ما بوسعى قوله الآن .. هل معك سيجارة ؟ هل لديك ماء ؟ متى ستصل قوات الأمم المتحدة ؟ متى ســتلقى الموت ؟ اننى اكتب باخلاص تام .. اننى احب بــلادى وعلى اســتعداد للموت ، ولــكنى لا اســتطيع ... » .

وعندما سمع من خلال الراديو عن هطول الأمطار على الاسكندرية لأول مرة فى ذلك الفصل ، انخرط فى البكاء « اسكندرية ، مدينتى الحبيبة كم افتقدك ، ان شـوارعك غســلتها دموع الســماء .. بحرك ، اناسك

لهجتك ، صدرك الآمن ، اصدقائى فى مدرجات الجامعـــة ، المحـــاضرات الألعاب .. امى ، اذا مت ، آمل الا تموتى .. اذ انها قد تموت ، والدى قد يصاب بصدمة .. واطلب انه عنــدما يكبر شقيقى خالد يتعين عليه ان يرتعد من فكرة الحرب » .. (٢ نوفمبر) .

ان اليهود قاب قوسين او ادنى من مواقعنا .. اذ يقع اقرب موقــع للمراقبة لهم على بعــد مائتى متر ، ارحمنـــا يا الهى واحمنـــا .. ان ثمة شيئا غريبا يحدث لى .

لقد بدات فى سرقة البسكويت وبعض المعلبات الأخرى من زملائى .. لا اعرف كيف ابرر ذلك .. اهو الجـــوع ، ام غريزة عـــدوانية تهيمن على الأشخاص الذين يعيشون فترات عصبية مثلنا ؟ (١١ نوفمبر) .

وفى السابع والعشرين من نوفمبر ، ونظرا لبعض سوء الفهم .. جرد نـــدا من رتبته كرقيب ونزل الى رتبة جندى . « ان قائد المجموعة يوجــه اليناالاهانات ويضربنا وقد طلب منا حلاقة رؤوسنا .. لقد كان ذلك بالطبع صدمة بالنسبة لى .. هل سأفقد كل شىء بعد تلك الفترة الطـــويلة من الخدمة ؟ بما فى ذلك الراتب الذى اعتمد عليه لمساعدة الأسرة ؟ » .

وعقب مضى أسبوع عقد العزم على الفرار ســـابحا عبر أصـــغر البحيرتين المرة .. وينتهى المدخـــل الأخير (٥ ديسمبر) بهـــذه الكلمات : « لقد علمتنى الحرب ان بعض اولئك الذين يقاتلون الى جانبى يستحقون الموت اكثر من العدو » .

وعلى غلاف مذكرات محمد نـــدا كتب : « من يعثر على تلك المذكرات مع جثمـــانى أطلب منه شاكرا تسليمها الى محمود نـــدا ، فى حى لاتوس شـــارع عبد الخيرى ، المتفرع من الجسير ، محـــل الســـيد جابر تاجر الاسطوانات » .

لقد كان صديقى (ميشا شاجرير) وهو من القدس جنديا فى راس الجسر الاسرائيلى غرب القناة فى نقطة تقع على بعد بضعة ياردات حيث لقى نـــدا مصرعه وعثر على المذكرات وحصلت منه على نسخة (احتفظت المخابرات العسكرية الاسرائيلية بالنسخة الأصلية .. وقد تمكن شاجرير ، وهو منتج سينمائى من الذهاب الى الاسكندرية فى العام المـــاضى .. وقام بزيارة عائلة ندا وقدم لهم نسخة مصورة من المذكرات ..وكانوا لايزالون يعيشون فى غرفة واحدة صغيرة .. والدا ندا ، اربعة اشقاء ، وعمة واحدة اذ توفيت الأخرى . وثمة غرفة صغيرة أخرى امتلأت بكتب الابن الفقيد .

ويستخدم الحمام المشترك عائلتان اخريان .. ولايزال الأب يعمـــل بوابا لاحدى دور السينما المحلية .. وتعمل الأم فى مصنع للقمصان . وحتى عام ١٩٧٦ لم يكونوا قد تلقوا اى نبأ عن ابنهم ، هل مات ؟ او على قيد الحياة ؟ وفى خريف ذلك العام سافر مجدى شقيق ندا الى القاهرة حيث قضى اسبوعا يتنقل من مكتب الى آخـــر فى وزارة الحربية المصرية وفى النهاية تلقى نبا مؤسفا يقول ان شقيقه قد فقد فيما يبدو فى احدى العمليات

وكان ذلك اول نبأ رسمى يتلقونه منذ عام ١٩٧٣ .. واصيبت والدة نـــدا بانهيار عصبى .. وعقب زيارة شاجرير فى عام ١٩٧٨ .. مزق آخر أمل لها .

وفى شمال مدينة كبريت التى تقع على البحيرات المرة الجنوبية هناك بستان نخيل صغير حيث هبط نـــدا الى الشاطىء .. والأرض مسطحة ويغطى البحيرة طبقة من الضباب الرمادى .. وتعبر القناة الآن آخر سفن قافلة بعد الظهر .. ومنذ عام ١٩٦٧ كانت اثنتا عشرة سفينة او نحو ذلك ترسو فى القناة تعترض سبيل الملاحة حتى تم اعادة افتتاحها عام ١٩٧٥ .. وقد جرت مفاوضات على مدى ثمانية أعوام لضمان الافراج عن السفن وذلك بتطهير القناة المغلقة الا انها لم تفض الا الى طريق مسدود .. وذلك الجمود كان رمـــزا الى الموقف الأكبر .. واذا كان قد اعيد افتتاح القناة فى عام ١٩٦٨ فانه ربما لم يكن لأعمال العنف ان تتصاعد مرة أخرى ، ولم يكن لمدن منطقة القناة ان تدمر ويهجرها سكانها طوال حرب الاستنزاف ، وربما كان فى الامكان تفادى حرب عام ١٩٧٣ وذلك من خلال اجراء فك اشتباك وانسحاب عسكرى على نحو تدريجى .

غير ان القناة لم تفتح ولو جزئيا فى عام ١٩٦٨ ، وظلت السفن معطلة فى البحيرات المرة الكبرى .. ترى لمـــاذا فشلت المفاوضات .

لقد أصر المصريون على ضرورة ابحـــار السفن من اتجاه الخروج الشمالى على البحر المتوسط .. واصر الاسرائيليون على خروجها من الجنوب تجاه البحر الأحمر .. وربما تفتح السجلات فى يوم ما وتبعث على الابتسامات المريرة على كلا الجانبين ، حقا ، ان الدبلوماسيين قد يقرروا من الآن فصاعدا اجراء مناقشات من خلال التليفون .. وذلك دون ترك اى سجل مكتوبوراءهم.. ويبدو ان المحادثات التى اجريت آنذاك كانت تتسم بالحماقة ولم تعكس المواقف الحقيقية لكلا الجانبين .. اذ اعتقد كـــلا الجانبين فيما يبدو أنهم يســـدون ضربه لدولة عظمى ويحمونها . وكان المصريون يتوقون الى فتح القناة أمام الاسطول السوفيتى المرابط فى البحر المتوسط والذى كان يتخذ قواعد له فى بور سعيد والاسكندرية . واعتقد الاسرائيليون أنهم يبعثون السرور على ريتشارد نيكسون بالاحتفاظ بالقناة مغلقة وارغام سفن الامداد السوفيتية المتجهة الى فيتنام اتخـــاذ الطـــريق الطويل حول راس الرجاء الصالح .

وفى غضون سنوات قليلة أضحت الدولتان بمثابة حقل تجارب لتلك القوتين العظميين كى يختبرا فيها فاعلية أحدث عتادهما الحربى .. ومرة أخرى ومن خلال حرارة جو بعد ظهر احد الأيام التى كان يكسوها الضباب أجبرتهم الافتراضات الكئيبة الكبيرة على التزام العقل المعارض . بـــكل ما تفرضه تكهنات الحكمة المزعجة وفقا للحادث .. ومثل تلك التكهنات لم تكن بغير اساس كلية اذا نظرنا اليها فى ضوء البدائل المتاحة .

وفى اقصى الجنوب يلتقى الطريق بطريق (السويس ـــ القاهرة) الصحراوى الرئيسى . ولاتزال الأرض منبسطة ، وليس ثمة شىء سوى الرمال ، وعلى امتداد البصر لا يجد المرء اىتموج يكسر رتابة الطريق وعلى

مسافة تـرى بعضاجهزة رادار تدور ببطء ، ويتناثر هنا وهناك عـدد قليل من الدبابات تقف ساكنة .. وعند الكيلو ١٠١ ، وهى نقط التقدم الاسرائيلى الى القاهرة ، لايزال هناك دوائر منخفضة فى الرمال حيث اقيمت الخيمة الكبيرة التى استخدمت كاول مكان تجرى فيه مفاوضات مباشرة بين ضباط الجيش .. اذ هنا وفى عام ١٩٧٤ جرت اول مناقشـة حول اقرار السلام على نحو غير رسمى ، وذلك فى محادثات سرية جرت بين الفريق المصرى محمد الجمسى والجنرال الاسرائيلى اهارون ياريف .

وعلى مرمى البصر ظهرت بضعة مصانع ثم نصب تذكارى آخر ، ودبابة تشير الى انها كانت من بين أول مجموعة عبرت القناة فى عام ١٩٧٣ ..ترى هل كانت دبابة ندا ؟ لقد وضعت على منصة مرتفعة .

ومرقت السـيارة بسرعة على نحـو لم يمكننا من قراءة العبارة المكتوبة .. ومن خلال راديو السيارة يأتى صعوت المغنى محمد نوح الذى تعرفت عليه مؤخرا ، ويشدو باغنية عن الحب .

تعرف منطقة القناة ومدينة الاسماعيلية بأنها بلد عثمان وعثمان احمد عثمان نسيب السادات ، اذ أن نجله متزوج من كريمة السادات .. وهو نائب عن مدينة الاسماعيلية فى مجلس الشعب .

ونظرا لأنه يشغل منصب رئيس شركة (المقاولون العرب) عثمان احمد عثمان وشركاه . لمدى الحياة . اشترك فى اكبر مشروعات التنمية ، ابتداء من توسيع القناة وشق النفق الى بناء مدن جديدة وتنفيذ مشروعات صناعية وزراعية (المقاولون العرب) مؤسسة من عائلة ، وهى واحـدة من اكبر الشركات فى الشرق الأوسط .

وقـد اكتسبت شـهرتها وثراءها فى عهد ناصر ابان عملية بنـاء سـد اسـوان .

وفى صـباح اليوم التالى فى القاهرة ، قمت بزيارة ابن اخ رئيس الشركة ، اسماعيل عثمان ويشغل منصب مدير الشركة وذلك فى مقر الشركة بشارع عدلى وشأنه شأن عمه السياسى .. يعتقد انه لا يمكن تحقيق تنمية اقتصادية ورفاهية الشعب الا فى ظل السلام وعن طريق احياء المشروعات الخاصة .

واسماعيل عثمان شاب فى مقتبل العمر مشغول للغاية .. ففى كل دقيقة يقطع حديثه السريع رنين التليفونات الموضوعة على مكتبه الـذى يفتقر الى النظام .. ويدخل دائما المساعدون والزوار الى مكتبه لانجاز بعض المهام الهامة ويتمهلون قليلا الى ان تزدحم الحجرة ومن ثم يضطر عثمان ان يطلب من سكرتيره اغلاق بابه .. وهو يرتدى حلة ذات طراز امريكى ورباط عنق مفكوكا تحت (ياقة) قميصه المفتوح وهو ذو وجه مستدير وشعر اسـود مجعد وعندما يتحدث يميل الى توضيح وجهات نظره باسهاب .

وشركة عثمان تقيم مشروعات كبرى خارج مصر ايضـا ، فى غالبية الدول العربية ومن بينها ليبيا .. غير ان عثمان احمد عثمان يقول : انه فى العام المـاضى « ركزنا جهودنا على الزراعة المصرية : اذ اننا نزرع النباتات الغذائية فى مراكز زراعية فنية حديثة .

وكان يتعين علينا الاقدام منذ امد طويل بدلا من كل تلك الحروب .. فلدينا اربعون مليون نسمة فى حاجة الى الطعام .. وذلك هو اكبر تحد للمستقبل . « الانفتاح الغذائى » .. ويشير بسبابته الى كوم من البيـانات والاحصائيات .

ويقول : « لقد مر وقت كانت الحكومة تعتقد فيه ان بوسعها تنفيـذ كل شىء بمفردها .. وتم تأميم الانتاج . وصدرت القوانين لتنظيم كافة الأنشطة وتجمدت الايجارات . وذلك وضع نهاية لحركة التعمير الخاصة مما اسفر عن التدهور الراهن فى البناء .. وقد خفضت حتى الايجارات الى النصـف بين عشـية وضحاها وذلك بغية الاحتفال باحـدى المناسبات السياسية .. هلافيت . هل تفهم .. لقد كانوا هلافيت » .. ولم يكونوا على دراية بالاقتصاد على الاطلاق .. فمن كان يود استثمار امواله فى بناء المساكن فى ظل هذه الظروف ؟ اذ فى المدن بمفردها هناك نقص يقدر بمليون ونصف مليون كل ذلك بدأ يتغير الآن « .. اذ ان الحكومة تشجع التعاون بين المشروعات الخاصة والعامة » .

وعلى الحائط خلف مكتبه هناك شعار يقول : سلام وآخر مكتوبباللغة الانجليزية يقول : « نحن راغبون فى العمل ويقودنا المجهول وقد فعلنا المحال من اجل من لا يقدر الجميل .. وقد حققنا الكثير لفترة طويلة للغاية دون مقابل كبير والآن نحن مؤهلون لتقديم اى شىء مقابل لا شىء » .

ويقول عثمان « انه لمن المؤسف ان السلام لم يتحقق فى وقت سابق .. لقد ارتكب كلا الجانبين اخطاء . ولكن فلننس الماضى » .

وهو يدرك المخاوف التى تسود فى الخارج من ان تكون تلك العملية تعتمد على السادات وعلى السادات فحسب .. ترى هل يجعله ذلك يستمر ؟ ويدرك عثمان أن عددا كبيرا من الأشخاص يتساءلون « وماذا اذا تقاعد السادات ؟ ماذا يحدث اذا توفى » ؟ انه يتعاطف مع تلك المخاوف غير أنه ليس هناك ما يبررها « ان السلام امر طيب شأنه شأن بناء الاقتصاد والطبقة السياسـية فى مصر » . ان المعارضة هامشية للغاية وهـو لا يعبأ بها .

ويقول : انها ليست حتى حقيقية بل انها مصطنعة الى حد ما وتقوم « عناصر اجنبية » باثارتها وتمويلها .. من يكون اولئك الاجانب ، انه لا يستطيع القول .. اذ أن ذلك لن يكون من اللباقة .. ولايساوره قلق ايضا حيال المقاطعة العربية .. ويقول : ان شركته لم تتأثر بها باستثناء اعمال شركته فى ليبيا .. ويقول عثمان باسلوب رجل دولة « اننا نتسم بالحساسية ولسنا عديمى الاحساس » .. اننا شعب عريق وذو خبرة ولنا تقاليد راسخة منذ امد بعيد » .

الفصل العاشر

زيارات أخيرة فى القاهرة .. فى مكاتب المحررين بجريدة الاهرام شبه الرسمية . تعرضـت لمحاضرة طويلة القاها على حمدى فؤاد رئيس المراسلين الدبلوماسيين ويقع مكتبه على بعد من حجرة الأخبار الشاسعة التى تضم اثنى عشر مقعدا والتى قلما ما تبدو مزدحمة بالمحررين ، ولم اسمع قط رنين اى تليفون .. والجو السائد هنا غير موات واقل بهجة من ذلك الذى يسود فى الطوابق العليا حيث توجد مكتبات توفيق الحكيم ونجيب محفوظ والشعراء وكتاب القصة الآخرين .

وفؤاد لا يقف ضد السلام او هكذا يقول غير انه هاجم ، بعنف كل مافعلته اسرائيل فى المـاضى تقريبا ولاتزال ماضية فيه الا وهو : الضغط فى الكونجرس الأمريكى ، بناء المستوطنات ، قيام القوات الجوية الاسرائيلية بقصف جنوبى لبنان بصورة مستمرة ، وفضلا عن ذلك اسلوب وسلوك بيجين الشخصى .

فقد كان الأسلوب الذى اتخذه بيجين بغيضا فى مكافأة السادات على الترحيب به بوصفه زائرا غير رسمى للقاهرة ! وكان بيجين متواجدا فى القاهرة غير أنه لم يرسل الزهور التى كان يتعين ارسالها فيما بعد .

انه حقا شخص آخر من ذلك النمط الذى طرا على ذهن كيبلنج عندما كتب : « ثمة شخص أحمق يرقد هنا كان قد حاول سلب الشرق بالقوة لقد استمعت الى مثل تلك الشكاوى من قبل ، غير أنها لم تكن بمثل هــذه المرارة .

ولم امنح اية فرصة للرد بكلمة واحدة .. وبينما استمرت تلك المحاضرة بدا الشك يساورنى فى ان هناك سببا اعمق لتلك الزيارة التى تكمن فى حديث حمدى فؤاد .. اذ انه ليس من السهل على المراسل الدبلوماسى ، اذا كان يتسم بالامانة ، ويعمل فى صحيفة شبه رسمية ، ويلتزم بقاعدة او مبدا سياسى التزاما شديدا لسنوات طويلة ان يتحول هكذا الى مبدا آخر على حين غرة .. اذ هناك اشياء قليلة تكون مؤلمة للغاية مثل اى فكرة جديدة .. وذلك هو السبب الذى دفع كبار المصلحين الى التأكيد دائما على انهم يرجعون الى المصدر الحقيقى .

وعندما انتهى خلافنا افترقنا فى ود .. ويراودنى شعور بالتعجب مرة اخرى حيال تلك الانسانية التى يتسم بها المصريون والتى غالبا ما تمكن

نبض الصداقة والود المفرط من التغلب على الخلاف السياسى ، وينتهى ذلك التعجب عندما اتذكر ان لدى ما يفوق ما لديه من الأسباب التى تثير قلقى وحنقى .

وعقب يوم أو يومين لاحقين عدت الى الاهرام لتناول الغداء مع عزالدين شوكت وقرينته .. وصعدنا الى حجرة الطعام البديعة التى تقع فى الطابق الأعلى من البرج .. وشوكت دارس شاب ، طويل القامة ، سريع البديهة مسئول عن قسم البحوث فى الأهرام .

واسرائيل هى موضوع بحثه .. وشوكت نجل ضابط مصرى كبير كان يقود قوة الهجوم المصرية التى اقتربت فى عام ١٩٤٨ الى مسافة بضعة أميال من القدس .

وقد كنت جنديا فى القدس فى ذلك الوقت واذكر انه فى احدى ليالى شهر يوليو من عام ١٩٤٨ .. تبادلت السيطرة على ضاحية رامات راشيل الجنوبية ثلاث مرات او اربع حتى تم صد قوات اللواء شوكت ودفعها تجاه بيت لحم على يد كتيبة تم تشكيلها على وجه السرعة من طلبة الجامعات الذين لم يكونوا يحملون من سـلاح سـوى زجاجات مولوتوف وبضـعة مسدسات عتيقة .

ويقول عز الدين شوكت « لقد نشأت فى منزل كان غالبا ما تناقش فيه الحملة الفلسطينية » وقرينة شوكت محررة فى قسم الأخبار بالأهرام وهى تنتظر قدوم طفل وتقول بحياء « انه طفل للسلام » .. وهى كريمة حافظ اسماعيل السفير المصرى لدى فرنسا ومستشار السادات السابق لشئون الأمن القومى .

ويزعم شوكت : ان السادات ارسل حافظ اسماعيل الى واشنطن فى عام ١٩٧١ لابلاغ الأمريكيين بأنه يرغب فى اقرار السلام مع اسرائيل .. ويمضى شوكت قائلا : ان احدا لم يستمع اليه واعتقدوا أن مصر ليست سوى جواد مقضى عليه .

ويقول : غير انه سعيد لاقرار السلام الآن حتى رغم انه لم يكن فى الامكان تحقيقه فى وقت سابق .. وهو يقرا اللغة العبرية وتتمثل مهمته الرئيسية فى اعداد تقارير شاملة حول اسرائيل والعالم اليهودى الأمر الذى يضطلع به منذ عام ١٩٦٨ . ترى ما الذى اثر فيه كثيرا ابان تلك السنوات ؟ .

« ان الازمة تكمن فى الجوهر الاسرائيلى .. » .

وشوكت اول مثقف : مصرى اقابله ويقول : انه يأمل فى ارساله الى اسرائيل بأسرع وقت ممكن والبقاء هناك اذا امكن لبضـعة اشهر على الأقل .. غير انه لن يذهب الى القدس الشرقية او اى من الأراضى المحتلة باى حال من الأحوال .. اذ تساوره مخاوف من ان يطلق الفلسطينيون النار

على اى مصرى يرونه .. ومع ذلك يعد ايضا واحدا من اكثر الأشخاص الذين قابلتهم تفاؤلا على الاطلاق » .

ويعرب عن ثقته فى ان الاتفاقية سوف تحقق نجاحا « اذا ما ادركت اسرائيل انها جزء من تلك المنطقة .

« ما الذى تعنيه بأن تكون جزءا من المنطقة » ؟ .

« ان ذلك يعنى ان تتسم بالحساسية حيال مشاعر المنطقة » .

اقول : « ان لدينا مشاعر ايضا » .

يقول شوكت بأدب جم « نعم ولكنكم طرف عدوانى .. وقد جئتم الى المنطقة رغم ارادتنا مثل الصليبيين » غير اننى ادرك ان ذلك هو مايعنيه.

ومن خلال النافذة يتراءى مشهد رائع للقاهرة ، وتبدو قلعة صلاح الدين على مشارف القاهرة .. ان المصريين دائما يقارنون بيننا وبين الصليبيين وظلوا لأمد طويل يعتبرون ناصر بمثابة صلاح الدين العصر الحديث الذى شن حربا مقدسة ضد الأرض اليهودية فى فلسطين .. التى سوف تنمحى فى النهاية مثل مملكة القدس القديمة . ان المقارنة لم تصل قط الى نتيجتها المنطقية والتى تمثلت فى انه عقب هزيمة الصليبيين ، اجتاح المغول الشرق الأوسط واشاعوا فيه الفوضى والدمار .

وكانت الموائد المجاورة يشغلها عدد من الشخصيات البارزة .. محررون سياسيون ، اساتذة جامعة ، الكاتب توفيق الحكيم ، نجيب محفوظ، حسين فوزى والدكتور لويس عوض .

ويأتى الجرسونات حاملين اطباقا من المحار المشوى الذى يؤكل ممزوجا بنكهة من الخل المصرى .. وعلى بعد بضع موائد تجلس هدى كريمة ناصر تتبادل الحديث مع احد الماركسيين المصريين المعروفين .

ولم يقدمنى شوكت الى كريمة الدكتاتور الراحل .. وهى معروفة بكراهيتها الشديدة للاسرائيليين .. ويقول شوكت : انه فى احد الأيام توجهت كريمة ناصر الى مكتب احد مساعدى السادات المقربين لتقديم مذكرة تعارض فيها معاهدة السادات .. وسمح لها بالدخول ، وجلس مساعد السادات وقرا مذكرتها . وقال : انه لايتفق معها حول مضمون المذكرة غير انه لديها الحق فى تكوين وجهة نظر خاصة بها .. ثم طلب منها ان تبقى لتناول الغداء معه او يصطحبها الى مطعم قريب .

جولة اخيرة فى احياء القاهرة القديمة ، اسفل قلعة صلاح الدين تحتشد الحارات الضيقة بالقصور والمساجد القديمة والحياة فى مثل تلك الأحياء الفقيرة امر محال كما ذكرت من قبل .. اذ ان المياه العذبة لاتصل المنازل والمجارى تطفح .

ومع ذلك فهناك خطط لبدء شق نفق .. ويبيع باعة الشارع المكرونة المطهية والبطاطا المشوية فى فرن صغير يتم اشعاله بقطع صغيرة من الخشب الذى يجمع من بعض مواقع البناء .

وعبرت طريقا شاسعا يمتد بين قلعة صلاح الدين وتلال المقطم الكئيبة التى قصف منها نابليون المدينة عندما ثارت عليه فى اعقاب المعركة التى دارت فى منطقة الأهرامات .

وعبر ذلك الطريق مباشرة وخلف لوحات اعلانية عن سجائر امريكية وخطوط الطيران السعودية يدخل المرء مدينة الموتى والمقابر مكشوفة ومحاطة بالحوائط غير انها بدون أسقف .

وفى وسط المقابر تقع المساجد الشهيرة التى تم بناؤها فوق مقابر سلاطين المماليك .. ويعيش فى تلك المقابر عشرات الآلاف من الأشخاص .. ويواجه بعض المقابر التى هى بدون اسقف ، والتى قام البعض بتغطيتها بقماش الخيام ، يواجه بعضها البعض الآخر وتشكل شوارع حيث يلهو الأطفال فى القمامة وتطهى النساء وجبة من الحبوب الجافة على مواقد (جاز) صغيرة .. ويمتد ذلك المشهد الرهيب حتى مرمى البصر .

وهناك محلات للطعام وبعض الورش الصغيرة والمقاهى المقامة فى بعض المقابر وتقع الأجزاء الأكثر حداثة من المقابر على مبعدة صغيرة .. وفيما وراءها يدلف المرء الى مقبرة شهداء حملة فلسطين فى عام ١٩٤٨ .. ومكتوب على لوحة موضوعة على احدى المقابر « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

وعلى البوابة الرئيسية مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم — تم نقل رفات شهداء حرب فلسطين الى ذلك المكان الطاهر فى احتفال قومى شهده الشعب من كافة الطبقات وممثلو الجامعة العربية برئاسة اللواء محمد نجيب رئيس الوزراء وزعيم ثورة القوات المسلحة النقية فى الثانى عشر من شعبان عام ١٣٧٢ هجرية والعاشر من مايو عام ١٩٥٣ » .

حفل وداع آخر على الغداء مع السفير حسن وحرمه وكريمتها نوال والتقينا فى نادى الجزيرة الراقى ، الذى كان فيما مضى القلعة العليا لصفوة المجتمع البريطانى .

وكان حسن هو اول رئيس مصرى للنادى الذى ظل غير الأوروبيين يلتحقون به على مدى حقبات بوصفهم اعضاء شرفيين فحسب وكان ذلك فى عام ١٩٥١ عقب عودته من واشنطن .. والمطاعم ، والبار وحمامات السباحة وملاعب التنس مملوءة بشباب حسن الطلعة وعمال بناء ونجارة حيث يجرى تحديد النادى وتوسيعه لأول مرة منذ سنوات .

وتقول نوال بوجه مكفهر « لقد برزت طبقة جديدة » .. ويحتشد مكان انتظار السيارات بسيارات جديدة تبدو باهظة الثمن ليس من المألوف مشاهدتها فى شوارع القاهرة .. ولايزال هناك قاعات منفصلة للرجال والنساء .

وتحتل الأراضى الشاسعة جزءا كبيرا من ارض الجزيرة غير انه تم اقتطاع جزء منها ، كما حدث بالنسبة للسفارة البريطانية ، لمد طريق طويل اطلق عليه ٦ اكتوبر تيمنا بحرب عام ١٩٧٣ .

وكانت عائلة حسن تستضيف ايضا سيدة يهودية ، كانت مواطنة مصرية فيما مضى وتعيش الآن فى باريس .. وتلك هى اول زيارة لها منذ مايربو عن عشرين عاما .. وكانت قد ارغمت هى واسرتها على الهجرة عام ١٩٥٦ ، تاركة وراءها معظم ممتلكاتها . وشأنها شأن غالبية اليهود المصريين الذين ينتمون الى طبقة معينة .. نجدها تتحدث عن مصر بحرارة وود وبدون مرارة — ويبدو انها قد كونت ثروة فى باريس — وبنبرة ساخرة مستترة تقول « ان مشاكل تلك الدولة لن تحل ، يتعلم المصريون من طبقة معينة كى قمصانهم بأنفسهم » .

وتذكر انه فى احد المنازل فى القاهرة كان اربعة خدم يتولون عملية الكى فحسب وتحدثت عن ذلك الموضوع لبعض الوقت .. ويبدو ان النظرية الكامنة وراءه سطحية للغاية .

وعندما انتهى الغداء ، وجه السفير حسن الشكر رسميا لكل جرسون ثم توجه الى المطبخ الكبير لتقديم الشكر للطباخين ايضا .. وينحنى امامه كل فرد باحترام كما لو كان لا يزال رئيسا أو يمتلك آلاف الهكتارات ولديه العديد من الفلاحين يعملون فى خدمته ، رغم انه لم يكن كذلك قط ، فى حين تأسف قرينته على عدم تمكنها من الحصول على شغالة فى هذه الأيام .

وتقول بالفرنسية « انظروا مقدار جمال تلك الزهور .. انكم تحبون الزهور أليس كذلك » ؟ .. وهى تتحدث بلكنة اجنبية .. واميل الى الحديث معها بالفرنسية وزعمت ريمبو انه فى اللغة الفرنسية لكل حرف متحرك لون خاص . اذ ان الحرف (اى) ينم عن اللون الأبيض و (آى) الأحمر ، و(يو) الأخضر و (او) الأزرق (كما هو الحال فى لوحة الموت لبيكاسو اذ يصور المأساة باللون الأزرق ، وايه) الاسود كما يتضح فى لوحة السيدة الكبيرة وكانت حرم السفير ترتدى زيا داكن اللون ، وعند افتراقنا وضعت لفة صغيرة فى (جيب) سترتى وقالت « انها هدية صغيرة لزوجتك » .

ويهل من بعد بلدوزر ياتى من خلال الحدائق المورقة .. ويعود الزوجان المسنان الى ماضيهما ، اذ يسيران ببطء وعلى طول واجهة النهر .. ويمارسان رياضة المشى بعد ظهر كل يوم وفى الساعة السابعة من كل مساء يستمعون الأخبار من اذاعة مونت كارلو .

وفيما بعد اصطحبتنى نوال لزيارة صديق طيب لها ، الا وهو المهندس

المعمارى حسن فتحى .. وهو يعيش فى شقة تقع فى اعلى احد قصور المماليك القديمة .. وفى الفناء الكبير توجد اروقة شامخة ونوافذ خشبية منحوتة بدقة تسمى المشربية ، حيث كان بوسع النساء التطلع منها دون أن يراهن احد وفى الداخل تزدان الحوائط بأشياء رائعة وسجاجيد .. ومن خلال النوافذ يبدو منظر رائع يطل على قباب مرسومة بخطوط ملونة لأحد المساجد القديمة .

ومع ذلك لا يوجد حول ذلك القصر الذى يقع فى درب اللبان الا الرماد والقذارة والقمامة والورش ، ذلك الحى القديم الذى يتسم اكثر من غيره بالفقر والكآبة وبالقرب تبدو قلعة صلاح الدين ترفرف حول اسقف المنازل المنهارة فى ذلك المناخ من الدمار والمغامرة وذلك هو ما جاء الغربيون فى القرن التاسع عشر لمشاهدته بوصفه سمة مميزة للشرق .

وفتحى رجل نحيف ذو شعر ابيض فى الحلقة السادسة من عمره .. ووجدناه فى حجرة جلوسه محاطا بمعجبيه الذين يتابعون كل كلمة يتفوه بها ويخاطبونه باجلال بالغ وينادونه بحسن بك .. وفتحى يشتهر بنظرياته التى تعضد الفن المعمارى الفطرى .

ويستند منطقه الى جوانب فنية واقتصادية وقد عرض نظرياته منذ بضعة أعوام فى كتاب يحمل اسم « الفن المعمارى للفقراء » وفى أواخر الأربعينات وضع فتحى نظرياته موضع التنفيذ فى قرية جديدة تقع فى مصر العليا واطلق عليها اسم (القرية الجديدة) وهى قرية قام بتصميمها وبنائها بالكامل من الطوب اللبن والمواد المحلية الأخرى مستخدما القباب والأشكال المقنطرة والشوارع ذات الممرات المقنطرة بوصفها اكبر نمط للبناء رخصا ومنطقية .. ويعتقد فتحى ان النقص الهائل فى الاسكان فى الدول المكتظة بالسكان فى العالم الثالث لا يمكن أن يحل الا من خلال احياء (التكنيك) الفنى الفطرى الذى ظل يستخدم بنجاح بالغ على مدى اربعمائة سنة فى حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط ، فضلا عن انه يسر العين .

بيد ان غالبية اتباعه ليسوا من دول العالم الثالث او من مصر ، وانما هم من الدول الصناعية الغربية .

وفتحى — شأنه شأن (موشى سافدى) نظيره فى الفن المعمارى الفطرى ، فتحى ليس نبيا فى وطنه وهو — مثل (ساندى) — يلقى اشادة فى الخارج اكثر مما يلقاه فى بلاده .. اذ هو يعتبر فى مصر حالما غير عملى .. وتكمن السخرية هنا فى أنه منذ بناء قرية (القرنة الجديدة) لم تكن المنازل القليلة التى شيدها للفقراء بل للأثرياء والمفرطين فى الأناقة .. وبوسعى تخيل مدى المرارة التى قد يشعر بها حيال ذلك .

ولا ينقطع رنين التليفون .. ويتلقى اولا مكالمة من ميونخ ، ثم لندن ، ومكالمة اخرى منميونخ .. وقد تم دعوته الى Mit كى يعرض فنه، ويتوقعون ان يستمر مقرضه شهرا فى كامبريدج مقابل اجر رمزى .. ولديه عائلة يعولها .. وفى مصر ، وعقب الانتهاء من بناء قريته جورنا الجديدة ، لم

يرغب احد فى مواصلة التجربة ويقول : انه بدلا من ذلك يحبذ الواح الصفيح المجعد والكئيب .

ولم ينشر كتاب فتحى « الفن المعمارى للفقراء » باللغة العربية .. ويكتب ايضا مسرحياته وكتبا مزودة برسوم توضيحية وهو ــ شانه شان العديد من كبار المهندسين المعماريين ــ يتبنى وجهة نظر رائعة بشان عالم يديره الشياطين والأوغاد .. اذ ان كل شىء ينهار .. من خلال الفساد والتلوث ، على ايــدى مجانين السياسة بالتعاون مع المقاولين والممولين الجشـــعين .

وهو فى الوقت نفسه ــ شانه شان العديد من المهندسين المعماريين ــ يوجد لديه حل لكل شىء يعيش تحت الشمس . اذ انه يمكن حل كل مشكلة « غير انه يتعين تحديدها أولا على وجه الدقة » .. ويكرر تلك العبارة المرة تلو الأخرى .. ونحن نعلم ان المعماريين يميلون الى التشبه بالآلة ، وربما يرجع ذلك الى انهم اعتادوا ان ينظروا الى (موديلاتهم) من اعلى .. وقلما يوافقون على بنـــاء مساكن جيدة لنا ، مثلما كان يفعل المعماريون القدامى ، بل انهم يعتقدون بدلا من ذلك انه بوسعهم بناء الانســـان من خلال الحوائط التى يقطن بداخلها .. وانى اخشى ــ فضــلا عن ذلك ان يكون فتحى (رومانتيكيا) .

اذ يكتب قائلا فى كتابه « الفن المعمارى من اجل الفقراء » انه من العسير تخيل قرية فى مصر بدون نسائها اللائى يتوشحن بالسواد ويقفن وكانهن ملكات ، وتحمل كل منهن على راسها جرة ومن المؤسف ان تفقد مشهد .. الانحناء لملء دلو من صنبور فى الفناء .. مما قد يدمر مشـــهد حمل الجرة الرائع الذى تشتهر به نساؤنا » .

الم يسال اى فرد عن مشاعرهن ؟ ويصر فتحى قائلا : ان كل شىءيمكن حله « الحب والحوار » غير انه للأسف نفتقر الى وجود الكثير منها.. اقول هناك سلام الآن على الأقل « هل نتمتع بالسلام حقا ؟ ان الاتحاد السوفيتى واعوانه لايزالون يحيطون بنا ، اضف الى الزعماء العرب المختلين عقليا ، اننا لا تملك زمام مصيرنا » .

وينطلق صوت مؤذن مزعج من خلال النافذة المفتوحة . .ويهتز لوح الزجاج ان الصوت يصدر من مكبر صوت فى احد المساجد القريبة .

ان فتحى لا يهتم بالسياسات الراهنة .. ترى هل اثرت الحروب فى حياته الشخصية او المهنية ؟ يصبح فتحى قائلا الحرب ؟ لا . لحروبكم ونعم للحروب الاخرى .. حروب مع البيروقراطية .. حروب مع الادارة العامة التى تتســـم بالحماقة حـــروب مع وزراء لا يمـــكن تخيلهم .. وزراء يطلبون بقشيش .. حروب مع المحتالين ومقاولى البناء « ويقول : ان جيهان السادات قرينة الرئيس تعجب باعماله .. وطلبت من وزير الاســـكان تشغيله وقال الوزير : انه ليس بوسعه ذلك .. ويكيل فتحى اللعنات على

البيروقراطيين ويصيح قائلا : « انه يتعين اطـــلاق الرصاص عليهم وليس توجيه الاهانة اليهم » .

ويقول : ان طريقته هى الطريقة الوحيدة العملية فى العالم الثالث وهى تخلق ــ فضلا عن ذلك ــ محيطا انسانيا لا ارضا فطرية تترعرع فيها الجريمة والاختلال العقلى .. يتعين ايجاد سكن لملايين وملايين .. ان قرية (القرنة الجديدة) التى بنيت مساكنها من الطوب اللبن تعد نموذجا اصيلا ملائما لتشييد مساكن مماثلة فى كافة ارجاء العالم .

ويردف قائلا: انه ليس من العجب انكبار مقاولى البناء لايفكرون على الاطلاقعلى ذلكالنحو.. بل يحبذون الانماط التقليدية للبناء بالصلبوالاسمنت المسلح اما فتحى فانه يحبذ الطوب النى والرمل المضغوط الذى يكلف فحسب .. عشر تكاليف البناء التقليدى .. ويعتقد فتحى ان بوسع الفرد المشاركة فى بناء البيئة المحيطة به ، كما فعل المزارعون دائما فيما مضى فى قرى ومـــدن البحر المتوسط الجميلة .. غير ان كبار مقاولى البناء لايهتمون بالجمال او الاقتصـــاد فى التكاليف بل على العكس « انهم يعملون وفقا لنسبة مئوية » .

بعد ظهر آخر يوم لى فى القاهرة اراجع المذكرات التى دونتها ابان اقامتى وحذفت ما كان يبدو مؤثرا فى ضوء الحمية الأولى ولكنه يبدو الآن تافها .. واقسم الصفحات الى مجموعات صغيرة واضع عنوانا لكل منها وهى توضح حالة الذهن المشوشة التى تعترى المرء من جراء تجربة مثل تلك التى خضتها .

ولا يتضح العديد من الأفكار والانطباعات المتباينة والمتضاربة نظرا لمـــا كان ينتابنى من ارتباك .. وقد حدثت التجربة بسرعة بالغة ولاتزال غيرحماسية .. وبرزت بعض الآمال وتكونت بضعة صداقات .. غير انها مجرد بدايات ، وعمليات سبرغور ولا تعـــدو ان تكون اكثر من تعـــارف عرضى بدا بين مسافرين فى قطار يسير بسرعة بالغة اذ اننا لسنا اسرى للوقت فحسب بل للشكوك التى تعاظمت على مر الأعوام ايضا ، حول احتمال ان يدفع المرء للنزول فى محطة ما ، على جانب الطريق .

وبدات فى ربط الكتب التى اشتريتها .. وهى ليست كثيرة .. وكنت احاول ابان اقامتى فى القاهرة شراء كتب غير اننى دهشت لانى لم اجد الا القليل .

كما انه لم يكتب الكثير عن مصر خلال السنوات الأخيرة او ان المكتوب عنها والمعروض للبيع قليل .

وسالت احد اصحاب المكاتب الدولية التى تقع فى قلب المدينة عن سبب قلة الكتب ، اجاب قائلا : « ان الرقابة قد تم رفعها فى الآونة الأخيرة فحسب » .. ومضيت قائلا : « ولكن الاجانب هم الذين يؤلفون الـــكتب

ايضا .. اذ انه فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان عدد الكتب التى كتبت عن مصر يفوق ما كتب عن غالبية الدول باستثناء فلسطين .

قال « نعم ، لقد كان عصرا اكثر تمهلا وروية .. وكان لدى الأفراد المزيد من الوقت وهناك بالطبع كتاب « الاهتمام بمصر فى فترة الانتقال » (١٩٥٨) الذى الفه جين وسيمون لاكوتير ، و « مصر والبحث عن المجتمع السياسى » بقلم : نافدا سافران (١٩٦١) و « مصر بوتقة اختبار رائعة » بقلم : هارى هوبكنز (الثورة غير الكاملة) (١٩٦٩) وكل تلك الكتب ليست متاحة هنا .

وفضلا عن ذلك تتناول جميعها خلفية وذروة فترة حكم ناصر .. وقد فقد الغرب صبره ، او اهتمامه ، بمصر عقب وفاة ناصر الذى كان يعتقد العديدون انه (اتاتورك) جديد .. ومصر فى عهد السادات لم توح ، حتى الآن الا بتأليف قليل من الكتب .

وباللغة العبرية هناك كتاب « مصر فى عهد السادات » بقلم البروفيسور شامير وكتاب السادات تأليف شمويل سيجيف .. والى جانب هذين الكتابين لا يوجد سوى القليل .. وهناك سلسلة طويلة من الدراسات التى اعدت بشأن هذا الجانب التفصيلى او ذاك ، التى اعدتها هيئات البحوث الاسرائيلية الرسمية ، والتى تقرا وكأنها سجلات اللمس التى يستخدمها المكفوفون ، او يستمع اليها الذين يسترقون السمع من خلال حائط سميك .. وفى معظمها بيانات ثقيلة ومجرد قصاصة عن شىء اكثر اهمية على الأرجح — ونمط من التجربة .. وتكمن جوانب ضعفها الأساسى فى ابتعادها عن الموضوع الذى تدور حوله على نحو يماثل المنطق الرمزى للكريملين .

وفى وقت لاحق ، حضر تحسين بشير لتوديعى .. وجلسنا بجوار النافذة الكبيرة فى غرفتى وتحدثنا مرة اخرى بشأن المستقبل .. ويأمل بشير فى ان تقضى مرحلة واحدة من تطبيع العلاقات الى مرحلة اخرى ويعقبها مرحلة ثالثة لتعزيزها .

ويقول : ان العملية لن تكون بالأمر اليسير ومن المرجح ان تستمر فترة طويلة ولا ننسى الوقت الذى استغرقته العملية بين الألمان والفرنسيين فى اعقاب الحرب العالمية الثانية .. لقد استغرقت جيلا على الأقل .. ولايزال التعصب قائما اذ فى اسرائيل هناك افتقار للاحساس حيال ازمة الفلسطينيين وفى مصر ، تسود مشاعر حنق حيال مالا يزال يبدو بمثابة دخيل اجنبى ، دولة صليبية جديدة ، اسطورة سائدة بشأن اليهود ذوى المهارة « وبالتالى » يشكلون خطرا « وسألت تحسين عن سبب اعراض صديقه لويس عوض عن زيارة اسرائيل ، رغم ان ذلك لايرجع الى التعصب لدين او راى ، ورغم انه يرحب بالسلام » .

ويقول تحسين : انه عربى يتحدث المصرية .. اذ يحبذ الثقافة العربية غير انه ضد القومية ولذلك السبب يمقت ايضا القومية اليهودية » .

ويبدو تحسين مجهدا او مرهقا الى حد ما .. وهو بالطبع فى موقف صعب بصفة خاصة بوصفه سفيرا مصريا لدى الجامعة العربية .. غير اننى مسرور من انه رغم الضغوط التى تحيطه .. يبدو مبتهجا .. ويضحك من ذلك التفكير .

ويقول مثل مصرى « اعطنى قراط حظ بدلا من فدان مهارة » .. انه لا يعامل المصاعب برفق .. ان مبداه الرواقى ينطوى على جوانب قوة وضعف ، وهو اسلوب مصرى صميم لهزيمة الشدائد من خلال تجاهلها .. وسألته فى النهاية : الا يساورك القلق ؟

ونهض تحسين من مقعده وتطلع الى النهر .. انه رمادى اللون معرق باللون الأخضر والأرجوانى .. ويقول ببطء وهو ينظر من النافذة « لا » ، « انظر ياعزيزى أموس » عندما تتكسر الرقاقات ، توجد حقيقة واحدة فى تلك المنطقة بأسرها الا وهى مصر .. وكل الدول الباقية مجرد قبائل ذات اعلام ، واعذرنى لذلك القول .

ان فكرة امكان عزل مصر تبدو فكرة سخيفة بالنسبة لذلك الرجل الرائع .. انه لايمكن ان يحدث ، ويستعيد الى ذهنه (مانشيت) مشهورا منذ سنوات عديدة فى احدى صحف لندن يقول (ثمة ضباب يخيم على القناة ، ان اوروبا معزولة) .

وكان من المفروض تناول العشاء مع نوال حسن .. واتفقنا على الاتصال ببعضنا فى الساعة السابعة .. وادرت قرص التليفون غير ان تليفونها كان مشغولا .. واستدعيت سيارة تاكسى وتوجهت الى منزلها .. غير انها كانت قد غادرت منزلها بالفعل فى طريقها الى الفندق .

ونظرا لان التليفونات لا تعمل لم يكن بوسعى استدعاء سيارة (تاكسى) اخرى على الفور .. ان قرينة السفير حسن لا تستسلم بسهولة للهزيمة .. اذ اتصلت بجار لها ، وهو رجل مصرفى انجليزى ، كى يصحبنى الى الفندق .. وعندما وصلت علمت ان نوال قد اتت ورحلت مفترضة ان ثمة سوء تفاهم قد حدث .. بيد انها تركت كلمة وداع رقيقة .. ان جزءا من الاستمتاع بمصر تشوهه او تصنعه مثل تلك الأحداث .

ولحسن الحظ كان تليفون المهندس المعمارى اسماعيل غير معطل .. واتى بعد فترة وجيزة .. وفى احد المطاعم القريبة تناولنا الفول المدمس ، وهناك فول بالزبد ، فول بالبيض ، فول بالبصل ، فول بالسمسم ، فول بالبسطرمة ، او ممزوج بالقشدة .

ان الفول يعد اعظم مايؤكل فى مطبخ الفلاح المصرى غير انه من الأفضل تناوله فى الصباح وينبغى ان يكون المرء ذو معدة قوية .. واحتسينا خمرا غير كثير .

وعقب منتصف الليل يواجهنى بالسؤال الحتمى .. ويقول « هكذا انت راحل غدا . قل لى الحقيقة .. ما الذى اعجبك فى مصر ؟ أومأت براسى وبدات الخمر تلعب بى واقول مستعيرا — دون وعى احدى عبارات البروفيسور فى قصة سيزر يافيز (لاكاسا فى كولينا) « المصريين » .

وكان الوقت قبل الفجر .. وكان من المقرر ان اتواجد فى المطار فى الساعة السادسة صباحا .. ويقع المطار على بعد ساعة بالسيارة .. وحزمت حقائبى وهبطت فى المصعد .. اننى اغادر القاهرة كما جئتها بصداع رهيب .

وفيما بين الطابق التاسع والثامن توقف المصعد .. وساد ظلام دامس ولم اتمكن من رؤية زرار انذار .. وبدات افكر — وبعض السرور يراودنى — ماذا يحدث اذا لم الحق بالطائرة ؟ سوف يتعين الانتظار ربما لمدة اسبوع اذ ان الرحلات الى خارج مصر محجوزة طوال ذلك الموسم .. ولا اسمع وانا فى المصعد اى صوت انسان من خلال الأبواب الموصدة .. وهناك سائح آخر فى المصعد .. وقد بدا يفقد اعصابه ويدق على الباب بقبضتى يديه .. الا انه لا حياة لمن تنادى ، ان الخروج من مصر بمثابة صرخة بعيدة تأتى من شخص آخر ، عندما تنفصل البحار وتتوقف مختلف قوانين الطبيعة الأخرى لصالح اليهود الراحلين .

وعقب مضى بضعة دقائق وصل الى اسماعنا صوت ضجة خافتة .. وكأنها طابور يرتل على قطعة من حديد .. واضاء المصباح .. ثم بدا المصعد يتحرك مرة اخرى بثقل وببطء .. اذ بدا مولد الكهرباء الطارىء فى العمل ..وكان السائح الآخر يود اللحاق بطائرة تقلع فى وقت مبكر .. وكان يتصبب عرقا ووجه لعنات وفيرة .. وبواب الفندق دمث كالعادة .. ويصيح السائح الآخر مناديا على سيارة (تاكسى) .

وفى طريق خروجه يتعثر على الدرجات .. وانتابنى حالة من الفزع اذ خيل لى اننى فقدت جواز السفر (الخاص بى) اننا مسافرون فى دولة اجنبية .. وكلمة سفر نفسها مشتقة من كلمة عذاب باللغة الانجليزية .. وهى بالتالى مشتقة من كلمة اللاتينية ، وهى عبارة عن آلة تعذيب مكونة من ثلاثة خطافات تسبب الما مبرحا للجسد وتمزقه.. وكلما كانت الرحلة سيئة كلما راود المرء امل فى ان تكون القراءات افضل وذلك هو السبب وراء جاذبية روايات (جراهام جرين) .

واستغرقت المسافة الى المطار خمسين دقيقة بدلا من ساعة — اذ سلك (التاكسى) طريقا مختصرا من خلال الشوارع الضيقة والحارات فى وسط المدينة . ويقول السائق انه يمكن استخدام ذلك الطريق خلال الساعات الأولى من الصباح فحسب.. ويشير الى مكان فسيح مفتوح تقف فيه سيارات نقل .. وقال هنا كانت تقام اوبرا القاهرة الشهيرة قبل أن تلتهمها النيران.. وكانت كلها مبنية من خشب (الزنجيل) و (الجص) غير ان (بينوت كوكويلين) ذلك الممثل الفرنسى فى القرن التاسع عشر قال : انها تضم افضل خصائص المسرح فى العالم باسره .

وفى سبيل افتتاحها فى عام ١٨٦٩ ، عهد الخديوى (فيردى) بكتابة (اوبرا عايدة) .. بيد انه تم ارجاء عمل (المايسترو) ان ايطاليا دولة تراعى الانسانية شأنها فى ذلك شأن مصر .. ولم اسمع عن حدوث اضرار معرقلة ، وخرجت (اوبرا عايدة) الى الوجود متأخرة عامين . واستلهم (المـارش) الشهير نغمة اول سلام وطنى لمصر .. ويقـول السائق « لم يكن لديكم دار اوبرا فى اسرائيل فى عام ١٨٦٩ ؟ » .. لا . تلك مقارنة اخرى .. هل ذلك وفاق ؟ .

ويحتشد المطار بالعمال المهاجرين الذين يطيرون الى السعودية والى دول الخليج بحثا عن العمل .. وفور دخولى صالة المغادرة ، راودنى شعور باننى غادرت مصر بالفعل .. اذ ان المطارات لا تعد بمثابة اماكن .. وحتى (فندق هيلتون النيل) بدا واقعا حقيقيا .. بالمقارنة بذلك الحزام المضجر الذى يحرك الأفراد والأمتعة من مكان الى آخر .. وتفحص رجل البوليس وموظف المطار جواز سفرى ببطء وبحب استطلاع حقيقى ممزوج ببعض الدهشة والشك .. وعلى اساس ما توقعت غادرت ، وشعور بالتفاؤل يراودنى ويفوق ما كان يراودنى فى بداية الرحلة ، وعدت الى بلادى ، عن طريق اثينا ، للتمعن فى كل ما حدث .

الفصل الحادى عشر

وفى وهج الرحيل لم اكن اتخيل مشقة الأمر . اذ من جانب واحد وعلى الجانب الآخر ـ ينظر اليك الوحش المتعدد الأيدى ، وانت عائد من رحلة كهذه . انه يجلس بجوارك فى الطائرة يستحوذ عليك ويزعجك باسئلة ومضايقات . وتحاول ان تطرحه جانبا غير انه لن يذهب . وفى النهاية اقاوم نفسى وقد نفذ صبرى من التوازن الذى لا نهاية له لمائة هاجس يشد من جانب ، ومائة من الجانب الآخر . واقول : لا تقاتل المشكلة اتخذ قرارا بصددها ! فمن السهل على المرء ان يقول ، ولكن من العسير تنفيذ مايقوله : ترى كيف يمتحن المرء موقفا لايزال فجا للغاية ، ويواجه عراقيل هائلة على كلا الجانبين من جراء المجادلات التى تدور فى دوائر والتى لاتزال تبدو وكانها غير ذات جدوى بالنسبة لمعنوية المرء ، ان الآمال والمخاوف التى تسود كلا الجانبين حقيقة واقعة وتثيرها على نحو يبعث على الشك قوة الدولة والدعاية . ان معاهدة السلام الجديدة هذه تبدو منطقية بلا ريب . وهى تخدم مصالح كلا الجانبين والقوة العظمى التى تتولى حمايتها . غير ان النزاع العربى الاسرائيلى لم يكن قط بمثابة انقسام مجرد ومعادلة ، كما هو الحال فى الرياضيات بل انه نزاع بين بشر لجأوا بدافع الخوف والحنق الذى يتعذر العدول عنه الى الخيارات المأساوية . ان مزيج الخطأ والعنف لايفضى الى استنتاجات مرتبة . وفى الجذور يكمن صراع مصحوب بكارثة بين حقين ، فكرتين للعدل واساس مأساة اكبر ـ تتمثل فى حق اليهود فى وجود وطن قومى لهم وحق العرب الذين كانوا يقطنون هذه الأرض . وكانت مصر تزعم دائما انها تحمى حقوق اولئك العرب . ولاتزال تزعم ذلك ، رغم انها تخلت فى الوقت الراهن عن استخدام القوة . والفلسطينيون ، والعديد ممن يتحدثون بالنيابة عنهم على الأقل ، ليسوا على استعداد لقبول حل الوسط هذا .

ان التقدم الكبير الذى حاولت وصفه فى تلك الصفحات ، بكل ما ينطوى عليه من عظمة وتأثير ، لايزال يخيم عليه العديد من الحقائق المتناقضة والتقلبات السياسية الهادئة والمواربات . واقول لنفسى وانا فى طريق عودتى الى بلادى محلقا فوق شرق البحر المتوسط ان كل ما استمعت اليه هو اكذوبة بل ربما يكون نصف حقيقة . ان حل (نصف اكذوبة) يكون دائما اشق من تحديد اكذوبة . ان الحمقى هم الذين يقولون الاكاذيب الكاملة . ولا اعتقد اننى قابلت اى احمق بكل معنى الكلمة خلال اقامتى فى مصر .

ثم اعود الى اسرائيل ، فى فوضى تل أبيب ، بتماثلها المثير واستطالتها ، ومنازلها المنخفضة ذات الطوابق الاربعة . الصحية وغير المؤثرة . ان مدينة تل ابيب لاتماثل المدن الامريكية «كما يقال غالبا وهى ليست (ميامى) اخرى بل هى خليط من وارسو وبغداد امتزج معا وزرع على طول شاطىء البحر المتوسط ، وهى مدينة (ليتوانيا) اخرى فى الشرق الأوسط وتطل على البحر . ومدينة تل ابيب لا تتسم بالوقار وهى تفتقر حتى الى الاناقة ، وتعد بمثابة منزل ساخن يزدحم بالمشاغل والجدل واشخاص مفرطين فى التعبير يتسمون بالتبجح ، والحذر والعنف وينزعون الى الاسراف فى القاء المواعظ .

ويرى شخص انجليزى اعرفه مدينة تل ابيب بانها تعكس التوتر السياسى فى الصهيونية . ان الميل السائد للتكهن قد اضحى بمثابة طبيعة ثانية هنا من خلال المصادقة الكئيبة وتعسف الحياة المرعب . ابان الحقبات الثلاث او الأربع الماضية .

ان مجرد العودة لا يسهل « الابتعاد » عن المشاكل . بل على العكس عندما تفحصتها فى تل ابيب وسط صحبة من الأصدقاء والرفاق الذين يتسمون بالتشكك والتردد وسرعة الاهتياج ، بدلا من تفحصها فى القاهرة حيث الأشخاص يتسمون بالهدوء والثقة ، شعرت فجأة كما لو كنت قد نقلت لوحة من حجرة الى اخرى ، وشاهدتها فى ظل ضوء مختلف تماما . واول ما وقع بصرى عليه عقب هبوطى فى تل ابيب كان تصريحا لمدرب الفريق القومى لكرة القدم .

وكان يتحدث امام جمهور وصرح قائلا : من الآن فصاعدا ، دعونا نخفف من اتجاهنا للصهيونية هنا ونتجه اكثر الى الاهتمام بكرة القدم . ومن جراء تلك المشاعر وجه له احد المحررين الصحفيين تعنيفا عنيفا .

وقرأت ايضا اعلانا عن عقد مؤتمر علمى فى القدس موضوعه يتمثل فى ، ماالذى يحدث اذا فشل السلام مع مصر .. ان الحبر لم يجف بعد من التوقيعات على الاتفاقية حتى بدأ بالفعل جدل عنيف حول التشعب العسكرى والاقتصادى للفشل ! لماذا التعجب اذن من مثل تلك العصبية، واذا فشلت معاهدة السلام ، فسيكون ذلك حظا عاثرا بالنسبة لمصر ، وربما كان حظا عاثرا للغاية ، غير انه سيكون بمثابة كارثة بالنسبة لاسرائيل بكل معنى الكلمة .

ويبدو ان غالبية اصدقائى فى اسرائيل مصبوغون بمزيج من الريبة وامل يائس . ويقول لى البعض صراحة : انهم يعتقدون اننى تعرضت لعملية غسيل مخ فى القاهرة . ويميل عدد كبير آخر الى الاعتقاد ان الأمر قد انتهى بالفعل ، غير ان المرارة تملؤهم من جراء التجربة السابقة الى حد لا يمكن تصديق ما يسمعونه .

واقص عليهم ما سمعته وشاهدته فى مصر . غير انهم يريدون الوصول الى اليقين وليس الحصول على معلومات . غير انه ليس هناك يقين

ومحاولة الوصول اليه تعد بمثابة جانب انسانى كامل . وفى ذلك المجتمع الذى يضم لاجئين واطفال لاجئين كان النزاع الدامى مع العرب هو التجربة الرئيسية طوال الثلاثين عاما الماضية . وليس من السهل زعزعته . ان شقيقتى (حياة) غريبة الاطوار . ودائما تنظر الى بوصفى شقيقا اصغر متطرفا وهمجيا الى حد ما . وترحب بى بعيون تملؤها الشك . وتتساءل بريبة « هل يريدون حقا السلام ؟ » . اقول ، اعتقد ذلك . اذ ان غالبية المصريين الذين تحدثت معهم يرغبون حقا فى السلام . وانا واثق من ذلك .

وتقول حياة بحدة : من الطبيعى انك لم تتحدث معهم كلهم .

بالطبع لا . غير ان غالبية الذين قابلتهم يتوقون اليه . انا واثق من ذلك والسادات يرغب فى اقراره .

وماذا يحدث اذا توفى السادات ؟

اقول : هناك آخرون . اذ عندما حقق السادات السلام ، فانه كان يتبع الشعب المصرى ولا يقوده .

انت واثق ؟

نعم اعتقد ذلك انهم لا يميلون الينا هكذا على حين غرة . غير انهم قد شربوا حتى الثمالة واصابهم الضجر . كما انهم فى موقف اقتصادى عسير . « هل تعنى انه ليس بوسعهم الاقتصاد فى الانفاق » .

اقــول بحرارة ان الأمر اسوأ من ذلك . اذ ان المشاكل الاقتصادية والاجتماعية فى مصر قد فلت زمام السيطرة عليها . انها ازمة دائمة .

تصيح قائلة « اترى ، كيف يكون بوسعنا الثقة بهم ومن ثم اطرح عليك سؤالا . هل ما نفعله هو الصواب ؟ كيف نعيد اليهم كافة الأراضى وحقول البترول ؟ اليس ذلك مخاطرة كبيرة ؟.

اقول نعم . انها مخاطرة كبيرة . ولكن الا تستحق خوضها ؟ ان كل بديل آخر ينطوى حتى على مخاطر اكبر . ولا توافقنى شقيقتى على ذلك . ويدور حديث عائلى صرف ويستمر على نحو ممل ولا يفضى الى شىء ولا اطرح وجهة نظرى بقوة . اذ ان الشكوك لاتزال تساورنى . وشقيقتى لديها ولدان فى الجيش . وهناك شعور يسود اسرائيل دائما مفاده ان الاطفال يقدمون لنا على سبيل القرض .

يسود تل ابيب جو حار رطب . ولكن فى القدس . حيث اقيم ، فان جو الجبل نقى ومنعش الا ان الضوء فى شهر يونيو باهر ومتوهج الى حد لا يمكن احتماله . وكان الارهابيون الفلسطينيون قد وضعوا من توهم قنبلة فى مقلب قمامة على مسافة من ميدان المدينة الرئيسى وقنبلة اخرى تحت مقعد فى سيارة اوتوبيس مما اسفر عن اصابة ثلاثة رجال وطفلين

اسرائيليين . واعلن بيجين مرة اخرى : ان اسرائيل لن تسمح على الاطلاق باقامة دولة فلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة . وقام الحركيون فى حركة اسرائيل الكبرى ، وكانهم يريدون تعضيد كلامه — بالتظاهر على التلال الجانبية الخضراء المواجهة لمكتب رئيس الوزراء ، مطالبين بالضم الفورى للضفة الغربية المحتلة وتكثيف المستوطنات بها حتى ولو كان ذلك على حساب الغاء معاهدة السلام . وتتوهج قمم الجبال المحيطة وسيارات (الليموزين) والأرض الجرداء فى الضوء الباهر . اننى لم ار مدينة بمثل ذلك الضوء القوى للغاية او بمثل تلك القوة وبنفس حدة المقارنة بين الضوء والظلال . وجاء فى قول النبى اشعياء « ان الأفراد الذين يسيرون فى الظلام يرون ضوءا اخضر . غير اننى افكر فى صرخة (بلزاك) التى تقول » هنا ضوء باهر للغاية ، الأمر يتطلب استدعاء طبيب على نحــو السرعة . هنا ضوء مفرط غير انه فى ظل ذلك الضوء المتوهج تبدو الفوارق الرقيقة غير واضحة » .

ونسبت احدى الصحف الى (ايريل شارون) وزير زراعة (بيجين) قوله : ان شيئا لن يوقف اسرائيل من بناء مستوطنات جديدة على الأراضى المصادرة فىالضفة الغربية المحتلة . وعندما كان شارون لايزال شــابا متبجحا يتظاهر بالشجاعة فى الجيش الاسرائيلى ، كتب شاريت رئيس الوزراء الراحل عنه فى مذكراته قائلا : ترى اى الروحين المتصارعتين بين صفحات التوراه سوف تكون لها اليد العليا هنا ، الشر والهمجية أم الشرف والنبل ؟.

فى القدس التقيت فى النهاية مع الدكتور (ساسون سومكه) الدارس الاسرائيلى الذى يكن له الروائيون المصريون الذين قابلتهم كل المودةوالحب لقد سمعت عنه الكثير فى القاهرة الى حد انى كنت أتوق مقابلته . ووفقا لمــا ذكره محفوظ وادريس ، يعد الناقد الأدبى الوحيد الذى يفهم — فى الواقع — اعمالهم . وساسون رجل نحيف القامة مستهل الأربعينيات من عمره . وهو ذو جبهة عالية ، وعيون داكنة ويتسم بحدة غير عادية . وتتجاذبه عاطفتان كبيرتان اولاهما حب الأدب المصرى والبحث عن جسور بين الثقافتين . ويدور حديث بيننا بشأن محفوظ وادريس اللذين لم يقابلهما قط غير انه يتابعهما عن بعد بالعديد من المقالات والنقد . وطرح على أسئلة مكثفة . كيف حالهم ؟ ما الذى يكتبونه عن تلك اللحظة ؟ وقد تلقى فى الآونة الأخيرة رسالة ودية للغاية من محفوظ وقدمها لى لقراءتها : « فلنصل معا كى يكلل النجاح الجهود التى تبذل فى الوقت الراهن . » هكذا يكتب الروائى الذى تحدث عن السلام مع اسرائيل قبل السادات) ولكى يعيش شعبانا فى ظل منفعة متبادلة كما كنا نفعل فيما مضى ، لقد تمتع شعبانا حقا لسنوات طويلة بتعاون مثمر خلال الماضى السحيق ، والقرون الوسطى والعصور الحديثة فى حين كانت فترات النزاع وجيزة وقليلة ولسوء الحظ لقد سجلنا لحظات نزاعنا مئات المرات وعلى نحو يفوق ما سجلناه طوال اجيال طويلة كانت تكللها روح الصداقة والتعاون . اننى احلم بالوقت الذى يصبح فيه ذلك الجزء من العالم — نتيجة للتعاون المتبادل — معبدا مشرقا للعلم ، تباركه المبادىء الالهية . سوف اراك قريبا عزيزى البروفيسور . واتمنى لك ولكافة الدول افضل الأمانى .

المخلص نجيب محفوظ

واعارنى (ساسون) كتابه الذى الفه عن محفوظ يحمل اسم « الايقاع المتغير » الذى اقرؤه الآن لأول مرة . اننى اؤنب نفسى لعدم قراءته من قبل . اذ ان تحليل (سومكه) الدقيق لشخصيات محفوظ المميزة والحبكات المعقدة ملىء بتبصر مثير للمكان الذى كنت اتوق الى سبر اغواره. ويتضح تقديره الكبير لفن محفوظ من خلال كل صفحة .

يكتب فى الفصل الاخير « ان محفوظ قد اعطى الأدب العربى الحديث مظهره القصصى الكامل . ومن خلاله تساهم مصر بصوت جديد فى الادب العالمى . ان (سومكه) ليس هو الدارس الاسرائيلى الوحيد الذى ترجم وكتب باسهاب بشأن الأدب المصرى الحديث . وادركت فجاة سبب تقدير محفوظ وادريس له . ويبدو انه من بين الطلبة الاسرائيليين الذين يدرسون اعمالهما فان سومكه هو الوحيد تقريبا الذى يشيد دائما بمحفوظ وادريس ويعاملهما اولا وقبل كل شىء كفنانين وبشر يتمتعان بجاذبية بدلا من كونهما وسيلة ملائمة لسبر غور اعماق روح عدو . وذلك فى حد ذاته يجعل جهوده بمثابة اسهام سخى للمصالحة كما كان يحاول نجيب محفوظ .

انه من الاسهل دائما اقرار السلام بين اولئك الذين سوف يعرفون كيف يتصرفون مع السلام .

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٤/٤٧٣٥





طبع بمطابع الأهرام التجارية